التجربة اليونانية

تأليف

س . م . بورا

ترجمة

د . أحمد سلامة محمد السيد

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٩

الألف كتاب (الثانى) ٦٧

التجربة اليونانية

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام
د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير
لمعى المطيعى

مدير التحرير
أحمد صليحة

سكرتير التحرير
محمود عبده

الإشراف الفنى
محمد قطب

الإخراج الفنى
مراد نسيم

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المترجم

جذبني الى قراءة هذا الكتاب في آخر الستينيات عنوانه المختصر الغامض (**التجربة اليونانية**) وشاقني أن أعرف ما تنطوى عليه صفحات هذا الكتـــاب ، فطلبت الى قارئى ان يقرأ على بعض الفقرات من بعض فصـول هذا الكتاب فما أن أفرغ من قراءة فقرة حتى أجـدنى حريصـا كل الحرص على أن أستظهر هذه الفقرة عن ظهـر قلب لما يتميز به من أسلوب جزل وألفاظ دقيقة وصياغة محكمة ، وفكرة عميقة ودقيقـة . حبست في وعاء شفاف يشف عن تفاصيلها ولا يسمح لجزئيات منها أن تتسرب من فوهة هذا الوعاء المحكم الغلق . وأنتقل الى فقرة أخرى فى فصل آخر فاذا الفكر الباهر المتألق يلتمع مستعليا فى آفاقه كما يلتمع ومض البرق ، تحيط به العين ولا تحدده وتراه ولا تمتلكـه . ويدفعنى الفضول الى فقرة ثالثة فى فصل ثالث ثم الى فقرة رابعة فى فصل رابع ، واذا الفضول ينتهى بى الى استعراض جـل الكتـاب ، واذا الظمأ اليه يشتد والرغبة فى قراءته تقوى وتستبد . واذا أنا أقرأ الكتاب من أوله مستأنيا متلكئا أروم احتـواءه فلا أبلغ من ذلك شـيئا . وأطلب من مساعدى أن يعيد الفقرة فاذا أعادها استبانت لى جوانب وتجلت لى أفكار، واتسمت فى مخيلتى صور وأخيلة أظن أنها نادرة لا تتكرر فى أى كتاب ، فاذا مضيت فى قراءته أو بالأحرى فى الاستماع الى قارئى أجدنى أنتقل من حـالة من حـالات الفكر الراقى الى حالة أخرى أكثر رقيا وسـموا واستعلاء ، واذا بفكرى يزداد ثراء ونفسى تزداد صـفاء وثقافتى تزداد خصوبة ، واذا أنا أغترف من لجة عميقة الأغوار رائقـة الصفحة ندية عذبة بها من عناصر الحياة والفكر المتوثب أكثر مما يكون عادة فى مثل هذه الكتب التى تتحدث عن حضارة اندثرت ومضت عليها الدهور .

وليس العجيب فى حضارة اليونان أنها باقية بآثارها ، وتأثيرها ، ولكن الأكثر عجبا وأشد ابهارا أنهـا باقية ببريقها وتألقها وتجـدد رصيدها تجددا يجعلها تساير الحياة ، بل هى الحياة أو قل هى المرأة الولود التى لاتنى تهب الدنيا بمولود جديد كلما ظن الناس بها العقم ورموها بالعجز ، وكأن اليونانيين بذلك ملكوا مفاتيح الحضارة واحتفظوا بكلمة السر التى يطلقونها عندما تريد الأيام أن تنال من حضـارتهم . فاذا ما انطلقت كلمة السر من بين شفتيها انبثق من قلبهـا ماء الحياة جديدا متجددا ومجددا لأفكار الحضارات مهما كانت عملاقة .

وهذا الكتاب رحلة سخية وخصبة فى ربوع عالم يتسـم بالربيع الدائم ، فالأرض الخضراء تنبسط لتعلو فوقها هامات الفكر باسـقة . فاذا أنت أمام درح متعدد الثمار ، هذه دوحة ثمارها فكر سياسى به أنظمة متقنة دقيقة تقوم على فكر جاهد فى تصفية النظريات وتنقيتها ، وفكر آخر قد عارض أو ناقش ولكنه اضـاف الى الانظمه أنظمه أخـرى يتسم بعضها بالخيال المثـالى وبعضها بالحقـائق الواقعية ، والبعض الآخـر يتخذ موضعا وسطا بين الخيـال والحقيقة ـ ومن هذه الأنظمـه المقترحة والتى يعززها الفكر والحوار يخرج القـارىء باقتناع قطعى بأن الفـكر اليونانى السياسى وضع أسسا لهذا النوع من التفكير وكل ما جاء بعد اضافات أوجبتها حتمية التغير الاجتماعى ، لكن الجوهر كامن هنـاك عملاق متشامخ . وتلك دوحة مثقلة بالفكر الفنى فاذا أنت أمام عالم من التماثيل يعرضـها الكاتب ويعلق عليها تعليقا محيطا دقيقا ملما بدقائق الفن التشكيلى ، فهناك حديث عن الخط والتصميم والمسـاحة والفراغ والخلفية وأدوات الفنان التشكيلى ورؤيته ، وما وراء الرؤية من عوامل وما بعد الرؤية من دلائل وظواهر . واذا أنت أمام موسـوعة تستعين بالهندسة والرياضة والفكر والشعر لتجلو لك حقيقة الفن التشـكيلى وروائع انتاجه ـ ودوحة أخرى تتدلى ثمارها فى مجال الشعر والأغنية تزودك بنماذج من الشعر ومناقشات لهذه النماذج من حيث تركيبهـا الفنى واطارها الشكلى من حيث العروض وأنواعه المتعددة وأشـكاله المتغيرة ومولد الشـعر وتطـوره وأنواعـه من حيث المقطوعة والرباعيـة والمرثية والملحمة وغير ذلك كثير . واذا أنت ماض على هذا البسـاط الأخضر لترى جداول تنساب فترى على صفحتها الرائقة مولد الفلسفة ونشوءها وتزاملها مع العلم والرياضيات والتقائها مع الدين حينا وزورارها عنه أحيانا ، ثم ترى هذه الجداول وقد انقسمت الى غدران صغيرة ـ هـذا تجرى فى مجراه الرياضيات وعلماؤها ، وهـذا ينساب الى مياهه

الفلاسفة وتأملاتهم وذاك علم وعلماء وطبيعة واستقصاء ودراسات اجتماعية وبدايات لعلم النفس وان كانت أسسا لم تزل تشمخ على كل ما أتت به السنون التي تلت — وحديث عن الآلهة عند اليونان ووظائف هذه الآلهة وتصوير دقيق مفصل لعالم الأولمبوس ونشاطه وما يدور بين الآلهة من نشاط وما تطرحه على البشر من علاقات تتشابك وتتعقد فتزداد مشاكلها وعقابيلها ثم تحل بعد بتدخل اله من الالهة أو خروج اله منهم ، ثم علاقة الآلهة بالانسان وعلاقة الانسان بالآلهة — أصل العلاقة وتطورها وتفسيرها — موقف الانسان اليوناني من الدين بل ودراسته وتتبعه الى مصادره الأولى والاحاطة بكل مراحله التالية · ويمتد بنا الحديث فاذا نحن أمام بحث مفصل عن الانسان الخير والحياة الخيرة وعن المعايير التي تحكم الانسان الخير ويكون بمقتضاها خيرا أو شريرا ، ثم الفرق بين الحياة الخيرة والانسان الخير ، وهل من الضروري أن تكون الحياة سعيدة حتى تكون خيرة · واذا الكاتب يطرح أسئلة ويجود بأجوبة ، واذا نحن نعب من هذا وذاك فنلم بأصل الملهاة والمأساة ، وأروع ماكتب فيها ومن كتب فيها · واذا الرصيد يزداد ويتزايد ·

واذا بي أجدني حريصا كل الحرص مصرا كل الاصرار على نقل هذا التراث العظيم الى لغتنا العربية حتى يشاركني في هذا النفع عدد كبير ، وأخوف ماكنت أخافه أن تخونني قواي فأعجز عن نقل هذا كله بأمانة ودقة وأسلوب متسق محكم رقيق شفاف كما هو أسلوب الأصل الانجليزي فلم يكن يبهرني مافي الكتاب من فكر سخي فحسب ، وانما كان يبهرني هذا النسق المتسق وهذه العبارة القوية المتماسكة الرصينة ، وهذا اللفظ المختار بعناية وذاك الاطار الدقيق الحاوي لكل شاردة وواردة ·

وأعتقد أني قد وفقت بفضل ما عانيت من جهد وطاقة الى نقل الكتاب في أسلوب ان لم يماثل أصله روعة وعظمة ، فقد يقاربه دقة وأمانة ، فقد حرصت على جمال الصياغة ودقة اللفظ مما دفعني أحيانا الى تشكيل بعض الكلمات على غير ما هو متبع حرصا مني على أن يفيد القارىء العربي علما وفكرا ولغة ·

والله ولي التوفيق ؟

(المترجم)

مقـدمة

ان هذا الكتاب ليس بأية حال محـاولة لاعطـاء وصف شـامل عن اليونانيين وانجازاتهم ، وانما يهدف الى اعطـــاء تقييم لأهم مايميز هذه الانجازات من خصائص وأهم ما بها من عوامل الابهار · وبهذا الاعتبار فهو يمثل حتما آرائي الخاصة وبذلك فهو نظرة ذاتية بمقدار ما أعتنقه من هذه الآراء ، وقد لايحظى هذا الكتاب بقبول عام · ومع ذلك فاذا ما تعين علينا أن نحاول تكوين صورة عامة عن ماهية اليونانيين فليس بد من التعويل على حكمنا الخاص ، والأمل في أن يشاركنـــا الغير هذا الحـكم ولو بشكل محدود ·

وليس القيام بمثـل هذه المهمة الجديرة بالجهد بحاجة الى دفاع ، وهناك خطر متمثل في نمو التخصص وازدياده في مجال الدراســـات القديمة ، فقد تغيب عنا الرؤية الصحيحة للعالم القديم ككل · ولهذا السبب فعلينا مابين آونه وأخرى أن نحـــاول تكوين أفكار عامة عن هذا العالم القديم · لقد أقمت لنفسى حدودا تبدأ على وجه التقريب من قصائد هوميروس الى سقوط أثينا سنة ٤٠٤ ق·م ، وليس ذلك مرجعه الى عزوف من جانبى عما قد حدث بعد هذا التاريخ أو الى غفلة عن مغزاه ، وانما يرجع ذلك الى أنى أفضل تناول فترة ذات وحدة بعينها تتيح للمرء معالجتها معالجة متفردة ·

وانى فى مثل هذا العمـــل لمدين دينا هائلا لأصدقاء كثيرين ، ومدرســـين وزملاء ، قد استوعبت أفكارهم فى حوارات دارت أو قراءات قمت بها · بل ان أفكارهم هذه قد صارت جزءا لاينفصل عن كيانى الى حد لا أقطع معه بالتمييز بين أفكارى وأفكارهم · وينبغى أن يرضينى من

ذلك مجرد عن العرفان بلغة عامة لا تحدد أشخاصا بذاتهم ، ومناشدا اياهم الصفح عن اغفال اشارات مفصلة الى أشخاص محددين .

لقد أسدى الى زميلي ت . س . و . ستينتون (T. C. W. Stinton) خدمة خاصة بقراءته عددا من فصول هذا الكتاب ، وبموافاتي بفائدة ممثلة في نقده الذكي اللاذع ، ولقد أبانت الآنسة فانيسا جيب (Vanessa Jebb) عن مهارة لاتعرف الكلل وصبر دؤوب بتزويدي بالرسومات الايضاحية .

وأقر بالعرفان للآتية أسماؤهم ، للسماح لي بالاقتباس من أعمالهم : السيد ر. أ. ويرنر (R. E. Warner) ، وسلسلة كتاب بنجوين (Penguin) عن طبعتها لكتاب ثيوسيديس (Thucydides) عن حرب بلوبونيزيا والأستاذ جورج تومسون (Thomson) ومطبعة جامعة كمبردج عن كتاب ثلاثية اسخيلوس (Aeschybus) والسيد ت. ف. هيجام (T. F. Higham) ومطبعة كارندون (Charendon) عن كتاب « اكسفورد للشعر اليوناني مترجما » والسيد ييتس Yeats وأوصياء المرحوم أ. ر. بيفان (E. R. Bevan) والسيد / ادوارد ارنولد (Edward Arnold) عن كتابه (سبعة ضد طيبة) لاشخيلوس ، والأستاذ / هـ. ت. ويد جراي (H. T. Wade-gery) ومطبعة كمبردج عن طبعها كتاب كمبردج للتاريخ القديم .

شخصيات ورد ذكرها بالكتاب

(بحث من وضع المترجم)

(أ)

١ ـ أبيقور	Epicurus	فيلسوف يوناني قال بأن المتعة هي الخير الأسمى .
٢ ـ أبقراط	Hippocrates	طبيب يوناني ـ يعتبر أبا الطب
٣ ـ أجاممنون	Agamemnon	في الميثولوجيا اليونانية ، القائد الأعلى للحملة الاغريقية ضد طروادة
٤ ـ أخشورس الأول (اكسركسيس)	Xerxes	ملك فارس ـ غزا بلاد اليونان عام (٤٨٠ ق.م) .
٥ ـ أرخميدس (أرشميدس)	Archimedes (٢٨١ ـ ٢١٢ ق.م)	رياضي وفيزيائي يوناني ـ اكتشف مبدأ الثقل النوعي .
٦ ـ أرسطو	Aristotle (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م)	فيلسوف يوناني يعد واحدا من أعظم الفلاسفة في جميع العصور .
٧ ـ أرسطوفانيس (أريستوفان)	Aristophanes (٤٥٠ : ٣٨٨ ق.م)	مؤلف مسرحي يوناني ـ يعتبر أعظم شعراء الكوميديا في الأدب الاغريقي القديم
٨ ـ أريستيديس	Aristides (٤٧٨ ق.م)	(القرن الخامس ق . م) قائد عسكري وسياسي أثيني ـ ويعتبر مؤسس حلف ديلوس

٩ ـ أفلاطون Plato فيلسوف يوناني ـ تلميذ سقراط ـ
(٤٢٨ ـ ٣٤٧ ق٠م) أشهر كتبه (الجمهورية)
The Repubiic

١٠ ـ أقليدس Euclid عالم رياضيات يوناني ـ وضع
(٣٣٠ ـ ٢٧٥ ق٠م) مبادىء الهندسة المستوية

١١ ـ الاسكندر Alexander الاسكندر الكبير ـ الاسكندر
(٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق٠م) المقدونى٠ ملك مقدونيا ـ يعتبر أحد
عباقرة الحرب فى كل العصور ٠

١٢ ـ أناكسمندر Anaximander فيلسوف يوناني ـ قال بأن الكون
(٦١١ ـ ٥٤٧ ق٠م) نشأ من مادة لامتناهية نشتمل على
مختلف المتناقضات

١٣ ـ أناكسيمينيس Anaximenes فيلسوف يوناني ـ قال بأن الهواء
(توفى ٤٨٠ ق٠م) هو أصل الأشياء كلها ٠

١٤ ـ أندروماك Andromache في الميثولوجيا اليونانية ، زوجة
هيكتور الوفية ٠

١٥ ـ أناكسجوراس Anaxagoras فيلسوف يوناني ـ قال بأنه لايوجد
(٥٠٠ ـ ٤٢٨ ق٠م) شيء من العدم ٠

١٦ ـ أوفيد Ovid شاعر روماني ـ يعتبر أحد أعظم
(٤٣ ق٠م ـ ١٧ م) الشعراء فى العصور القديمة ٠

١٧ ـ ايسخيلوس Aeschylus شاعر يوناني ـ يعتبر أبا المأساة
(٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق٠م) أو التراجيديا اليونانية ٠

١٨ ـ ايسوب Aesop كاتب يوناني وضع عددا من
(٦٢٠ ـ ٥٦٠ ق٠م) الحكايات على ألسنة الحيوانات ٠

(ب)

١٩ ـ بروتاجوراس Protagoras فيلسوف يوناني ـ يعتبر أول
(٤٨٥ ـ ٤١٠ ق٠م) السوفسطائيين وأشهرهم ٠

٢٠ ـ بروست Proust روائى فرنسى ـ يعتبر أحد أبرز
(١٨٧١ م ـ ١٩٢٢ م) ممثلى الرواية النفسية

٢١ ـ بنــدار — Pindar (٥٢٢ ـ ٤٣٨ ق٠م) — شاعر يونانى ـ يعتبر أعظم الشعراء الغنائية فى العصور القديمة ٠

٢٢ ـ بوليكليتس — Polyclitus — (القرن الخامس قبل الميلاد) : نحات يونانى ـ عــرف بحرصــه على بلوغ الكمــال

٢٣ ـ بيريكليس — Pericles (٤٩٥ ـ ٤٢٩ ق٠م) — ســـياسى أثينى ـ بلغت أثينا فى عهـــده أوج ازدهارها الســـياسى والثقافى

٢٤ ـ بيزيستراتوس — Pisistratus (٥٦٠ ـ ٥٢٧ ق٠م) — طاغية أثينــا ـ وسع سلطان أثينا فشمل البحــر الايجى وســـاحل آسيا الصغرى

(ت)

٢٥ ـ تولوستوى — Tolostoy (١٨٢٨ ـ ١٩١٠) — الكونت ليوتولوستوى روائى روسى ـ أشهر آثاره الحرب والسلام ٠

(ث)

٢٦ ـ ثوسيديديس — Thucydides — مؤرخ أثينى ـ يعتبر أعظم المؤرخين اليونان على الاطلاق ٠

٢٧ ـ ثيميستوكليس — Themistocles (٥٢٤ ـ ٤٦٠ ق٠م) — سياسى وقائد عسكرى أثينى ـ عمل على تعزيز أسطول أثينا ٠

٢٨ ـ ثيوفراستوس — Theophrastus — فيلسوف وعالم نبــات يونانى ـ لم يصلنا من كتبه غير أقلها ٠

(ج)

٢٩ ـ جالينوس — Galen — طبيب يونانى ـ يعد أحــد أكبر الأطباء فى العصور القديمة

(د)

٣٠ ـ داريوس	Darius (٥٥٠ ـ ٤٨٦ ق٠م)	ملك الفرس ـ أعاد تنظيم الامبراطورية ووسع رقعتها ٠ يعرف ب (الكبير)
٣١ ـ ديمقريطس	Democritus (٤٦٠ ـ ٣٧٠ ق٠م)	فيلسوف يوناني ـ يقول بأن العالم يتألف من ذرات مختلفة شكلا وحجما ووزنا
٣٢ ـ ديوجنيس ديوجين	Diogenes (٤٠٠ ـ ٣٢٥ ق٠م)	فيلسوف يوناني ـ دعا الى التقشف وعاش في برميل ٠
٣٣ ـ ديونيسيوس	Dionysius (٤٣٠ ـ ٣٦٧ ق٠م)	طاغية سيراقوسة في صقلية ـ قاتل القرطاجيين ٠

(ز)

٣٤ ـ زينوفان (اكسينوفانيس)	Xenophanes (٥٦٠ ـ ٤٧٨ ق٠م)	فيلسوف وشاعر يوناني ـ قال بوحدة الوجود ٠
٣٥ ـ زينوفون (اكسنيلون)	Xenophon (٤٣١ ـ ٣٥٥ ق٠م)	مؤرخ وقائد عسكري يوناني ـ قاتل في خدمة الفرس في كردستان وأرمينيا
٣٦ ـ زينون الرواقي	zeno (٣٣٥ ـ ٢٦٣ ق٠م)	فيلسوف يوناني ـ مؤسس الفلسفة الرواقية

(س)

٣٧ ـ سافو	Sappho (أواخر القرن السابع ـ وأوائل السادس ق٠م)	شاعرة غنائية يونانية ـ لم يبق لنا من آثارها غير شذرات قليلة ٠
٣٨ ـ سقراط	Socrates (٤٧٠ ـ ٣٩٩ ق٠م)	فيلسوف يوناني ـ يعتبر هو وأفلاطون وأرسطو واضعي أسس الثقافة الغربية

٣٩ ـ سوفوكليس	Sophocles	مؤلف مسرحي يوناني ـ يعتبر أحد أعظم المسرحيين التراجيديين في الأدب اليوناني القديم
٤٠ ـ سيمونيديس	Simonides (٥٥٦ ـ ٤٦٨ ق٠م)	شاعر غنائي يوناني •

(ط)

٤١ ـ طاليس	Thales	فيلسوف يوناني قال بأن الماء أصل الأشياء كلها •

(ف)

٤٢ ـ فرفوريوس (برفوريوس الصورى)	Parphyry	فيلسوف يوناني ـ يعتبر أحد أبرز ممثلي الفلسفة الأفلاطونية المحدثة
٤٣ ـ فيثاغورث	Pythagoras	رياضي وفيلسوف يوناني ـ قال بأن الحقيقة هي في أعمق أعماقها رياضية ـ وبأن العدد أساس كل شيء •

(ك)

٤٤ ـ كليتمنسترا	Clytemnestra	في الميثولوجيا اليونانية زوجة أجاممنون •
٤٥ ـ كليوباترة	Cleopatra (٦٩ ـ ٣٠ ق٠م)	ملكة مصر من (٥١ ـ ٣٠) ق٠م ثم انتحرت •
٤٦ ـ كليون	Cleon (توفي عام ٤٢٢ ق٠م)	قائد سياسي وعسكري أثيني ـ انتصر على قوات اسبرطة (عام ٤٢٥ ق٠م)
٤٧ ـ كوبرنيكوس	Copernicus	عالم فلك بولندي : قال بأن الأرض وسائر الكواكب السيارة تدور حول الشمس وحول نفسها •

(ﻫ)

٤٨ ـ هيسيود	Hesiod (القرن الثامن قبل الميلاد)	شاعر يونانى ـ يعرف ب (أبى الشعر اليونانى التعليمى)
٤٩ ـ هكتور	Hector	فى الميثولوجيا اليونانية (أشجع أبطال طروادة) قتله أخيليس
٥٠ ـ هوميروس	Homer (القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد)	شاعر يونانى · صاحب ملحمتى (الالياذة ، والأوديسا)
٥١ ـ هيبارخوس	Hipparchus	عالم فلك يونانى ـ وضع أول خريطة للسماء
٥٢ ـ هيرقليط (هيراقليطس)	Heraclitus	فيلسوف يونانى ـ قال بأن النار هى الجوهر الأول ·
٥٣ ـ هيرودوت	Herodotus	مؤرخ يونانى يعرف ب (أبى التاريخ)

(و)

٥٤ ـ وليم وردزورث (١٧٧٠ ـ ١٨٥٠ م) شاعر انجليزى يعتبر كبير شعراء William Wordsworth الحركة الرومانتيكية الانجليزية ·

(ى)

٥٥ ـ يوريبديس	Euripides (٤٨٤ ـ ٤٠٦ ق·م)	كاتب مسرحى يونانى ـ يعتبر أحد أعظم شعراء التراجيديا اليونان وضع نحوا من ٩٢ مسرحية ·

الفصل الأول

الفصل الأول

وحدة اليونانيين

ان اليونانيين الذين أعطوا الى بنى الانسان أعظم أساطيره خيالا . قد صاروا هم الآخرون خيالا أسطوريا على مدار الزمن . وبجانب مالهم من مكانة وثيقة فى تطور الحضارة الأوربية فان لهم تاريخا آخر ، تجرى أحداثه فى العزلة الأولمبية زاخرا بغموض وروعة فوق حظوظ البشر — فلو أن ما حققه اليونانيون من انجازات ثابت فى تقويم السنين ، فان لهم وجودا آخر لم تمسسه يد الزمن بتشويه أو تلطيخ ؛ لقد عاشوا أيامهم فى عالمهم فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، هذا العالم الذى حظى بتمجيد بفضل خيال مجتمع محلق ورغبة جارفة متطلعة يبدو أنه ليس لها فى كوكبنا الزاخر بالعمل مكان معلوم وانه لمن العسير على المرء أن يرى الاغريق بعيون لايظللها الضباب أو أن يعرف كنه حقيقتهم وذلك لما اعتور كل ما هو هيلينى من عوامل التغيير عبر قرون ، بلغ الاعجاب خلالها بالهيلينية مبلغ التقديس . ان عملية الانبهار بكل ما هو هيلينى قد بدأت مع الرومان الذين أدركوا ضحالة بداياتهم المقفرة — والذين تشيعوا للجنس اليونانى باعتباره مبدع الفنانين والفلاسفة لكنهم أى الرومان أخفقوا فى ادراك أن الفن والفلسفة لاسبيل الى فهمهما فهما وافيا بمعزل عن الأجواء التى أوجدت هذا الفن وتلك الفلسفة . واذا كان عصر الظلام والعصر الوسيط قد أوليا الأوهام التى حاصرت روما عناية ضئيلة ، فان اكتشاف روما فى عصر النهضة كان يعنى أيضا اكتشافا للرؤية الرومانية لليونان القديمة . ولقد شعر الناس أنه خلف قوة وبهرج روما كانت هناك قوة دافعة نشطة ومثال مضىء وكمال فى

الانجازات لم يكن رومانيا لسبب ما ، وان فسر أمورا كثيرة كانت لها أهمية عظمى بالنسبة لروما ، الا أن شعورهم هذا لم يكن فى الحقيقة جليا واعيا فى أول الأمر وانما كان شعورا يتسم بالهيبة والانبهار الحائر . ان تتبع هذه الروح بهدف الوصول الى موطنها الأول وادراكها واستخلاص أسرارها السحرية ـ قد ظل لأمد طويل الطموح الملهم الذى راود كتابا كثيرين فنانين ومفكرين وذلك منذ القرن الخامس . لقد كان لليونان من قوى الجاذبية وحرارة التفانى الذى ابتعثته فى النفوس مالم يدع على وجه التقريب مجالا من مجالات النشاط الفكرى والروحى دون أن يمسسه وهجهما الحى المتقد . ومن ثم فقد جاءت النتائج فوق الاحصاء من حيث نجاحاتها وتنوعها ، وكذلك من حيث محاولاتها الفلسفية أو العلمية فى سبيل اماطة اللثام عن أسرار الكائن الحى ، تلك الأسرار الكامنة فى أطواء الأمانى الحارة للفنانين الممثلة فى الكلمات أو التصوير أو النحت ـ بهدف استعادة شباب ضائع للعالم ، أو رؤية لكون واحد متماسك ، أو احساس بقوى غير مرئية تعمل بنشاط فى مسرح الأحداث المألوفة ، أو اطلاق طاقات كامنة فى عقل الانسان وقلبه ، أو نظام مثالى يتوارى خلف المظاهر المتعددة للأشياء . ولقد ظلت أقوال اليونانيين وأفكارهم وأعمالهم قرابة خمسة قرون تؤثر على الأحياء من الرجال والنساء ، وتمكنهم من اكتشاف حقائق جديدة عن أنفسهم وأحوالهم وقدراتهم .

ان هذا السجل الحافل هو فى الواقع تقدير لالهام النموذج اليونانى . انه يبين كيف أن انجاز الشعب صغير محدود الموارد عاش قرونا قليلة ـ قبل المسيح قد مارس نفوذا هائلا على ذرية غريبة عن معتقداته ومناخه ولغته ، وأخلاقياته ورخائه وأجهزته ـ ويبرهن هذا السجل على أن المعتقدات والفلسفات التى بدت وقد أطاحت بها للآن كارثة مثل انتصار المسيحية ، استطاعت هذه المعتقدات والفلسفات بشكل ما أن تتجاوز الكارثة وتصبغ عليها صبغة انسانية ، وتمد بعضا من سلطانها القديم الى ممالك جديدة ، وليس فى وسعنا الا أن نتساءل أية مزايا تلك التى جعلت اليونانيين قادرين على ممارسة نفوذ عريض متحرر وأى هذه المزايا كان فى نهاية المطاف مسئولا عن القدرة على جعل الناس يتخلون عن معتقدات موروثة من أجل أمور كانوا يعتقدون أنها تمثل بحق وجهة النظر الهيلينية ويدفعهم الى جعل جهودهم الخلاقة تخضع لضوابط تكونت فى عصور سحيقة وتحت سماء جد مختلفة ؟ . وللاجابة عن هذه الأسئلة علينا أن نعود كرة أخرى الى البداية ونطرح أسئلة

أخرى تفضى الى هذه الاجابات ، ماذا صنع اليونانيون بحق ؟ وما هى مزاياهم الفريدة الجوهرية ؟ وما هى المبادىء الأساسية لافكارهم والروح المرشد لحياتهم ؟ ما هى الدوافع والضوابط التى دفعت بهم ورسخت أقدامهم فى دنيا الانتصار ومجالات التجارب الحياتية ؟ أى نوع من الرجال كانوا هؤلاء البشر عندما عاشوا حياتهم ؟

ولكى نفهم اليونانيين يتعين علينا محاولة استعادة تجربتهم ، لنسأل ماذا أدت اليهم وماذا كلفتهم ؟ • ان مثل هذا البحث لا يمكن أبدا أن يتصف بالنجاح الكامل ، وان سبر أغوار الماضى هو دوما من الخطورة بمكان ، وليس هناك وثائق أو آثار بمقدورها التعويض عن فقدان أشياء كثيرة تمكننا من رؤية اليونانيين كما كانوا فى حقيقة أمرهم • نحن لا نستطيع أن نستعيد ملاحظات عابرة ومشاهد يومية تجرى فى الشوارع والحقول والمنازل ، كما لا نستطيع أن نستحضر ادراكهم المباشر الميسور للأفكار ، كما ليس بوسعنا أن نستشعر المشاعر التى تكون عادة بين الأحياء بعضهم البعض ، وكذلك الألوان والضوضاء التى كانت تصاحب المجتمع أثناء أداء واجباته اليومية • وأخيرا القدرة على الحكم على مجتمع بمقاييسه الخاصة وفهمه كما فهم هو نفسه •

ان مثل هذه القيود تعوق دائما المؤرخ ، الا أنها فى حالة اليونان تصبح هذه العراقيل أكثر من عقبة كؤود • وعلى الرغم من أن معرفتنا بلغتهم لا تزيد على معرفتنا بلغة ميتة كما تعرف عادة اللغات الميتة ، الا أنها مع ذلك تظل لغة ميتة لا نستطيع أن نعرف على وجه اليقين حسن تطويعهم للنبرات الصوتية أو نطقهم لمقاطع صوتية بعينها ، وكذلك الايقاع والتوكيدات المصاحبة للغة العملية التى كانوا يتبادلونها • ان الموسيقى اليونانية التى كان يعدها اليونانيون أنفسهم أعظم ملامح فنهم والتى التحمت بالشعر التحاما لا ينفصل قد انعدمت هى الأخرى انعداما كاملا • وكل ما لدينا من حوالى خمس عشرة مجموعة من القطع الشعرية المتفرقة لشعر ما قبل عام ٤٠٠ ق • م ـ لا يزيد على أربعة أبيات مبتثرة من أورستيس Orestes للكاتب اليونانى القديم يوربيديس Euripides وحتى لو بقيت الموسيقى اليونانية بقدر وافر ، فان عددا من أوزانها المختلفة ونغماتها وأشباه النغمات المتنافرة وفقدان البناء المتسق ، ربما يجعلها تبدو نشازا لآذاننا التى لم تألفها ـ ومما يدعو للأسف أن الكلمة المكتوبة التى هى المصدر الرئيسى للمعلومات هى الأخرى ناقصة غير كاملة • فنحن يعوزنا ما كان ذات مرة المخزون الفنى للشعر الغنائى وأيضا التاريخ القديم والفلسفة المبكرة ، كما تعوزنا

الملحمة المبكرة باستثناء ملحمة هوميروس ، ولذلك نفتقر الى مآس وملاه كثيرة • ان ما لدينا مما كتبه فعلا كتاب أتيكا المأساويون الثلاثة العظام، لا يكاد يبلغ العشر ، وبالرغم من أن مجموعات من أوراق البردى المصرية وافتنا فى السنوات الأخيرة بمقطوعات ثمينة لأعمال مفقودة ، الا أن هذه لا تزيد على كونها شذرات ، تجعلنا أكثر وعيا بأن الأدب اليونانى كان حتما أكثر ثراء وتنوعا مما يتبين من البقية المتبقية تحت أيدينا • بل ان بقايا الفنون المرئية أكثر حيرة واعجازا • ولقد قاومت الفناء وبقيت على وجه التقريب بفضل الصدفة وحدها ، واجتازت معركة غير متكافئة ضد تخريب الزمن وهمجية البشر • ليس لدينا كم وافر كامل للرسوم التصويرية نتاج العصر الكلاسيكى ، وليس لدينا تماثيل ذهبية أو عاجية مثلما كان لفيدياس يوما من هذه التماثيل التى كانت مجدا له • ومن المعابد الكثيرة التى وجدت يوما بقى لنا النذر اليسير • وهذه المعابد المتبقية المهدمة العارية فى الأسقف قد سلبت كنوزها وآثارها منذ عهد بعيد • ان الاكتشافات الحديثة قد أضافت فى الواقع الكثير الى معرفتنا وجعلت رؤيتنا أكثر رحابة ، ولكن ينبغى علينا بادىء ذى بدء أن نقر بأن ما لدينا من برهان هو بكل تأكيد مهلهل مزعزع ومن المحتمل أن يحيد بنا عن جادة الصواب • بيد أن هذه الشذرات تثير اغراء غاية فى القوة. وتنطوى على حيوية فياضة تحملنا على التساؤل — أى تجربة تلك التى انصهرت فى صنع هذه الأعمال •

ان اليونانيين شعب كان يعيش بموقعه الجغرافى ، اذ أن ما تزودنا به الطبيعة من موطن وأجواء يعد عنصرا دائم البقاء فى أى تاريخ قومى • ان الشكل المادى قد يعتوره تغيير طامس لمعالمه بسبب ضغوط جديدة وتزاوج متبادل ، فقد تنفصم عرى اللغات أمام الضغوط السياسية أو اغراءات اجتماعية للغات جديدة ، والعادات التى ظاهرها الثبات والرسوخ قد تنهار أمام تهديدات غير محسوبة سلفا أو أمام مستحدثات خلابة لا سبيل الى مقاومتها • لكن الطبيعة تظل حتى النهاية كما كانت بداية. مدرسة تطوع بمغانمها ومغارمها وأطفالها تطويعا يتفق مع اطارها الخاص• لقد كان لطابع وشكل المناظر الطبيعية فى اليونان أثره الحاسم فى تشكيل مصير شعبها وذلك منذ أول نزوح القبائل اليونانية من الشمال الى الأراضى التى مازالت حتى اليوم ملكا لسلالتهم • لقد حدثت فى الواقع تغيرات طفيفة ، فالجبال التى كانت ذات يوم تكسوها الغابات قد أصبحت اليوم فى معظمها عارية الى حد كبير وذلك بسبب التهام (١) المعز

(١) الجمع الصحيح ل ماعز ويقال للذكر (تيس) وللأنثى (عنز) •

الجائع للشجيرات قبل نموها ، وكذلك تجريف أمطار الشـــتاء للتربة الضعيفة التى ليس لها ما يمسكها عن التجريف والانهيار ، لكن هــذه العملية يرجع قدمها على الأقل الى عهد أفلاطون الذى كان يتضجر شاكيا من أنه بالمقارنة الى العهود المبكرة لم يتبق الا رفات أجداث متحللة فى أماكن قليلة كما هو الحال فى ثيرموبيلاى ، لقد انحسر البحر أمام الطمى الذى دفعت به السيول المجتاحة وبدلت شاطئه ، كما لم تعــد الذئاب والخنازير والأسود والدببة تجوس خلال الجبال والقفار ، وفى أمــاكن متفرقة من بؤوثيا جففت المستنقعات لتقام مكانها حقول وجنان · لكــن اليونان بوجه عام لا تزال اليوم من الناحية الطبيعية كما كانت منذ أربعة آلاف عام مضت : أرض من جبال لا يلتف بعضها على بعض فى كتـــل مستهجنة وانما تشمخ بقممها فى عزلة مستعلية ، بل جزر هى ذاتها جبال جذورها ضـــاربة فى أعماق البحر ـ ان طبيعة أرض اليونان تبسط مقابلة بين كتل مرمرية جيرية جرداء وبين أودية ريانة بالماء ، مقابلة بين شتاء ذى مطر وجليد وبين صيف شمسه حارقة قائظة ، مقـابلة بــين روعة فريدة لزهور برية واشجار مزهرة فى مارس وأبريل وبين تربة مفتتة مصـــوحة لفرط قيظ فترة تمتد بين يونية وأكتوبر · وبالرغــم من أن بلاد اليونان تبدأ حيث تضيق كتلة البلقان الجبلية متراميه فى أحضان البحر ، فليست هى من البلقان فى شىء وانما لها بكل تأكيد ذاتيتها المثلة فى شكلها ومناخها وائتلافها الأبدى الحميم مع البحر ·

ان اليونان أرض المقابلات ، لكنها ليست موغلة فى التطرف ، حتى فى الشتاء نجد شمسها غامرة ، والحرارة فى الصيف بالغة لكنها خالية من الرطوبة التى تستنزف الطاقة والجهد ، ان المناطق التى هى من القرب بحيث يتنقل بينها الزاغ (١) تفصل بينها جبال عصية العبور ، لكــن هذه المناطق غالبا ما تتمتع باتصالات يسيرة بفضل البحر ، فعلى الرغم من أن معظم الأنهار اليونانية تصير فى الصيف جداول صخرية قاحلة ، الا أنها تصبح فى الشتاء فياضة بسيول دافقة تجمع مياهها فى أحواض وآبار ، حتى أشد الشواطىء عتوا قد تتمتع بموانىء مأمونة أو مساحات رملية تتخذ مراسى للفلك · ان اليونان فى الواقع أرض عسيرة ليس فى مقدورها أن تستوعب الا القليل من السكان ، بيد أن هؤلاء الســكان لو استطاعوا أن يواجهوا مهامهم بحزم واقتدار لسوف يجزون من الحصاد الجزاء الأوفى · نمازالت البلاد غير قادرة على توفير الغـــذاء لقطعــان الماشية والأغنام على نطاق كبير ، ويحل زيت الزيتون محل الزبد والمواد

---

(١) طائر من فصيلة الغربان ·

الحافظة وشحوم الطهو • ومن الممكن زراعة الفواكه والخضروات فى قليل من السهول الخصبة أو مصاطب وأخاديد شقت فى سفوح التلال مدعمة بحواجز حجرية . وليست الاسماك على وجه التقريب متنوعة شائعة كما هو الحال فى اسماك بحار الشمال . واللحم نادر وأكثر احتمالا أن يكون من المعز منه الى لحم البقر والضأن • ومع ذلك فان ما لدى اليونان من محفوظ اللحوم به عوض عن كل ذلك • والنبيذ فى وفرة ، وفى أرض تزخر بالزهور يوافينا العسل بنتاج وافر من السكر ، أما المعز فيعطى الألبان والجبن . والأرانب الجبلية والطيور البرية تنتشر فى ربوع الجبال وفى البحر تسبح أنواع من أسماك مثل البياج (١) ، وعقرب البحر والحبار (٢) • ان ندرة الطعام لم تمنع اليونانيين أبدا من أن يكونوا أصحاء متدفقى الحيوية ، بل ان الصعوبات التى كانت تواكب مدد الطعام كانت تستحث جهودهم وتثير براعتهم •

ان أرضا هذه حالها تتطلب من ساكنيها أن يكونوا أولى بأس ، على قدر كبير من النشاط والاقدام • عندما كان اليونانيون يعرضون أطفالهم الزاهدين فيهم حين ميلادهم للعراء كانوا يكشفون وبشكل جدى عن كيفية تفسيرهم لمقتضيات ظروف حياتهم الشاقة ، وقد اقتفوا بذلك أثر الطبيعة التى تباشر انتقاءها وهيمنتها بحيث لا تتيح البقاء الا لمن هو أقوى • ان القدرة الطبيعية لليونانيين تتجلى بصورة كافية فى تماثيل رجالهم الكثيرة بما لها من هياكل وأطراف صلبة تفيض رجولة معززة بخصور نحيلة وأياد قادرة • ان قوما يعيشون مثل هذه الظروف يحتاجون الى صفات غير عادية يتميز بها عمالهم فى الحقل اذ أن كثيرا من كدحهم يتركز فى سفوح الجبال وفى الأودية الصخرية : عليهم أن يكونوا قادرين على تسلق الجبال فى يسر ، وحمل أثقال صعودا وهبوطا عبر التلال ، وأن يكونوا على استعداد لنقل وتشكيل الأحجار وقطع المسافات الطويلة سيرا على الأقدام ، وأن يقودوا المحاريث عبر تربة صخرية عنيدة ، ويروضوا الخيل والبغال ، وأن يردوا عنهم هجمات الحيوانات البرية ، وأن يتحملوا كذلك قيظ الشمس وتقلب العواصف . ان هذا الاعداد الطبيعى لا بد أن يعززه اجتهاد لاينى ولا يكل ، وتحميه بصيرة حذرة واعية ومهارة فى مجال الحرف الأساسية • وكذا المزايا العريقة التى يتسم بها فلاح يعمل فوق أرض عسيرة شحيحة • واذا ما كان العمل فى الحقول يقتضى احتمالا أكبر وقوة جسدية أكثر فان تسيير السفن يستوجب هو الآخر سرعة النظر واليد ورشاقة الحركة وخفتها،

(١) سمكة اسطوانية الشكل مستطيلة •

(٢) صبيدج : أى حيوان رخوى عشارى الأرجل •

ويقظـة لا يقر لها قـرار واسراعا فى بت الأمور وحسمها · لقد شكلت الظروف الجغرافية الشخصية اليونانية وذلك بحملها على استغلال أقصى طاقاتها الطبيعية فى مجال صراعها العنيف مع الأرض وعناصر الطبيعة ·

ان موقع اليونان الفريد من الركن الجنوبى الشرقى لأوربـا قد حدد كثيرا من شئونها فى مسار تاريخها · فهى من الناحية الطبيعية ذات موقع مغلق ، فاذا ما انتقل المهاجرون الى داخلها فمن المحتمل ألا يغادروها الا عن طريق البحر ، علاوة على ذلك فليس من اليسير ولوجها برا · وليس هناك طريق معبد عبر كتلة البلقان يؤدى الى اليونان الشمالى ، وأى اختراق لابد له أن يكون بطيئا عبر جبال بها معابر ليست فى الواقع غير مألوفة لكنها ليست يسيرة أيضا فى أغلب الأحايين ، وان وديان الأنهـار المتناثرة تؤدى عادة الى اتجاه خاطىء · والطبيعة تقى اليونان شر الغزو الغاشم السريع الذى يأتيها برا ، بل انه من العسير على الجيوش الحديثة المجهزة بالآليات ان تسيطر على دولة اليونان بأسرها سيطرة فعالة · ومن ناحية أخرى فان اليونان تتعرض لتسلل يتم تدريجيا وعلى مراحل : فيها كثير من الدروب الميسورة حيث تستطيع أفواج المهاجرين اليها أن تعزز مواقعها قبل قيامها بتحرك آخر ، وبذلك تستطيع هذه الجماعات أن تجمع قواتهـا دون تدخـل أو ملاحظة من أحد · وبالرغم من أن سكان اليونان الأوائل كانوا وثيقى الصلة بأقوام البحر الأبيض المتوسط الذين نراهم فى اللوحات الموجودة فى جزيرة كريت ، فان اليـونانيين الذين خلفوهم جاءوا فى أغلب الظن من الشمال فى موجات متلاحقة · وجلبوا معهم لغتهم التى كشفت عن حدود امكانياتها الشـمالية البرية وذلك باضطرارها الى أخذ كلمات بحرية من لغة أهل البلاد المحلية : كلمـات مثل أشجار الزيتون ، التين والفول ، السرو (١) والنبيذ ، القصـدير والمكحلة (٢) وكلمة السباحة · لقد ذاب فيهم السكان الأصليون الذين بقيت بعدهم ذكريات مبهمة عاشت فى المناطق الرئيسية تحت اسـم البلاسجيين (Pelasgian) والتى ربما تشابهت فى مدلولها مع ذكريات أهل (ويلز) · لقد أخذ اليونانيون من هؤلاء السكان الأصليين عددا من اسماء الأماكن ، والطقوس الدينية بل حتى أسماء الآلهة · لكن هـذه العناصر المختلفة كانت منذ تاريخ سحيق منبثة فى كل الجزر اليونانية وجزيرة كريت بشكل ملحوظ · ذلك باستثناء بعض الجزر حيث كان

---

(١) شجرة ذات جمال مهيب (فصيلة الصنوبريات) ·

(٢) زهرة جميلة ياقوتية من الزنبقيات ·

هناك قبل القرن الخامس (ق٠ م) ناحية أخرى تتكلم لغة ايجه ، او المينوية (Minoan) القديمة لكن اليونانيين الضاربين بجذورهم الى أعماق التاريخ القديم كانوا من الناحية الطبيعية شعبا مختلطا ، وسوف لا يجد أنصار فكرة السلالة النقية فى ذاك الشعب نصيرا لأفكارهم ٠ فلو أن ما عثر عليه من نحت ورسم لهؤلاء الأقوام يقدم نموذجا قياسيا من السهل التعرف عليه ، فلعل ذلك مرجعه الى أن الظروف المناخية كانت تبسط سلطانها بل هى لا تعطى فقط أفضلية البقاء لمن طال تكيفه معها انما تزيد من بطء وصعوبة هذا التكيف ٠ لم يكن اليونان عمالقة شقر كما صورتهم الأعمال الألمانية الخيالية القديمة ٠ وانما كان السواد الأعظم منهم يبدو كما هم اليوم : داكنو الشعر ذوو بشرة زيتونية اللون ٠ بيد أنه كان يوجد بينهم آنذاك كما هو الحال الآن ، قليلون ممن يتميزون بشعر أشقر جميل جعلهم يحظون باعجاب آسر كما حظى مينلاوس Menelaus الذى صوره هوميروس والذى كان يدعى المنغولى الأصفر ويبدو كما لو كان ذا شعر بنى ـ ومنذ ذاك التاريخ والصفة ذاتها لا تطلق فقط على بعض الأبطال الآخرين وانما تطلق على بعض الالاهات مثل ديمتر (Demeter) ونكاد لا نرتاب فى أن هذه الصفة كان يتميز بها كل ذى مظهر فريد ـ ان زيوس الذى كان يجسد روح الرجولة اليونانية يقال عنه أنه كان يتميز بحواجب زرق داكنة ، ومع أنه ينبغى علينا أن نسمح بشىء من التجاوز للخيال الشعرى ، فنحن نتعرف عليه أى زيوس للتو كنموذج يرى بشكل عام فى بلاد اليونان ٠

وعلى الرغم من أنه من العسير أن تتعرض اليونان لغزو من البر ، الا أنها تتيح ثغرات مغرية لأى غاز له على البحر سلطان ٠ اذ أنه من البحر يستطيع المغيرون أن يغيروا على اليونان من نقط كثيرة ، فليس عسيرا أن تقام رؤوس ساحلية منها يتم غزو المناطق الداخلية والسيطرة عليها الى حد ما ٠ ان احتمالات حدوث هذا الموقف رأيناها قد حدثت على يد مينوس (Minos) ملك جزيرة كريت وذلك قبل حرب طروادة بجيلين فى وجه التقريب ٠ لقد سيطر بأسطوله البحرى على سكان ايجه وقهر السكلاديين (Cyclades) ، واقام أولاده حكاما على البلاد ٠ ان انعدام الاستحكامات حول عاصمته كنوسوس (Knessos) اتخذ دليلا على وثوقه فى أنه لا يستطيع غزاة من البحر أن يهاجموها ، ان ستا من الأماكن المختلفة كلها على الجزر أو على ساحل البلاد سميت مينوا ، تشير الى حيث أقام الملك نقط المراقبة ٠ ومن غير المحتمل أنه قد قهر البلاد بالفعل وذلك بالرغم من أنه قد فرض الاتاوة على الأماكن ، لكنه أحاط بالمعالم الرئيسية لجغرافية اليونان السياسية ، وبعد عام ١٢٠٠ ق٠م مباشرة جاء من

الشمال الغربى أو غزو حقيقى متعارض فى طبيعته مع التسلل التدريجى وذلك مع قدوم شعب يونانى مختلط الأنساب عرفه الخلف فيما بعد باسم الدوريين (Dorians) ونحن لا نشك فى أنهم قد قدموا من البحر. ومما هو على جانب كبير من الأهمية أنه قد وجدت بين آخر الوثائق التى كتبت فى قصر بيلوس (Pylos) قبل دماره وثيقة تسجل نزوح بحارة بلوررون عند مدخل خليج بتراس Patras ، ان الغزو الذى تلا ذلك كان فى الواقع غزوا مهلكا فقد وجه ضربة قاضية الى الحضارة المسينية التى كانت بالفعل قد أصابها الوهن نتيجة للانهاك المفرط الذى تعرضت له من الخارج والصراعات الداخلية داخل البلاد ، مما زج باليونان الى عصر الظلام الذى خرجت منه اليونان التى نعرفها بعد أربعة قرون . ثم تعرضت اليونان الى تهديد مماثل بغزوتين من الفرس فى عام ٤٩٠ ، ٤٨٠ ق.م . لقد أرسل فى هاتين الغزوتين جيش قوى عبر البر على طريق ساحلى ، لكن هذا الجيش كان يجد تقريبا عند كل نقطة فى طريقه مؤازرة من أسطول مزود على نطاق كبير برجال من البحارة الفينيقيين ، ولم يكن هذا الأسطول ليكفل لجيش الفرس المدد والمؤن فحسب لكنه كان يقوم بين الحين والحين بنقل الجند . وهزم اليونانيون جيش الفرس فى معركة بحرية أول الأمر ، ثم أنزلوا به الهزيمة بعد ذلك فى معركة برية . لكن انتصار اليونان فى موقعة بلاتيا (Plataea) عام ٤٧٩ ق.م لم يكن ليصبح انتصارا حاسما لو لم تكن جنود الفرس قد أعيقت بشكل جسيم لما أصاب أسطولها من دمار ساحق ، وما كان يعنيه دمار الأسطول من خفض فى المؤن والمدد . لقد كانت اليونان فى الواقع تحت رحمة البحر وقد اتخذت فى القرن الخامس خطوات بهدف السيطرة عليه . وأصبح اليونانيون شعبا له كيان مستقل اذ أنهم قد عاشوا فى مساحة مغلقة ذات حدود طبيعية معلومة . وطالما أنهم لم يتعرضوا لهجمات من البحر فقد كانوا أحرارا الى حد ما فى تطوير حياتهم على الشكل الذى يرتضونه دون تدخل أجنبى .

ان وجود البحر ومعرفة اليونانيين بفن البحر تلك المعرفة التى تعود الى أوائل الألف عام الثانية من تاريخ اليونان ، قد حولت أنظار اليونان ورغائبهم الى ما وراء البحر . ففى العصر المسينى أقامت اليونان بالفعل مستوطنات على الشواطىء الغربية الجنوبية لآسيا الصغرى بل فى قبرص وسوريا . واجتاح غزو الدوريين المستعمرين الآخرين وأطاح بهم عبر مناطق بحر ايجه ، حيث كانت هناك مناطق معروفة باسم أيوليس Aeolis ، وايونيا (Ionia) قد حافظت على التراث القديم للماضى العظيم وطورت حضارتها (١) الهيلينية المؤكدة المميزة . وبدأت فرق

---

(١) الولاء للفكر والعادات والأساليب الاغريقية القديمة .

مغامرة منذ القرن الثامن فصاعدا فى الابحار متوغلة بعيدا ، وأقيمت مدن يونانية امتدت غربا حتى مرسيليا وانبسطت شمالا حتى القرم (Crimea) . لكن صقلية وجنوب ايطاليا كانتا أفضل الميادين وأكثرها وعودا من حيث الاستغلال . فعلى الرغم من عداوة مواطني هذه البلاد وبالرغم من التهديد المسلح من جانب المنافسين الأقوياء من أمثال سكان اتروريا (١) وقرطاجة . أفاد اليونانيون فى اليونان العظمى فائدة كبرى من ممالك أرحب وأكثر ثراء مما قد عرفوه فى بلادهم ، وتمثلت هذه الفائدة فى تطوير حياة أكثر بهاء وتنوعا . وبالرغم من حاجز البحر ، فقد ظل اليونانيون على صلة بالوطن الأم : عبدوا نفس الآلهة واشتركوا فى نفس الأعياد ، وحافظوا على نفس العادات وتحدثوا نفس اللغة . فاذا كانوا قد تزاوجوا وأهل البلاد المحليين فان ذلك لم ينل من اقتناعهم بأنهم يونانيون قلبا وقالبا . لقد كان مشرعوهم من بين أول وأهم من ذاع صيتهم . فعندما بدأ المد القوى للغزو الفارسى فى اجلاء اليونانيين وطردهم من أيونيا راحوا يلتمسون مواطن جديدة ، ووجدوا آنذاك حفاوة بالغة فى الغرب حيث اتخذت الفلسفة وعلم الرياضيات بعضا من أهم أشكالهما . لقد أصر اليونانيون من أهل الغرب على الهيلينية ، وكانوا على حق فى اتخاذ هذا الاتجاه ، اذ أنهم تعشقوا الهيلينية بتفان بالغ وبحكم اتصالهم بأكثر من نوع من أنواع البرابرة عرف اليونانيون كم تعنى أن تكون يونانيا ، ولعلهم كانوا على صلة أوثق بالسكان المحليين فى المستعمرات القاصية مثل القرم بجيرانها السكيزيين (Scythian) لكنهم أعطوا أكثر مما أخذوا ، ومشغولاتهم الذهبية الرائعة الموجودة فى مقابر سكيزيا تشهد بقوة نموذجهم الفريد . لقد قامت المستعمرات اليونانية فى الواقع بالكثير من أجل نشر وذيوع شهرة الصناعات اليونانية وذلك بتصدير المصنوعات الجميلة الى الأماكن البعيدة . وتعد الباطية (٢) البرونزية العظيمة التى عثر عليها فى فيكس Vix فى وسط فرنسا مثالا فريدا لمشغولات بلوبونزيا (Peloponnesian) فى القرن السادس قبل الميلاد . ونحن لا نعرف كيف ولماذا وصل هذا الأثر الى هذا الصقع البعيد ، ولكن ذلك يكشف عن التقدير الرفيع الذى كانت تحظى به الحرف اليونانية ، كما يكشف عن كيف أن اليونانيين قد لبوا الطلب المحلى على حرفهم دون أن يهبطوا بها الى تنازلات يفرضها الذوق والأساليب المحلية — لقد كانت المستعمرات

---

(١) بلاد قديمة غرب ايطاليا .

(٢) اناء لمزج الخمر بالماء (عند الاغريق والرومان) .

اليونانية في الواقع مراكز للتجارة ، ومن خلال التجارة مراكز للحضارة وكان أسلوب حياتهم يونانيا بشكل أكثر وعيا وذلك لأنهم كانوا على حدود العالم المعروف ــ ان البحر الذى ربما فتت النظام اليونانى شذرات متناثرات ، أمسك هذا النظام وجمع شتيته وخلع عليه وحدة خاصـــة ربطت بين طوائفه المترامية المفككة وجعلتها وثيقة الصلة بالوطن الأم بل وأحست هذه الطوائف أنها تنتمى اليه بكل ما لكلمة الانتماء من معنى ٠

لقد شكلت جغرافية اليونان نمط الحياة الســـياسية ٠ فلو أن اليونانيين فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد قد اتحدوا ، كما كان واردا ، اتحادا مفككا تحت قيادة ملك ميسينيا ، فانه لم يتيسر لهم هذا الاتحاد مرة أخرى حتى تولى قيادتهم الاسكندر المقدونى وقاد جيوشهم مناوئـا للفرس ٠ ويعد تقســـيم البلاد الى عدد من الدويلات من أهم وأوضح ملامح السياسة اليونانية ، وتميزت كل دويلة من هذه الدويلات بحكومة مستقلة وشخصية محلية خاصـــة ٠ وفرضت طبيعة اليونان هـــذا التقسيم ، تلك الطبيعة التى اقتضت أن يعيش الناس فى وديان تفصلها الجبال بعضها عن بعض ، أو على نجاد (١) لها قليل من المنافذ على العالم الخارجى ، أو فى جزر كانت الى حد كبير تتمتع بالاستقلال والاكتفـاء الذاتى ــ ولما كانت الأصقاع (٢) منفصلة بعضها عن بعض ، متكاملة بذاتها وأبيه على أية سيطرة خارجية ، فان كل منطقة منها قد طورت لها حياة خاصة وعادات واعتداد بالنفس له طابعه المحلى ٠ لم تكن الحواجز الجبلية بكافية لاتقاء الغزو ، لكنها كانت كافية لأن تحول دون اندماج دويلة فى دويلة أخرى ٠ ولعل هذه الدويلات كانت بين الفينة والفينـة تقع تحت سلطان جيران ذى بأس وعدوان أو ترغم على اتحاد بين بعضها البعض ، بيد أنها أبقت على قدر ما من استقلالها السياسى وكثير من مؤسساتها ٠

والحديث عن وحدات النظام السياسى اليونانى من الأمور المألوفة ، باعتبارها دول المدينة (٣) ٠ وهذه العبارة « دول المدينة » ملائمة الى حد كبير ان سلمنا بأن مثل هذه الدولة كانت تتألف من عناصر أكثر بكثير مما يكون للمدينة ٠ فاذا ما كانت المدينة المسورة عادة ، مركزا للحكومة وممارسة العدل والحرف والتجارة ، فان أنشطة أخرى كانت تمضى خارج

---

(١) ما ارتفع من الأرض ويقابلها فى العربية (الوهاد) وهى ما انخفض من الأرض ٠

(٢) جمع صقع وهو الناحية من البلد أو المكان ٠

(٣) دولة المدينة : City State : دولة ذات سيادة مستقلة مؤلفة من مدينة مستقلة والمناطق الخاضعة لسلطانها المباشر (كأثينا القديمة) ٠

المدينة ، فاذا ما كانت هناك سهولة خصيبة ، وعاش الناس فى القرى بالقرب من أعمالهم ــ فقد كان هناك خلف هذه السهول أرض مرتفعة تغطيها عادة الأدغال ، من العسير فلاحتها باستثناء رقع وجيوب ، وكانت هذه الأرض المرتفعة صالحة فى معظمها لرعى الماعز ٠ وخلف هذه المرتفعات كانت هناك منحدرات جبلية صلدة أكثر ارتفاعا ، وقد تطوى هذه السفوح ما بين مكان وآخر قرى وكفور ، وان كانت فى معظمها مقفرة ــ فهى فى الصيف مكان ترتاده القناصة وفى الشتاء يكسوها الجليد ــ ولما كان كثير من المدن اليونانية يقع قريبا من البحر ، فقد كانت هناك موانىء حيث أمكن بناء السفن ورسوها ، واستطاع الملاحون أن يتخذوا منها موطنا ٠ وقد يكون سكان دولة المدينة بوجه عام من الزراعيين والحرفيين والبحارة ، وكثير من هؤلاء كان يجمع بين عملين بل وثلاثة من الأعمال ــ لقد كان لدى كل أعضاء دولة المدينة احساس قوى بالوحدة والنسب ذلك اذ سكنوا مناطق مغلقة نوعا وتجاوروا فى التحام وثيق ٠ بيد أن ذلك لم ينجهم من خوض صراعات داخلية ونشوب حروب طبقية ، لكنه كان يعنى أن احترامهم للتراث المحلى جعلهم ينظرون الى أهل المدن الأخرى على أنهم يختلفون عنهم بشكل ما ٠ فبالرغم من أن قليلا من المدن هى التى قامت بالأدوار القيادية فى التاريخ اليونانى ، فاننا نستطيع اليوم أن نرى من خلال بقايا كثير من أماكن كادت أن تنسى ، كيف أن حيواتهم (١) كانت تختلف اختلافا بينا ٠ لقد وجد اليونانيون ذواتهم المتميزة فى انصياعهم لبيئتهم الطبيعية المحيطة ، وطوروا فى ظل ذلك فرديتهم المتفردة ، ودون تأثير كبير على بقية اليونان امتثلوا بلا وعى تقريبا لمليات الاطار العام لعادات ومقتضيات هذه الفردية ٠

لقد خلقت دولة المدينة بما لها من طابع خاص نوعية خاصة من الحياة الاجتماعية ٠ فقد تختلف حكومات هذه الدول من واحدة الى أخرى فى الحكم ، الا أنه عندما كانت الظروف سهلة متماثلة ، كانت الفروق فى السلوك والرأى لا تعدو أن تكون فروقا فى الدرجة أكثر منها فى النوع، طبقا لحجم وسلطان الطبقات الأكثر ثراء ٠ لم تكن هناك مدينة قد غلفت حكامها المؤلهين فى عزلة مستغلقة غامضة أو أبقت على الطبقة المميزة من القساوسة باعتبارها طائفة منفصلة بذاتها ٠ لقد اشتركت الغالبية العظمى فى نفس المنافع وذات الاهتمامات ، حتى أولئك الذين عاشوا فى المدن وانخرطوا فى الصناعة والحرف بل والذين سعوا فى البحر

(١) هذا هو الجمع الصحيح لكلمة حياة ٠

باحثين عن أرزاقهم ، نشأوا ملتصقين بالأرض وأحاطوا علما بأساليبها وطرائقها . ان قوما من هذا الطراز كانوا اميل الى معامله بعضهم البعض كأنداد ، اذ كانت لهم خلفيات واهتمامات مشتركة ، وعاشوا الى حد كبير ينهجون منهجا واحدا بالرغم من فروق الثروة — واذ كانوا على علم بمثالب وحماقات جيرانهم ، وبحكم التحامهم الدائم بعضهم ببعض فقد طوعوا لهم اسلوبا صريحا واضح القسمات يحكم علاقاتهم الاجتماعية . وعلى الرغم من تقديرهم للمولد والنشأة ، فقد كان هناك حسب ما يبدو شيء من القيود الشكلية بين أصحاب المناصب المختلفة ، قيود أشبه بتلك التي توجد في المجتمعات الأكثر تنظيما ، حيث ترفع الأوضاع المهنية من قدر المجموعة المتميزة من المتخصصين — وكما هو الحال في معظم بلدان البحر الأبيض المتوسط فان الشارع أو الميدان العام بالنسبة للرجال على الأقل هما محور النشاط حيث تناقش موضوعات الساعة وشئون السياسة خاصة ، بطلاقة وصراحة بل وبقدر من المعرفة . فاذا ما كانت مثل هذه النشاطات تنطوي على درجة معقولة من اللباقة ودماثة الخلق ، فانها أيضا تنطوي على مشاجرات حامية ، ودعايات خسيسة ، واساءات بذيئة . ويبدو أنه لم يكن هناك وجود لصرامة السلطة أو خنوع للنظام التجاري . ان ظروفا كهذه تشجع وتستحث على حب الفضول الجارف نحو الدخائل الشخصية ، مما ينجم عنه عجز الانسان عن الاختباء خلف صور تنكرية مزيفة ، مستمدة من مركزه الوظيفي أو نسبه العريق ، وبالرغم من احتمال وجود الأخلاق الطيبة فان ذلك لا يمنع الناس من الافصاح عن رأيهم في بعضهم البعض — ان وضعا كهذا يفرز رجالا على وعى كامل ببيئتهم ، رجالا من الناحية النفسية منبسطين مدركين لحقوقهم المدنية . فان دولة المدنية لم ترفع على الاطلاق من شأن الديمقراطية بشكل دائم ، بيد أنها كفلت حرية المخالطة ، والاحساس بالذاتية ، ووفرت اطارا اجتماعيا كان الناس فيه يتعرضون للمراقبة الكاملة من جانب اخوانهم ، لكن ذلك لم يمنعهم من تحقيق ذواتهم .

لم يكن تأثير المشاهد اليونانية على العقل والعين اليونانية بأقل قوة من أى شيء آخر فان المسافر القادم الى اليونان من الغرب أو من الشمال قد يشعر لأول وهلة بشيء طفيف من خيبة الأمل عند رؤيته لطبيعتها العارية وانعدام الألوان الثرية ، الا أنه سرعان ما يكتشف أنه بمواجهة جمال آسر ، لا ينحني جاهزا ميسورا أمام تقييمه وانما يبسط سلطانه عليه رويدا رويدا وبشكل يعز على النسيان . ان نوعية الضوء في بلاد اليونان لأمر تفوق أهميته كل الأشياء ، اذ أنه يختلف

عما يكون من ضوء للبلاد الأوربية الأخرى ، وليس ذلك فى أيام الصيف الصافية فحسب وانما هو كذلك فى أيام الشتاء - أكثر اشراقا وصفاء وقوة - انه يشحذ قنن الجبال الرابضة فى مواجهة السماء ، وبينما ترتفع هذه الجبال عن البحر والوديان - يضفى الضوء شكلا هندسيا دائم التنوع على المنعطفات والشعاب حين تتحرك الظلال فوق الجبال وفيما وراءها ، وعند الفجر يستحيل البحر الى لون الأوبال (١) ، وعند الظهيرة يصير أزرق بلون الياقوت ثم يتدرج ذهبيا فضيا ، ثم يستحيل الى لون الرصاص قبيل هبوط الليل ، والضوء يتكسر خيوطا حول الخضرة الداكنة لأشجار الزيتون فى مقابلة للتربة الطينية الحمراء ، وهو يشيع تنويعات لا تحصى من اللون والشكل تتراءى على سطح الصخر الأملس خالى الشقوق ، وفى الأبنية الحجرية المتشققة · ان الجمال اليونانى يعتمد أساسا على الضوء مما كان له سلطانه القوى على الرؤية اليونانية للعالم ، ويحول ما للضوء من قوة وحدة دون الانتشار والذوبان محققا مؤثرات شفيفة ، وهى التى تضفى سحرا رقيقا على الطبيعة الفرنسية أو الايطالية ، ويبتعث الضوء رؤيا تتراءى للنحات أكثر مما تتراءى للمصور ، رؤيا ترتكز على التلاحم المعقد أو تباين الألوان يتخلل بعضها بعضا - بقدر ما يعتمد على جلاء تفاصيل الطبيعة والاحساس بالكتلة ، والأجسام التى تفرض نفسها بكل قوة على مساحة الطبيعة ، بل والاحساس بالقوة والصلابة الكامنة خلف منحنيات الطبيعة ونتوءاتها · ان مثل هذا الضوء ومثل هذه الطبيعة يفرضان على العين تدريبا خفيا منضبطا ، ويجعلان العين ترى الأشياء فى مجال المحيط والتضاريس أكثر مما تراها فى اظار المنظور الغامض أو فى اطار العلاقات المكانية المسطحة - انهما يفسران لماذا أفرز اليونانيون مهندسى بناء ، وفنانى نحت عظماء ، ولماذا يتميز أساس أى تصميم حتى فى التصوير - بخط يتسم بالثقة والدقة ·

ولعلنا لا نذهب فى الخيال بعيدا اذا اعتقدنا أن الضوء فى اليونان قد لعب دورا فى تشكيل الفكر الاغريقى - ومثلما غذت السماء الغائمة فى أوربا الشمالية نتاجا ضخما مهوشا من أساطير الشمال أو ميتافيزيقا الألمان ، كذلك فعل الضوء اليونانى اذ أنه أثر بكل تأكيد على المفهوم المحدد القاطع للفلسفة اليونانية - فان كان اليونانيون أول فلاسفة العالم الحقيقيين من حيث تكوينهم لمفردات مباشرة ثابتة للأفكار المجردة ، فذلك مرجعه الى حد كبير الى أن عقولهم وكذلك عيونهم ، كانت

(١) حجر كريم يتميز لونه بلون اللبن المخلوط بالماء ·

تروم بشكل طبيعي كل ما هو جلي رائق محدد المعالم ـ وبفضل قـــوة الضوء ظلت حواسهم حية متوثبة ، وعندما تنشط الحواس مشـــحوذة فى حماس فان ذلك يستتبع أن يكون العقل أكثر حماسا وتأهبا ، هنالك يسعى العقل الى تنظيـم ما توافيه به الحواس ـ ومثلما كان أفلاطون فى بحثه عن المبادىء السامية العلوية خلف مجموعة الظواهر الطبيعية ، يميل الى رؤيتها كموضوعات فردية مقارنا مبدأه الرئيسى بالشمس التى تضىء كل الأشياء فى العالم المادى ، مجلية أشكالها وألوانها كذلك لم يكن فى مقدور أية فلسفة يونانية أن تهنأ حتى تقيد الفكرة بالتعريف الواضح المحدد ، وتجعل أسس هذه الفكرة متماسكة ، يدركها العقل بلا عناء · ان تأثر اليونانيين بمثل هذا الاعتبار نراه فى استخدامهم لكلمات مثل (eidos and ideâ) الرأى والفكرة ، فلم تكن تعنى مثـل هذه الكلمات فى الأصل أكثر من مجرد « الشكل » ثم طبقت على صيغ واضحة مثل الجسد الانســـانى · ان تحول الكلمة من المادى الى المجرد ومن المنظور الى اللامنظور يبين لنا كيف كان يعمل العقل اليونانى عندما ينتقل من معطيات الحواس الى المبادىء الكائنة خلف هذه الحواس ·

فان كان الضوء هو العنصر الأول فى الطبيعة اليونانية ، فان البحر هو العنصر الثانى ـ ان مسالكه المائية كما أطلق عليها هوميروس تربط بين أجزاء اليونان المختلفة من جزر وأراض داخله ـ ويلعب البحر فى اليونان دورا أكبر مما يلعبه فى أية دولة أخرى من دول أوربا ، اذ أنه يعـد أفضل وسائل الاتصـــال فى معظم الأماكن · وفى كثير من الأماكن يعتبر الوسيلة الوحيدة للاتصال · ان هناك قليلا من المناطق لا يرى منها البحر · وفى أماكن منعزلة بين الجبال كثيرا ما يشعر الانســان أن البحر قد غاب عن بصره ثم يطالعه بعد ذلك عند منعطف آخر · ولا مناص لهم من السيطرة على البحر ان أرادوا البقاء ، وعندما تتحقق لهم هذه السيطرة كانت تستحثهم الآفاق الجديدة الى مزيد من المغامرة ـ لقد كان اليونانيون ملاحين منذ فجر تاريخهم ، ولما كانوا قد نشـــأوا بين أحضان السفن ، فقد أنجاهم ذلك من الغرق فى الممرات الضيقـة المحدودة ، ولولا علمهم بالملاحة لكان الغرق مصير ساكنى دول المدينة الصغيرة · وكذلك جذب البحر اليه الراغبين فى الربح وطلاب الاثارة ، وكان لليونانيين الوسيلة الرئيسية لنشر معرفتهم عن البشر وسلوكهم · بل انه كان أبعد من هـــذا أثرا ، فسحره الخاص الذى يتحدث عنـه اسخيلوس فى مثل قوله « القهقهات الصاخبة لموج البحر » قد ملك على اليونانيين أمرهم وساعد فى تشكيل بعض من أميز وأخص معتقداتهم ·

لقد كان اليونانيون ما بين آونة وأخرى يتصورون أنه ليس فى الامكان وجود بحر أكثر من بحر ايجه فتنة وسحرا ، بموجه الرجراج وهدوئه الأسطورى البديع ؛ ثم انه حقيقة يسدى الى اليونانيين صورة للاشعاع السماوى ، رأى فيها اليونانيون حالة من أحب وأشهى حالات الانسان • بل حتى عندما يكون البحر فى أكثر حـــالاته كرما وحفاوة سرعان ما ينقلب مهددا شواطئه الصخرية القابعة بالدمار الذى ينصب عليها فى رياح عاصفة وأمواج عاتية • ان البحر بحالاته المجهولة ونزواته العنيفة يعطينا درسا عن الحالات المتقلبة للحياة الانسانية ، عندما تبدو كل الأمور وقد لفها هدوء ذهبى ، فتدهمها فى نفس اللحظة نكبة مباغتة لم يسبق لنا بها علم • وليس من الغريب المفاجيء أن يجعل سوفوكليس للملاحة المقام الأول عندما كان يتغنى بانجازات الانسان الفريدة :

« انه يسخر رياح الشتاء سفينة تحمله

تحمله عبر البحر الأمد ،

تحمله عبر أغوار الأمواج العاتية » •

وكانت الهيمنة على البحر أمرا جديرا فى الواقع بالفخار ، فقد ترك البحر بصمات لاتمحى على الشخصية اليونانية •

ان الشعب الذى شكلته هذه الأجواء الطبيعية ، قد انقسم سياسيا ومع ذلك ظل تيـــاها اذ أن كل أفراده كانوا من الاغـريق ، وبهـذا الاعتبار يختلف هذا الشعب عن بقية الجنس البشرى • لقد أقيم هذا الايمان على دعائم من الحس السليم ، كما نرى من كلمات هيرودوت التى يقدمها لأهل أثينا عند رفضهم لاقتراح لملك مقدونيـا مؤداه أن عليهم أن يتخلوا عن القضية اليونانية المعادية للفرس حيث يقول هيرودوت :

« ليس من الخير أن يصير أهل أثينا خونة للأمة اليونانية ، التى تربط بين أفرادها وحدة اللغة والدم ، ولها معابد وقرابين مشتركة ، وأخلاق ذات طابع واحد » • ان هيرودوت الذى تكهن بالمبادىء الأساسية لعلم حضارة الانسان ، يفترض لتمييز اليونانى عن غيره أربعة معايير : وحدة النسل ، واللغة والدين والثقافة • لقد كان اليونانيون على وعى بكل هذه المعايير ، بل كانت تستهويهم هذه المعايير كلمـــا أرادوا أن يؤكدوا وحدتهـم الجوهرية ، ويستوثقوا من تميزهم عن الآخـرين من الأجانب • لقد عرفوا وحدة النسل بفضل أســاطير العصر البطولى ، الذى أعطى البارزون من شخصياته الشهيرة ـ البداية لعلم الانساب ،

كما حظيت هذه الشخصيات بحفاوة فى طول اليونان وعرضها ، حفاوة سجلتها الأغنية بكلماتها والنحت بتماثيله . أما وحدة اللغة فقد كانت حقيقة لانزاع فيها . فعلى الرغم من أن اللغة اليونانية لها أربع لهجات ، وبالرغم من أن كلا منها كثير التفرع ، فان هذه اللهجات جميعها ما هى الا أجزاء للغة واحدة متفردة على مستوى رفيع ، بل كانت هذه اللهجات تتمتع بفهم متبادل بين اليونانيين برغم الفروق الهائلة فى النطق والمفردات . وعند المقارنة بين لغتهم واللغات الأخرى كان اليونانيون يعتقدون أن اللغات الأجنبية أشبه ما تكون بشقشقة العصافير . لقد تجلت وحدة الدين لدى اليونانيين ليس فقط فى أسماء وشخصيات الآلهة الأولمبية ، وانما تجلت كذلك فى وجود أضرحة ، مثل التى كانت لزيوس فى الأولمب وأبولو فى دلفى ، حيث شارك اليونانيون من كل صوب وحدب فى القرابين والألعاب ونسوا الخلافات المحلية التى ذابت فى الوعى بالوحدة الهلينية . أما وحدة الثقافة فليست بنا حاجة الى تبيانها بالنسبة لشعب استطاع أن يحقق فى مجال الحياة القومية نضجا قويا بعيد الأثر ، الا أن الحرية فى هذه الثقافة كانت أهم ما يعنيهم من أمورها. لقد أصروا على الحرية وعدم الخضوع للسيطرة الأجنبية ونزوات المستبدين من رجال الحكم المطلق الذين لايقيمون وزنا لشىء ، وبفضل هذا المسلك أكثر من أى شىء آخر اقتنع اليونانيون بأنهم على نقيض الشعوب الأخرى .

لقد أطلق اليونانيون على الأجانب تسمية البربر «Barbaros» ومنها اشتقت كلمة « البرابرة » . لكن الكلمة اليونانية لم تكن تعنى فى أيامها الأولى الزراية والبغضاء ، اذ لم تكن تعنى أكثر من كلمة (أجنبى) وقد نتوقع أن الموقف اليونانى تجاه الأجانب كان يختلف من عصر الى عصر ومن شخص الى شخص . وعلى الرغم من أن هوميروس كان يروى أحداث الحرب الطويلة القاسية بين اليونانيين والطرواديين ، فقد ساوى بين الفريقين فى كل فضائل الرجولة ولم يشر أبدا الى أن الطرواديين أقل شأنا لكونهم من الأجانب الغرباء . وفى القرن السابع والسادس قبل الميلاد لم يجد اليونانيون من سكان آسيا الصغرى خزيا على الاطلاق فى أن يتعلموا من جيرانهم الليديين مظاهر الترف الجديدة لرغد العيش . أما هيرودوت رجل الأسفار الواسعة ، فقد رأى الكثير فى الفرس مما أثار اعجابه وجعل اكسنوفون (Xenophon) يحارب بجانبهم باعتباره صديقا لهم . لكن هذا الاعجاب من جانب هيرودوت كان كثيرا ما يخامره اشمئزاز اليونانيين واستهانتهم بالأساليب

الغريبة للأجانب : اذ أنه يتلذذ بابتسامة ماكرة عند ذكره لأنواع الغذاء الأجنبى مثل القمل والقردة والمسنين من أقربائهم واذا أردنا صورة جلية لما كان يشعر به أوساط الناس من اليونانيين نحـو المصريين فما علينـا الا أن نلقى نظرة على اناء صورت عليه لوحة لهرقل وهو يتعامل بحزم مع بوزيرس (Busiris) وحاشـيته فطس الأنـوف · فبعد أن كشفت الحروب الفارسية عن الدمار البغيض الذى أنزله الغزاة من البربر ، تشدد الموقف اليونانى واتخذت كلمة البرابرة بعضا من ايحاءاتها · لقد ساد الشعور بأن الأجانب المحرومين من الحرية لهم أخلاق العبيد على أحسن الفروض ، ومن ثم فقد ينخرطون بلا عناء فى أعمال عنف تتلاءم مع طبائع الوحوش · ومثلما حظيت الحرية لدى اليونانيين بتقدير رفيع الشأو تمثل فى تراثهـم ، فقد أحس اليونانيون بالأسف العظيم لميل الشعوب الأجنبية نحو سلوك دون مستوى الأحرار المدركين لمسئولياتهم· وان مفهوم اليونانيين للبرابرة جعلهـم يجلون النموذج اليونانى الذى تمثلوه للانسانية العقلانية المنضبطة ·

لقد كان هيرودوت يلمس نقطـة على قدر كبير من الأهميـة ، عندما لاحظ أن اللغة اليونانية قد وحدت بين اليونانيين وجمعت شملهم· وللغة فى الواقع أهمية أساسية لدى أى تقييم لليونانيين ، اذ أن مجالها وتراكيبها يلقيان ضوءا حيا مجليا على الفكر اليونانى ، وذلك بما لها من طرائق وامكانات ووسائل تعبير ـ فبوسعنا أن ندرك ادراكا كاملا بعض مزايا اللغة التى غفل عنها اليونانيون أنفسهم ، وان كانت ذات فائدة كبيرة لأى فهم واضح لانجازاتهم · لقد كانت اللغة فى الواقع واحدة من أثمن وأغنى مقتنياتهم · فاذا كان اليونانيون قد جلبوا اللغة من الشمال عند أول قدومهم الى جزيرة اليونان ، فان جهودهم فى سبيل تطويرها واثرائها لم تتوقف أبدا حتى أصبحت أداة متمكنة قادرة على معالجة أى شكل من أشكال التعبير : من أغنى الشعر وأثراه ، الى النثر التطبيقى · وهى بالرغم من بساطتها الظاهرة ، رفيعة المستوى بعيدة كل البعد عن أية صلة باللغة البدائية المعروفة بتعقيداتها وتصورها عن الارتفاع من مستوى المدركات الحسـية الخاصـة الى الأفكار العامة واهتمامها بالانطباعات أكثر من اهتمامها بالأفكار · والانضـباط الذى تتسم به اللغة اليونانية ، لدليل على كمال نضجها · فنظام النحو الذى قد يبدو هائلا دون ضرورة لذلك بالنسـبة لمن تربوا على لغة تحليلية مفككة ، هو برغم ذلك انتصار للعقل المنظم على المادة المستعصية من نتاج الوعى ·

وتتجلى مزايا اللغة اليونانية واضحة بمقارنتها باللغات الحديثة المألوفة لدينا • فان أهم مايسترعى انتباهنا من مزاياها هو وضوحها وجلاء عباراتها • بالرغم مما قد يكون من تعقيد في قواعدها فانها لم تفقد حيويتها لطول ركودها ولم يصبها التشويش لكثرة اجهادها • وتعود ـ الى حد كبير ـ قدرتها على الافصاح بما تعنى الى قواعد النحو بها ، تلك التى نبذت فى الواقع بعضا من الحالات الأساسية فى اللغة الهندية (١) الأوربية مثل حالات ظرف الزمان والمكان ، والأدوات المساعدة ، بيد انها احتفظت بقدر كبير من صيغ وأزمنة الأفعال ، اذ لا مندوحة عنها لتوضيح الفكرة المرادة • وهذا المنحى صحيح حتى بالنسبة لبعض الوجوه التى قد نظنها بالغة التشعب ، مثل ابقائها على صيغ التمنى والجمل الشرطية• وهاتان الحالتان تتناولان الامكانات القومية الأمر الذى يضفى على اللغة وضوحا وجُلاء • ولا ريب أنه كان من الممكن تحقيق نفس النتيجة بفضل الأفعال المساعدة ، الا أنه ربما لم يكن ليتأتى لها هذا الوضوح وهذا النقاء ـ لم يشعر اليونانيون باستحياء من التعقيدات اللغوية طالما أنها كانت فى خدمة احتياجهم الحقيقى ، وان التزامهم بقواعد النحو لبرهان على رغبتهم فى التعبير عن الأشياء تعبيرا موجزا مباشرا دون لبس أو اطناب • فلو أن نظام تصريف الأفعال وتصريف الأسماء ينحو نحو الوضوح ، فان ذلك تعززه طبيعة مفردات اللغة اليونانية التى يكون عادة لكل كلمة فيها معنى جوهرى واضح محدد ، نادرا ما يعتوره الغموض ، وحتى عندما يمتد هذا المعنى ليشمل أغراضا جديدة ، فان هناك قلة ملحوظة فى الكلمات التى تستوحى معناها من السياق ، وتبعا لذلك لاتتمتع هذه الكلمات بالدقة ولاقوة التعبير • ولايعنى ذلك أن كل كلمة يونانية من الممكن ترجمتها بكلمة واحدة معادلة فى اللغة الانجليزية ، بل على النقيض من ذلك ، فان احدى الصعوبات الرئيسية فى ترجمة اللغة اليونانية تتمثل فى عدم وجود كلمات انجليزية مفردة مساوية للكلمات اليونانية التى تتسم بالوضوح الكامل فى اللغة اليونانية ، وعلى سبيل المثال ، فالكلمات التى درجنا على ترجمتها بألفاظ « خير » ، « جميل » ، « عادل والفضيلة » كلها لها معان لاتتفق ونظائرها فى الترجمة الانجليزية • ولكن بعد أن تتيسر لنا معرفة الطريقة التى تجرى عليها الكلمات اليونانية فسوف لاتكون هناك صعوبة بالغة فى ترجمتها حتى ولو اضطررنا الى ترجمتها بأشكال مختلفة فى أماكن مختلفة • ان وضوح اللغة اليونانية فى كل من تراكيبها ومفرداتها يدين بقدر ما للكلمات

---

(١) هى أسرة اللغات الهندية الأوربية وتشمل معظم اللغات المتداولة فى أوربا وفى الأجزاء التى استعمرها الأوربيون منذ عام ١٥٠٠ م وفى شبه القارة الهندية •

المتداولة · وحيث أن أعظم الآداب تمجيدا لم يكن بقصد القراءة وانما بهدف الانصات اليه ، فقد تحتم على كل عبارة أن تكون قوية التأثير ، قادرة على حمل معانيها كاملة ، ولاتدع مجالا للشك فيما يتعلق بغرضها ·

ومن الخصائص الأخرى الملحوظة في اللغة اليونانية مرونتها ، فليس هناك من موضوع أو مناسبة لا تستطيع اللغة اليونانية أن ترقى اليه في يسر ميسور وجلال يناسب المقام · ولما كانت الحضارة اليونانية قد تطورت واكتشفت مجالات جديدة للفكر ، كذلك تطورت اللغة اليونانية ملبية المطالب الجديدة وواجدة لها أدوات مناسبة للتعبير · ومثلما راح الشعر اليوناني يلجأ الى الماضي البعيد في اثراء مفرداته بتكوين الصفات المركبة وادخال المفردات الكثيرة والصيغ البديلة ، كذلك لم يكن النثر اليوناني أقل نجاحا وبراعة في ذلك حينما واجهته مشكلة هائلة بشأن تشكيل لغة لاستيعاب الأفكار الفلسفية والفروع الأخرى من الفكر المجرد · فاذا كانت اللغة اليونانية قد حظيت بقدرة على تكوين الأسماء المجردة من جذور الصفات فقد استخدمت هذه الأسماء ، كما استخدمت وسائل أخرى بمهارة واثقة ، ويظهر أنها لم تخفق أبدا في جعل الافادات النظرية بسيطة جلية · لقد أبدى اليونانيون مقدرة غير عادية في جعل الكلمات تضطلع بأعباء جديدة دون فقدان لبهائها وقوتها · وهذا الأمر خليق بكل تقدير اذ أنه يعني الانفصال الكامل عن طرق التفكير الأسطورية التصويرية لليونانيين ، ومن المحتمل أنهم أمدوا مفردات لغتهم بمدد من الأفعال العامة والعادات والحرف ، وذلك بنقل ايحاءات الكلمات المألوفة الى مهام لم يسبق لهم بها عهد · ونجح المفكرون اليونانيون الأوائل في تطويع الأفكار الجديدة واضفاء المعقولية عليها · وكانت هذه ضربة حاسمة من ضربات الفكر تعكس قدرة رائعة على الارتفاع الى مستوى الفرص والمجالات التي تكشفت عنها المنظورات الجديدة في دنيا الفكر والتأمل · وانما تنتشر مثل هذه اللغة لشعور الناس بحاجتهم الماسة الى مواجهة مطالب معينة من مطالب الفكر ، كما يشعرون بالحاجة الى دفع هذه اللغة لتنهض بدور التعبير عنهم · انها تكشف عن ذكاء حيوي مقدام ، مدفوع الى ايجاد الكلم لاستيعاب الأفكار الوليدة والتجارب الواسعة ، ذكاء يروقه التفوق الجميل ويصر على صنعه ، ذكاء يقدر حتى الهنات من الكلمة المتداولة مستخدما وسائل فعالة لوضعها في نصابها الصحيح ، ذكاء يجاوز المفاهيم المألوفة العادية الى مفاهيم أخرى أكثر ندرة وأكثر تجريدا ، ومع ذلك لاتخونه قواه أثناء عمله ولا تنفك قبضته ·

ويضارع المقدرة العقلية للغة اليونانية مالها من براعة جمالية ،

فهى تستغل بدرجة فريدة مواطن الاغراء فى الكلمة الحية · وبالرغم من أنه من المحال أن نعدد هذه الاغراءات بشكل نظامى ، الا أن بعضا منها يقفز الى الذهن لمجرد أنه أقل وفرة فى لغتنا · ولما كانت اللغة اليونانية لغة اعراب فقد توفرت لها رشاقة شكلية كثيرا ما نفتقدها فى اللغات التحليلية مثل اللغة الانجليزية ، ان قواعد النحو وحدها تضفى انسجاما وانضباطا على أية جملة على وجه التقريب ، وتتيح تنوعا واسع المجال لترتيب السياق ، وهى بعد ذلك أكثر نقاء لخلوها من الوسائل المعينة · وللغة اليونانية من خلال المغزى الثابت لكلماتها بهاء ، يؤدى الى تركيز الانتباه على الفكرة السائدة دون الرجوع الى الايحاءات الغريبة المبهمة · وبالرغم من أنها دون اللاتينية صقلا الا أنها مع ذلك تتمتع بجلال ذى تأثير كبير لخلوها من التصنع المقصود ، ثم انها تنبع بشكل طبيعى من الموقف أو من الحالة النفسية المراد التعبير عنها · ان اللغة اليونانية بما لأصواتها من أنغام وافرة ومالها من مجموعة غنية من الحروف المتحركة سواء منها المتحرك الصرف أم المدغم ، وما لها من ضبط لكل السواكن الرئيسية من الحروف ، تتمتع بتنوع نغمى أكثر ثراء من اللغة الانجليزية بكثير ، تلك التى تنحو فيها الحروف المتحركة منحا يميل بها الى مستوى الجمود الميت ، وكثيرا ما تكون السواكن فيها مهملة مغفلة · ويستطيع الكتاب حتى فى ظل الأطر الشكلية المفروضة على مختلف أنواع الأدب من قبل التراث ، أن يعربوا الى درجة رفيعة عن ذوقهم الشخصى بالكلمات ، وأن يطلقوا من خلال الكلمات العنان (١) كاملا للتعبير عن نوازعهم النفسية · وليس هناك خطر على اللغة اليونانية فى أن تصبح جامدة عديمة المرونة كما تكون اللغة اللاتينية أحيانا ، أو تنحصر فى مفردات محددة نمطية ، مثل الشعر الفرنسى القديم · وبكل مالها من قوة وجلال تظل متعرجة مطواعة سلسة القيادة · ومن خلال براعتها الفطرية ومخزونها الغنى من الكلمات تستطيع أن تتخذ طريقها مباشرة الى الهدف المقصود لتفصح بجلاء وتوكيد عما ينبغى الافصاح عنه بدقة وانضباط ، وتتركنا فى حيرة نتساءل كيف تأتى لها بيان كل هذا فى دقة وايجاز · وقد يبدو أن هذا ينطوى بداهة على بساطة خالية من الصقل والتمحيص ، ولكن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك · لقد أقيمت البساطة فى اللغة اليونانية على أساس من القوة ، ولما كان التعبير فى اللغة اليونانية مباشرا فانه يعكس بكل قوة واقتدار المشاعر التى توحى به ·

---

(١) العنان بالكسر لجام الفرس والعنان بالفتح السحاب وزنا ومعنى ·

لقد احتوت وحدة اليونان على مفارقات كبيرة للتنويعات المحلية . فلو كانت أثينا ومدن أيونيا من أكثر البـــلاد مخاطرة واقداما ، فان اسبرطة وشقيقتها جزيرة كريت قد تشبثتا بتراث الماضى تشبثا لافكاك منه ، لكن أثينا لم تكن أقل اهتماما بأساطيرها وطقوسها ، وكذلك لم تخفق اسبرطه فى القرن السابع والسادس فى تطوير فن مترف أخاذ فى مجال المعدن والعاج والخزف . وكانت جزيرة ساموس فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد تتصدر البلاد فى مجال الرياضيات والهندسة ، والشعر وفن النحت ، لكنها فقدت تفوقهـــا عندما منيت بالهزيمـــة على يد الفرس . ووجدت الفنون لدى الأمراء التجار فى مدينتى أجينا وكورنث حماة أجزلوا العطاء ، بل كان هناك فى بؤوثيا الخاملة تقليد قديم لتكريم الأغنية المحلية . وحتى الأماكن البعيدة المغمورة قد قدمت البراهين على أن فن النحت وفن العمارة كانا من الفنون الحيـــة فى تلك الأماكن ، وساعدت على تطوير الطابع المحلى المتفرد . لقد اختلفت أنظمة الحكم من مكان الى مكان ، اذ اشتملت هذه الأنظمـــة على حـكام بالوراثة ، وارستقراطيات اقطاعية ، وأقليات غنية ، وديمقراطيات عدوانية ، وكانت تمثل بتنوعها الفروق الموجودة فى الطابع المحلى ، ولم يكن من غـريب الأمر أن تجد مواطنى اسبرطة يتوجسون خيفة من التغيير ، ومواطنى أثينـــا يميلون اليـــه كل الميل . وفى مناطق بعيدة مثـــل أركيديا (Arcadia) وثيسبروتيا (Thesprotia) تجد طقوسا بقيت على قيد الحياة بينما تلاشت نفس هذه الطقوس فى أماكن أخرى ، ولابد أنه كانت هناك أماكن كثيرة قد مستها حركات الفكر الثورية مسا هينا . الا أن اليونان بلد صغير ، ولا مناص من أن تستجيب حتى أفقر الأماكن فيه الى الاتجاهات السائدة . لقد وجد الأسلوب الجديد فى التصـوير والنحت أسواقا مهيئة ، وألهم الصناع المحليين بتقليده ، وداخل المدن الصغيرة الفخر عندما كانت ترى عملتها تنافس عملات البلاد الأخـرى الأكثر ثراء وتفوقا فى التصميم والصقل ــ ان الشعر الذى كان المفروض أن تعوقه فروق اللهجة ، قد ارتفع بهذه الفروق بفضل ابتكاره لغة شعرية خاصة أقيمت على أساس الملحمة ، وتشابهت معها من حيث امكانيـــة فهمها فى كل جزء من أجزاء اليونان . ان الشعراء والفلاسفة والأطبـــاء قد جاثوا خلال الديار ووجدوا حفاوة من قبل الملوك والطغاة ، والنبلاء وسواد الشعب على حد سواء . وكان تنوع الحياة فى الواقع أمرا جديرا بالاعتبار ، بيد أنه قد أقيم على أساس متين من الأعراف والتقاليد التى كانت تراثا مشاعا للشعب اليونانى .

ان البدايات الأولى لتاريخ الاغريق قد تاهت فى ماض لاسبيل الى استرجاعه ، وبالرغم من أن التسجيلات الأولى الممكن حل رموزها تنحدر الينا من عام ١٤٠٠ ق٠م على وجه التقريب فان قصة هذا التاريخ حسبما نستطيع اعادة بنائها من الافكار اليونانية الخالصة تبدأ مع قصائد هوميروس فى الجزء الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد ٠ وهنا نستطيع حقيقة من خلال عيون العبقرية أن نرى كيف عاش الرجال والنساء وكيف ماتوا ، وهنا أيضا ترى على وجه التقريب بداية كل ما هو هيلينى خالص ٠ لقد ظل اليونانيون نحو ثلاثمائة عام يتقدمون وينضجون حتى أصبحوا أكثر قربا الى حقيقة أنفسهم وأكثر بعدا عن مشاكلة الشعوب الأخرى ٠ هذا هو عصرهم الكلاسيكى العظيم ٠ وبعد سقوط أثينا أمام اسبرطة فى عام ٤٠٤ ق٠م انطفأ ومض ما من حياة اليونانيين الى الأبد ، لم يكن مجرد الحماس للحياة ولم تكن جسارة الاقدام ولا ارتياد التجربة ، وانما هى افتراضات معينة لم تخضع بشكل جدى للسؤال والتدقيق ٠ وقد فقدت الآن سلطتها وسلطانها ٠ لقد ارتكزت الحضارة اليونانية فى أوج عظمتها على توازن دقيق بين القوى : توازن بين التراث القديم ومستحدثات الأفكار ٠ وعندما انهار هذا التوازن ، بدأت الأصالة القديمة والنضج الكامل فى الاضمحلال ، وبالرغم من أن للقرن الرابع فى الواقع حقيقة انجازاته الرفيعة الا أنه تعوزه الروح القديمة الواثقة ٠ ومع ذلك فقد أبقى هذا القرن على كثير من الجوانب الهامة المميزة ، حتى حمل الاسكندر الجيش اليونانى عبر آسيا الى الهندوكوش (Hindu-Kush) وخلق لليونانيين فرصا كانت من الكثرة بحيث أصبحت الأرض الأم تعانى من النضوب والضعف الذى حل بها بسبب افتتان اليونانيين بالممالك الجديدة والآفاق المتراجعة أبدا أمام الغزاة ٠ وقد كشف اليونانيون فى الفترة ما بين هوميروس وسقوط أثينا عن وحدة رائعة فى مجال وتنوع اهتماماتهم ٠ فربما احتفظوا بأنظمة حكم مختلفة ، أو شنوا حربا عوانا على بعضهم البعض ، أو أقاموا علاقات تجارية مع البربر من أجل غايات خاصة ، لكن الاطار الرئيسى لانجازاتهم ظل واضح المعالم بصورة كافية ٠ وفى التعقيدات العديدة للتاريخ المحلى نجد شعبا يصيغ أدوات جديدة للحضارة ويرتقى من نظرة الى أخرى ، ومن اسلوب الى اسلوب أفضل ٠ وقد نلمح فى هذا التتابع السريع للتغيرات : عناصر ثابتة ومعتقدات وافتراضات ، ونوازع انسانية صامدة ، كما نلمح قناعات وميولا سياسية ، ورؤى دينية ، واستطلاعا مستكشفا ثاقبا للانسان وموضعه من هذا الكون ٠

الفصل الثانى

الفصل الثانى

وجهة النظر البطولية

على الرغم من أن العالم اليونانى الجديد الذى انبثق من عصر الظلام ، كان يختلف فى الواقع عن عالم ملوك ميسينيا ، فقد تعشق هذا العالم الجديد أساطير الماضى العظيم ، باعجاب تواق يشعر به الناس نحو عظمة ليس فى مقدورهم استعادتها أو الاتيان بأفضل منها · لقد رأى اليونان فى هذا المجتمع المفقود شيئا بطوليا فوق مستوى البشر ، شيئا يجسد مثالا لما ينبغى أن يكون عليه الناس حين يعملون وحين يعانون · ان خيالهم المشبوب بالقصص القديمة حول جولات هائلة ، وأبطال لا نظير لهم وآلهة تمشى على الأرض أصدقاء للبشر ، قصص تحكى عن النبل والجلال المهيب لممارسات عوالم ما وراء الطبيعة والأساليب الملكية الرفعية ، قد شكل هذا الخيال رؤيا اليونانيين للعالم البطولى الذى اعتزوا به ، باعتباره من أهم مقتنياتهم · لقد استمدوا من هذا العالم البطولى فكرتهم فى أنه يتعين على الانسان أن يعيش بالشرف والسمعة الطيبة وأن يؤدى دوره برقة وجمال واعتداد مقبول بين رجال لهم ما له من حسن السيرة والسمعة الطيبة · لقد عرفوا ذلك كله من خلال تراث طويل من الشعر ، الذى استمد قصصه وشخصياته بل أكثر من ذلك استمد هذا الشعر كثيرا من لغته وفنه من العصور المسينية ، وقد انتقل من جيل الى جيل باعتباره تراثا شفهيا تناقلته أفواه الرجال · أما بالنسبة الينا فقد بقى هذا التراث حيا فى قصائد هوميروس التى أدركت هذا التراث عند نهايته لكنها أبقت على روحه الحقيقة الأصيلة ، بفضل النظرة السخية التى أضفتها قصائد هوميروس على هذا التراث ، وبفضل ما تتميز به هذه القصائد من احساس قوى مفعم بقيمة الانسان · ولما كانت هذه القصائد

منذ زمن مبكر : المصدر الرئيسى للتعليم اليونانى فقد شجعت على ايجاد مفهوم للرجولة ارتبطت فيه القيمة الشخصية بعظمة المكان ، وعزز هذه القصائد وجود مثال كانت قد عززته من قبل ظروف أخرى · وكان لصغر واستقلال دول المدينة الفضل فى أنها رفعت من درجة الاستقلال الذى كان من المحال وجوده فى أنظمة الحكم الدينية المركزية فى مصر وآسيا · انها أمة من الملاحين رواد البحر ، لديها فرص للاقدام لم تكن لتتاح للذين انحصر عملهم فوق الأرض ·

ان الفردية التى فرضتها الظروف على الحياة اليونانية ، قد تواءمت مع عبادة الرجولة البطولية الموروثة والتى بقيت فى العصور القديمة كواحدة من أهم وأروع العناصر فى سلوكها ومعتقداتها ·

ان جوهر النظرة البطولية يكمن فى البحث الدائب عن الشرف من خلال العمل والانسان العظيم الذى فطر على سجايا رفيعة من سجايا الجسد والعقل ، هو الذى يستغل هذه الخصال أقصى استغلال ويحظى بحفاوة أنداده ، اذ أنه لا يدخر جهدا ولا يتقاعس عن خواص أية مخاطرة فى سبيل رغبته فى تحقيق أعظم الفائدة من هذه السجايا ، وتفوقه على الآخرين فى ممارسته لهذه الخصال · ان شرفه هو محور كيانه وأية اساءة الى هذا الشرف تدفعه من فوره الى وضع الأمور فى نصابها · وهو يعاقر الخطر بكل ارتياح اذ أن هذا الخطر يقدم اليه أحسن الفرص للكشف عن حقيقة المادة التى خلق منها · ان مثل الاقتناع ونظام سلوكه الواقعى قد أقيم على أساس من مفهوم الانسان لذاته وما يدين به لهذا المفهوم ، ولو كان لهذا المفهوم أى مسلمات أخرى فانها حتما كائنة فيما يتصوره عنه أمثاله من الرجال الآخرين · انه يحظى بفضل البسالة وطيب الذكر باحساس رحب بشخصيته وصلاحه ، من خلالهما يحقق لنفسه وجودا آخر على شفاه الرجال ، هذا الوجود الذى يؤكد أنه لم يخفق فى الجليل من الأعمال · ان الشهرة هى جزاء الشرف ينشدها البطل قبل أى شىء آخر · هذه النظرة تنبت فى التاريخ اليونانى مبتدأة من أخيليس (Achilles) فى أعمال هوميروس ومنتهية الى الاسكندر (Alexander) رجل التاريخ ، وعانت هذه النظرة من المعارضة والتعديل والتغيير الا أنها ماضية لا تتوانى تبسط ميدان نشاطها ليشمل النظرة الفردية والقومية معا · وتعد هذه النظرة عقيدة واءمت مزاج رجال يؤمنون بفاعلية العمل ، وفى هذه العقيدة وجد اليونانيون تبريرا لرغبتهم الجامحة فى تغيير وتنويع أنماط حياتهم باقدام بارع لا يتزعزع — وبالرغم من أن هذه النظرة فى مراحلها الأولى كما نرى عند هوميروس تتفق فى كثير من النقاط مع مثل مشابهة

مجتمعات أخرى بطولية النظرة ، فانها فى اليونان أكثر طواعية منها فى أى مكان آخر ، وتثابر هذه النظرة ماضية تتحلى بحيوية فائقة وذلك عندما تقام دولة المدينة بكل مطالبها والتزاماتها المناطة بأعضائها ، وكذلك عندما يميل المفهوم الجديد للمواطن الى استبعاد المثال الذى يرفع من قيمة الفرد ومن قيمة الفكرة التى تحدد له حقوقه ٠

وقد نحكم على قوة المثال البطولى بما تلمسه من الروح الذى يشيع فى أعمال الفلاسفة اليونانيين عند تصديهم لمعالجته ، ولا نتوقع من هؤلاء الفلاسفة بحبهم لحياة التأمل والمعرفة لذاتها — أن يحبذوا نظاما يعطى مثل هذا التفوق للفعل الواقعى ٠ ومع ذلك فقد أثنوا عليه بالرغم من اعتقادهم أنه ليس أرقى أنواع الحياة ٠ لقد قسم بيثاجورس (Pythagoras) الناس الى ثلاثة أقسام : الباحثون عن المعرفة ، الباحثون عن الشرف ، الباحثون عن الفوز ، وعندما قارن الحياة والألعاب الأولمبية ساوى الطبقة الأولى بالمتفرجين ، والطبقة الثانية بالرياضيين المتنافسين والطبقة الثالثة بالبائعين المتجولين ٠ وفى هذه المقارنة لم يقصد بيثاجورس الى تقديم مجاملة كبيرة الى الباحثين عن الشرف ، بيد أن اليونان لم يجدوا فى مقارنته هذه تهكما ، وقدروا منه اعتقاده بأن الشرف أكثر جلالا من الفوز ٠ وكذلك كان هيراكليتوس (Heraclitus) فى أسفه على ضياع الحكمة بين الناس يحسن الظن بصورة جلية بأولئك الذين يختارون شيئا يفضلونه على كل الأشياء : مجد خالد بين الفانين ٠ أكثر مما كان يحسن الظن بالغالبية المتخمة التى هى أشبه بالبهائم وحتى فى القرن الرابع قبل الميلاد عندما وجهت نكبة حرب بلوبونيزيا ضربتها القاسمة للثقة بالنفس لدى أهل أثينا ، ظلت فكرة البحث عن الشرف تحتل مكانا جليلا فى الفلسفة وفى الدراسات النفسية التى أقامها أفلاطون على الطبيعة الثلاثية للروح نجد أن لمبدأ تأكيد الذات الساعى الى الشرف من خلال الفعل — وظيفة جوهرية تؤيد العقل أكثر مما تعارضه ، ذلك بينما يلتزم أرسطو بوجهة النظر التقليدية للشرف عندما يستحسن فكرة البحث عن الشرف باعتبارها : « الجزاء المعد لأنبل الأعمال وأعظم الفضائل الدنيوية ، وهى أعظم شىء نقدمه الى الآلهة » ٠

ومهما يكن من تصورات الفلاسفة بشأن فكرة البحث عن الشرف ، فلم يستطع هؤلاء الفلاسفة نبذ هذه الفكرة ٠ لقد كانت جزءا لا يتجزأ من الحياة اليونانية ، وتعنى الكثير بالنسبة للرجل العادى أكثر من كونها نظرة فلسفية للسلوك ٠

وتتفق النظرة البطولية القائمة على الشرف مع أنظمة السلوك الأخرى فى كثير من الأمور • والذين يتشيعون لفكرة البحث عن الشرف ، ينظرون الى أنفسهم باعتبارهم ملتزمين بالتزامات لا بد من الوفاء بها ومحرومين من القيام بأفعال معينة تعد شائنة • والانجذاب الى فكرة البحث عن الشرف أشبه بالانجذاب الى الضرورة المطلقة القاسية • وكثير من ممليياتها لا يختلف عن مملييات القواعد الخلقية المألوفة • ان اغتيال أجاميمنون (Agamemnon) على يد زوجته وعشيقها لأمر يدينه نظام الشرف بقوة وصرامة ، كما يدينه أى نظام من أنظمة الأخلاق ، لكن الشرف والأخلاق يختلفان فى نقاط هامة من حيث المبدأ : أولا يتسم الشرف بالايجابية أكثر من السلبية والتزاماته أكثر يسرا من موانعه • وينتظر من الانسان أن يجاهد النفس بهدف تحقيق أقصى استغلال ممكن لفرصه بل والعمل فى الواقع على ايجاد هذه الفرص • ولا ريب أنه بهذا يعكس أصوله فى مجتمع الحرب فيه هى الاهتمام الأول ، اذ تكون فى الحرب الأهمية الرئيسية للمبادرة والاقدام • لكن اليونانيين طبقوا هذا المفهوم على حياة السلم • فكثير منهم أدرك أنه من الخزى بشكل ما أن يظل راضيا بحظه ، وأن عليه أن يسعى محاولا تحقيق حظ أفضل وأن يزيد من استغلاله لامكانياته ، وظروفه ، بل ان بريكليس (Pericles) يطبق هذه الفكرة فى مجال جمع المال اذ يقول « لا ينبغى على أحد من الناس أن يخالجه الخزى بشأن الاعتراف بالفاقة ، فان الخزى الحقيقى يتمثل فى التقاعس عن اتخاذ الاجراءات العملية لتحاشى الفاقة والعوز » • من ثم يصير الشرف شيئا يتميز عن الأخلاق اذ أنه : الدافع الحافز الى الفعل الحى الجارف فى ميادين عديدة •

ثانيا : تعد الكرامة الانسانية هى محك الشرف الفاصل • ويعد من العار أى شىء ينتقص من هذه الكرامة ، وأن أى شىء يرفع من قدرها يعتبر شرفا • ان هذا الاتجاه انما هو نظام ذاتى شديد المراس ، فهو ذاتى لأن مفهوم الكرامة ليس دقيقا محددا فقد يختلف هذا المفهوم من انسان لآخر ، وهو شديد المراس لأن معنى الزمن قد يوسع من مجالاته أكثر مما يضيقها • ولا شك أن الشرف يشكل قانون سوابقه ولكنه يزداد حرجا وارهاقا عند تجمع هذه السوابق واجازتها •

ثالثا : فان شعور الانسان هو فى نهاية المطاف محكمة الاستئناف الوحيدة ، وليس من المجدى فى شىء أن يجلب الانسان غضب الآلهة ضد هذا الشعور أو يستثير استهجان البشر • فالبطل من الوثوق بنفسه بحيث عندما يرفض أخيليس (Achilles) أن يخوض من أجل اخوانه حرب

طروادة بسبب اساءة الى شرفه أوغرت صدره ، فلا جدوى من التوسل اليه واغرائه بالحرب • ان حاجتهم اليه أقل اقناعا والحاحا من احساسه بالأذى ، بل ان محنتهم تزيد اقتناعه بحقه صلابة وعنادا • وليس من الميسور تقدير نظام للسلوك من هذا النوع يؤدى الى مزالق غير محسوبة كما يؤدى الى صراعات بين رجال من أصحاب النظرة المتماثلة ، وذلك عندما تتعرض كرامتهم الشخصية لخطر من الأخطار • لقد كان الشرف قوة يحسب لها حسابها فى الحوارات المتشابكة فى مجال السياسة اليونانية ، وكثيرا ما كانت فكرة الشرف سببا فى الخلط بين موضوعات لم تكن ليصيبها اللبس والغموض لولا وجود فكرة الشرف •

ان النظرة البطولية لدى اليونان أكدت استعذابهم للحرب ، بل ان هذه النظرة قد عززتها الحرب ، وزادت من رسوخها • وفى هذا المجال أثبت أبطال الماضى ذائعو الصيت جدارتهم وتفوقهم مما حدا بخلفهم الى الرغبة فى منافستهم • وكانت الدويلات اليونانية تخوض الحرب ضد بعضها البعض كجزء من النظام السياسى الرتيب ، ومن المهم أن نشير الى أن كلا من أفلاطون وأرسطو لم يتصور أن فى الحرب أمرا غير عادى أو غير مرغوب فيه ، بل لم يفكر أحد منهما فى طرح وسيلة لتجنب الحرب • ولا ريب أنه كانت هناك دوافع مختلطة تنشط على الساحة : الشهوة الجارفة للغنائم والممالك والأسواق ، والرغبة فى كل ما هو مثير ، والخوف من السيطرة الخارجية والحسد المتجه الى الثروة والنفوذ والمركز المرموق • لقد انخرط اليونانيون فى الحرب ضد بعضهم البعض لنفس الأسباب التى يخوض الآخرون الحرب من أجلها ، ولم يكن موقفهم حيال الحرب بأقل تناقض من موقف غيرهم من الشعوب • ومثلما كان هوميروس (Homer) يصف الحرب بأنها « الكريه » ، « الدامع » ، « المشئوم » وما أشبه •• ومثلما كان يتحدث عن الوغى بأنها تأتى بالمجد للرجال وتحقق لذة الصراع ، كذلك راح الآخرون من اليونانيين يستهجنون الحرب تارة ويستحسنونها تارة أخرى • انهم يتضجرون منها اذ أنها تأخذ أفضل الرجال وتترك من الرجال أسوأهم ، وأنها توجد أوضاعا لم يسبق لها مثيل ، وتزيد العنف شراسة ، وتنال من مستوى الرقة والوداعة ومبادىء الأخلاق • انها تدمر جمال الحياة وسحرها ، وتجلب المرض والمجاعة ، وتسلب المهزوم حريته وسعادته • فلو أردنا أن نعرف الفزع من الهزيمة فليس علينا الا أن نلقى نظرة على مسرحية « امرأة من طروادة » لمؤلفها يوربيديس (Euripides) التى قدمت على المسرح سنة ٤١٥ قبل الميلاد ، وذلك عندما نرى أثينا تنقض على صقلية فى حملة مصيرية ، وقد استبدت

بها رغبة من رغبات الغزو المحمومة ، وتبين المسرحية أنه حتى فى هذه المرة كان الذعر من شراسة الحرب الوحشية يرد سعير الحرب ويقاومه . أما أريستوفانيس (Aristophanes) الذى لا يقوى أحد على وصفه بالطيش والنزق قد دعا بكل جسارة فى الحرب البلوبونيزية الى السلام وأثار تهكما ساخرا ضد القادة والساسة الذين أثروا من الحرب ثراء عريضا . وكان اليونانيون على علم بفظائع الحرب ، ومع ذلك أحسوا بأن لها عوائد وعزاء . واستمتعوا بمثيراتها المفزعة ، ونظروا الى النصر على أنه أروع الأمجاد الممكنة ، والى الهزيمة الشريفة على أنها أقل مجدا لا غير . وفيها استطاعوا أن يكشفوا الى حد فريد عن التعاون المنسجم بين العقل والجسد ذلك الذى استعذبوه ، بل كانوا يهربون من السعى المميت لرتابة الحياة اليومية الى شىء أكثر اثارة ، أكثر تنوعا بل هو بشكل ما أكثر تعويضا وربحا . وفى موقفهم تجاه الحرب احتفظ اليونانيون بالروح البطولية القديمة الثائرة على القيود التى تغل الجهد الانسانى ، والمناضلة بهدف تحطيم هذه القيود بما لهذه الروح من انجاز ضخم ومجاهدة هائلة .

فبالرغم من أن المثال البطولى قد رفع شأن الحرب عاليا ـ فلم يكن ذلك هو السبب فى ضيق مجال الاختيار للسجايا الطيبة ـ التى كان يتعين على الانسان أن يسعى اليها ويتحلى بشرفها . فأخيليس أعظم الأبطال الذاهبين الى حرب طروادة ليس فقط أشد قوة وأسرع عدوا من المحاربين ، بل الأروع جمالا والذى يستوفى روعته ومزايا تفوقه الأخرى ببلاغة لسانه ودماثة خلقه ، وكرم طبعه ورجاحة عقله . لقد كان مرامه تحقيق أمر أبيه الذى كان يقول « عليك أن تكون أبدا أفضل الجميع وأن تتفوق على الآخرين » لكن أخيليس يذهب فى تأويل معنى هذه العبارة مذهبا بعيدا شاملا فاذا هو بكل المعايير البطل الحق .

لذلك راح اليونانيون ينشدون الارتفاع الى مستوى المثال البطولى فى مجالات أخرى غير مجال الحرب ، باحثين على الأقل عن أنواع من النشاط تستحث نفس الصفات وتحتاج اليها ، وان لم تكن مساوية للحرب من الناحية الأخلاقية . لقد انشغل اليونانيون منذ عهود مبكرة بمناقشة امتياز الانسان وتفوقه الحقيقى وحتى فى اسبرطة فى القرن السابع قبل الميلاد نجد تيرتيوس (Tyrtaeus) الذى يخلص الى وجوب التصدى للعدو فى الميدان ـ يخلع أهمية قصوى على المباريات المتنافسة فى مجال الشجاعة الرياضية والجمال الجسمانى والجاه الملكى . ومن المؤكد أن اليونانيين يقرون بأن الحرب هى على الأقل موضوع للحوار الصريح ، وأن الصفات الأخرى المغايرة لصفات الحرب الصرفة ، لها هى

الأخرى الحق الصراح فى التبجيل والتوقير · فبالرغم من أن الحرب لم تغب أبدا عن وعى اليونانيين ، وبالرغم من أن الاقدام فيها حظى دائما بالجزاء الأوفى ، فان ذلك المنحى لم يكن المثال الصارم المانع ، وانما أبقى مكانا للسجايا العقلية والخلقية والجسمية التى لها فى الحرب جدواها بحق ، وان وجدت لها مجالا فسيحا فى غيرها من الشئون الأخرى ·

لقد كان المثال البطولى فى بدايته الأولى قاصرا على القلة المختارة · ونحن نجد فى أعمال هوميروس الأبطال العظيمة وقد هيمنت على مسرح الأحداث ، بينما لا نكاد نجد ذكرا لعامة الجند · فقليل من أصحاب الأصل المتواضع مثل ثيرستيس (Thersites) ودولون (Dolon) الذين ظهروا على مسرح الأحداث سرعان ما ينبذون وعليهم الزراية · ان استيعاب دولة المدينة لمثل هـذا المثال لأمر يقتضى مرونة هائلة · وفى أنظمـة الحـكم الارستقراطية التى كانت تقتضى نسلا من أبطال الماضى واعتقادا بأن دم الآلهة لم يخطىء الطريق الى هذا النسل ، قد يسلك الانسان سلوك أبطال هوميروس وينشد المجد الشخصى ويجد لهذا المسلك تقديرا رفيعا لدى اخوانه الذين كانوا يشعرون أنه قد آتاهم بشرف لمدينته وطبقته وأسرته · ومن الكلمات المنقوشة على الأضرحة فى القرن السادس قبل الميلاد ، يتبين لنا أنهم كانوا يرون من يسقط فى المعركة بطلا من أبطال الماضى : « هـذا هو لحد أرنيادس (Arniadas) ـ ان أريز (١) (Ares) صاحب العيون الخاطفة قد اغتاله محاربا على سفن تجرى فوق جداول أراثثوس (Aratthus) وسيظل أبدا أفضل الرجال الذين خاضوا غمار حرب أسيفة حامية الوطيس » · ولم يكن من الضرورى أن يأتى هذا الرثاء من الأصدقاء والأقرباء وحدهم · أن بيتين من شعر القرن السابع قبل الميلاد فى تأبين أرخيلوكوس (Archilochus) يوحيان بارتياح البلاد الى تشريف أبنائها النبلاء : « أيتها الأرض العظيمة يتوارى مطمورا تحت الثرى ، دعامتان سامقتان من دعائم ناكسوس (Naxos) هما ميجاتيمس (Megatimus) وأريسـتوفون (Aristophon) » · ان الحـكم الأرستقراطى بما له من تقديس للامتياز الشخصى ، قد أفرد للانسان مكانا ينطلق منه ليفوز بحسن السمعة بفضل انجازاته ، ولكننا قد نتوقع أن الديمقراطية أقل تسامحا ، وتصر على بعض الاقلال من التأكيدات القديمة على فكرة الشرف الفردى · أما فى أثينا بلد الديمقراطية التى نلم بخفاياها الماما طيبا ، فان المساواة فى الشهرة كانت تتحقق بافتراض

---

(١) اله الحرب عند الاغريق ·

يفترض أن الناس جميعهم قادرون على أن يسلكوا سلوكا بطوليا ، ومن ثم حظوا بالعرفان والجزاء عندما كان هذا السلوك يستفيد من تحدياته ويكشف عن تفوقه • لذلك كان بيركليس (Pericles) حين حديثه عن قتلى الحرب ـ الاثينيين ـ يشير الى المغمورين من القتلى ، ولم يشر الى القلة المتميزة ، ويقدم ثناءه الى الجميع على حد سواء : « كانوا وهم فى المعركة يؤمنون أن الشرف الأكبر انما يتحقق بصمودهم ومكابدتهم الموت أكثر مما يحقق بالاستسلام والنجاة بالحياة • ومن ثم فلم يلاحقهم توبيخ الرجال ، وظلوا ينافحون ، يقاومون حومة الوغى وفاضت أرواحهم في برهة من الزمن شارفت حياتهم الذروة ، وبلغت كمال المجد لاضعف الخوف » • هذه لغة موائمة للديمقراطية جديرة بها ، لكنها أقيمت على أساس من الفكرة القديمة التى تعنى أن الانسان الذى يقضى نحبه مقداما فى المعركة ، قد أوفى بكل ما يطلب منه •

لقد كان المثال اليونانى مرتبطا بخدمة المدينة ، وهذا هو أحد الأسباب التى كتبت له البقاء في اليونان ـ فلم يحارب أخيليس فى العصر البطولى الحقيقى من أجل مدينته أو حتى اخوانه ، وانما كان يحارب من أجل مجده الشخصى • فالبطل فى ذاك العصر شخصية متفردة متقوقعة فى ذاتها تعيش وتموت من أجل ارضاء ذاتها الخاصة فحسب ، لكن مثلما يقابل هوميروس بين أخيليس وخصمه هيكتور (Hictor) المحارب من أجل طروادة التى ارتبطت بها حياته ارتباطا لا تنفصم عراه ، كذلك يأخذ المثال البطولى فى التاريخ الاغريقى معنى جديدا عندما يوضع هذا المثال تحت امرة المدينة • وهنا نطرح الحرب محكا للاختبار • فقد تكرم المدينة الفرد ، كما كانت أبديرا (Abdera) تكرم أجاثون (Agathon) : « لقد كابد كل من فى هذه المدينة الحداد على أجاثون العظيم ، الذى قضى نحبه من أجل أبديرا » • بل وكثيرا ما تحيى المدينة ذكرى فريق كامل من الموتى ، اذ أن الفريق يعد بطلها وممثلها الخليق بالتقدير ، والذى يكشف بجهوده الموحدة ، الحقيقة التى من أجلها تحيا المدينة ، لذلك فليست هناك تفصيلات عن أحوال أهل كورنث (١) (Corinth) الذين ذاقوا الموت فى موقعة سالاميس (Salamis) : « لتعلم أيها الغريب أننا ذات يوم كنا نقطن مدينة كورنث الندية الناعمة ، والآن نثوى تحت ثرى سالاميس ، جزيرة أجاكس (Ajax) » •
وكذلك الحال بشأن أهل اسبرطة الذين فاضت أرواحهم فى موقعة ثيرموبيلاى (Thermoplyae) : « أيها الغريب لتنبىء أهل لاكديمونيا (Lacedaemonjs) أننا نرقد هنا امتثالا لدعوتهم » • وكذلك نجد

---

(١) مدينة كورنث باليونان اشتهرت قديما بالترف والنعيم •

بريكليس (Pericles) بادراك عظيم لما يعنيه مثل هذا الموت بالنسبة للديموقراطية ، يكشف عن تقدير مماثل للتفوق البطولى الذى قد يتجلى فى التفانى من أجل أثينا : « ويبدو لى أن الوصول الى أوج البطولة الذى عاجل هؤلاء الرجال ، انما يكشف عن معنى رجولتهم فى أعلى مراتب الالهام ، كما يكشف عن البرهان القاطع لهذه الرجولة • لم يكن ربط المثال البطولى للرجولة بالمدينة بالنسبة لليونانيين ، أكثر صعوبة مما كان بالنسبة لرجال العصور الوسطى بشأن ربط هذا المثال بالعالم المسيحى ، فلو أن للانسان قضية تلهمه ـ فسوف يبذل قصارى جهده من أجل هذه القضية ، فاذا ما كان المثال البطولى فى بدايته امتيازا قاصرا على النخبة الموهوبة المختارة ، فسوف يكون فى الامكان بسطه ليشمل شعبا كاملا ، والتغلغل فى حياة هذا الشعب بجعله يهب المدينة كل ما كان من الممكن أن يحتفظ به لنفسه •

ان مجتمعنا يعشق المثال البطولى بغض النظر عما يكون عليه من شكل ، لا يسعده دائما ولا يسهل عليه معاملة المرأة • فقد يكرم عالم شرس يحتذى المثال البطولى مثل أيسلندا ـ المرأة التى تسلك فى جل أغراضها سلوكا أشبه بسلوك الرجل وتستعذب الخطر وسفك الدماء • ان اليونانين فى عهد هوميروس لم يكونوا على هذه الشاكلة فقد تحركت نســـاؤهم بحرية ويسر بين الرجال ، لكنهن لم يشتركن فى الحرب أو الشئون العامة ، وقد أقصين عن الحكم والحكومة ، ويبدو أن هذا الموقف بوجه عام قد استمر فى اليونان وأنــه ظل الاطار الطبيعى عبر أحقــاب التاريخ ، لقد اشتركت النساء والفتيات اليونانيات فى الاحتفالات المحلية وأسهمن فى الأغانى والرقصات ، بيد أنه لا يبدو أنه قد أتيح لهن أى سلطان • وكانت أرتيميزيا (Artemisia) استثناء من القاعدة العامة وهى ملكة هاليكارنسوس (Halicarnassus) التى أسهمت فى حرب الفرس بخمس سفن فى الأسطول البحرى لاكسيركسيس (Xersces) والتى اتصفت فى كتابات هيرودوت بقدر كبير من رجاحة العقل • وقد يخالجنا الشك فى أن هيرودوت الذى كان من مواطنى هاليكارنسوس قد تأثر بالوطنية المحلية حتى بالغ فى أهميتها • ويبدو أن المرأة اليونانية قد حظيت فيما عدا ذلك من الشئون بقدر وافر من الحرية شريطة أن تتحاشى الواجبات المنوطة بالرجال ، ويجب الاقرار بأن أثينا قد عانت من سوء السمعة بشأن نبذ المرأة واخضاعها • وصحيح أن بعض الأقوال التى تتصف عادة بطابع الحكمة ، تؤكد أن البيت هو المكان السليم للمرأة ، وأن صمتها هو دورها الأنبل • لكن مثل هذه الأقوال لا ينبغى أن تفسر تفسيرا حرفيا ، اذ أنه من الواضح أنها تنطوى على روح التمنى بل ومن

العسير أن نتخيل امرأة من نساء الاغريق صامتة لأمد طويل • وليس اظهار المرأة اليونانية متخذة القرارات الخطيرة ومضطلعة بالمسئولية الجسيمة بالأمر القاصر على المأساة الأتيكية (١) ، وليس قاصرا كذلك على المأساة اليونانية — اظهار عجزها فى ذلك على مواجهة التجربة العملية مواجهة كاملة ، وانما تشارك فى اظهار ذلك أيضا الملهاة الأكثر واقعية وتستخف بالنساء استخفافا كبيرا ، اذ نجد ليزيزترتا (Lysistrata) — الشخصية الرئيسية فى أعمال أريستوفانيس — امرأة ذات فصاحة وافرة ، ولكنها تفتقر بشكل ملحوظ الى انضباط النفس وكبح جماحها ، وما من شك فى أن النساء كن يعملن بينما انخرط الرجال فى لهو الحديث • وفى الأسر الأكثر تواضعا كانت النساء تؤدين كثيرا مما يؤديه العبيد فى أماكن أخرى ، لكن ذلك لم يكن بالضرورة عائقا لهم دون الافصاح عن مكنون نفوسهن بحرية ، أو حائلا دون مباشرة سلطانهن فى المجالات الخاصة بهن • وفى أتيكا تبين اللوحات الجنائزية وشواهد القبور أن الأثينيين استطاعوا أن يكنوا لنسائهم ودا عميقا تماما مثل غيرهم من الرجال ، الا أن ما كان يفتقر اليه الأثينيون ليس فقط التقديس الواعى المصطنع للمرأة كما كان الحال فى العصور الوسطى ، وانما كانوا يفتقرون الى اظهار هذا الود والجهر به فى الأماكن العامة • وكان للنساء مجالهن وللرجال مجالهم • وأبقى الرجال علاقاتهم بالنساء بعيدة عن الأنظار — باعتبارها عنصرا جوهريا فى حياتهم اليومية • الا أنها بمعزل عن السياسة والشئون العامة والدعوة الى التشمير عن ساعد الجد ، بل لقد لعب حب المرأة فى الشعر دورا أقل بكثير مما قد نتوقع ، ولا ينبغى لأى مفهوم للمجتمع اليونانى أن يغفل طابع الرجولة الأساسى فى هذا المجتمع ، اذ أن هذا الطابع يعد ملمحا جوهريا من ملامح وجهة النظر التى تنظر الى الفعل على أنه الغاية الرئيسية للحياة ، وتربطه بالمثال الذى يستوجب من الانسان بذل قصارى جهده فى استغلال عقله وجسده •

وبسبب هذه النظرة ، فان كثيرا من المشاعر التى تشيع بين الرجال والنساء فى البلاد الأخرى قد نشأت فى اليونان بين الرجال وبعضهم البعض ، لقد خلع اليونانيون على الصداقة وفاء وارتباطا من ذلك النوع الذى يصاحب فى البلاد الأخرى حب الرجل للمرأة • ويقدم لنا هوميروس مثالا كلاسيكيا لهذا الوضع ، وذلك عندما يجعل من صداقة أخيليس وباتروكلوس (Patroclus) محورا أساسيا فى قصته وهو يحكى لنا كيف أن الغضب والحزن على موت باتروكلوس كانا سببا فى عودة

---

(١) اتيكا احد اقاليم اليونان •

أخيليس الى ميدان المعركة ــ عله يثأر لصديقه من هيكتور (Hector) وجوهر مثل هذه العلاقة أن يشارك الصديق صــديقه حظه في السراء والضراء ، وأن يؤازره بصدق واخلاص كاملين فى مجالات حبه ومجالات عداوته ، فى مسراته وأحزانه وأن يتصف بمنتهى الوفاء وألا يخذله ان دعى الى معاونته · هذه هى اللازمة المتكررة فى كثير من الأدب ، ابتداء من أغانى الأفراح فى القرن السادس قبل الميــلاد وانتهــاء الى التحليل الأرسطى المبسط للصداقة فى كتاب الأخلاق ، لقد قدمت المأساة الأتيكية هذا الموضوع تقديما مسرحيا من خلال اثنين متفانيين من الأصدقاء مثل اجاكس (Ajax) وتيوسر (Teucer) أو أوريستيس (Orestes) وبلاديس (Pylades) ، ويقرر كسنوفون (Xenophon) : « انه أمر عادى أن يكون الصديق الطيب نقى القلب أغلى مقتنيات الانسان » · وكان من الميسور وجود مثل هــذه الصــداقة فى مجتمع تنتظم رجاله اهتمامات مشتركة ، ويجد كل منهم فى صداقة الآخر راحة ، واسترخاء ، ولهذه الصداقة جانبها المؤثر النبيل ، لكنها تعنى أيضا أننا نفتقد فى اليونانيين الوداعة والرقة اللتين تساعدان على تخفيف حدة حياة الرجال ، وذلك عندما تشارك النساء فى نشاط الرجال ، وتقدم الى الرجال رأيهن فيما يجرى من أحداث · وقد يكون للصداقات بين الرجال رصيدها من العواطف ، ولكنه من الصــعب على هذه العواطف أن تطفو على سـطح المعاملات ، ومن ثم تميل الى الاختباء خلف أقنعة من اللياقة والضوابط · وبالاضافة الى ذلك فعندما يشترك الرجال فى كثير من الأمور ، ينشأ نوع من الارتياب بشأن المصلحة الشخصية لهذه العلاقات ، ونحن نلمس وجود هذا الاحساس لدى أرسطو الذى نجد فى تحليله للصداقة حديثا مطولا عن المنافع المتبادلة التى تروق لذوقنا · ومع ذلك فقد يكون هذا الاتجاه خادعا وراجعا الى التحفظ الطبيعى · اذ أن أرسطو يلمس منابع المشاعر اليونانية عندما يقرر أن الصداقة تكمن فى حبك للغير أكثر من حبهم لك · وأن الانسان لا يتمنى الخير لصديقه باعتباره وسيلة لاسعاده ، وانما يتمنى الخير خالصا لذات الصديق · لا نستطيع أن نرتاب فى أن اليونانيين وجدوا فى الصداقة مثالا ، لعب دورا كبيرا فى اشباع احتياجاتهم العاطفية ، وذلك بالرغم من أن الصداقة تبدو لنا الى حد ما صارمة ذات وجه واحد ، وينصب كثير من اهتمامها على مصالح الرجال الخالصة ·

والحب الذى شعر به اليونانيون نحو بعضهم البعض كان له جانبه المادى · ونحن لا نقع على أثر لهذا فى أعمال هوميروس ، الذى ينكر ضمنا مثل هذه الصداقة بين أخيليس ، وباتروكلوس · لكن هذه الصداقة ظلت منذ القرن الثامن وما بعده تلعب دورا هاما فى الحياة اليونانية · فلو أن

التراث اليونانى قد أرجع أول ظهور لهذه الصداقة الى الدوريين ، فيبدو أنها كانت سائدة فى معظم أنحاء اليونان وتقبلها الناس ورضوا عنها ، كما يبدو أنها قد أخذت عادة شكلا يتمثل فى حب الأكبر سنا من الرجال لمن يصغره من الشباب ، وقد يفسر ظهور جذورها بأسباب متعددة مثل عزلة المرأة وندرة تواجدها النسبى فى المجتمع اليونانى ، وتفرد الرجال ووجود الانفعالات العاطفية المصاحبة للحياة العسكرية وتقديس الأجساد العارية فى الألعاب الأولمبية كما تفسر بالميل الطبيعى المصاحب للاندفاع الجنسى بهدف اثبات ذاته ، حيث تنشأ لمشاعر الحب علاقات متشابكة • ولاجرم أنه كان لها جانبها الفج المجوج • فالنقوش القديمة الموجودة فى جزيرة تيرا الدورية فى القرن السابع قبل الميلاد توحى بوجوب ممارسة شعائر وطقوس ذات علاقة بهذه الصداقة ، وكثير من اللوحات تصور نوعا من الغزل لا سبيل الى اخفائه • الا أنه من السهل على العناصر الأخرى أن تدخل وتهيمن على الموقف حيث تكون الغريزة فى أقوى نشاطها ، وتعبر أغانى العشـق التى كتبهـا ابيكوس (Ibycus) وأناكريون (Anacreon) عن أحاسيس قد توجه فى ظروف أخـرى الى الفتيات ، بل ان بندار (Pindar) الوقور يخرج عن منهجه ليبتكر قصة تحكى عن تورط بوسيدون (Posidon) فى حب الصبى بيلوبس Pelops •

أما هارميديوس (Harmodius) وأريستوجتون Aristogiton) الأثينيـان اللذان اشـتهرا فى التـاريخ والأغـانى باغتيال هيباركوس (Hipparchus) فلـم يكونا أقـل تكريمـا ، وذلك لأن أسـاس دوافعهما هو حب كل منهمـا للآخر • ومن المهـم أن هـذه الممارسـة قد وجدت لها متنفسا فى ميادين عديدة من حيـاة النشـاط والعمل ، حيث كان الشباب يدرب على مهارات وصعوبات مثل العدو واستخدام السلاح • وكانت ممارسة الحب فى اسبرطة وجزيرة كريت ملمحا أساسيا منتظما فى تدريب الشباب وفى طيبة (Thebes) • دربت عليه الكتيبة المقدسة ذات الثلاثمائة رجل • أما أفلاطون الذى فهم الأمر فهما باطنيا جسديا فقد ساوره القلق بشأنه وازدادت آراؤه تشددا كلما طعن فى العمر • فنراه فى « المائدة » يقيم سلما صاعدا للعلاقات ، يبدأ بالجاذبية الجسدية ماضيا عبر الزهد والجهود الذهنية الى شيء قريب من التأمل الصـوفى وفى « جمهوريته » يجاهد أفلاطون فى تنظيم هذه العلاقة والتحكم فيها ، بسبب فظاظتها وسوء منشئها ، وفى مجموعة القوانين يدين أفلاطون أى كشف أو اظهار لهذه العلاقة ولا يكاد أرسطو يتعرض للموضوع بأكثر من النظر اليه على أنه حالة مرضية ناشئة عن العادة ، ومساوية لعادة نتف الشعر أو قضم الأظافر • لقد أدان فى الواقع بعض الناس هذه العلاقة برمتها ، لكنه يبدو أن هذه الجماعة لم تكن ذات نفوذ وسلطان • وليس

هناك شك فى أن هذه العلاقة لها فى الحياة اليونانيــة مكانها المكين • ومنشأ ذلك أن الحضارة اليونانية كانت تتميز بطابع الرجولة السائد كما كانت تختص كذلك بمزايا الذكورة ذات النوعية الخاصة •

لقد وجد اليونانيون قوة الوفاء للأسرة بصفة خاصة ــ تعويضا عما كان مفتقدا الى حد ما من المشاعر الرقيقة والأحاسيس الوديعة فى الحياة اليونانية • اذ كانت الأسرة وحدة أكثر قدما من المدينة ، احتفظت بمكانتها وبعضا من سلطانها فى القرن الخامس قبل الميلاد • وكان لدى اليونانيين شعور خفى أن رابطة الدم أقوى من أواصر الوطنية ، وأنها فى نهــاية المطاف تفرض التزامات لا مهرب منها • ويكشف سوفوكليس عما تعنيه هذه الرابطة عندما يصور أنتيجون توارى جثة أخيها فى الوقت الذى حرم عليها أداء تلك المهمة ، متحدية الدولة على حساب حياتها • وقد يعزز القانون الالتزامات العائلية مثلما يفرض الاعتناء بالوالدين فى الكبر ، أو أن يضطلع القانون بمسئولياتهما ، كما كان متبعا فى أثينا من قيام المحكمة الكلية بالقصاص من القتل نيابة عن الأسرة • وظل الوفاء للأسرة أكثر قوة من الوفاء للدولة ، وحرى به أن يبقى كذلك حتى لو كان هناك صراع بين العائلات ، ويرجع الى حد كبير وجود المزاج الحاد فى السياسة اليونانية الى الغيرة والمشاحنات بين الأسر ، وبين وفاء أفراد كل أسرة لوطنها ، أكثر مما يرجع هذا المزاج الحاد الى أى مثال من مثل الوحدة القومية • ان هذا لما تتميز به النظرة البطولية ــ التى تدعو الانسان الى التفاخر بأقربائه وأنسبائه ، اذ أنهم ينتسبون اليه ، وفى بذل الجهد من أجلهم امتثالا لنداء بعيد الغور فى طبيعته • ان حب أخيليس لأبيه المسن راسخ لا يتزعزع ، ويشعر هيكتور (Hector) أنه يخوض الحرب من أجل زوجة وطفلة أكثر مما يخوضها من أجل مدينته • وقد تقدم حياة الأسرة اليونانية بين آونة وأخرى صراعات قاسية لا سبيل الى حسمها الا بسفك الدماء بين أقرب الأقربين • كما نرى من أمر أم ميليجر Meleager التى تقتل ولدها لقتله أخوتها ، أو نرى أوريستيس (Orestes) يقتل أمه لاغتيالها أباه ، ان مثل هذه الصراعات تعود الى المنهج البطولى • فلو سعى الناس الى أن يفضل بعضهم بعضا فان أعظم دوافعهم الهاما انما ينبع من ايمانهم بوجوب تساميهم الى مستوى أسلافهم حتى يكونوا جديرين بالمحتد (١) الذى انحدروا منه •

---

(١) المحتد : مكان الحتود : وهو الأصل « هو كريم المحتد » يعنى الطبع ــ والجمع محاتيد •

بيد أن هذا التقدير للوفاء والروابط الحميمة كان له جانب هدام قاتم . فلو توقع الانسان من صديقه ، وانتظرت الأسرة من أفرادها المشاركة فى كل المنافع على حد سواء ، وأن يكون الصديق وأفراد الأسرة على قدر راسخ من الوفاء فى كل الظروف ، فأغلب الظن أن تتحول البغضاء الى فضيلة ، ويستحيل الانتقام الى واجب ينبغى اداؤه . لقد أصر اليونانيون على أن يشارك الصديق فى البغضاء والمحبة على حد سواء ، وان أخفق فى ذلك فسوف ينظر اليه على أنه رعديد أو خائن . ولم يروا فى البغضاء شيئا يجانب الصواب شريطة أن يكون هناك سبب يدعو الى البغضاء ويتمثل السبب عادة فى توجيه الاساءة أو الايذاء الى كبريائهم ، فاذا أحس الانسان أن كبرياءه أصابه الأذى — وتحقق من ذلك — فان الانتقام الدموى هو الحل الوحيد . وتؤكد الاستثناءات القليلة قوة القاعدة المعتادة كما اتضح فى أقوال أتباع بثياجوراس Pythagoras :

« على الانسان ألا يشرع أبدا فى أن يعادى راغبا أولئك الذين ليسوا أشرارا ، لكنه اذا شرع فى هذا فعليه أن يمضى فى عداوته بكل نبل حتى النهاية ، الا اذا تبدلت شخصية خصمه — وحلت مكانها شخصية خيرة سليمة الطوية » . ولعل هذا قليل من كثير ، ومما يزيد من انبهارنا لأول وهلة : الملاحظة التى يقال ان بيتاكوس (Pittacus) طاغية ميتلين (Mytilene) قد أبداها لخصمه العنيد ألكيوس (Alecaus) : « العفو أحسن من الانتقام » . ولكن من المحتمل أن يكون هذا الموقف من بيتاكوس راجع الى البصيرة السياسية — أكثر من كونه احساسا بعدم الرغبة فى الانتقام لذاته . ثم ان مثل هذه المواقف تعد حالات استثنائية . لم يتصور اليونانيون أبدا أنه فى الامكان حب أعدائهم ، والعفو كلمة نادرة فى مفرداتهم الا اذا كان الأمر يتعلق باساءات طفيفة لا ارادية . بل انهم كانوا فى أغلب الأحيان يجدون لذة فى كراهية أعدائهم ، ويتمتعون بالتطلع الى الانتقام ، ولا يرون خطأ فى بيتين من الشعر منسوبين الى ثيوجنيس (Theognes) يقول فيهما : « لتتصور ما لدى من بغضاء وعنف ، ولتعلم علم اليقين أنى سأقابل اساءتك بأقصى طاقات الثأر والتشفى » . لقد وجدت هذه النظرة بدايتها فى الأسرة ثم أصبحت بعد ذلك مصدرا للأحقاد الوحشية بين الأسر ، بل امتدت الى حرب طبقية ثم حرب بين مدينة وأخرى . قد يكون للانسان أعداء من طبقته أو من طبقة أخرى أو أعداء فى مدن أخرى ، وفى كل حالة من هذه الحالات كان يحس أنه ينبغى عليه أن يتعامل معهم بأقصى ما يستطيع من جفوة وفظاظة . وكان يعتقد أنه ان أخفق فى ايقاع الضرر بهم — مفترضا أنهم يرغبون فى ايذائه فقد أخفق فى تحقيق فكرة الشرف . لقد كانت العلاقة بين كل الأطراف علاقة متبادلة لا انفصام لها . وكان يؤدى — كل فعل من

أفعال الانتقام — الى فعل آخر ، وسواء نشأ الحقد بين الأفراد أم بين المدن ، فقد استغلوه لتبرير معاملة العدو معاملة لا هوادة فيها • ولما كان من المعتقد أن كثيرا من الحروب ينشب بسبب ضرر أنزله فريق على الفريق الآخر ، فان ذلك يعنى أن هذه الحروب كانت نادرا ما تنشب بين الفرقاء ، فى اطار مما نسميه روح الفروسية ذات الشهامة • فاذا ما حقت لعنة المنتصرين على الفريق المهزوم ، فقد يقتل رجاله ، وتباع نساؤه وأطفاله فى سوق النخاسة • ان فكرة الشرف التى كانت تطبق على هذا النحو لم تكن مصدرا للقسوة البالغة فحسب ، وانما كانت كذلك مصدرا للخوف وفقدان الأمن • ولقد أكد هذا المنحى صرامة النظام البطولى وقسوته ، عندما يتعرض كبرياؤه للتجريح ، كما أكد العنف الذى يتحول اليه حبهم للمنازلة فى المحن حين تتعرض مطالب هذا النظام للخطر •

أما الذكاء فقد أولته النظرة البطولية مكانة بارزة منتظرة • فاذا كانت الالياذة تصور أعظم صفات البطونة صدقا فى أخيليس ، فان الأوديسا تقدم لنا أوديسيوس Odysseus رجلا هو فى الواقع من الشجاعة الى حد التهور وان اشتهر بالدهاء ورجاحة العقل بشكل يفوق الحد • لقد أحب اليونانيون الذكاء ، وأعجبوا به سواء كان ذا طبيعة نظرية أم عملية ، ولا شك أنهم أحسوا بتفوقهم على الشعوب الأخرى ، من حيث حظهم من الذكاء ، بيد أنهم ارتابوا فى جموح ممارسته وشعروا أنه ينبغى أن يتم له التوازن بوجود مزايا أخرى من الشخصية وضبط النفس • فلو اعتمد الانسان على الذكاء وحده اعتمادا بشكل رئيسى ، فمن المعتقد أن يعرض أهدافه الى الاحباط بسبب افراطه فى الذكاء ، وفشله فى ادراك كثير مما لا يخفى على الانسان العادى • لقد حظى السياسى الماهر بمزايا عظيمة ، وكثيرا ما تمتع بنفوذ يزيد عما تستحقه مؤهلاته السياسية الصرفة ، وذلك فى دولة المدينة التى كانت مولعة بالحوارات الداخلية والخارجية ، وفى الحكم الديمقراطى بوجه خاص بما له من مناظرات عامة وميل الى فن الخطابة وفن الأخراج المسرحى • وقد ازداد خطر هذا الاتجاه أثناء الحرب البلوبونيزية عندما كان للديمقراطية الأثينية زعماء مثل كليون (Cleon) وهيبربولوس (Hyperbolus) يتمتعون ببراعة فى المناورة والتلاعب بعواطف الشعب ، وان افتقر هؤلاء الزعماء الى الرؤية الواضحة للأحداث • فبعد أن خدعتهم سوفوسطائيتهم ، خدعوا بدورهم الآخرين ، الا أن أصحاب النفوس الجادة من الرجال أدانوا نزهاتهم المطلقة وانعدام الحكم البين • ومثلما يقدم ثيوسيديس (Thucydides) الينا — كليون كترجمة مشوهة لبركليس ، كذلك يهتم كل من سوفوكليس ، ويوبيديس (Euripides) بأن يبين : أن مجرد عرض الذكاء فى المناقشات

والسياسة لأمر ممجوج بالغ الضرر • ومن السخرية الغريبة للتاريخ الأدبي أنهما اتخذا شخصية أوديسيوس وسيلة لتبيان هذا المعنى ، وجعله يوربيديس في مسرحيته هيكوبا (Hecupa) وسوفوكليس في مسرحيته فيلوكتيتيس (Philoctetes) نموذجا جوهريا للمخطط البليد عديم الضمير الذي يستغل المناقشات الواسعة لتبرير غاياته الخسيسة • ان عرضهما لشخصيته تزداد روعة اذ أنه وطني بطريقته الخاصة بالرغم من افتقاره الى الوداعة والرحمة والأمانة • فأمن بلده أو نجاح هذا البلد على الأقل يعني بالنسبة اليه شيئا من الأهمية حقا • وهذا الشعور يزوده بالمعاذير لأفعاله الممجوجة • لقد كان كل من سوفوكليس ويوربيديس وطنيا هو الآخر ولكن ليس بهذه الطريقة وبهذا التدمير لتوازن وكمال المثال البطولي • والمدينة في رأيهما لها على مواطنها حقوق كثيرة ، لكنها لا تفرض عليه أن يسلم لها وداعته ورقة خلقه • كان كل من سوفكليس ويوربيديس يرمز الى مفهوم قديم مؤداه أن الانسان انما يقدم لبلده أفضل الخدمات بتحقيق ذاته في أشمل مجالات النبل وليس بالتضحية بذاته من أجل فكرة مجردة من أفكار المنفعة والسلطة السياسية • وتقديس الذكاء قد يكون أمرا من الأمور التي تروق لعنصر بذاته في أعماق الشخصية اليونانية ، لكنه يبدو لبعض المفكرين المستقلين أنه يرفض أمورا كان اليونانيون يولونها تقديرا عظيما ، ويمجد جانبا من جوانب الطبيعة الانسانية على حساب جوانب أخرى كثيرة ، ليست أقل أهمية منه وبدونها يفقد الذكاء جدواه وجلاله •

ليست هذه بالخلافات الوحيدة التي تنشأ عندما تستوعب دولة المدينة المثال البطولي ، وهناك مناسبات أخرى تنشأ فيها أنواع من الخلافات ، وذلك عندما يجد الانسان فكرته عن الشرف الذي يحيا من أجله متعارضة مع ما قد يعد واجبا نحو اخوانه أو شعبه • ويقدم لنا العصر البطولي حالة متميزة في شخص أخيليس الذي ــ بسبب اساءة اجاممنون اليه ــ ينسحب من المعركة ، موقعا بغريمه الخسائر والاذلال ــ ولا يقدم أبدا عذرا عما فعل • وعندما يعود الى المعركة انما يعود اليها ليثأر لموت باتروكلوس ودون تردد يقبل ما يقدمه اليه أجاممنون من تعويضات سخية باعتبارها حقه دون منازع • ان الشرف بالنسبة لأخيليس أهم من أي شيء آخر وهو في الواقع مصدر كل كيانه • وقد نتوقع في العصور المتأخرة أن يندر وجود مثل هذا السلوك في شعب يتمتع بقدر كبير من الوطنية ، مثلما كان للشعب اليوناني • ومع ذلك فقد كانت هناك حالات يمارس فيها هذا السلوك تثير العجب والاعجاب •

فنحن نجد فى الحروب الفارسية ـ ديماراتوس (Demaratus) ملك اسبرطة المنفى وهيبياس (Hippias) طاغية أثينا المخلوع ـ يلتحقان بالجانب الفارسى آملين أن يعودا بذلك الى السلطة ، وبعد ذلك مباشرة نجد ثميستوكليس (Themistocles) المنتصر فى موقعة سلاميس بعد نفى الاثينيين له والحكم عليه بالموت غيابيا ، قد التحق بالفرس وباشر مهمتــه تحت امرتهم · وفى عام ٤١٥ قبل الميــلاد نرى ألسيبياديس Alcibiades الذى تولى بالفعل قيادة الاثينيين فى صقلية قد حكم عليه بالموت غيابيا لكفره ، لكنه فر هاربا والتحق بجيش اسبرطة ، الأمر الذى ينطوى على ضرر بالغ لأهل أثينا · ان هؤلاء الرجال قد دفعهم شرفهم المجروح الى مساعدة أعداء البلاد ، والى العمل ضد مصالح وطنهم · ولعلنا ندرك شعور اليونانيين بشأن هذه المواقف من خلال التقرير الذى كتبه هيرودوت عن ديماراتوس وعن اكسيركسيس ملك الفرس · فديماراتوس لا يتصنع الشكوى من اسبرطة لكنه يقر بصراحة فيقول : « أنتم تعلمون علم اليقين ضآلة الشعور الذى أكنه لهم الآن ، · أولئك الذين سلبونى شرفى وحقوق أبائى وجعلوا منى رجلا منفيا لا وطن له » ومع ذلك يمضى ديماراتوس فى مدح مواطنيه والتنبؤ بأنهم لن يذوقوا مرارة الهزيمة · لم ير هيرودوت تناقضا فى الرجل الذى أعلن فى عبارة واحدة على وجه التقريب عن رغبته فى اذلال وطنه ، واعتقاده أن وطنه هو الأفضل · ان مثل هذا التناقض الظاهرى يجد تفسيرا له فى ظل المقاييس البطولية · وحتى فى القرن الخامس ظل هذا الوضع من القوة ، بحيث تسبب فى ايجاد متاعب جسيمة · ولا تزال الكلمات التى بدرت من السبياديس فى اسبرطة فى تفسير خيانته لوطنه ـ تثير الانتباه وتلفت النظر : « ان أثينا التى أحبها ليست تلك التى تجور على الآن ، ولكنها تلك التى اعتدت أن أجد فى رحابها متعة آمنة وممارسة لحقوق المواطن · ولم يعد هذا البلد الذى أهاجمه بلدى ، بل انى أحاول أن أستعيد وطنا لم يعد بوطنى » · ونلمس فى هذا الكلام لونا من السوفسطائيــة لكن أوساط الناس من اليونانيين قــد يعتقدون أن ألسيبياديس كان لديه ما يستحق أن يقدمه دفاعا عن نفسه ، اذ أنه قد عومل معاملة ظالمة · وبالرغم من أن فكرة البحث عن الشرف كان لها تأثيرها الفعال فى دفع الناس الى خدمة أوطانهم ، فقد كان من الممكن أن تتحول بين الحين والحين الى احساس ممض ، وتخلق مواقف لا مهرب منها الا الى الخيانة ·

ان هذا الصراع الناشب بين الشرف والوفاء ، ما هو الا جزء من صراع أوسع مدى ، يسرى فى التاريخ اليونانى عبر الزمن · لقد خاض كل من الشرف والوفاء مخاطرات جسيمة ، بما لهــا من حيوية ذاتيــة

عاصفة ، ورغبة جامحة فى النهوض بكل ما هو مستطاع على المستويين الشخصى والقومى • ومثلما يصنع الأبطال الأسطوريون من أمثال أخيليس وهرقل من بذل قصارى جهدهم فى التفوق على الآخرين من الرجال - كذلك كانت المدن اليونانية تنهض بأعباء ذات خطر جليل ، ومصاعب بالغة فاما أن تحقق تجاحا مؤكدا كما كان شأن اليونانيين الموحدين ضد الفرس ، أو يفشلون فشلا ذريعا كما كان بشأن أثينا مع مصر عام ٤٥٤ ق٠م ، وشأنها مع صقلية عام ٤١٣ ق٠م • ومثلما يختلف البطل عن السواد الأعظم من الناس - بما يكون عليه من قوة فريدة فى نوعها • كذلك تكشف المدينة عن حيوية نشاطها بممارسة سلطانها على المدن الأخرى • لقد كانت رغبتهم فى التفوق تتغذى على اذلال الآخرين ، واستنامت الى هذا المسلك طموحات اليونانيين من أفراد ومدن على حد سواء - ان هذا المنحى هو المسئول عن صيغة السياسة اليونانية بالطابع الصارم القاسى الذى كان ينفى فى ظله الخاسرون أو يعدمون - وهو أيضا السبب فى صبغ العلاقات الدولية بهذه الصيغة التى مارست فى ظلها حكومات مثل أثينا واسبرطة فرض ارادتها على جيرانها الضعفاء - ان مبدأ تأكيد الذات المتواجد فى الروح ، ينبغى كما قال أفلاطون أن يؤازره العقل لكنه كثيرا ما يدفع ضحاياه الى شهوة السيطرة والسلطان •

كان اليونانيون على وعى بذلك وقد عبروا عن مخاوفهم الجسيمة من هذا الاتجاه ، وانشغل الشعراء والفلاسفة بمزايا المنهج الوسط ، مزايا الحالة التى تتوسط التفريط فى القوة والافراط فيها ، وطالبوا باتباع الانسان لهذا المنهج وادعوا أن مجرد اتباعه له حرى أن يفضى به الى السعادة • فبينما عبر الشعراء عن هذه الفكرة بقولهم - أن الانسان لا ينبغى أن يرتقى سلما الى السماء أو يتزوج أفروديت Aphrodite أو يبحر وراء أعمدة هرقل ، فقد أخذ الفلاسفة مفهوم المنهج الوسط وبنوا عليه قواعد الأخلاق • بيد أنه عندما راح أرسطو يبحث عن تفسير للفضائل العديدة ، باعتبارها المنهج الوسط بين الأضداد ، أخفق فى اقناعنا بالمنطق أو التجربة • ان مذهب المنهج الوسط يؤتى ثماره بشكل وافر ان تحقق لنا اقتناع أكيد بأن الحياة الهادئة هى الحياة الأفضل ، لكنه ليس مانعا حاسما بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بالفعل لذاته ، ويشعرون أنه كلما تعاظمت المخاطرة كلما تعاظم مجدهم • ان الاهتمام الذى حظى به المنهج الوسط من جانب الاغريق ، كان يدل على أنهم لم يفعلوا ذلك مراعاة لهذا المنهج ، بقدر ما كانوا يشعرون بملء أعماقهم أنهم فى حاجة الى كبح جماح طموحاتهم الشاطحة وتطلعاتهم المسرفة فى التهور • وربما تمتع المنهج الوسط على الأقل بفضيلة تقديم العزاء حين

الهزيمة ، وذلك بتفسير للهزيمة فحواه أنهم قد أفرطوا فى سعيهم • بيد أننا لو نظرنا اليه باعتباره مرشدا لحركة الحياة العملية لوجدنا أن اليونانيين قد أولوه قدرا متساويا من الرعاية والاهمال • وقد تدعى حكومات الأقليات الغنية مثل كورنث وايجه أنهم قد احتذوا (١) المنهج الوسط بينما لم تلتزم به جارتهما أثينا ــ وقد يكون صحيحا أنهما كانا يفتقران الى الحافز الذى دفع أثينا الى مغامراتها الشاسعة • لكنه ليس من المفروض أن تلتمس الاختلافات الطبقية أو الادارية تفسيرا لموقف اليونانيين المبهم من منهج الوسط • انه بعيد العمق وينبثق من التناقض الكائن فى وجهة النظر اليونانية بشأن الفعل والشرف •

وقد ينظر الى التناقض على أنه صراع بين أخلاقيات الذوق السليم ، التى تدين المغامرات الخطيرة وتنظر الى السعادة على أنها أفضل غايات الحياة الممكنة وصراع بين الطموحات المندفعة للفكر البطولى الذى يستهوى الغرائز والرغبات أكثر مما يستهوى الأخلاقيات ، وينظر الى السعادة على أنها غاية غريبة عديمة القيمة • لقد طور علماء الأخلاق نظاما كان يفتن الناس فيه بالكبرياء ، ويجلبون على أنفسهم مقت جيرانهم ويتعرضون للدمار بسبب مغالاتهم فى السعى المضنى • وقد يمكن تطبيق هذا النظام على السياسة المحلية كما طبقه سولون على الأغنياء فى أثينا ما قبل الاصلاح أو على السياسة الدولية كما طبقه هيرودوت على مخططات الامبراطورية الفارسية • ان لهذا النظام صدقه الذى يتميز به ، كما أنه يروق للضمير ويستهويه وقد حظى بأنصار بلغاء فى دوائر النفوذ • ومن الممكن التعرف على ما كان يعنيه هذا النظام بالنسبة لبعض الناس من خلال الكلمات التى كتبها بندار (Pindar) عام ٤٤٦ ق•م : الى رجل من ايجه وذلك عندما كان يلوح الأمل فى تحريرها من سيطرة أثينا • اذ يدين أثينا ضمنا ، ذلك عندما يستعطف الهة الهدوء ذات القلب الرقيق ابنة الهة الحق :

« وأنت ايضا ، فلو أن احدا تنطوى جوانحه على غضب مرير ،
فلسوف يتجهم وجهك منافحا جبروت أعدائك ،
ملقيا بالمغرورين الى قاع الجمود •

---

(١) احتذى : يحتذى احتذاء = يلتزم ويتبع ، وهو الأصح ، وخطأ ما يقال حذا حذوه اذا أريد به معنى الاتباع اذ ـ حذا حذوه معناه ـ وازاه موازاة • مثل « رفع يديه حذو أذنيه »أى « ازاء أذنيه » •

ـ لم يدرك بورفيريون هذه الحقيقة عندما أسرف فى اثارتها •
(ان خير المكاسب ما يأتينى من واهب مريد ،
لكن القوة فى النهاية تذل أعناق المتكبر الأجوف) •
ـ ان تيفوس سيليسيا برؤوسه المائة ،
لم يجد منها مهربا ، وكذلك ملك العمالقة •
واندحروا أمام الصواعق ، وسهام أرتيميس » •

وهكذا يتنبأ بندار بأسلوب ضمنى بمصير أثينا المحتوم ، اذ أنها قد أساءت الالتزام بمنهج الوسط • وقد تضاهى بين هذا الموقف وبين رأى الأثينيين فى نفوسهم •

فعندما حاول بريكليس أن يشد من عضد شـــعبه بعد اجتياح الطاعون ، عرض بديلا لمنهج الوسط : « ان كل هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم أن يحكموا الآخرين ، قد جلبوا على أنفسهم مقت الناس ونفورهم زمنا ، بيد أنه لو توفر للانسان هدف عظيم يسعى اليه ، فلابد أن يرضخ لعبء الحسد ، ومن الكياسة أن يذعن لذلك • لا يدوم الحقد طويلا ، لكن تألق الحاضر هو مجد المستقبل المختزن الى الأبد فى ذاكرة الناس • ان عليكم تقع مسئولية الذود عن مجد المستقبل وعدم الاتيان الآن بأى فعل يتصف بالعار » •

نحن نرى فى هذا الكلام النظرة البطولية وقد تكشفت دون تحفظات وانها لانكار كامل لمنهج الوسط ، ولا شك أنه كان من الممكن دائما أن يلتقى الاثنان فى النظرية والممارسة ، الا أنه كان بينهما خلاف أساسى لم يجد اليونانيون له حلا وافيا •

ونستطيع أن نرى لدى سوفوكليس صديق بريكليس والذى نسج أكثر من مأساة على هذا المنوال الى أى مدى ذهبت خطورة هذه المشكلة ـ وبأى نوع من الجدية والصرامة أمكن علاجها ، ان بطلين من أكثر أبطال سوفوكليس تنفيرا وتبغيضـــا هما اجاكس هرقل (Heracle) يقدمـــان نموذجا بطوليا كما كان يراه الأثينيين فى القرن الخامس قبل الميلاد • وكلاهما بعيد بشكل ما عن سواد الناس ، لا بقوته وتحمله وانما بكبريائه وتأبيه عليهم • وكلاهما ينتهى الى نهاية مروعة مهينة ، وذلك من خلال استحقاقه بالهواجس الانسانية ، فبالنسبة لأجاكس يتجلى هذا الموقف من خلال ازدرائه للآلهة ، وبالنسبة لهرقل من خـــلال استهانته المطلقة بزوجه الرقيقة ذات المشاعر الانسانية الخالصة ، وكلاهما يتعرض للعنة والادانة لا من قبل أنصار المنهج الوسط فحسب ، بل كذلك من قبـــل كل أولئك الذين يعجبون بالفطرة البشرية ذات الطابع الرقيق الدافىء،

وكلاهما فى الختام يجد التبرير ، يجده أجاكس فى أفعاله النبيلة فى مجال الحرب ، ويجده هرقل فى الأعمال الذى نهض بها بشكل بطولى من أجل خير البشر • يقـــدم سوفوكليس النموذج البطولى فى شـــكله اللاانسانى المقيت وجلده القوى الذى يعز على التصديق • وسوفوكليس لا يخفى علينا أقل صفات هذا النموذج جاذبية واغراء ــ فأجاكس يعجز عن الامتثال الى توسلات خليلته ولا تتحرك مشاعره وهرقل يغلو فى عناده ويضن على زوجته التى تسببت فى موته دون مقصد أو رغبة فى ذلك • ويقابل سوفوكليس بين هذا الموقف وبين ما لأجاكس من شجاعة صامدة لا تلين بشأن اصراره على الموت لفقد شرفه ، وما لهرقل من هيمنة فائقة على النفس فى تحمله آخر سكرات الموت المخيفة بينما كان السم الزعاف ينهش جسده المهيب • ان سوفوكليس بذلك يقدم الينا فى شكل درامى ما كان يعينه المثال البطولى لأثينا • لقد عرف سوفوكليس مواطن القوة والعجز فى هذا المثال ، وعنى بتبيان هذه المواطن فى حقيقتهـــا الشاملة • لكنه ألمح الى تبريرها بالنبل الذى تنطوى عليه والذى ينأى بها عن التلوث بوصمة الطين • ونحن نرى فى هذه المسرحيات ما كانت تعنيه البطولة لعصر بريكليس ، كما نرى السبب الذى من أجله خلع الأثينيون عليها قيمة رفيعة •

يحقق البطل ذاته عندما يذوق الموت ، ومثلما يقول أنصـــار فكرة السعادة والمنهج : لا يعد الانسان من السعداء حتى يذوق الموت ، اذ أنه لا علم لنا بالكوارث التى تتربص بنا فى الحياة ــ كذلك يرى أنصـــــار المثـــال البطولى أن الموت ذروة الحيـــاة وتمامها وأنه المحنة المضنية التى يتعرض لها الانســـان ، والمحك الصادق لاختبـــار جدارته • ومن ثم فعلى الانسان أن يقدم أعظم ما فى مقدوره من تضحيات ، تلك هى الحياة التى تعنيه أكثر مما تعنى غيره من غالبية الناس ، والتى تنبذ آخر المطـــاف فى شكل من أشكال التحديات الرائعة • أما فيما يتعلق بأولئك الذين يعتقدون أن الفعل غاية فى ذاته فان أى انطلاق أو تقدم فى الحياة ينبغى أن يكون مفعما به ، وأن ما يعنينا هو الجهد الذى يقدمه الانسان الى هذا الفعل ، والحيوية التى تصاحب تفانيه من أجل هذا الفعل أيضا •

ولكى يفيد الانســـان حقيقة مما حبته به الآلهة عند مولده افادة عظمى فلابد أن تزخر حياته بالأفعال الباسلة ، وليس من الممكن أن تدع مثل هذه الحياة تتدهور بذبول قوتها وبعجز طاقاتها ، اذ تحتاج للوصول الى هدفها المرجو الى عقدة مسرحية يستنزف عندها البطل كل طاقاته

باسلوب من أدق وأليق الاساليب – ثم يكشف فى الواقع عن كامل روعته وينهى حياته الزاخرة بطلب أخير الى المجد الذى هو حق له ٠

ومثلما نجد الشخصيات الجليلة فى الأساطير من أمثال أجاكس وهرقل تذوق موتا عنيفا مروعا ، كذلك كان هناك رجال آخرون ماتوا فى ميدان المعركة ، اذ ان ذلك قد توج حيواتهم (١) وأعطى الدليل على أنهم حين الاختبار الحاسم لا يتقاعسون عن شيء لاثبات وجودهم وجدارتهم ٠ ان الموت فى رحاب الطمأنينة والدعة اذعان لسعادة لم تكن يوما مرامهم ، وتشويه لجمال سعيهم الى الشرف ٠ لقد عاش اليونانيون أدنى ما يكونون الى الموت ، ولم يداخلهم يوما الخوف منه وسعوا اليه باعتباره بلوغ الأوج لكل ما أولوه تقديرا عظيما ، وتحقيقا للذات يجده الانسان عندما يضحى بكل ما يملك ويمارس بفضله امتيازا يختص به دون سائر الناس ٠

وتنطوى هذه النظرة على نبل متمثل فى المكانة التى يخلعها الموت على التضحية ٠ فسواء كان الانسان يبذل حياته من أجل عائلته أم أصدقائه أم مدينته مقدما بذلك أقصى ما يمكن أن يطالب به الانسان ، فان فعله هذا يعنى أنه لن يجنى لنفسه ثمار تضحيته بالرغم من أنه بذلك قد يؤكد جدارته بكل جسارة وشجاعة أو قد تكون رغبته فى المجد صادقة حارة ٠ وكان اليونانيون كغيرهم على وعى بما تعنيه هذه التضحية وبما تقتضيه لتحقيق غايتها المستعصية ٠ فها هو ذا أخيليس فى لحظة من لحظات التردد المحيرة عندما يسائل نفسه ان كانت الحرب حرية بكل هذه الجهود التى يبذلها فى مضمارها نراه يقول :

« ان الأنعام والأغنام السمينة هى مكاسب الغنائم
التى تلقى فى المراجل ، لتحظى بالتهامها
الجياد ذات الرؤوس الصهبوات (٢) ٠

لكن حياة الانسان لا تعود مرة أخرى ، ولا تسترد اذا خرجت من بين نواجزه ، وليست هناك قوة بقادرة على استعادتها » ٠

ليس هناك يونانى يجادل فى حقيقة هذا الأمر بيد أن جانبا كبيرا من اليونانيين يخالف أخيليس فى الدرس المستخلص من هذا الموقف ،

---

(١) حيوات : الجمع الصحيح لكلمة حياة ٠

(٢) أصهب اللون : أسمر مصفر ٠

وهو على حق اذ أن التضحية التى لا سبيل الى منعها أمر جدير بالمعاناة، ونستطيع أن نقابل بين وساوس اخيليس وبين الحالة النفسية التى كان عليها هيكتور حين مواجهته • لا يغيب عن علم هيكتور أنه حتما سيلقى حتفه على يد أخيليس الذى يتفوق عليه سرعة ويزيد عنه قوة ، ومـــع ذلك يخرج لملاقاته لاحساسه بوجوب ما يضطلع به من أجـــل مدينته وزوجة صغيرة • لقد كانت الشخصية اليونانية مشربة بهذا الاحساس الذى يعنى أن كل فرد مدين لشـعبه بتضـحية عظيمة ، ويعد هـــذا الاحساس بهذا المعنى نموذجا ناجحا لتطبيق المثال البطولى فى اطـــار الواجبات المدنية • ولما كان الانسان يعيش بين غيره من الناس تربطه بهم روابط لا سبيل الى تفسيرها أو تجديدها فقد تعين عليه أن تكون حمايتهم وأمانهم أول اهتماماته • بهذا المعنى والى هذه الدرجة كانت المدينـــة تفوق الفرد أهمية وتقديرا • فلو أن هذا الاحساس كما كان يعتقد كل يونانى قد أصبغ على حياته متعة ويسرا ، فقد كان من قبيل الجـــزاء العادل ألا يدخر الانسان جهدا فى أن يضمن لغيره ذات المزايا • لقـــد كان الانسان مدينا بهذا الواجب الى اخوانه من البشر لا الى الآلهة وكان هذا الواجب جزءا من الارتباط الوثيق باخوانه واقرارا بأنه جزء من وحدة أعظم وأكثر بقاء من ذاته بالرغم من كل حقوقه الشخصية • من أهـــم الانجازات الرائعة لليونانيين أنهم كانوا قادرين على مزج احساس الفرد بحقوقه مع احساسه القوى بما كان يدين به لمدينته — ان التوازن بين الموقفين لم يحقق وجود معنى جديد للفكرة القديمة المتعلقـــة بالقيمـــة البطولية فى دولة المدينة فحسب وانما منحها مكانة أكثر تكريما مـــن مجرد حياة يحياها الانسان ويموتها من أجل مجده الشخصى — وكانت رابطة الدم والنسب فى نهاية المطاف الوشيجة القـــوية المعروفة لدى اليونانيين ، وكانوا يسعدون ويفخرون بمنحهم اياها كل ما يستطيعون كلما دعت الحاجة الى توكيد حقوقها •

ومعالجة اليونانيين لما يحدث بعد الموت أكدت الاحســـاس بضرورة تحقيق الذات ، وطبيعى ألا يكون لديهم فكرة متكاملة عن الآخرة • لقـــد آمن بعضهم فى الواقع بأنهم فى الآخرة سيعاقبون أو يثابون على مـــا اقترفت يداهم فى الحياة الدنيا ، وآخرون خففوا من غلوائهم بالاعتقاد أنه سوف تنتقل بعد الموت القلة المختارة من الأبطال الى جزيرة الربيع السرمدى فى البحر الغربى • الا أن غيـــاب العقائد المنزلة والتعاليم الدينية • كان يعنى أن هذه المعتقدات اتسمت بالشـــكوك والغموض ، وفاقها شيوعا ونفوذا ما ساد من فكرة تقول : لو أن للانسان حياة بعـــد الموت على الاطلاق ، فان الآخرة يحيطها الغموض وليس ثمة شبه بينهـــا

وبين الأرض الراسخة المستقرة التى رحل عنها الانسان · ويرضى كثير من الناس الى حد ما عن المفهوم البطولى لدى هوميروس الذى يحكى كيف أن كل الموتى على حد سواء يذهبون الى عالم قاتم ، يكون فيه حتى عظماء الناس مجرد أشباح مسلوبة الادراك تقريبا ، ولا يتيسر لها استعادة الوعى الا بشرب الدماء · وتجد شبح أم أوديسيوس يحكى له عن محنة الموتى فيقول :

« هذا هو قانون الفانين : عندما يموت أحد منهم ·

لم تعد الأعصاب تشد لحمه وعظامه

وانما يتلاشى ويسحق اللحم والعظام بقوة النار الموقدة ·

ومنذ تلك اللحظة عندما تفارق الأنفاس لأول مرة العظام البيضاء ،

تخفق الروح وتهيم سابحة كأنما هى فى حلم من الأحلام » ·

فالموتى مثل الخفافيش تعيش فى كهف تصفق بأجنحتها ويتعالى صراخها ، وليس من قبيل المفاجأة أن يقرر شبح أخيليس أنه يفضل أن يكون عبدا على الأرض مملوكا لرجل فقير من أن يكون حاكما على الموتى · ولم تغب هذه الفكرة عن ذاكرة اليونانيين أبدا ، وعلى أسوأ الفروض ، قد يعتقدون أنه لا حياة فى الأجداث على الاطلاق ، وفى الختام يكتسى الانسان بكساء من طين ، وعلى أحسن الفروض قد يأملون فى أن يتمتع العلماء وأصحاب الفضائل بسعادة فردوسية سرمدية · لكن كثيرا منهم حين تثقل عليه وطأة جلال الموت يظل مأخوذا بالخوف مبهورا بجلال اللحظة ·

ويتفق هذا المنحى مع ايمانهم بقيمة الحياة ، وحاجتهم الى أن تزخر هذه الحياة بالنبيل من الأفعال · ولما كان الموت مهلكا لكل ذى قيمة فى الحياة فان الحياة لها القيمة الكبرى ، وينبغى أن توجه شطر أكثر الأفعال شأنا وخطرا · وعندما يشكو أخيليس ، لا يشكو من مصير يحتم عليه الموت شابا ، وانما يشكو من أن جل حياته قد ضاع بددا ، بفعل سوء المحن التى تعوق سعيه الى المجد · ووجد كثير من اليونانيين فى فكرة المجد عزاء وسلوى يتعزون به عما ينتظرهم فى ظلام القبور من مصير محتوم غامض · ودون دخول فى تساؤلات معقدة بشأن ما تعنيه فكرة المجد بالنسبة للموتى ، وجد اليونانيون فى الواقع ، الذكرى العطرة وحسن السيرة بعد موتهم ما يعادل محو وجودهم بفعل الموت · لقد كان اليونانيون يقتفون أثر تراثهم البطولى عندما طبقوا هذه الفكرة على موتاهم فى ميدان

المعركة ، أولئك الذين سقطوا أثناء تقدم الفرس فى زحفهم على ثيسالى (thessaly) والذين أحيا اسخيلوس (Aeschylus) ذكراهم :

« هؤلاء رجال صمدوا وثبتوا للرماح ، واغتالهم المصير المظلم عندما كانوا يذودون عن حياض وطنهم ذى الخير الكثير ، لقد ماتوا ومع ذلك ما زال مجدهم باقيا ، أولئك الذين صمدوا وقاوموا ولفوا أشلاءهم فى تراب أوسا (Ossa) ـ كذلك طبق بيريكليس الفكرة عينها على قتلى أثينا ، ولكنه خلع على فكرته مدى أكثر شمولا واقتدارا : « ولما كانت الأرض تذكارا للمشهورين من الرجال ، فليس بالنقش وحده على القبور فى بلادهم يتميزون بالتفوق والاستعلاء لا ، وانما تحيا ذكراهم فى الأصقاع (١) الغريبة ولا تتخذ أشكالا ملموسة وانما تسكن قلوب البشر ، وتبقى الذكرى ويرتفع شأنها » . فمهما تكن ما تعنيه قيمة هذه الذكرى لليونانيين فقد آمنوا بحسن جدارتها ، وأنها سوف تكون على الأقل الها ما للأجيال المقبلة .

فلو أن الذين ماتوا موتا مجيدا عاشوا فى ذاكرة السواد الأعظم من الناس ، فان لهم رفقاء بسطاء فى كثير من المجالات الأخرى ، لا يحسبون أمواتا ، فنحن نرى من خلال تأبينهم وشواهد قبورهم وأوانى صورهم الموضوعة فى قبورهم محاولة دائبة لفهم الطبيعة الأساسية التى اختص بها من مات ـ عندما كان على قيد الحياة . ويعد هذا أيضا تقديرا لشخصه وانجازه وما أفاد من أعمال فى حياته الدنيوية . وعادة ما تكون كلمات التأبين موجزة ، وكثيرا ما كانت لا تزيد على اعطاء الاسم والمكان وربما مهنة الراقد تحت الثرى ، بيد أنها أحيانا كانت تجود بما هو أكثر ، وتخلع على صورة الميت حيوية وجلاء ، كما نرى فى شاهد شواهد قبور أثينا :

« لقد أقام هذا الأثر كلايوبولوس (Cleobulus) والد اكسينوفانتوس الميت (Xenophantus) تقديرا لتواضعه وبسالته » . وكذلك تنسب الى سيمونيديس (Simonides) أبيات من الشعر أكثر روعة تحيى ذكرى ابنة هيبياس (Hippias) الذى كان يوما طاغية أثينا : « ان هذا الثرى يوارى جثمان أرخيدايس (Archedice) ابنة هيبياس أعظم رجال عصره الذى عاش بين ظهرانى أهل هيلاس . فبالرغم من أنها مدت أباها بأمراء من زوج وأخ وأبناء الا أنها لم تصعر خدها للناس » .

---

(١) الأصقاع : مفردها الصقع أى الناحية

لقد استطاع الكاتب أن يصور الهدف الرئيسى بأسلوب خاطف هادىء نرى من خلاله المرأة المتوفاة تحيا فى هذا الملخص الموجز لشخصيتها ٠

وهكذا تقدم شواهد القبور - الموتى فى أوضاع بينة متميزة ٠ فنرى المحارب أريستيون (Aristion) ينتصب فارع القامة لين العود ممسكا برمحه ، وأخ صغير يقف بجانب أخته الصغيرة - وعجوز يمد يده بزيز (١) الى كلب ، وفتاة تغذى الحمام ، وامرأة جالسة تقدم اليها خادمتها صندوقا ٠ ان ما يسترعى الانتباه والاهتمام هو مضمون الحياة كما هى حقيقية ، وما وجده الأموات فيها وما خرجوا به منها ٠ ونحن نرى فى اللوحات التصويرية مقابلة بين الحياة والموت يؤكدها رمز للموت قائم بين صورة حية من صور الحياة ٠ فها هى ذى امرأة تقتعد مقعدا ، بينما يناولها خوذته شاب فارع القامة ، قد يكون زوجها وهو فى أوج قوة رجولته ، وصبى صغير يقف على ضفة نهر وبيده عربة لعبة ، يلوح بيده لأمه بينما ينتظره فى زورق خارون ربان معدية الموتى ، وشاب يتربع على قبر بينما يحادثه صديق له ، وتمسك بدرعه امرأة متأهبة ٠ ان مجاورة رموز الموت جنبا الى جنب مع الأحياء يرينا كيف رأى اليونانيون عالم الضوء مقابلا لخلفية من الظلام ، ومع ذلك لم يفقدوا لهذا السبب حبهم للموت ٠ ووضع اليونانيون الانجازات الايجابية للأحياء فى مقارنة مع أسرار الموت وغموض عالمه وعرفوا أنه ينبغى أن تحظى هذه الانجازات بالتكريم لذاتها ٠

وبهذا النهج **شكلت النظرة البطولية** التى ورثها اليونانيون عن ماض بعيد كثيرا من تفكيرهم وأفعالهم ٠ لقد طوع اليونانيون هذه النظرة لتندرج تحت اطار دولة المدينة ومقتضياتها ، بل وطوعوها كلما دعت الحاجة لاطار الهلينية الأوسع شمولا والذى لم يغب عن وعيهم أبدا - ولم يجانب اليونانيين الصواب عندما ادعوا أنهم يتفوقون على البرابرة بفضل بحثهم عن نموذج أرفع للفضيلة ٠ فعندما نعقد مقارنة بين اليونانيين وبين الحشود الكثيرة فى مصر وآسيا والشعوب البدائية المنغلقة داخل حدودها نجد أن اليونانيين قد عثروا على مبدأ أضفى على الحياة معنى ألهمهم بالانجازات المبهرة ٠ ولما شعر اليونانيون أنهم يختلفون عن الآخرين من الناس وعليهم دوما أن يتفوقوا عليهم ويرتقوا فوق مستواهم ، ولما أدركوا أن الانسان يحقق رجولته من خلال جهود راسخة لا تتزعزع ومخاطرة

---

(١) الزيز = دبور = حشرة من فصيلة الزنبوريات ٠

مقدامة لا تنهيب ، فقد قضوا على ارتباطهم بالاطارات الجامدة للمجتمع التى هيمنت على عصرهم فى أماكن أخرى غير بلادهم ، وابتدعوا أسلوبا للحياة ، كان للتواقين فيها وأهل الجسارة والاقدام الجزاء الأوفى ، كما كانوا ينشدون الفعل ويكرمونه فى كل صورة باعتباره الخاتمة الطبيعية لمسيرة الانسان ٠

الفصل الثالث

الفصل الثالث

الآلهة

« **لكل شعب آلهته التى يستحقها** » . لقد ولد الشياطين المبهمون المشاكسون ـ المطاردون للانسان البدائى من ارهابيين لا أسماء لهم ، ومن جهل مشبط للعزائم ، ان عمالقة الأزتكيين (١) بابتساماتهم العريضة وفرحهم الفائض يعكسون صورة لجنس توحش بفعل الحروب الدائبة والخوف من العوز والحرمان المجهول ، وقبل أن يدفع الرومان بفعل النفوذ اليونانى الى التخلى عن فظاظتهم العنيدة ـ كانت آلهتهم تتصف بالابتذال والوظيفية والصحة الفائضة ، واليهود بما لهم من ميل الى النظام التشريعى الحرفى فى كل مناحى الحياة ، وما لهم من قومية محلية منغلقة قد وجدوا فى بهوه (٢) نصيرا ، مؤيدا ومواتما لميولهم . كذلك كانت تعكس آلهة اليونان بجلاء باهر بعضا من الملامح الأساسية فى الشخصية اليونانية ، بل كانت وثيقة الصلة بهذه الشخصية الى حد أننا لا نستطيع أن نتصور اليونانيين بمعزل عن الآلهة . ونستطيع أن نقرر بادىء ذى بدء أن الدين اليونانى يتصف بنقص غير مألوف فى النظام كما يفتقر الى تنظيم يماثل ما نجده فى الأديان السائدة فى العالم الحديث .

فالدين اليونانى يبدأ عند نقطة محددة ، وتمتد جذوره بلا نهاية الى ماض سحيق ، فليس له نبى متفوق ولا مشرع يفسر طبيعة الآلهة ، ولا كتب مقدسة ذات نص محدد فى تعاليمه مبادىء الأخلاق ، ولا تنظيم

---

(١) الأزتكى : أحد أفراد شعب متمدين حكم المكسيك قبل الأسبان سنة ١٥١٩ .

(٢) الرب عند اليهود .

رئيس لهيكل كهنوتي متسلسل ولا تفسير للظواهر الكونية ، ولا حياة متفانية ورعة ولا تمسك بتعاليم دينية مستقيمة ولا نظام متفق عليه ليوم البعث والحساب ، وليس له أيضا نظام مقبول للتوبة والتكفير. ويبين الدين اليوناني طابعه الاغريقي الأصيل بتسامحه الشامل وحريته الوافرة وعدم التزامه بأية خطة محددة . ان أي اقتراب من الآلهة اليونانية لا ينبغي أن يتم من خلال تعاليم وعقائد صارمة ، وانما يتم من خلال الممارسة والمواقف الفعلية لعابدي هؤلاء الآلهة . ولا ينصب اهتمامنا على دراسة الدين بقدر ما ينصب على استحضار تجربة دينية ، لنرى ماذا كانت تعني هذه الآلهة بالنسبة لمن آمنوا بها ، وكيف استمالت قلوبهم واستهوت خيالهم وكيف تواءمت هذه الآلهة مع نظام الحياة التي كانت بالفعل مفعمة الى ما يفوق الحد برغبات الانسان وأمانيه .

وليس من الضروري البحث عن أصول هذا الدين عند دراستنا لما كان يعنيه بالنسبة لليونانيين ، وكل الذي يعنينا ، هو ما كان يرمز اليه في العصور التاريخية السحيقة ، وفي هذا المجال لدينا من المعلومات قدر وافر ، وان لم يكن مرضيا في كل الأحايين . وتبدو الآلهة اليونانية للوهلة الأولى وكأنها تعرض نظاما صارما،فنجدها تعيش في الأولمبوس(١) (Olympus) ، وعلى رأسها زيوس (Zeus) وكل منها مختص الى حد ما بمجال معروف من مجالات النشاط .

ان هذا المظهر التنظيمي الذي أرجعه هيرودوت (Herodotus) الى هوميروس (Homer) وهيسيود (Hesiod) ، قد يدين بقدر ما الى الأعراف التي أضفى عليها الشعراء البارزون قدسية ، الا أن هذا المظهر يخفي تنوعا مذهلا من الممارسات والمعتقدات . وحقيقي أن أسماء الآلهة الرئيسية كانت ثابتة مستقرة في كل أرجاء اليونان ، وحقيقي أن كثيرا منهم كان يمارس نفس الوظائف حيثما يعبدون ، وحقيقي كذلك أن منهم من قد يختلف من حيث دوره من مكان الى مكان ، وان احتفظوا بهوية خاصة ، وأن أساطير الآلهة كانت ملكا مشاعا في كل مكان . وهنا ينبغي المقابلة بين عناصر أقل مرونة وبين مظهر المشاكلة الأساسية ، هذه العناصر التي لا تنضوي تحت النظام العام لعدم وجود علاقة جوهرية بينها وبين آلهة الأولمبوس ، وانما تأتي من عالم أكثر قدما وأقل عقلانية، عالم سادت فيه عبادة عتيقة للموتى ورقى وتعاويذ لطرد الأرواح الشريرة وطقوس لزيادة الحصاد ، وتطهر ديني للتخلص من الدنس ، ومحرمات

---

(١) جبل في تساليا في الجزء الشرقي من اليونان وكان مثوى الآلهة .

تقيد الاتصال الجنسى ، وأنواع معينـة من الطعام ، وقرابين ليست بأية حال مثل تلك التى تقدم لآلهة الأولمبوس ، وآلهة وآلهات لم يتصوروها فى شكل بشرى ، كتصورهم للاله أبوللو (Apollo) ذى الأذرعة الأربعـة أو ديمتر (١) (Demeter) برأس حصـان • لقد كان لكل هذه الأشياء وجود لا ينكر ، وقد احتلت مكانا فى الدين اليونانى ، اذ أنها كانت موضع تقديس فى الممارسات الممعنة فى القدم ، كما أنها ارتبطت بمهام يوميـة أو موسمية أو مناسبات حساسة مثل الزواج والموت • وكانت هنـاك أيضا عبادات لها مكانها الخاص من حيث غرابتها ، وان لم تدخل بالفعل فى صراع مع عبادات آلهة الأولمبوس • وترجع عبادة ديونيسوس اله الخمر والغضب فى جزيرة كريت الى العصـور المسينية ، لكن هـذا الاله بقى الى حد ما غريبا عن آلهة الأولمبوس ، وعندما تقهقر أتباعه الى الجبال ومزقوا الحيوانات الحية اربا ، كانوا يعربون بذلك عن بقاء عبادة قديمة فيها يوفى الانسان حاجته من دم الحيوانات الحية لتجديد شبابه وحيويته • ان مجموعة كاملة من العقائد المريحة وان لم تكن صحيحة — والتى كانت تشير الى أورفيوس (Orphic) قد أقيمت على شعائر خاصة باستطلاع أسرار مصانة حساسة ، وكانت تقدم آمالا بعد الموت أكثر سـخاء ومتـاعا مما كان معروفا وسائدا بين عامة النـاس • فقد قام أطباء مثل — ايبمنديس (Epimenides) ورياضيون رمزيون وعلماء مثل بيثاجوراس (Pythagoras) ايمبدوكليس (Empedocles) — بتعديلات للأفكار السائدة ، وبثوا الحياة فى الخرافات الغامضة وألبسوها أشكالا جديدة • كما حاول العقلانيون أن يخلعوا النظام والصقل على الأنظمة التى صدمت عقولهم أو نالت من جمال احساسهم • وكان لدى العقل اليونانى أكثر من طريقة للاقتراب من الآلهة ، واذا ما كان العقل غالبا على غـير اتفاق مع افتراضاته ، فان ذلك أمر طبيعى للغاية فى مجال التجـربة الدينية التى عـادة ما يكون اهتمامها بالافتراضات أقل مـن اهتمامها بنتائجها • بيد أن هناك مقومات دائمة أو سائدة تنبثق من خلف التنوع والتناقضات فى كل أحقاب التاريخ اليونانى وفى معظم أرجاء اليونان التى توفرت لدينا معلومات عنها •

لقد احتاج اليونانيون الى الآلهة ، مثلهم فى ذلك مثل الشـعوب الأخرى ، لتفسير ما لا تفسير له بدونها — ان الطبيعة كمـا يراها الوعى القبعلمى (٢) بجانبيها الانسانى والجغرافى محفوفة بأسرار تستصرخنا

(١) الهة الحكمة والفنون عند الاغريق •

(٢) ذو علاقة بالمرحلة السابقة لنشوء العلم الحديث •

كيما ننفذ اليها ونهيمن على شـواردها · وقد حـل اليـونانيون هـذه المشكلة بما يرضيهم وذلك بالايمان بالآلهة الذين لا يسيطرون على العالم المرئى فحسب ، وانما يهيمنون على أقدار البشر ويسكنون قلوبهم ·

ومثلما كان من الطبيعى أن نجد فى القوة الالهية تفسيرا للصـواعق والعواصف والزلازل ونمو المحاصيل ، كذلك كان من الطبيعى بصورة مماثلة أن يعزى الى الآلهة الوحى بالأفكار الملهمة ووساوس الضـمير أو اجتياح الانفعالات التى تغير على الكائنات البشرية · وكلا النوعين من الظواهر الطبيعية والانسانية لم يكن لينضوى تحت سيطرة أو تنبؤ بما سيكون · فاذا كان مما لا يجانب الصواب أن نفترض أن هطول الأمطار أرسله زيوس ، فليس أقل صوابا أن نفترض أن الافكار السعيدة أوحى بها من قبل أثينا (١) · وحتى يومنا هذا نجد أن تفاعلات العقل البشرى هى على الأقل من اللبس والغموض مثل تفاعلات الطبيعة ، الأمر الذى ينأى باليونانيين عن توجيه النقد اليهم لاعتقادهم بأن كلا من هذين النوعين من التفاعلات خضع لسلطان الآلهة ·

أحس اليونانيون فى الواقع بالكبر بما لهم من طاقات ، لكنهم أقروا أن كثيرا من الأمور كان يعز على ادراكهم ، وارجعوا الى الآلهة كل ما التبس عليهم فهمه · ومن ثم كان من المهم أن تقام علاقات بالآلهة ، وان يبتغى أقصى العون من جانبهم ، وليس ذلك لمجرد الخوف من أن يختل نظـام الطبيعة أو الخوف من أن تضن الأرض بثمارها ، وانما مرد ذلك الى أن بواعث الفعل الانسانى ذاتها ترتكز على لحظات غيبية من لحظات الفكر الملهم ، أو ترتكز على وفرة من الطاقة الفياضة ليس فى وسع الانسان أن يستجلبها بارادته وحدها ·

لقد رأى اليونانيون آلهتهم فى أشكال بشرية ، وعليه فقد تمثلوها وصوروها فى أشكال من فنون النحت والرسم · ومن المحتمـل أنهم تصوروا آلهتهم فى الماضى السحيق على شكل حيوانات أو طيور ، وقد بقيت أصداء باهتة لهذا التصور فى استخدامات هوميروس لنعت أثينا بأنها صاحبة (وجه البومة) وهيرا (صاحبة وجه البقرة) ، وذلك بالرغم من أنه لا بد أن يكون هوميروس نفسه أضفى على هـذه الكلمات معنى مختلفا ، كما اتضح ذلك فى عبادة زيوس ميليخيوس (Zeus Meilichios) كثعبان ، وفى الطقوس التى اتخذ فيها شكل الثور ، وفى ارتباط أبوللو

---

(١) الاهة الحكمة والفنون عند الاغريق ·

بالذئاب والفئران ، وفي ارتباط بوسيدون بالجياد ، وفي ارتباط أرتميس بالدببة . ومع أن هذه المعتقدات كانت تمارس في كثير من الطقـــوس المحلية الا أنها لم تؤخذ مأخذا حرفيا في العصر الكلاسيكي . فلو أن الاله لدى اليونانيين كان في العصور الغابرة على شكل حيوان فقد بدأ يظهر بعد ذلك في العصور اللاحقة متخذا شكلا انسانيا وبرفقته حيوان صديق له أو رمز عليه . ويعد تحول الآلهة من أشكال الحيوانات الى مشاكلة البشر ، نقلة جبارة من نقلات الفكر المتحرر ، اذ أنها تعني أن اليونانيين قد تأثروا بمدى القدرات البشرية وامكانياتها ، تأثرا جعلهم لا يستطيعون أن يتصوروا أن الآلهة في أي شكل مغاير للأشكال البشرية. كما كانوا يعتقدون أن الطبيعة تحكمها قدرات شبيهة بقدراتهم الخاصة، بل أبعد أثرا ونفوذا في الواقع ، قدرات على قدر كبير من النشاط في مجالات عديدة تفوق مجال الانسان . وان كانت تختلف هذه المجالات من حيث النوع . لقد رأى اليونانيون ألا يذعنوا لاستنتاج خامل مؤداه أن الآلهة فوق قدرة الفهم ، ومن ثم فمن الأنسب أن يظهروا متخذين ملامح غريبة من الحيوانات والوحوش ، وانما حاولوا أن يخلعوا شيئا مـن النظام على النسق الشامل لمجريات الأمور ، وذلك بافتراضهم أن هـذا الاعتقاد ان لم يتفق مع العقل بشكل دقيق فهو على الأقل متفق مع الطبيعة الانسانية في درجة من درجاتها الرفيعة الشاملة .

فاذا ما ظن اليونانيون أن لآلهتهم أشكالا بشرية ، وأن لهم طبيعـة مثل طبائع البشر ، فقد أدركوا في نفس الوقت أن بين الآلهة والبشر فروقا هائلة شاسعة . وأول هذه الفروق أن الآلهة لا تشقى بالشيخوخة ولا يأتيها الموت . فبوسع الآلهة أن تحيا كما يحب البشر أن يحيا حياة لا يطارده دوما غم الحياة والخوف من المستقبل المجهول ، وادراكه أنه في أية لحظة قد يمضي الى سكون العدم . ان الآلهة بمالها من قوة لا يعتورها الذبول وجمال دائم ، تمتاز عن الانسان بامتلاك ما لم يتوفر له ، الأمر الذي يجعلها موضع الهيبة ومثار الحيرة .

لم يقم اليونانيون وعيهم بالآلهة على جانب الخير في أولئك الآلهة بقدر ما أقاموه على تبجيل قدسي لجمال لا يضمحل وقوة مقتدرة تحظى بها الآلهة . فلو كان هذا هو الثمن الذي دفعه اليونانيون لرؤية الآلهة في أشكال بشرية ، فقد كان له عوض هائل متمثل في أنه أسبغ على الآلهة صبغة واقعية ملموسة أكثر مما يكون في مقدور أي دين آخر ، وأنه خلع على البشر مزيدا من احترام الذات لمشابهتهم اياهم ، بل أنه قدم نموذجا لم يكن في الواقع من الممكن منافسته ، لكنه أوقع في روع البشر

بما له من تحد آسر ، أنه من الخير أن يتحلوا بصفات يشـاركون فيها الآلهة ولو بأدنى درجة ، وعندما كانوا يرون اخوانهم وقد تبدت عليهم مظـاهر فريدة لهـذه الصفات شعروا أن ذلك أمـر يدعو الى الامتـاع والاستعلاء ٠

ان الفرق بين البشر وأربابهم يجاوز ذلك بكثير ، ونرى أن بنـدار الذى فهم النوازع الدينية الباطنية يحدد هذا الموقف بقوله :

سلالة واحدة ، واحدة تلك التى انحدر منها البشر والأرباب
من أم واحدة نفخت الروح فى كل منا
بيد أن فارق القدرة العليا يفصل بيننا ،
اذ أن فريقا يفنى ويزول بينما تبقى السماء
بلونها النحاسى موئلا راسخا سرمديا ٠
ومع ذلك فبمقدورنا أن نكون صنو الخلود
بفضل ما لنا من عقل متفوق وجسد عظيم ،
ذلك بالرغم من أننا لا ندرك الى أى هدف
نحن سائرون آناء الليل وأطراف النهار ،
لقد خط القدر أن علينا أن نكون على الدرب سائرين ٠

البشر والأرباب كلاهما أطفال الأرض ، وقد صبا من قديم فى قالب واحد ، وان كان بينهما من حيث القدرة فارق بعيد لا حد له ٠ ان صفة الآلهة التى تميزهم فوق كل الكائنات هى القدرة المقتدرة ٠ فهم يستطيعون أن يؤدوا على نطاق هائل ما لا يستطيع البشر أن يؤديه الا بشق الأنفس ، بل ينهضون بكثير مما ليس فى وسع الانسان النهوض به ، وهم على يقين من نجاح لا يخيب ورضى لا ينفد بينما لا يغفل الانسان بما يتربص به من فشل يكاد يكون أكيدا ٠

ان سلطان الآلهــة ظاهر باد فى كل مكان ، وأمام هـذا السلطان لا يستطيع الانســان الا أن يطأطىء الرأس فى ضـعة مرتجيـا العون والمساعدة ٠ ويستطيع الانسان أن يتضرع اليهم ، وأنه بما وهبه الاله من حظ قد يقترب منهم ولو لحين متمتعا بما قد حظى من سجايا شبيهة بسجايا الآلهــة ٠ ولا يفصــل الانســان عن الآلهة فرق مطلق من فروق الطبيعة ، انه يشبههم من حيث كيانه الجوهرى ، هذا الكيان الذى تعوقه حقيقة عوائق خطيرة ، ومع ذلك ففى بمقدوره أن يحقق أحيانا امكانيات باهرة من امكانات العقل والجسد ٠

بهذه المعتقدات شكل اليونانيون صور آلهتهم شبيهة بالبشر فى أبهى أحواله وأكثرها جمالا وتأثيرا ، حتى أننا نرى أرسطو يعلق على هذا بقوله : « ومما لا شك فيه أنه اذا اختلف الناس فيما بينهم فى مجرد أشكال أجسادهم بقدر ما تختلف تماثيل الآلهة عن البشر ، فسوف يسلم الجميع بأن الطبقة الأدنى لا بد أن تكون رقا للطبقة الأعلى » · وبالرغم من أن أشهر تماثيل الآلهة قد أتلفتها الأيام ، وليس لدينا الا نسخ تافهة ضئيلة الشأن لتلك الروائع من أمثال تمثال زيوس وأثينا لفيدياس (Phidias) أو تمثال هيرا لبوليكليتوس (polyclitus) ، الا أنه قد بقى قدر يكفى لتبيان أى نوع من الرؤى تلك التى استولت على عقول الفنانين ·

ان هذه التماثيل ذات الجلال لرائعة الجمال حقا ، الا أن جمالها النادر يتميز بكفاءة ذاتية وقوة فوق طاقة البشر · وان تمثالا برونزيا لزيوس استخرج من بحر أرتميزيون (Artemision) ليكشف عن كم هائل من القوة ممثلة فى جسد مفعم بالرجولة يترنح فى خفة ، وذراعه اليمنى ترتفع لتقذف بصاعقة من الصواعق · ونجد لأبوللو تمثالا فى أولمبيا تفيض ملامحه وتكوينه بسحر الرجولة الشابة ، ومع ذلك فان أهم ما يستلفت انتباهنا هو هيمنته الهادئة على صراع مائج يدير أمره بايماءة ملكية آمرة · كما تبين صور عملات بوسيدونيا (Posidonia) الاله بوسيدون ذا البنية القوية متوعدا ومتحكما فى رمحه ذى الثلاث شعب ، هذا الذى يتلاءم مع لقبه « مزلزل الأرض » ·

ان الجمال الذى تمثله اليونانيون فى آلهتهم جمال خال من الوداعة والجاذبية المحددة ، انه جمال القوة الربانية والمقدرة الالهية ، جمال الطاقات الالهية فى كمال توافرها وجمال العواطف فى كامل انضباطها · وعندما تعاون الآلهة أثينا وهرقل فى رفع القبة الزرقاء كما يتضح من الميثوب الأولمبى ، فانما تباشر واجبها دون عناء ولا يظهر عليها أية سمة من سمات الجهد والمجاهدة · .

وحتى عندما تتورط الآلهة فى فعل بالغ القسوة ، وتكشف عن روحها الغضوب نحو هؤلاء الذين أساءوا اليها ، لا نرى على وجوهها انفعالات ولا تتسم سيماؤها بمشاعر ، وانما تنتصب جامدة مثلما نرى على ميتوب لمعبد سيلينوس (Selinus) ــ أرتميس وهى توجه الموت الى أكتيون ، أو نراها فى رسوم على آنية رسمها مصور وهى تصوب اليه سهما · لقد

---

(١) موضح بالفصل الثامن ·

اتسمت الآلهة بجمال لا يروق للعين وحدها ، وانما يزيد على ذلك جمال ممثل فى قوتهم التى لا تنفد ، واستقلالهم الذاتى وما يتمتعون به من توازم كامل بين العقل والجسد · وفى القرن الرابع قبل الميلاد عندما أصبح اتجاه الفنانين الى نموذج القوة الالهية أقل من انجذابهم الى نموذج القوة الجسدية الخالصة كان ذلك مؤشرا الى أن الآلهة قد بدأوا ينزلون عن مكانة توفرت لهم فى عصر مفعم بالدم الحى والرخاء الوافر ·

وما دامت الآلهة قد تشابهت مع الأناس ، فمن الطبيعى أن تكون هناك محاولة لاقامة صلة بينهم وبين المجتمع الانسانى ، ولقد تأثر بهذا الوضع مسلك اليونانيين فى تقديم القرابين وأداء الصلاة · وفى الماضى البعيد كانت القرابين فى الواقع تقدم استرضاء للآلهة الغاضبة التى لا يحيط بأسرارها أحد ، بل كانت تقدم كائنات بشرية فى أوقات الخوف من اقتراف الآثام · ومن ثم يقال أن افيجينيا (Iphigenia) قد قدمها أبوها أجاممنون قربانا لارضاء الالهة أرتميس ، كى تمنحه رياحا موانية تمكن أسطوله من الابحار الى طروادة ، ونحن نرى فى أماكن متفرقة عبر عصور التاريخ آثار ممارسات قديمة فى شكل قربان لدمية أو حيوان متنكر فى شكل انسان ، لكن القرابين أصبحت آنذاك وليمة تذبح فيها الثيران ويخصص للآلهة نصيب · ثم يطعم العباد المريدون ما بقى من اللحم · وكانوا يتصورون أن الآلهة حاضرة وقد أخذت أماكنها بين العابدين · ومن الممكن أن تتسم هذه الطقوس بالمرح والابتهاج دون أن يذهب ذلك بجلالها · ان تحول تقديم القربان من عمل للتوبة والتكفير الى اقامة حفلات ضيافة ــ لأمر يتفق مع روح اليونانيين فى اقترابهم من الآلهة ، ويتضمن فكرتهم التى تعنى أن الآلهة يتمتعون بنفس الملذات مثل البشر ويقدرون نفس المجاملات والتزلف ·

ونستطيع أن نلمس الاتجاه ذاته فى أسلوب الصلاة ، اذ تقع عادة على ثلاث مراحل ــ وتتمثل المرحلة الأولى فى التضرع الى الاله ويتم هذا الاجراء بالتوسل اليه عن طريق ترديد أسمائه والتبرك بأضرحته ، كما لو كانت هذه الطريقة هى الأسلوب الجليل لمخاطبة الاله ، ثم تأتى بعد ذلك مرحلة التقديس وفيها يتوسل العابد بما أقام من صلوات فى ماضيه ، تلك الصلوات التى تدعم ثقته بالاله وتؤكد حقه فى طلب رعاية ربه وعنايته · وأخيرا تأتى مرحلة الاستعطاف · وفى هذه المرحلة يلتمسون من الاله أن يقضى حاجتهم العاجلة · لذلك نجد الكاهن خريسيس Chryses عند اختطاف ابنته على يد الآخيين وهو يصلى لآبوللو ابتغاء الانتقام له ، نجده يتبع الصيغة الصحيحة المستخدمة فى مثل هذه الظروف ·

لتصغ الى يا اله القوس الفضى ، يا حامى حمى خريسيس
يا من تتولى باقتدار حكم سيلا (Cilla) وتندوس (Tenedos)
المقدستين

يا اله البؤساء ـ لو رفعت يوما لك معبدا جميلا
أو قدمت قربانا من عظام الفخذ المكسوة بطيب لحم
الثيران أو المعز ـ فلتنجز ما ألتمسه من عطفك الآن
والآن هل لى أن أطمع فى أن أجد عوضا عن
دموعى فى أعوانك حملة سهامك ؟

ونحن لا نجد فى هذا الدعاء اقرارا بأوجه القصور أو وعدا بصلاح الحال ، وانما نجد فيه التماسا للعون العملى • ان مثل هذا الالتماس انما يكون صحيحا بين الأصدقاء ومن قدموا برهانا على تفانيهم ، وكذلك بين هؤلاء جميعا وبين الآلهة الذين يقرون مثل هذا الالتماس ويرحبون به • واذا ما رغب الانسان فى عون الآلهة فليس بد من تقديم الولاء المستحق لهم ، ثم بعد ذلك ينال ثوابه الأوفى •

فاليونانيون من ناحية يناشدون الآلهة عونهم ، ومن ناحية أخرى يبتغون منهم الرشاد أو الالهام بصواب المقاصد • وكان لليونانيين وسائلهم الخاصة فى سبر غور المستقبل ، ومع ذلك فلم تكن لهذه الوسائل أهمية متساوية ، فقد نظروا الى تحضير الأرواح مثلا نظرة مستنكرة وحرم فى بعض الولايات ولم يمارسه الا رجال ساءت أخلاقهم فى مناطق نائية • وقد يكون للكهنة والأنبياء الذين أعلنوا عن أنفسهم أيامهم المجيدة ، لكنهم كانوا يميلون أيضا الى اثارة سوء الظن خاصة عندما كانوا يبالغون فى المطالبة بسلطات لهم • وأولى اليونانيون التطير (١) عناية عجيبة وخاصة قبل نشوب المعارك ، الا أنه من المحتمل أن يكون سقراط قد عكس رأيا عسكريا ممتازا عندما قال : « ينبغى أن ينضوى العراف تحت سلطان القائد ولا ينبغى للقائد أن ينضوى تحت سلطان العراف » • وكانوا ينظرون الى الأحلام نظرة أكثر جدية ـ بل كان يقال أنه يوحى بها من قبل زيوس • لكن هوميروس كان يدرك أنه ليس من المستطاع الثقة بكل الأحلام ، وليس سهلا أن تتكهن بما يمكن أن يكون أو بما لا يكون • وكانوا ينظرون الى مثل هذه الوسائل للاستجلاء بدرجات متفاوتة من الشك والارتياب • ومما

(١) التطير : مصدر معناه التشاؤم بشىء يعرض أو يقع •

يدعو الى مزيد من اثارة العجب أن اليونانيين قد أجلوا أقوال الوحى الالهية اجلالا عظيما تلك التى نطق بها الكهنة والكاهنات ، وخاصة ما ورد على ألسنة كهنة ضريح أبوللو فى دلفى ٠

ان مثل هذه البيئة لكفيل بأن يلهم باحساس الانبهار الناشيء عن الحضرة الالهية ذات السلطان القهار ٠ وتحت جرفين شديدى الانحدار على نهر كاستاليا Castalia حيث تطل العين على السهل المنبسط تحتهما ــ نجد صخرة محاطة بأشجار الزيتون ذات الخضرة الداكنة وملونة بظلال النسور ، حيث تعبر العين فوقها الى البحر والى جبال بلوبونيزيا الواقعة فيما وراء البحر ، هنا بين التماثيل ومكامن الكنوز يوجد ضريح أبوللو ، حيث تروح كاهنة أبوللو ، وسدنة الضريح فى غشمية تنطق أثناءها كلمات تأتى اجابة على أسئلة الحجيج ، ويتولى تنسيقها مفسرون مترجمون ٠ ولقد أولى كهنوت دلفى احتراما وثقة واجلالا لحكمته ٠ ورغم التحفظ والانضباط فقد كان ملما الماما كبيرا بالشئون العامة ، ويعرف أن كثيرا من المتاعب الخاصة يحل دون عناء بفضل الحس المرهف ٠ وبقيت هيبة كهنوت دلفى حتى بعد أن أخطأ التقدير بشكل خطير فى تأييده للفرس سنة ٤٨٠ ق٠م ، اذ ارتكزت هذه الهيبة على ما لها من معرفة فائقة وادراك للطبيعة الانسانية ٠

وتتجلى المقدرة اليونانيــة فى الاحتفاظ بالطقوس العتيقة وادراك معناها مما كان يصاحب نبوءات كهنة دلفى من اجراءات ونجاح ٠ وكان الناس يعتقدون أنهم من خلال كاهنة دلفى يتصلون بالاله أبوللو ثم يعودون وقد تسربلوا بالراحة والقوة ٠

وقد تعيش الآلهة فى الأوليمبوس أو تتخذ لها من أضرحتها المفضلة معزلا ، لكنهم كذلك كانوا يتحركون بين الناس ويشـاركون فى شئون البشر ، ونحن نرى هوميروس فى الواقع لا يجعل منهم محاربين فى الحرب الطروادية فحسب ، وانما يقيم بينهم وبين أبطاله صـلة وثيقة ، وذلك مثلما حدث عندما تبدت الالهة أثينا لأخيليس وحده وراحت تفاجئه من خلفه آخذة بشعره وهى تأمره ألا يرفع سيفه على أجاممنون ، أو نراها فى مناسبات عديدة تسارع الى مساعدة أوديسيوس (Odysseus) وتعامله معاملة تتسم بروح المرح والاعجاب دون تكلف أو حواجز ٠ وكان هذا العصر هو العصر المجيد عندما كانت تمشى الآلهة على الأرض ، تحت أعين البشر ، ومع ذلك لم تغب عن الأجيال المتأخرة رؤيا الآلهة وتصورهم ٠ لقد كان هناك أكثر من شكل من أشكال المناسبات التى كان يعتقد أن الآلهة حاضرة فيها ، فى الولائم واحتفالات الرقص والغناء ، وفى احتفالات

الزواج ومراسم الجنائز · وكثيرا ما كانت تأخذ الأبطال وأنصاف الآلهة مكان الآلهة في دنيا الواقع والأفعال ، وتسارع الى نجدة مدنها ، كما فعل ثيسيوس (Theseus) وايسيدس (Aeacids) في موقعتي ماراثون (Marathon) وسلاميس (Salamis) ، وكذلك لم تكن رؤيا الآلهة بالأمر المفتقد ·

ولم يغب عن علم بندار معنى ما كتبه عندما أخبرنا عن الأسلوب الذى اتخذه يايموس (Iamus) فى صلاته للاله بوسيدون ، اذ يتصور أنه يسمع صوت الاله مجيبا : « فى الليل وتحت السماء يتنزل الصوت » ، بل تنشىء سافو (Sappho) بشكل أكثر ابهارا ترتيلتها الى أفروديت عن مناسبة ماضية ، حين تبدت لها احدى الالهات فى جمال دنيوى مشرق وسألتها عما يشقيها ثم وعدتها بما ينطوى عليه المستقبل من خير كثير · ولا ريب أن مثل هذه التجارب كانت أمورا استثنائية ، الا أنها تبين أن الآلهة كانت بالنسبة لليونانيين أشخاصا حقيقيين ، يستطيعون أن يدخلوا معهم فى علاقة حميمة خاصة · ومع ذلك لا يشوب هذه العلاقات هوان نفسى أو اذلال متعمد ·

ان المجد العظيم الذى تتسم به الآلهة هو فى الواقع محل تبجيل ولا ينكره أحد ، ومع ذلك لا يخشى رفقاؤهم الآدميون من الحديث معهم بحرية وصراحة · وبالرغم من الوصول الى هذا المستوى من العلاقة ، فان قواعد الصداقة اليونانية تحكم هذه العلاقة وليس للفروق الشاسعة فى المنزلة تأثير على حاجتهم الى اخلاص كامل وصدور آكيد ·

ان هذا المفهوم الخفى بالآلهة كان يتعرض بين الآونة والأخرى الى ما يشوه جماله ذلك عندما تفشل الآلهة فشلا ظاهريا فى تحقيق التزاماتها تجاه البشر · فلو منيت بالفشل علاقات الناس بعضهم بعض ، فسوف يتهمون بالغدر وعدم الوفاء ، بيد أن مثل هذا الاتهام ليس من المستطاع توجيهه ضد الآلهة ، وكان على اليونانيين أن يبحثوا عن تعليلات أخرى لمثل هذا الموقف ، وأبسطها ارجاع هذا الفشل الى خطأ جوهرى فى الانسان · فاذا ما أخفق الانسان فى ايفاء الآلهة حقها من التكريم والتقدير ، فليس فى وسعه أن يطمع فى حسن معاملتهم وعليه أن ينتظر أن تختل أموره وتنحرف عن سواء السبيل · وكذلك الآلهة ليس فى وسعها بما لها من حكمة أن تتبع نفس اتجاه البشر ، أو أن تلتزم بالحاجيات التى اختص بها بنو الانسان · وللآلهة فى نهاية المطاف امتياز الهى فى رفض الهبات دون تقديم تبرير لذلك · الا أنه كان هناك كثير من المناسبات

المثيرة لمزيد من القلق ، ذلك عندما كانت تبدو الآلهة وكأنما تخدع أصدقاءها أو تغدر بهم • ولقد برزت هذه المشكلة في شكلها الجاد مع النبوءات التى كانت كثيرا ما تتنبأ بنقيض ما كان يحدث فى واقع الأمر • ويذكر ثيوسيديويس صاحب الاتجاه العلمي الحيادى أن هذه المشكلة قد شاع أمرها ابان الحرب البلوبونيزية الا أنه يتصور أنها ليست ذات خطر جليل • وان كان الاعتقاد فى النبوءات قد ساد بشكل يثير الاندهاش فى القرن الخامس • ولم يكن اخفاق النبوءات ليمد هيرودوت ببعض القصص الرائعة فحسب ، وانما زود كذلك سوفوكليس بموضوعات رئيسية فى مسرحيتيه « نساء من تراقيا » ، « أوديب ملكا » ، وكلا الكاتبين قد آمن بنبوءات الكهنة ، وكلاهما بذل قصارى جهده فى توضيح الأمر التالى : وهو – لو أن النبوءة قد حادت عن جادة الصواب – فمرجع ذلك الى سوء تأويلها من قبل العباد • وقد كان هناك درس بهذا المعنى شاع خبره بين سواد الناس فى عام ٤٤٧ ق٠م ، عندما منى جيش أثينى فى بيؤتيا (Boeotia) بالهزيمة فى موقعة كورونيا (Coronea) ، بعد أن تنفى نبوءة يبدو أنها كانت تعده بالانتصار • وقد عزى تفسير ذلك الى أن الاله قد تنبأ حقيقة بانتصار الجانب الآخر ، الا أن الأثينيين قد فاتهم ادراك ذلك • ومن ثم فعندما أقيم فى أثينا النصب التذكارى الرسمى للموتى ، اختتمت نقوشه بهذا القول :

الى كل بنى البشر برهن المثوى تحت الثرى
على دوام صدق النبوءات فى المستقبل •

ويعد هذا الاستنتاج من حالة بمفردها استنتاجا هائلا ، وان كان يبين كيف نظر بعض اليونانيين الى هذا الموضوع ، وكيف أنهم بدلا من الاعتراف بخداع الآلهة لهم ، فصلوا فى الأمر بأن الخطأ خطؤهم • ومن المنتظر أن تكون النبوءة فى كلمات مبهمة ، اذ أنه لاحاجة بالآلهة الى أن يكون لحديثهم وضوح حديث البشر • ولو رغب الناس فى معرفة الارادة الالهية ، فعليهم أن يولوا استفساراتهم عناية عظمى ، واذا ما جانب سعيهم الصواب فلا يلومن الا أنفسهم •

وبالرغم من اعتقاد اليونانيين بأنه فى وسع البشر أن يكونوا ما يشبه الصداقة بينهم وبين الآلهة ، فقد أدركوا أن هذه الصداقة ليست صداقة بين الأنداد ، وأنهم لو عولوا عليها أكثر مما ينبغى فسوف يدفعون ثمن خطئهم ، لقد احتوت الأساطير على أمثلة مروعة كثيرة للانتقام الالهى الذى نزل بأولئك الذين جاوزوا حدودهم • فعندما تباهت

نيـــوب (Niobe) بأن أطفالها كانوا على قدر من الجمال مماثل لأطفال ليتو (Leto) حـاق بهم الدمار على يد كل من أبوللو وأرتميس • وعندما رأى اكتيون (Actaeon) صدفة أرتميس عارية أمرت كلابه بأن ينهشوا لحمه ويلتهموه • وعندما سخر بنثيوس (Pentheus) من ديونيسوس (Dionysus) واحتبســه ، مزق اربا على يـد عابدات باخوس عبـاد الاله ديونيسوس وعنـــدما أنزل أبوللو الهزيمة بمرسياس (Marsyas) فى مبـــاراة على العزف ـ لم يكفه ذلك بل ســـلخ جلد مرسياس حيا •

ان اعتبارات الشرف الشخصى كانت أمورا تثير الآلهـة اليونانيين مثلما تثير الأبطال اليونانيين ، وان أى مشكك يمكن أن يفسر على أنه اساءة الى هذا الشرف أثارت غضبهم واستوجبت انتقامهم الشديد • لم يكن الصفح من طبيعتهم ، واذا ما أثم فى حقهم أحد فلا عذر له ، وليس فى مقدوره أن يتوقع من الآلهة رحمة ولا شفقة •

وبدافع من الغيرة على شرفهم قد تذل الآلهة الناجحين من البشر ، وتجد فى ذلك سعادة تفوق سعادة البشر الفانى • وليس هناك ما يشير الى هـذا الاتجاه فى العـالم البطولى • فقد تتعامل الآلهة مع أخيليس أو هيكتور بما يشبه اللامبالاة المقصودة لكنهم لا يحسدونهم ولا يكنون لهم حقدا • لكن بينما حاول اليونانيون أن يلقوا الضـــوء على المعاملة الألهية للبشر ، طوروا فكرة مؤداها أنه لا ضمان لسعادة أو نجاح مادام الآلهة يمقتون ذلك • ان مثل هذه التعاليم كان لها جدواها فى تفســير سبب سقوط أصحاب المناصب الرفيعة من فوقها ، وعلى سبيل المثال فقد راقت هذه التعاليم لهيرودوت الذى اسـتطاع فى شرحه للتعديلات السياسية الحاسمة أن يوضح فكرته التى تقول « ان الآلهة يحسدون ويتدخلون فى شئون الغير » ، وأنهم لا يترددون فى الاطاحة حتى بأمثال كرويسوس ملك ليديا ، من أولئك الذين سخروا أنفسهم للآلهة بتفان فريد لا مثيل له • ومن المؤكد أن هذه القصيدة لم تقم على أساس من الثقة بالعدالة المطلقة للآلهة ، بيد أنها راقت لأنصار منهج الوسـط الذين يجادلون بزعمهم أن النـاس ان سمعوا للآلهـة فسوف يتنكبون الكوارث • ومن ثم نجد يوربيديس عندما أزعجه انهيار المعايير الخلقية يدعى أن فقدان الايمـان بالغضب الالهى لايسـعه الا أن يقوض دعائم الأخلاق •

أى نفع يجدى وجه التواضع والفضيلة
عندما تكون السلطة لغير الآلهة
هنالك سوف تغفل الفضيلة
ويتجاهلها البشر وتسود اللاشرعية
كل القوانين ، ولا تزهر حياة الناس بالنماء .
ألاليت غضب الآلهة ، لا يهبط علينا ؟!

ويعد هذا بحق انكارا للنظام البطولى القديم ، وقد فتح الباب للفكرة القائلة بأن غيره الآلهة وغضبها قد لا يتجهان الى الناجحين والعظماء وانما يتحولان كذلك الى كل هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم بحرية ودون قيود .

وطالما قد سلمنا بهذا ، فقد يكون من الحماقة أن نحاول تفسير سبب انزال الكوارث والمحن من قبل الآلهة . ومع ذلك فلم يكن فى مقدور الناس أن يتحاشوا الخوض فى هذه المسألة ، وتعين عليهم أن يتخذوا حيالها موقفا ما . أما أصحاب العقول ذات الصبغة العلمية والأقل تأثرا بالأفكار الدينية ، فربما يجدون الاجابة على هذا السؤال أمرا غاية فى السهولة والبساطة ، مثلما تجد ديموقريطس يجادل فى الأمر بقوله :

« ان الآلهة القديم منها والجديد يمنحون الناس طيبات الحياة ، بيد ان كل الأشياء الخبيثة الضارة العديمة النفع ، ليست هبات تهبها الآلهة القديمة أو الآلهة الحديثة ، لكن الناس أنفسهم يأتون السوء مدفوعين اليه بالحماقة وعمى البصيرة » . ولعل هذا الأمر كان غاية فى البساطة وان ترك كثيرا من الأمور معلقة دون تفسير ، اذ لم يحظ على الأقل بتأييد كبير ، مما دفع قوما آخرين من أمثال هيراقليطس Heraclitis الى البحث عن تفسير مبهم لايستند على الخبرة البشرية : « ان الآلهة ترى كل الأشياء جميلة خيرة وعادلة ، أما الناس فيتصورون أن بعض الأشياء عادل وبعضها الآخر غير عادل » . ويفترض هذا الاتجاه أن الآلهة هم فى النهاية على حق ، وحتى فى ظل هذا الافتراض فليس من الضرورى أن يكونوا كذلك . لقد كان من الممكن بل ومن المعقول أن يدعوا أن هذه الأمور تجاوز الادراك البشرى ، وأن يزعموا أن الآلهة لاينبغى أن يحكم عليها بمعايير بشرية ، وانما يفعلون ما يفعلون لأنهم يشاؤون ذلك . ومن ثم نجد سوفوكليس يحكى كيف ينتهى هرقل الى نهاية بشعة بعد أن كرس حياته لجهود أنكر فيها ذاته — وليس هناك من مواساة أو تفسير يقدم لموقف هرقل ، وانما نجد هيلوس بن هرقل يقول عندما ينتهى من كل شىء :

لقد رأينا مشاهد موت عظيمة وغريبة
وعانينا من آلام كثيرة مجهولة الشكل ٠
وهذا كله من صنع زيوس ٠

لقد بقيت المسألة دون حل ، وربما يرجع ذلك الى أنها مشكلة من تلك التى تستعصى على الحل ٠ ويكفى غالبيــة البشر أن تكون قرارات الآلهة فى نهاية المطاف لاتفسير لها ، وعلى الناس أن يقبلوها ببساطة ، كأمر متوقع من كائنات برغم تشابهها بالشر تستطيع أن تتبع أهواءها ورغباتها وعواطفها دونما عائق ٠

ان هذه الريب التى حاقت بموقف اليونانيين من الآلهة جعلتهــم يتوافون فى قبول الآلهة كنماذج وقضاة للسلوك البشرى ٠ فبالرغم من أن هوميروس يشير فى الالياذة الى أن مآسى حرب طروادة ترجع الى فسق باريس ، وبالرغم من أنه فى الأوديسا يجعل الآلهة تؤيد وتساعد على معاقبة الخطاب (١) على يد أوديسيوس الا أن صورته عن الآلهة بوجه عام توحى بأنهم لايشغلون الا قليلا بأمر الخير أو الشر فى أنفسهم ونفوس البشر ٠ انهم يفعلون ما يشاءون ، ومجتمعهم أشــــبه ما يكون بالمجتمع البشرى ، لو أن أفراده تيسر لهم أن يتبعوا أهواءهم دون الدخول فى مخاطرة الفشل والاحباط ٠ ويفسر لنا هذا الموقف السبب فى أنهــم أحيانا يمدوننا بنوع من مشاهد الترفيه الهزلية ٠ وأنهم فى أمنهم الالهى يفتقرون الى شيء من الكرامة التى يكتسبها الانسان أثناء مالديه من عمر قصير ، فما دام وجودهم الذى ينفقونه فى اللذة الى حد كبير يقــدم مناسبات لاثارة السخرية من بعضهم البعض ، فليس هناك من سبب يمنع البشر من أن يشارك فى هذه السخرية ٠ ان هذه السخرية ليست بأية حال من الأمور الداعيــة الى الشــك ، بل وليست مجافية للتوقير والتبجيل ٠ وانما تقوم على أساس من الحب للآلهة ، بل وتقوم على أساس من الغيرة والاعجاب بحياتهم السعيدة انهــا تتضمن فكرة عن الآلهــة مؤداها أنهم لايبالون على وجه التقريب بالخطأ والصواب ، لأنه ليس للتمييز بين الخطأ والصواب فى وجودهم معنى كبير ٠ وليست معاملتهم للبشر قائمة على أى مبدأ واضح محدد المعالم ٠

ونجد أخيليس يفسر موقف الآلهة لبريام (Priam) فى حكاية

---

(١) ظن أمراء اليونان ان اوديسيوس قد مات فتوافد الخطاب على امرأته وحاولوا أن يجبروها على اختيار احدهم للزواج منها ٠

الجرتين على باب زيوس احدى هاتين الجرتين تحتوى على خيرات وتحتوى الأخرى على شرور • ويقدم زيوس الى بعض البشر خليطا ، وآخـرون لايعطيهم الا شرا ، أولئك الذين يطاردهم الجوع عبر البسيطة لايجدون تقديرا من الناس ولا من الآلهة • وكثيرا ما تتدخل الآلهة فى شـئون البشر ، الا أنهم وفقا لما يقوله أخيليس ، لايقيمون تدخلهم على أساس من الصواب والخطأ الذى تتصف به أفعال البشر • هذه هى وجهة نظر العصور البطولية القديمة ، التى لم يتجاهلها اليونانيون بأية حال •

ان الفكرة التى تقول بأن الآلهة معنيون بما يأتيه البشر انما هى تطور طبيعى فى مجتمع يمضى سريعـا نحو مزيـد من الوعى بالتزاماته الاجتماعية والمدنية • فاذا ما أحس الناس بحاجتهم الى معاقبة الأشقياء من مرتكبى الشر ، فمن المنطقى أن نفترض أن الآلهة الذين حظوا بتبجيل اليونانيين يشعرون شعورا مماثلا – لم يكن الباعث على مثل هذا الاعتقاد عقلانيا اذ أن الدليل عليه كان دائما دليلا مشكوكا فيه ، بيد أنه على الأقل قد انبثق من عنصر عميق فى أغوار الوجدان البشرى ، ولم يكن متعارضا مع عناصر محددة فى قانون الشرف • فاذا ما كان الشرف قد ألزم الانسان برعاية أسرته ومدينته ، فمن الطبيعى أن نفترض أن الآلهة قد أيدوه فى ذلك وناصروه • ومن المسـتطاع عند الخروج عن هذه الالتزامات أن يتضرع المرء الى الآلهة مبتغيا عونهم وعفوهم ، وتحل لعنتهم على أولئك الذين يتجاهلونهم أو يتحدون ارادتهم • وقد تتكشف حياة الآلهة فى الواقع عن كثير من هذه الأخطاء ، وكنوع من « الفكر المزدوج » لم يكن من المحال أن يعتقد الناس أن الآلهة تعاقبهم على هذه الأخطاء ، فالآلهة قبل كل شيء حماة للمقدسات الاجتماعية والمدنية ، فقد يستنزل والد لعنـة الآلهـة على ابنه العاصى كما يصنع أوديب العجوز ببولينيسيس Bolynices الخائن الغافل • ويتفق كثيرون مع أفلاطون فى أن استنزال مثل هذه اللعنة أمر تسمعه الآلهة وتستجيب له بكل تأكيد •

والآلهة باعتبارها حراسـا لمعنى الوفاء ، تنزل العقاب على من ينتهك حرمة المبادىء الاجتماعية ، بأفعال مثل الخيانة والقتل – اهمال الوالدين ، الحنث فى القسم والالتواء وازدواج المعاملة • وانطلاقا من هذه الفروض كان من اليسير أن يتجه الناس نحو عقيدة مؤداها أن الآلهة تراقب أعمال البشر ، وتعاقب فى النهاية المسيئين منهم • ونجد هذه العقيدة تزداد قوة فى الفترة مابين القرن السادس الى الرابع قبل الميلاد ، عندما نجد أفلاطون يخصص قسما أساسيا من مشروعه الكامل – وهو نظام للثواب والعقاب بعد الموت سوف ينصف المظلومين فى هذا العالم •

لم يكن أفلاطون أول من طرح هذا النظام ولا آخرهم ، وبعد فترة أسهمت أفكاره في تكوين الفكرة المسيحية عن الجحيم •

وحتى اذا كان قد اكتسب قبولا عريضا لأفكاره ، وهو أمر قابل للشك ، فلم يكن لهذه الأفكار تأثيرها الشديد على العقــل اليونانى ، وليس هناك امارة تشير الى أن يونانيا واحدا قد شعر بخوف مزعج من العذاب بعد الموت الأمر الذى شغل عقل لاكريتيوس (Lucretrus) الرومانى ، كما ليس هناك علامة تفيد أن هذا الأمر قد اتخذ أشــكالا متشائمة فى رسوم مقابر الأترورريين (١) •

حتى فكرة العذاب تركت كثيرا من الأمور دون تفسير وتوضيح ، ورأى اليونانيون أن المعاناة ليست دائما نتيجة لسوء الأفعال ، وأن قدرة الأشرار على تحاشى هذا السوء هزيلة واهنة • وقد يحاولون تفســير عذابات الأبريــاء بالتلاعب بنظريات الاثــم الوراثى التى تقول أن آثام الآباء تورث للأبناء • ومن ثم نجد سولون يتنبأ بانتقام زيوس انطلاقا من ايمانه بأن غضب زيوس قد يتباطأ لكنــه مع ذلك حتمى مؤكد ، فيقول :

هكذا تحل نقمة زيوس ـ وعلى النقيض من البشر
لا يسارع زيوس بالغضب على كل ما يؤتى •
لامهرب لكل ذى قلب به خطيئة من قبضته
لكنه فى نهاية الأمر ، يكشف أمر المخطىء فى جلاء مطلق
قد يعاقب الآن أحد الناس ، ويعاقب الآخر فى وقت آخر
لكن النقمة سوف تحل على أولئك الذين يهربون من غضب الاله
سوف تتعقبهم يقينا ، ودون ريب فى آجل من الأمر
يعاقب الأبرياء من أطفالهم ، وأحفادهم من بعدهم •

وبالرغم من أن هــذا الاتجــاه قد يبدو كأنه نظــرية لاهوتية • الا أنه فى الواقع أقرب مايكون الى الفكر الاجتماعى والسياسى • وكان سولون من المفكرين المعنيين بالطبقة الاجتماعية من الأغنياء الذين يسيئون استخدام ســلطتهم وامتيازاتهــم ؛ ولا نســتطيع أن نجــادل فى أن ما يقوله سولون له من وجهة نظره قدر من الحقيقة ، اذ لو أن طبقة من الطبقات الاجتماعية تصدت لمسئولياتها تصــديا مستخفا متهاونا ، لكان هناك احتمال حقيقى وأكيد فى أن تدفع هذه الطبقة ثمن تهاونها وكان هناك تفسير آخر لهــذه النظرية مـؤداه أن عائــلات معينة عانت •

---

(١) نسبة الى أتروريا وهى بلاد قديمة غرب ايطاليا •

مما يشبه اللعنة الوراثية مبتدية في الميل الفطري الى العنف · وقد ظهرت آثار ذلك في الأجيال اللاحقة وجلبت على هذه العائلات كوارث ونكبات · ومن الممكن تطبيق هذه النظرية على كل من أوديب ، الذي يتحدى أبوه لايوس (Laius) نبوءات الآلهة ، وعن ابنيه ايتوكليس Eteocles وبولينسيس (Polynices), اللذين يلقيان حتفهما في حرب ضد بعضهما البعض ، كما تنطبق على بيت أتريوس (Atreus) الذي ظلت فيه الجريمة تفضي الى جريمة أخرى الى أن تدخلت الآلهة لتوقف سفك الدماء البشع ·

لقد شكل اليونانيون في هذه القصص أفكارهم عن الوراثة وعن صفات العائلة التي يرتبط مصيرها بالوراثة ارتباطا لا فكاك منه ، ويفضي بها الى الدمار والهلاك · ولقد كان لفكرة الوراثة هي الأخرى مايمكن أن يقال بشأنها ، بيد أن كلا من هذا الاتجاه ونظرية سولون الاجتماعية لم يستطع أن يلم بأطراف المشكلة بكاملها ، ولم يعالج كل حالات المعاناة · ويبدو في الواقع أن اليونانيين قد تحاشوا الخوض في مثل هذه النظريات الشاملة ، ولعل ذلك مرجعه الى أن هذه النظريات كانت على خلاف مع معتقدهم السائد الذي يقول بأن الانسان هو الذي يضع مصيره · وكان الانسان في الواقع حسب هذا المعتقد ألعوبة في يد الآلهة الى حد ما ، ولكنه ليس امعة ، اذ أن من المهم بالنسبة للمعايير الأخلاقية أن يعرف اذا ما كان الانسان يتصرف وفق اختياره الخاص أم لا ·

فاذا لم يحقق اليونانيون نجاحا بشأن العثور على أجوبة عن هذه الأسئلة أكثر مما حققته الأجيال اللاحقة من نجاح ، فلا يعنى ذلك أنهم لم يهتموا اهتماما عميقا بالمسائل الأخلاقية · واذا ما لعبت المقدسات الالهية دورا ما في النظريات الأخلاقية لدى اليونانيين ، فان ذلك يرجع الى أنهم قد أحسوا احساسا قويا بأن الخطأ والصواب ينبغي أن يكون محل اهتمام الآلهة اذ ان الآلهة أنفسهم كانوا بكل تأكيد محل اهتمام البشر · فطالما أنهم كانوا يأتون ما يعتقدون أنه صواب لا ابتغاء ثواب مطلق ، وانما لأن طبائعهم كانت تحثهم على فعل ذلك ، فانما يعد هذا المنحى تقديرا لما لغرائزهم البشرية من عزم وقوة واجلاله للطبيعة المرضية ، التي تتسم بها افتراضاتهم وعقائدهم · وعندما يتحدث أرسطو عن الأشياء الخيرة في ذاتها ، انما يعيد أمرا طالما كان ملمحا من ملامح الفكر اليوناني ، ومع أنه من الممكن تطبيقه على كثير مما نعتبره واقعا خارج محيط الأخلاق ،

الا أن له علاقة بالسلوك . ومما يعد في الواقع واحدا من أبرز الاسهامات اليونانية فى مجال الفكر الأخلاقى ، هو ما جادوا به من فكرة تقول ان ما للفعل من خير هو فى ذات الفعل لاغير ، وأن الانسان انما يحكم عليه بدرجة اختياره وبقراره الذى يتخذه بصدد هذا الاختيار . ولعل هذا تطور لنظام الشرف .

لقد شعر الانسان أنه مدين بالتزامات معينة الى نفسه والى فكرته عما ينبغى أن يكون عليه من مسلك واتجاه ، ولو قام بأداء هذه الالتزامات فسوف يرضـــيه ذلك ولن يطلب مزيدا من الجزاء ، حتى لو اعتقد أن الآلهة تراقب أفعاله اوتجيزها فلا يزال يتصرف وفق دوافع نفســـية داخلية ، ملتمسا فى الآلهة نوعا من ذلك التأييـد الذى يتصوره أمرا طبيعيـا فى مثل هذه الحالة ، ولما كان اليونانيون يؤمنون بطبيعتهـم البشرية ، ويحبون أن يروها تمارس نشاطها بشكل منسجم متناغم ، فقد طور اليونانيون فكرة الأخلاق وأقاموها على أساس من القيم الانسانية . واستطاعوا أن يؤدوا دورهم بحرية وثقة دون أن يقلقهم كثيرا ما يتصوره الآلهة عن طبيعتهم البشرية .

وفى مثل هذه المســائل كان اليونانيون يتعاملون مع الآلهـــة باعتبارهم كلا قائما بذاته ، أو باعتبارهم تجسيدات لمبدأ الهى متفرد ، يحركهم جميعا الى نشاطاتهم دونما تفريق ، ويظهرهم فى ظـــل هذا النشاط بعلاقاتهم مع البشر . ومع ذلك فللآلهة مجالات أفعالهم الخاصة ، كما أن لهم شخصياتهم المتميزة . ومهما يكن الأصل الذى انحدر منه الاله فمن الممكن أن يكون هذا الأصل فى الواقع متعددا متشعبا . ان زيوس كان رب السماء للشعوب الهندية الأوربية ، وان أفروديت الهة الخصب والنماء لشعوب بحر ايجه . ومع ذلك فعندما نراهم يمارسون نشاطهم نجدهم (الآلهة) لايكونون أسرة الهية فحسب ، وانما يأخذ كل اله بتقاليد الحكم لجزء ما من الطبيعة المادية ، مضطلعا بوظيفة خاصة ذات علاقة بالبشر . وقد تكون المهمة الأولى للآلهة أكثر قدما وأقدم أصلا من المهمة الثانية ، ومع ذلك فمن اليسير أن نرى كيف تستطيع احدى المهمتين التداخل مع الأخرى والاندماج فيها . فنحن نجد زيوس نفســه اله السماء ومجمع السحاب وهو أيضا أبو الآلهة البشر ، وهو باعتباره أبا للعائلات الأولمبية لا يستطيع أحد أن يتنبأ بغضبه على عالم الأولمبوس كما لا نستطيع أن نتنبأ بعواصفه التى يرسلها على الأرض .

أما أبوللو فهو اله الضوء ، ومن ثم فهو اله الالهام ، الالهام الذى يقدم الى الروح ما يقدمه الضوء الى العالم ، انه مثل الضوء فى مرتبتـــه

وشراسته وهو سيد الانشاد ورب النبوءات ، وهو الذى يرفع البشر فوق المستوى العادى المألوف بما يمنحهم بغية من فائض القوة والطاقات ٠

أما أفروديت (Aphrodite) فهى وليدة البحر ، وبالرغم من أنها فى الواقع الهة الرغبة الجسدية ، التى تشتد قوة فى الآلهة والبشر والحيوانات دونما تفريق ، فهى مع ذلك أكثر من ذلك بكثير ٠ انها مثل البحر ترسل فتنتها الساحرة التى تغوى ضحاياها دون عناء الى دمارهم المحتوم ،وهى أيضا مثل البحر لا يعرف لها تفسير يبرر تقسيم مباهجها وأوصافها ٠ وفى الجانب المقابل لأفروديت نجد أرتميس (Artemis) التى تهيمن على الطبيعة البرية ، والحيوانات الوحشية ، وعالم الكائنات الحية بكاملة وكل ما يقع خارج محيط البشر ٠ انها تسكن التلال ، وعذريتها تلائم طابعها باعتبارها تهيم حبا بالعزلة والانعزال ، وتقدم الصبايا اليها قرابينهن قبل زواجهن ، ومن التناقض الغامض أن هؤلاء الصبايا ينشدون مساعدتها وقت المخاض ٠

أمـا هيرميس (Hermes) فهو السيد المسيطر على قطعان الأغنام والذى يجسد معنى الخبث والأذى اللذين تتصف بهما المخلوقات البدائية وهو الذى يرعى أعمال الخداع والخطيئة ٠

أما بوسيدون (Posidon) فهو اله البحر ، ومن ثم هو المسيطر على العواصف والزلازل ويحظى بتكريم المدن ، التى تعيش على ما تستخرجه من البحر مثل أثينا ، وتدين هذ المدن للبحر بثروتها وسلطانها ٠ أمـا أثينـا (Athens) قد تكون أولى مهامها حمـاية أشـجار الزيتون التى بدونها لا يستطيع أن يحيا سكان اليونان ، فهى أرتميس المدينة ، وترمز الى الروح القومية فى ذكائها ، واستقلالها البكر ، حبها لكل ما هـو جميل ٠

أما هيرا (Hera) ملكة الآلهة والتى تمتقع ذعرا أمام زوجها ، تملها منزلة الأمومة باعتبارها حامية الأطفال ٠

أما ديونيسوس (Dionysus) اله الأعناب ، ومن ثم اله النشوة والاثارة المخمورة ٠ ويبدو الأمر كما لو كان هؤلاء الآلهة والالهات قـد بدأوا مسيرات حياتهم كقوى من قوى الطبيعة ، لكنهم بعد ذلك قامـوا بوظائف أخرى أسندت اليهم ، وخلعت عليهم صفات التبجيل من قبـل العابدين لهم ـ الذين يبتغون منهم أكثر من مجرد السيطرة على العناصر الطبيعية ـ والذين وازنوا بين قواهم والقوى الأخرى الكامنة فى عقل الانسان وقلبه ٠

كانت هناك آلهة دون مستوى آلهة الأولمبوس ، لم يتساووا معهم منزلة لكنهم تمتعوا بمكانة فى العبادات المحلية والعقائد ، وقد تبتغى منهم المساعدة فى مسائل لا يطلب فيها عون آلهة الأولمبوس لما لهذه الآلهة من ترفع ومهابة ٠ ان وجود آلهة ذات طبيعة حيوانية عززت الايمان بالحوريات الالهات ، اللائى ارتبط وجودهن بالاشجار والأمواه التى سكنتها هذه الحوريات ، كما شجعت الاعتقاد فى الساطيرات (١) الذين كان لهم اشكال بشرية أذيال جياد او معز ، والذين كانوا يرمزون الى الغرائز الجسدية البدائية ، وقد أصبحوا رمزا للعربدة والفوضى الصاخبة باعتبارهم رفاقا للاله ديونيسوس ، كما قوى الاعتقاد فى بان (٢) (Pan) اله الماعز الذى كان يشارك الساطيرات فى كثير من الصفات لكنه بعد أن ظهر فيليبيدس (Philippides) الفار أثناء الغزو الفارسى عام ٤٩٠ ق٠م احتل منزلة خاصة فى أثينا حتى اعتقد الناس أنه تبوأ مكانا فى عالم الأولمبوس ، لقد كان لمثل هذه الآلهة الصغيرة أضرحتها وطقوسها الخاصة ، وقد ساد الاعتقاد بأنهم يمنحون عونهم لمن يقوم على حراسة المحاصيل وقطعان الأغنام ٠ وأسبغوا عنايتهم بما لهم من وفرة وغزارة على تربية الحيوانات ، ومما هو ملائم لطبائع الأشياء أن يكون بينهم وبين هذه الحيوانات أمور مشتركة ٠ وعلى خلاف ما ذكر عن هذه الآلهة وعلى مستوى من الأهمية يكاد أن يكون متماثلا ، كان أبطال عظماء الماضى من الرجال ، الذين كان يسرى فى عروقهم دم الهى ، والذين حظوا بالتمجيد والتكريم بعد موتهم ، لما أتوا به من أعمال ، ولما كان لهم من درجة خاصة من القوة والحيوية ٠ وكانت هذه الآلهة تنتمى الى الحياة العامة ، وتصور اليونانيون أنهم يتواجدون فى الأعياد والمهرجانات أو مع الجيوش فى مسيرتهم أو فى مواقع النزال ٠ وكان لهم أماكنهم المقدسة حيث تقدم لهم القرابين ، وقد تنشد لهم الأناشيد ٠ لقد ساعدوا فى جعل العالم يذخر بالأوصياء من المقدسين ، كما ساعدوا فى بعث الاطمئنان الى أن كل حاجات البشر الى التأييد الالهى سوف تجاب وتلبى ٠

ان الدين اليونانى الذى بدأ مع الفرد والأسرة ــ قد انتقل فى يسر الى سيطرة دولة المدينة ، التى احتفظت لنفسها بخصائص الأسرة وأوفت الفرد حقه من التقدير والتمييز ٠ وتولى حماية كل مدينة الهة أو اله خاص

---

(١) مفرده ساطير : اله من آلهة الغابات عند الاغريق ، له ذيل وأذنا فرس ٠

(٢) اله الغابات والمراعى والرعاة عند الاغريق ٠٠

كان لكل منهما معبده ومهرجاناته وفي هذه المهرجانات التي ما زالت أعيادا تجمع بين عبادة الآلهة والقديسين من الرجال ، نجد شعبا بكامله يشعر بأنه يتمتع بحماية الحارس الأمين الحاضر في هذه الاحتفالات ، ويتحد هذا الشعب في الاعجاب بهذه الآلهة والقديسين . وبادراكه أنه ينتمي اليهم . تلك هي احتفالات أثينا التي صورت على طنف (١) البارثنون ـ وهنا نرى شبابا يمتطي جيادا غير مسرجة وقساوسة تسوق ثيرانا لتقدم قربانا ، وأقواما تحمل جرارا بها قرابين ، ونساء منتصبات يتحدثن في وقار رزين ، ويشملهم جميعا احساس هادئ ودود بحضور الآلهة . انه يوم من أيام السعادة والزينة والفراغ ، يتسم بالزخرف الرفيع وان لم يكن بهرجا أجوف ، يوم سهل طبيعي ليس فيه تكلف ولا ارتباك . ان الذي يربط بينهم ويجمعهم هو تبجيلهم للآلهة التي جعلت منهم شعبا عظيما ـ والتي من أجلها أقاموا أروع الأضرحة في اليونان . ولعلنا نرى روح هذا اليوم في الكلمات التي كتبها اسخيلوس لتنشدها سدنة الآلهة، والتي تعكس بصدق أكيد مشاعر الاثينيين من رجال ونساء : ـ

الفرح لك ، والفرح بثرواتك التي قسمتها يداك العادلتان
والفرح لكل المباركين من الناس ،
بحب العذراء تتربع جدار عرش أبيها ـ
لقد تعلمت الحكمة أخيرا ،
مطوية تحت جناح بالاس (٢)
لك في نهاية المطاف كل الحسن الذي يضفيه عليك زيوس .

ان الالهة التي كانت تحيط بمصائر أهل المدينة لم تكن مسئولة عن الوفاق المدني للمدينة وجمال حياتها ، ومن الصواب أن يتعين على كل من استمتع بهذه المزايا تكريم هذه الالهة .

وبفضل التأكيد على الاخلاص المحلي وتقديسه ، أكدت عبادة الآلهة القومية التقسيمات بين الولايات اليونانية ـ وصحيح أن اليونانين كانوا يتحدون حين وجود الخطر العام مثل الغزو الفارسي ، ويستطيعون حينئذ أن يقولوا بأمانة أنهم يحاربون من أجل آلهة مشتركة ، وصحيح أيضا أن

---

(١) الطنف أو الطنف وجمعها أطناف : بمعنى السقيفة أو البارز من البناء .

(٢) الهة الحكمة عند الاغريق .

بعض الأضرحة العظيمة مثل أولمبيا ودلفى كانت هيلينية بحق ، وأن السماح بزيارتها كانت تكفله اتفاقات دولية ، لكنه كلما زاد تكريم الاله فى مدينته ، زاد انتظار الناس لعونه ضد الآخرين • وكان ينبغى من الناحية النظرية أن يؤدى وضع مثل هذا الى تعقيدات لاهوتية ، كأن يشن الحرب على نفسه — الاله الذى يعبد فى أكثر من مكان • لكن ذلك لم يسبب لليونانيين قلقا مثلما لم يسبب وضع مماثل قلقا للشعوب المسيحية فى العصور الأكثر حداثة — وانما الذى كان يعنيهم ويقض مضجعهم هو ان هذه العبادات كانت ولا تزال عقبة أخرى فى طريق الوحدة اليونانية ، وذلك بسبب التشدد والتأكيد على الخلافات القومية •

ان الثقة فى الآلهة والتباهى بهم كانتا من العوامل التى أدت الى أن يشعر الناس أنهم أفضل من غيرهم ، وأن احتمال نجاحهم فى الحرب أكثر وقوعا وأدنى الى التحقيق — فاذا ما كانوا فى وضع أدنى بشكل واضح فقد يتضرعون الى آلهة اليونان ليقفوا ضد المعتدين متوسلين اليهم ومتجاوزين التقسيمات القومية • وكذلك فعل أهل مليا (Melia) عندما رفعوا الى الآلهة توسلا مؤثرا مستعطفا بهدف احباط المخططات الشريرة للاثينيين فى عام ٤١٦ ق•م اذ قالوا : —

« ورغم كل شىء فنحن على يقين من أن الآلهة ستمنحنا حظا طيبا مثل حظكم ، اذ أننا نذود عن حياض الحق ونحميه ضد الباطل » • لكن مثل هذا التوسل لم يكن مؤثرا فعالا ، لأن الشعور القوى قد طغى على ادعاءات هذا التوسل • فاذا ما كانت الآلهة جزءا من تراث عام فقد كانت كذلك نفوذا قويا فعالا فى تقسيم هذا التراث بين المدن اليونانية •

لقد قام الدين اليونانى على الايمان بالقوة بمعناها الواسع ،وبخاصة القوة التى تحمل الانسان على استغلال أقصى الطاقات والفرص المتاحة له ، أما الآلهة التى تجسد هذه العقيدة ، فقد عاونت الناس بتعزيز طاقاتهم فى كل مجالات النشاط • وأكد الدين على جلال الفعل ومنحه حافزا ملهما ، لكن الدين فى هذا أغفل أمرا نربطه به ، بل اننا فى الواقع نطالبه به • ولم يكن اليونانيون البوادر الأولى لأخوة الرجال قبل أن تبدأ حضارتهم فى الانهيار ، وحتى ذلك الحين كانت هذه الأخوة مثالا مجردا أكثر منها ايمانا هادفا • والحب هو ما نفتقده فى الدين اليونانى • وقد تتخذ الآلهة من بين البشر أخلاء ، بيد أنهم يتخلون عنهم فى لحظات الكرب ، كما نرى أبوللو يتخلى عن هيكتور (Hector) عندما واجهه

أخيليس ((Achiiles) في نهاية المطاف أو نرى أرتميس (١) (Artemis) تتخلى عن هيبوليتوس ((Hippolytus) عندما تدمره افروديت (Aphrodite) وقد يكن البشر للآلهة تبجيلا ويتخذونهم أصدقاء ؛ بيد أنه ليس هناك شيء من الممكن أن نطلق عليه بشكل قاطع حب الآلهة ، وبالرغم من أن أرسطو كان على وعي مبهم بمثل هذا الاحتمال فانه يقول في أحد مذاهبه: « سوف يكون من غريب الأمر أن يدعي أي انســـان أنه يحب زيوس (Zeus) فاذا ما كانت مثل هذه العلاقة مفتقدة بين الآلهة والبشر ، فقد كانت تفتقر الى التشجيع الالهي بين البشر وبعضهم البعض • وتمتع اليونانيون بمشاعر حب عميقة لأسرهم وأصدقائهم ــ لكن هذه المشاعر لم تجد في الدين الا تأييدا هزيلا ، ولا مراء في أن زيوس كان إله الموقد والصداقة والكرم لكنه كان ينشد الاخلاص أكثر ممـــا كان ينشـــد الحب •

ولما كانت الآلهة في الواقع تشخص القوة القادرة ، ولما كان ذلك قوى التأثير في الاحساس بالولاء على المستويين المحلي والقـــومي ، فلم يكـن بوسعهم قبول مبدأ يوحد النفوس مثـــل الحب • وبالرغم من اعجـاب اليونانيين بالنظام المنسق وبحثهم عنه في كل مظانه في نظام الأشياء ، فلم يدركوا أن أكثر أسسه بقاء ــ انما توجد في مشاعر الحب • ولذا فان الدين عندهم بتقديسه للقوة قد عزز القوى التي تتصارع حتمـــا مع بعضها البعض ، وأخفق في اكتشاف مبدا جامع متفرد مجسد في الآلهة وخليق بمحاكاة شاملة عامة من جانب البشر •

فلو أن بقاء الدين اليوناني قد تأكد بمقدساته ، فقد وجد العـــون كذلك في قدرته على استيعاب الأفكار الجديدة دون أن ينال ذلك مـن خصائصه الجوهرية ولما كان هذا الدين لا يحتوي على عقـــائد أو كتب مقدسة ، فقد أتاح وجود نوعية كبيرة من التأملات في سر الطبيعة ووظائف الآلهة ، وكان متسامحا بشكل طبيعي شريطة ألا تتعرض افتراضـــاته الجوهرية للتحدي • ومع ذلك كان عرضة للهجوم من قبل النقاد • وانهال عليه هذا الهجوم من أكثر من جهة في الجزء الأخير على الأقل من القـرن السادس عشر ، وكان من بين هذه الحركات حـــركة فكرية ادعت أن الأذكياء من الناس لم يتولوا الدفاع عن العقائد القائلة بوجود الآلهـة • وكان المفهوم التجسيدي لهذه العقائد هدفا جليا لهذا الهجوم وقد وضع اكسينوفان (Xenophanes) اصبعه على نقطة حيوية : « أجل ، فلو أن

(١) الهة القمر والقنص عند الاغريق •

للثيران والجياد والسباع أيادى يستطيعون بها الرسم والتصوير وانتاج أعمال فنية كما يصنع الرجال فسوف تصور الجياد صور الآلهة أشبه بالجياد وتصور الثيران صور الآلهة أشبه الثيران • وتجعل أجسادهم فى صورة عديدة من الكائنات » • وقد قدم اكسينوفان بديلا عن الآلهة المألوفة لدى اليونانيين بقوله •• هناك اله واحد من بين الآلهة والبشر أعظمهم جميعا ، ولا يشبه البشر شكلا ولا فكرا » • وربما كان هذا الرأى الشامل أكثر مما يستطيع معظم الناس قبوله اذ أنه سيطيح بالمفهوم الكامل للدين وذلك بالارتفاع به فوق مستوى الادراك • فلو أن الاله لا يشبه البشر حتى فى الفكر ، فسوف لا يكون فى مقدور البشر تقريبا أن يقيموا علاقات بينه وبينهم وســـوف تموت الغريزة الدينيـــة بالجوع والحرمان لافتقارها الى الاتصال الروحى بالآلهة • لقد ادرك فحوى هذه الانتقادات وما تنطوى عليه من صعوبات ــ قليل من المفكرين الذين يتصفون بالجرأة والجسارة• ورفض هرقليط فى الواقع فكرة تجسيد الاله ، لكنــه اقتنع بأن الاله يتشابه أيضا مع الانسان على نحو ما ، هو أفضل وأرقى بقـدر كبير : « ان أكثر الرجال حكمة وحصافة قرد اذا قورن بالاله تماما كما يكون أعظم القردة جمالا قبيحا إذا قورن بالانسان » •

وفى القرن الرابع تبنى كل من أفلاطون وأرسطو هذا الخط الفكرى تبنيا يتسم بالقوة الكاملة ، اذ استخلص كلاهما أن الاله ليس على شاكلة الانسان وان كان بينهما صلة وتقارب ، ذلك سواء كان الأمر مثلما تجلى لدى أفلاطون فى اهتمامه العميق بالصواب والخطأ ، أم كما ادعى أرسطو بأن الاله عقل خالص وهو المحرك الأول لكل الكائنات ــ ولم يكن فى مقدور مثل هذه الأفكار أن تتسرب الى أغوار بعيدة فى أعماق العاديين من البشر ، لكنها كانت نقدا قاطعا لأوجه النقص فى العقائد الموروثة •

وفى نفس الوقت الذى نبذ فيه الناس الاعتقاد بأن الآلهة تشـــبه البشر ، راحوا يسعون الى ايجاد مبدأ متفرد مستقل يكمن وراء مختلف الآلهة ، بل وتعريفه باعتباره مبدأ الهيا بشكل جوهرى ــ ومثلما يتحدث اليونانيون كثيرا عن الاله دون تحديد لما يقصدون من اله بعينه ، ويلمحون الى أن الآلهة جميعها تنطوى على صفة مشتركة ، كذلك وجدوا طريقهم شعوريا وبشكل دقيق الى قوة الهية فريدة قد تتجسد فى آلهة مختلفة ، ومع ذلك حقيقية وجوهرية كائنة فى هيكل نظام الأشياء • ومن ثــم نجــد حتى بنــــدار (Pindar) الذى كان على وعى كامل بالشـــخصيات المختلفة والوظائف المختلفة لآلهة الأولمبوس ، يبدو وكأنه تجاوز حدودهم المعروفة فى بحثه عن صفة ما تسمو بهم فوق مستوى البشر : ــ

أما الاله فيبلغ غاياته بمثل سرعة الفكر
وهو الذى بمقدوره اصطياد العقاب المجنح ،
ويدرك الدلفين فى البحر ٠

وعندما طرحت هذه الفكرة العامة عن الآلهة ، أدت الى تأملات كانت فى الواقع جليلة وان كان بها قليل من اللاأدرية مثلما نرى سيمونيديس (Simonedes) عندما سأله هايرون (Hieron) عن طبيعة وسجايا الآلهة ظل يسوف فى الاجابة حتى ذكر أخيرا عندما أرغم على ذلك : « أنه كلما أطال التفكير فى هذا السؤال ازداد بهذا السؤال غموضا وايهاما » ٠ وانطلاقا من هذا الموقف انتهى بعض المفكرين الى فكرة « القدرة » الالهية المطلقة كما فعل اتباع بيثاجوراس (Pythogoras) الذين اعتقدوا بأنه : ليست هناك حالة بالنسبة للآلهة تكون فيها بعض الأمور ممكنة وبعضها محالا ، كما يتصور العقلانيون ، وانما كل الأشياء ممكنة » ٠ والى هذا المدى ذهب أسلاف أفلاطون ٠ ومن ناحية أخرى كان هناك من سعوا حتى لا تكون الربوبية هى القوة المطلقة ، وسعوا الى ايجاد شىء ما كامن خلف الآلهة وأكثر منهم قوة ــ وقد يطلقون كلمة «الضرورة» على هذا الشىء الكامن خلف الآلهة ، كما يصنع سيمونيديس عندما يقول: « حتى الآلهة لا تستطيع أن تتصدى له ، أو يطلقون عليه القدر الذى لا يستطيع اله وفقا لما قاله هيرودوت « أن يهرب من قبضته » ــ أو أن يجمع بين الاثنين ، الضرورة والقدرة فى نظام بديع كما يصنع اسخيلوس (Aeschylus) عندما يحمل برومثيوس (Prometheus) على القول بأن زيوس لا يستطيع أن يغير ما هو مقدر والذى هو من صنع الأقدار وآلهات الانتقام امتثالا لحكم الضرورة ــ وفى كل من الحالتين نستطيع أن نرى الانسان يتلمس طريقه نحو فكره بشأن النظام المطلق الذى ينبغى حتى على الآلهة أن تمتثل له ، نظام يلغى تبرير اللامبالاة :الأهواء الشخصية من حكم الكون ٠ ولقد كان جزء من رغبة اليونانيين أن يروا انضباطا منبثا فى كل الأشياء حتى أكثر الأحداث دقة ، وأن يضعوا الآلهة تحت نظام مماثل لما يمارسونه على البشر ، لم تتدخل مثل هذه الافكار لأول وهلة فى أمر ايمانهم بالآلهة المعروفة ، وانما اضفت غموضا وجلالا على هذه الآلهة ٠ لكنها أفسحت المجال لتأملات عريضة وأنظمة جديدة تحقق لها تأثير نفوذها بمضى الزمن ٠

وجاء الهجوم الثانى مستندا على أسس أخلاقية وكان اكسينوفانيس مرة أخرى فى طليعة من شن هذا الهجوم : « لقد نسب كل من هوميروس وهيسيود Homer and Hesiod الى الآلهة كل ما يتسم بالخزى والعار

بين البشر مثل السرقات والزنا وخداع بعضهم بعضـــا • وطالما كانوا ينظرون الى الآلهة على أنهم رقباء على الصواب والخطأ ، فان مثل هـذا الهجوم له كل التبرير ولا يعد مستهجنا بغيضا حتى من قبل المعتدلين من التقليديين • وصحيح أنه عندما سخر يوريبيديس (Euripides) من قسوة الآلهة وفسادهم ، نظر اليونانيون الى هجومه بعين الارتياب المتسائل وشعروا أنه بسبيل تقويض العقيدة القديمة • وقد نقارن بينه وبين بندار (Pinder) الذى كان ورعا فوق الشبهات وكثيرا ما يصحح بطريقته الهادئة قصصا تسىء الى الآلهة ، مثلما يقال عن ديميتر (Demeter) أنها قد التهمت كتف بلوبس (Pelops) أو أن هرقل قد حـــاربه فى بيلوس (Pylos) ضد أبوللو وبوسيدون وهاديس (Hades) •

وفى القرن التالى تصدى أفلاطون للقضية وبرأ الآلهة من كل المثالب والجرائم المنسوبة اليهم • وكانت هذه هى النتيجة المنطقية لهذه الحركة لكن الحركة ذاتها كانت حتمية طالما ساد الاعتقاد بأن للآلهة اهتماما بالخير والشر ، وطالما توقع الناس منهم أن يمارسوا ما يعظون الناس به •

وقد ظهر مع هذه الحركات جنبا الى جنب شىء آخر أكثـر تكرارا وتدميرا ، وذلك عندما كان الناس يستشهدون بالقوة الالهية باعتبارها سابقة تدعم سلوكهم • فاذا ما رأينا زيوس فى مسرحية (بروميثيوس مقيدا) (Promethus) لاسخيلوس يتصرف مثل طاغية صغير ويؤكد حقوق القوة الأعلى ، فليس هناك سبب يمنع الناس من أن يتخذوه نموذجا • ولقد حدث هذا الموقف مرة على الاقل فى مناسبة مقيتة ، وعندما تضرع أهل ميليا الى آلهة هيلاس ضـد الاضـــطهاد الجـائر الذى أنزله بهم الأثينيون ، هنالك أجاب الآثينيون : « وطالما يتعلق الأمر بتأييد الآلهـــة فنحن نعتقد أن لنا فى ذلك حقا مثلكم • فأهدافنا وأفعالنا تتفق مع العقائد التى يعتنقها الناس بشأن الآلهة كما تتفق مع المبادىء التى تحكم سلوكهم • فرأينا فى الآلهة ومعرفتنا بالبشر قد انتهيا الى استنتاج مؤداه أن هناك قانونا عاما وضروريا للطبيعة نحكم به حيثما نستطيع » •

ان مثل هذا الاتجاه كان بكل تأكيد يعود بسبب ما الى الفساد العام المعايير الأخلاقية هذا الفساد الذى ساد أثناء حرب بلوبونيزيا ، بيد أنه يبين أنه اذا ما كان فى وسع جانب من الدين اليونانى أن يتجه نحـــو التوحيد والأخلاقيات ، فان جانبا آخر مستمدا من فكرة القوة الالهية دون غيرها قد يتحول الى هذه النهاية المشئومة • وما دامت الآلهة تنافح عن المصالح القومية فى حدود ضيقة ، فان اليونانيين استخلصوا نتيجـــة

مشروعة تتعلق بشخصيتهم وبالنموذج الذى وضعوه ليحتذيه البشر ٠ ونشأ هذا الموقف فى وقت اضطرب فيه أمر الدين اضطرابا كبيرا بفعل الاضطرابات السياسية والفكرية ، ولا ريب أنه كان موقفا شاذا بمعنى أنه لم يكن لينشأ مثل هذا الموقف فى ظروف أفضل ٠ لكن ظهور هذا الموقف يكشف عن ضعف حقيقى فى وجهة النظر الدينية اليونانية ٠ ان مفهوم هذا الدين للآلهة هو الذى حدد قدرته على استيعاب الأفكار الجديدة اذ ينظر هذا المفهوم الى الآلهة باعتبارها تجسيدات للقوة والمقدرة ٠ وطالما كان هناك اقتناع بهذا فلم يعد فى وسع الضمير الدينى أن يجأر بالشكوى بيد أن المتاعب كانت تكمن فى حقيقة مؤداها أن أفضل افكار العصر لم تعر هذا الأمر اهتماما كبيرا ، ولم تخفق فى جعل الناس يستوعبونها فحسب وانما كانت فى بعض الحالات تنبذ بازدراء وبغضاء ٠

ان الايمان الذى كان مصدرا ملهما للقوة عندما كانت اليونان فى شرخ شبابها وأوج صحتها قد صار عرضة لخطر تحــوله الى أن يكون مصدر تهديد وذلك عندما تعرض الهيكل الاجتماعى الذى كان يسانده الى هزة بفعل الفساد الذى نجم عن الحرب ٠

وينطوى الدين اليونانى على تناقض مؤثر فعــال ، وبالرغم من أنه يعطى المنزلة الأولى للقوة الالهية ويصر على أن الآلهة تهب البشر هــذه القوة بأشكال مختلفة ، فكثيرا ما تأخذنا الدهشة حين نجد اليونانيين لا يبتهجون بانجازاتهم وانما ينتهون الى هذا الاستنتاج المحزن بأن الحياة شبح من الدخان ، وأن الانسان ليس الا حلما ٠ ومن ثم نجد سوفوكليس الذى يحيا حياة معاصرة لأعظم أيام أثينا يعبر عن المشاعر السائدة بين الناس : ــ

« ويقول الكتاب القدماء ، كان من الأفضل ألا نوهب الحياة ،
وألا نلبس ثوب العيش ، وألا ننظر الى عين النهار
هذا أفضل الأشياء ــ وما يليها من أمور أفضل
أمسية طيبة ضاحية بالمرح ثم سرعان مــا نتــلاشى ونغيب عــن الوجود » ٠

وليس هذا مما ينبغى أن نتوقعه من شاعر تحرك بين عظماء رجال عصر بيركليس وهو ند لهم ، كما لا يكفى أن نقول أن ذلك ليس اعترافا شخصيا وانما هو افصاح درامى ــ وما يعنينا هو أن اليونانيين كثيرا

ما كانوا يتفوهون بهذا النوع من الحديث ، ولا جرم أن حماســهم للحياة كان يقابله احساس بأنه ما من شيء جدير بالعمل وأن أفضل الأشياء ألا نولد · ويبدو الأمر كما لو كانوا قد سألوا أنفسهم بعد جهــود هائلة مضنية ماذا ربحوا من الحياة ؟ وجاءت الاجابة أن لا شيء · وربما كانت مثل هذه الحالة النفسية أمرا حتميا مع قوم تحكمهم نظرة تدعو الى الفعل الحيوى القوى بمثابرة واصرار . وتنتظر من الانسان أن يعيش كل زمانه فى أوج طاقاته الخلاقة · ومن الطبيعى أن تأتى على هذا الانسان لحظات يخبو فيها وهج روحه وأن يشعر أن الجهود المطالب بهــا كثيرة وفوق الطاقة · فاذا لم يكن هناك شيء غير الظلام يتربص به فليس هناك فى الواقع من سبب قوى يدعو الى بذل أى جهد ، وقد يكون مما يأسو الجراح أن يتحسر على انعدام جدوى كل شيء ·

وكان اليونانيون يدركون هذا ولم ينكروا أنه ينطوى على الحقيقة، وأذعنوا للحقيقة المحزنة ، والتى تعنى أن كثيرا من أمور الحياة عرضى واهن وأن أعظم الجهود تبوء بالفشل ، بيد أنه من المستطاع أن تتعاظم الحياة بغتة وتنير وتزخر بالحيوية والروعة جميعا · ومن الممكن أن يحدث ذلك اذا ما بذلوا أقصى طاقاتهم ووجهوا هذه الطاقات الى العمل والانتاج بشكل منسجم متناغم · وفى مثل هذه الأحايين يحقق الانسان طبيعته الكاملة ويستمتع ان أرادت الآلهة له ذلك بسعادة غامرة هى فى الواقع شبيهة بسعادة الآلهة ذات الكمال السماوى ، وليس من شأنه السيطرة على هذا الوضع ولا بمقدوره أكثر من أن يأمل فى أنها قد توهب له دون أن يعرف لذلك سببا أو تفسيرا وقد تدوم هذه السعادة أمدا قصيرا ، وفى أحسن الأحوال لن يكون من المستطاع أن توافيه فى أكثر الأحايين · ولكن عندما توافيه فان ذلك يفوق فى تقديره أى ثمن ·

ويتحدث بندار عن هذه السعادة فى كلمات شاملة هادئة ،

ليست حياة الانسان الا يوما !
ما هى حقيقة وجوده ؟ وما هى
حقيقة عدمه ؟ شبح فى حلم
ليس الانسان الا كذلك ؟

لكن عندما ينداح بهاء الاله ، فالضوء المشرق يغمر الأرض ، وتصبح الحياة عذبة كالعسل وبالرغم من أن اليونانيين كانوا يعلمون أنهم لا ينبغى

ولا يستطيعون أن يسلبوا الآلهة حقوقهم ، وأن الجهود المضنية كثيرا ما لا تجلب جزاء وانما تجلب الاحساس بالعدم ، فانهم كانوا يعرفون أيضا أنهم يوهبون ما بين الآونة والأخرى سرا ما — يدنيهم من السعادة الالهية . وكانت هذه العقيدة كامنة فى بؤرة حياتهم وهى التى اجتازت بهم كل حالات الهواجس التى تنتابهم ، مثلما يشعرون أن أجيالا من البشر تذبل كأوراق الشجر ، وأن الموت لا يميز بين أحد من الناس ، وينتظر الجميع فى نهاية المطاف دون تفريق .

الفصل الرابع

الفصل الرابع

المدينة والفرد

اعتقد اليونانيون أن دولة المدينة هي الوحدة الطبيعية والصحيحة للمجتمع الانسان • وعرفوا أن مثل هذا النظام لم يتوفر لشعوب أخرى، الأمر الذى كان تلميحا آخر الى تدنى الشعوب البربرية ، ولو بدا هناك حاجة لمناقشة هذا فى اليونان ، فليس عليهم الا أن يقارنوا هذا النظام بالماضى ، حيث عاش الناس فى القرى دون نظام واستقرار قادرين فقط على ارضاء حوائجهم بالكاد وأدركوا أن دولة المدينة هى تطور طبيعى تطور بالنسبة للأسرة أولا ، ثم تطور للقرية بعد ذلك • وأن لها مزايا الاثنين دون قيودهما • ولم يتطلعوا الى ما وراءها التماسا لوحدة أشمل• **وحتى فى القرن الرابع قبل الميلاد** ، وقبل فترة طويلة من توحيد اليونان كلها وأجزاء كبيرة من آسيا تحت سيادة الاسكندر (Alexander) (١) كان لا يزال كل من أفلاطون وأرسطو (٢) (Aristotle) يعتبر نظام دولة المدينة الغاية المنطقية للتطور الاجتماعى ، وأقاما مفاهيمهما لنموذج المجتمعات على أساس من هذا النظام • وبالرغم من أن مستقبل اليونانيين فى ذاك الحين كان يرتبط بروما والممالك الواسعة ، فان اليونانيين لم يستطلعوا هذا المستقبل ولم يرغبوا فيه ، فقد كانوا مرتبطين ــ ارتباطا عميقا بنظامهم الخاص ، وبما لهذا النظام من اغراءات

---

(١) الاسكندر الكبير ، المقدونى : ملك مقدونيا • يعتبر أحد عباقرة الحرب فى كل العصور •

(٢) (٣٨٤ ــ ٣٢٢ ق•م) : فيلسوف يونانى ــ يعد واحد من أعظم الفلاسفة فى جميع العصور •

متنوعة متعددة الجوانب . فلم يدر بخلدهم انه من المحتمل أن يكون التطلع الى هذا المستقبل فى صالح تحول الوحدة الثقافية الى وحـــدة سياسية . وظلت دولة المدينة محور اخلاصهم وبؤرة تفكيرهم . وحتى عندما اقام كل من أثينا واسبرطة ممالك فى القرن الخامس قبل الميلاد ، فقد كان ذلك الى حد كبير نوعا من أنواع الائتلاف السياسى ، احتفظ فى ظله الأعضاء بدرجة كبيرة من الاستقلال المحلى . وكان الشعور بالهوية المشتركة شعورا ضئيلا لا يؤخذ فى الاعتبــار . ولئن كانت التقاليد المحلية القوية قد زادت من سيادة دولة المدينة ، فقد احتفظت كذلك بهيمنتهــا بفضل ما كانت تضمنه لمواطنيها من اطار منظم ، وما كفلته مــن توفير هيكل ينظم حياة مواطنيها .

لقد عبر أرسطو عن قوة وفاعلية نظام دولة المدينة فى قوله : « لقد ظهر هذا النظام الى حيز الوجود من أجل الحياة لا غير ، ثم بقى موجودا من أجل حياة خيرة » . وقد أعلى اليونانيون من قيمة هذه الحياة الخيرة، ومن أجلها رغبوا فى الذود عن حياضها مهما كلفهم . فاذا ما سألنا عن : أين يكمن تفوقها الفريد ، وأى مزايا لها على أساليب الحياة الأخرى ، فسوف تكون الاجابة فى المقام الأول هى حكم القانون .

لقد آمن اليونانيون ، أن لديهم قوانين تحمى حياتهم وممتلكاتهم ، وتوفر لهم القدرة على تشكيل حياتهم كما يرغبون ، بينما غيرهم من البربر يقع تحت رحمة ملك مستهتر غير مسئول . وبالرغم من أن مجمـــوعة القوانين البابلية أو الحيثية (١) تبين لنا أن الممالك الآسيوية قد طورت أنظمة معقدة للتشريع قبل ظهور أوائل المشرعين اليونانيين بقرون عديدة فقد جهل اليونانيون هذه القوانين أو نبذوها كما نبذوا قوانين الفرس والميديين ـ اذ كانت تتضمن مفهوما مختلفا للقــانون يســمح بأن يكون مصدر السلطة الأخيرة خاضعا لنزوات حاكم واحد . وظل اليونانيون ينظرون الى القانون على أنه الركيزة الأساسية للمجتمع . ومثلما كان بريكليس الديمقراطى يدعى احترام الأثينيين للقانون : « فى مجال الشئون العامة يمنعنا احترامنا للقانون من الخروج عليه » . كذلك يدعى خصمه أرخيداموس (Archidamus) ملك اسبرطة أن شعبه : « قد درب تدريبا صارما على ضبط النفس بحيث لا يسعه الا الامتثال للقانون والانصياع له » . وكان احترام القانون محفورا بعمق فى الشخصية اليونانية . وقد

---

(١) حيثى نسبة الحيثيين : وهو شعب فتح آسيا الصغرى وسوريا فى الألف الثانى قبل الميلاد .

عززه شعراء من امثال ايسخيلوس (١) (Aeschylus) الذى عنى كثيرا بوظائف القانون وتطبيقاته ، كما عززه فلاسفة من أمثـــال هرقليطس (Heraclitus) الذى تحدث باسـم كثير من اليـــونانيين عندما قال : « على الناس أن يحاربوا من أجل القانون كما يحاربون من أجـــل فك الحصار » لقد شعروا أنه بحكم وقوعهم تحت سلطان القانون يتميزون بميزة جليلة على الملايين الخانعة من شعوب آسيا الذين انساقوا بفعـل الخوف من الحاكم المســتبد ، وافتقدوا الانضباط ، هـذا الذى كان اليونانيون أنفسهم يتقبونه راغبين ومفاخرين • ولذا نجد هيرودوت يجعل ديماراتوس ملك اسبرطة المنفى يتحدث أمام اكسركسيس (٢) (Xerxes) عن شعب اسبرطة فيقول : « لا يعنى كونهم أحرارا أن يكونوا أحرارا فى كل مناحى الحياة ، وانما يسودهم القانون سيدا مطاعا ، فله فى قلوبهم خشية تزيد على خشية شعبك لك » • لقد خلع اليونانيون على حكم القانون أهمية قصوى ، وكان لديهم أسباب وجيهة لاتخاذهم هذا المسلك •

لقد ساد الاعتقاد بأن القوانين تجسد الأعراف القديمة وتخلع شكلا دقيقا على كل ما اندرج تحت التقاليد لقرون عديدة • ونجد الملوك فى شعر هوميروس مستأمنين على الأعراف أو المقادير التى يقـــومون عــلى حراستها باعتبارها حقهم الموروث ، ويفسرونها من خلال سلوكهم أو من خلال قضائهم • ويتمثل خطر هذا النظام فى أن المعرفة بالأعراف مقصورة على الملك وأعوانه ، وأن الرعية لا تستطيع أن تتنبأ بالمسلك الذى تتخذه فيما يتعلق بهذه الأعراف ومن ثم يصبحون فريسة سهلة للجور والظلم• لقد ألم هيسيود بهذا النظام وتضجر منه : « تنشأ الفوضى عندما تتوارى الهة العدل بعيدا ، وعندما يأخذ بخناقها آكلو الرشوة ، يقررون مصائر الناس بلى أعناق القرارات » •

ان الوقاية الوحيدة تتمثل فى توافر مجموعة من القوانين يلم الجميع بأطرافها ، ومنذ القرن السابع قبل الميلاد والمشرعون المشهورون يقننون الأعراف والتقاليد فى نواح كثيرة من اليونان ، ويمدون الحياة المدنية بهيكل تشريعى سليم • وبعد تصنيف القوانين واعلانها بحفرها أحيانا على الأحجار فى الأماكن العامة ، لم يعد هناك شك فى محتوياتها ومن ثـم يزول كل أثر للمظالم المجحفة • وتستطيع مثل هذه القوانين أن تغطى

(١) ايسخيلوس (٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق•م) : شاعر يونانى يعتبر أبا المأساة اليونانية •

(٢) يعرف باللغة العربية باسم (أخشورش الأول) : ملك فارس وقد غزا بلاد اليونان (عام ٤٨٠ ق•م) •

كلا من التشريعات الخاصة والدستورية ، وتضع الاساس لحكم المدينة وتنظم العقوبات لمواجهة الجرائم التى ترتكب فى حق الانسان • كما تناولت بالتفصيل الملكية والميراث ، وملكية العبيد وأمور متشابهات • ولم يضع اليونانيون من حيث المبدأ حدودا لمجالات السلوك التى يغطيها القانون ، وبالرغم من أن بعض الأنظمة قد تعرضت للنقد اللاذع الا أن ذلك كان يرجع الى صرامة عقوباتها ، ومطالبتها بحقوق دستورية أكثر، مما كان يرجع الى ما قد نعتبره انتهاكا لحقوق الانسان •

لقد ساد الاعتقاد بأن وجود القوانين أفضل بكثير من الاعتماد على الأهواء الشخصية للملوك وأعوانهم ، الى الحد الذى أتاح للقوانين أن تغزو مجالات ينبغى فى رأينا أن تكون بعيدة عن سيطرة القانون • وانطلاقا من حبهم للحرية رأى اليونانيون أن حكم القانون ــ رغم اتساع نفوذه ــ أساس لازدهار حياتهم • ولم يسمح فى الواقع هيكل المجتمع اليونانى للقوانين بأن تكون سببا للضيق أو أن تتدخل بشـــكل ممجوج فى المشروعات الخاصة للفرد ، فلو حاولت القوانين أن تجاوز حدودها لما كان فى الامكان تنفيذها • ان كل ما كانت تؤديه هذه القوانين هو تزويد الناس بأسس راسخة ــ يستطيعون بفضلها أن يسعوا الى طلب حياة منظمة مستقرة •

ولما كانت القوانين قد استمدت من التقاليد القديمة ، فمن الطبيعى أن نفترض أن لها تقديسا الهيا ، وأنهـا تمثل بشكل ما ارادة الآلهـة • وكان هذا الاعتقاد هو المعادل اليونانى لفكرة القانون الطبيعى واعتنقه هرقليطس (١) (Heraclitus) الذى ذكر أن : « كل القوانين البشرية قد غذاها قانون الهى واحد » • وقد لا يعنى هذا من الناحية التاريخية أكثر من أن الدولة قد اضطلعت بالمسئولية بسبب المشاحنات التى كانت يوما الشغل الشاغل للأسرة ، لكنـه يعنى أيضـــا أن القوانين حظيت بالتبجيل ، لأنها فى نهاية المطاف تمثل ارادة الآلهة •

وعندما كان يصور هوميروس فى تشبيه بلاغى غضب الآلهة لأحكام جائرة وذلك بارسالها صواعق وطوفان على المدينة ، التى سمحت بصدور هذه الأحكام كان يعكس فى مرحلة مبـكرة الفكرة التى ظل اليونانيون يتعشقونها ، والتى تعنى أن القوانين تحظى بحماية الآلهة ، اذ أنها تجسد الارادة الالهية ــ وأن أى تجاوز لها يكون مخاطرة نتيجتها الغضب الالهى •

وبالرغم من أن اليونانيين لم يؤمنوا بالتقدم ايمانا يتسم بالتفاؤل

(١) هيرقليط أو هرقليطس : فيلسوف يونانى : قال « ان النار هى الجوهر الأول » •

السعيد مثلما كان للقرن التاسع عشر على سبيل المثال ، فقد رأوا أن البشر قد نشأ عن أصل متواضع بل أصل وحشى ، وعزوا جزءا هاما من هذا الاعتقاد الى قوة القانون · ومن ثم فقد وصف بروتاجوراس (Protagoras) غزو الانسان للطبيعة المادية على أنه عملية نظمت من قبل الآلهة . وأخبر كيف أن زيوس (Zeus) قد أرسل هيرميس (١) (Hermes) الى الأرض بتعليماته وتوجيهاته : « اصدع بأمر له منى قوة القانون ، لتقتل كمرض يجتاح المدينة ، الانسان الذى يتقاعس عن التحلى بالوداعة والعدل » · وتعود جذور هذه النظرية الى الاعتقاد بأن تعليم الناس وتحسين الناس لأحوالهم انما يتم بفضل القانون ، وأن الحضارة ترتكز عليه لأنه يغرس الأخلاق والفضائل الاجتماعية · ويعبر سوفوكليس عن فكرة مماثلة فى أغنية ذائعة الصيت ، وذلك عندما تخطى بالثناء انجازات الانسان الرائعة وتكون النتيجة المستفادة من هذا كله هى أن القانون هو الأصل الجوهرى الأعظم :

يمضى الانسان فى طريقه ، تارة الى الشر وتارة الى الخير ،
بمكر لا يصدق ، وبدع خبيثة من بدع الدهاء ·
ويعلو شأن مدينته ، عندما يلتزم بقوانين أرضه ،
وحكم آلهته التى أقسم على الاستمساك بها ·
أما ذلك الذى يقدم الأذى الى أخيه ،
فى وقاحة حمقاء ، فليس له موطن ولا مدينة ·

آمن اليونانيون أن القانون عنصر أساسى ضرورى لازدهار الآلهة التى ترعاه وتؤازره · ومن حسن الحظ أن مفهوم اليونانيين لوجه الشبه بين الانسان والآلهة ، كان يعنى أن القانون لا يعنى الى حد كبير بالطقوس الدينية ــ كما هو الحال فى البلدان الشرقية ــ وانما يولى سلوك معاملة الناس بعضهم بعضا اهتماما رئيسيا ·

ومادامت القوانين تعكس ارادة الآلهة فمن الخطأ المحقق أن نعصى لها أمرا ، ومن المفروض ألا يبدو سقراط (Socrates) متناقضا كعادته ، عندما ذكر أنه لا ينبغى الخروج على القوانين ، اذ أن الخروج عليها فى أية مرحلة من مراحلها يعنى تقويض سلطتها بأجمعها ، لأنها تقى الأوطان وتحميها وذلك أكثر قداسة من حماية الأسرة · ومن ثم فنحن نجد أنه

---

(١) رسول الآلهة عند الاغريق ، واله الطرق والتجارة والاختراع والمكر والفصاحة ·

مما يلفت النظر لأول وهلة أن واحدة من أشهر المآسى اليونانية «أنتيجونا» (Antigone) . لسوفوكليس (Sophoclos) تعرض بطلتها أنتيجونا وهى تتحدى أمرا من كريون Creon ملك طيبة (thebes) يقضى بمنعها من مواراة جثمان أخيها ، لخيانته واعدامه بسبب هذه الخيانة · ولا مزية فى تعاطف سوفوكليس مع أنتيجونا ضد كريون ومع ذلك فقد يبهرنا دفاع أنتيجونا :

ولست أعتقد أن هذا الأمر قد صدر عن
زيوس ، ولا الهة العدل المقيمة مع الآلهة ،
الذين فرضوا على الانسان هذه القوانين ·
وليست أوامرك من السلطان والقوة بحيث تدفع
الفانين من البشر الى الغاء وتجاوز قوانين الآلهة التى لا تدون ولا تموت ·
ليس لحياتهم بداية ولا حاضر ولكنها ديمومة
ولا يعرف أحد من أين جاءوا ·
ولن أشقى أبدا أمام الآلهة ،
بخرق قوانينها خوفا من الانسان

ويتضح من هذا أن هناك صراعا بين قوانين الانسان وشرع الآلهة المحفوظ ، وانه عندما ينشأ هذا الصراع فلا بد من الامتثال لشريعة الآلهة· ان مجرد افتراض امكانية وجود هذا الصراع قد يدل على أن الركيزة الالهية للقانون ليست دائما من مسلمات الأمور ، واذا كان الأمر كذلك فقد يظن بسوفكليس أنه شن هجوما على أعظم معتقدات عصر بريكليس قيمة · لكن الصراع عند أنتيجونا لا ينبغى أن يفسر على هذا النحو · ان الأمر الذى تتحداه أنتيجونا ليس بقانون بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، وانما هو مرسوم عفوى طائش صدر عن طاغية · ان كريون يتحدى شرع الآلهة بمنعه لمواراة الجثمان ، وليس لمرسومه شرعية صحيحة أو حق فى المطالبة باحترامه وتبجيله · ولا يفسر فعله هذا الا باعتباره مثالا آخر على أهمية وجود قوانين منظمة ـ لا أن تترك القوانين فريسة الأهواء الخاصة للسلطة السياسية ·

ومع ذلك فقد يعن لنا أن نسأل اذا ما كان اليونانيون قد نظروا الى القوانين كلها باعتبارها عادلة وأنه من الخطأ تغييرها · لقد كان هـذا

الموقف بصدد القوانين مشكلة حقيقية ، كما يتضح فى مناقشة أرسطو له وعجزه عن الوصول الى قرار قاطع ، اذ أنه بينما يعترف بأنه ما دامت القوانين قائمــة على أعراف قديمــة ، فان بعضا منها قد يكون من وضع البرابرة : « وحتى عندما تدون القوانين لا ينبغى أن تبقى ثابتة لا يمسسها التغيير » ومع ذلك يخشى أرسطو من التغييرات المفرطة اذ أن « الاستعداد للتحول عن القوانين القديمة الى أخرى جديدة يوهن من قوة القانون » . ومع ذلك اننا نجد من الناحية النظرية صعوبة حقيقية ، الا أنه من الممكن حل هذه الصعوبة حين التطبيق وفقا للمبدأ البسيط القائل ، أنه بالرغم من أن القوانين البشرية ينبغى أن تجسد ارادة الآلهة ، الا أنه من الجلى صعوبة تحقيق ذلك بشــكل صـحيح ومن ثم فان التغييرات من الأمور المباحة . وبالرغم من أنه قـد يبدو أن بيريكليس يغلو فى الواقع عندما يقول : « ان القوانين هى القواعد التى سنتها وأجازتها الجمعية العمومية ، وعن طريقها يعلنون ما ينبغى وما لا ينبغى عمله » . فمن الممكن الدفاع عن هذا القول بشكل منطقى لو أننا نوصله بأقواله الأخرى ، التى تفيد أن الأثينيين ينصاعون لشريعة الآلهة ، وأن من أساء اليها حق عليه العقاب .

وتعنى تعاليم بريكليس أن الشعب الأثينى هو السلطة الوحيدة التى بوسعها أن تحدد بشكل صحيح الأسلوب الذى تطبق به قوانين الآلهة على البشر . وهذا اقتراح جنسور يتفق مع الأفكار اليونانية التقليدية ، بالرغم من أنه يكشف عن ثقة بالشعب المستقل تزيد كثيرا على ما يسمح بوجوده كثير من اليونانيين . وفى نفس الوقت يكشف لنا عن مفهوم القانون باعتباره عرفا حظى بالتقديس من قبل الآلهة ، ولم يكن جامحا أو صارما متزمتا كما قد نتوقع .

لقد اهتمت القوانين اليونانية بشخصية الدستور السياسى ، كما اهتمت بالتغييرات التى صاحبت اضمحلال الملكية . وبحلول القرن الثامن لم يعد للملكية الوراثية فى اليونان شأن كبير . فاما أنها قد تقلصت الى منصب شكلى كما حدث فى أثينا حيث كان يطلق اسم الملك على واحد من الحكام التسع ، أو أنها حصرت وقيدت بشكل صارم كما حدث فى اسبرطة حيث كان هناك ملكان ، تمتعا فى الواقع بسلطان كبير ، عندما كانت تحكم البلاد فى وقت الحرب ، وتضاءل هذا السلطان وقت السلم ، وفى الشئون المدنية . وحقيقى أن صغار الأمراء قد تولوا الحكم فى تساليا (Thessaly) وحقيقى أيضـــا أن ملوكا بالوراثة قد احتفظـوا ببعض من هيبتهم القديمة فى أماكن أخرى مثل قورينيئة (Cyrene) على وجه الخصوص — لكن الملكية منذ (عام ٧٠٠ قبل الميلاد) لم يكن لها بوجه

عام وجود بمعناها القديم ، وقد حل محلها دساتير مدونة خولت السلطة لطبقة محددة أو لعدد من الأشخاص سواء كان صغيرا أم كبيرا • وقسم اليونانيون هذه الطبقات الى أقليات أو ديمقراطيات ، **أولاهما** : تختص بالسلطة ــ قلة مختارة ، **وثانيتهما** : تعود السلطة الى الناس بصفة عامة • فلو أن حكم الأقلية كان يعنى فى الأصل حكم النبلاء الذين قسموا فيما بينهم الحقوق القديمة للملوك ، فقد تغير هذا المعنى بمرور الزمن وأصبح يعنى حكم الأثرياء ، سواء توفرت لهم الثروة من الأرض أم من التجارة ، وأصبحت مؤهلات الملكية هى الأساس لهذا الحكم • ومن ناحية أخرى فقد ادعت الديمقراطية أن حكمها قد تركز فى أيادى رجال أحرار ناضجين من الشعب كله •

وقد اعتبر هذا تقدما متأخرا بعد حكم الأقلية ، وقد كان دوما أقل شيوعا • وربما ظهرت المؤسسات الديمقراطية فى خيوس (Chios) فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وبعد اصلاحات كل من كليسثينيس (Cleisthenes) فى ٥٠٧ ق•م واصلاحات افياليتس (Ephialtès) فى ٤٦١ ق•م ، تزعمت أثينا حركة الممارسة الديمقراطية ، ومنحت الثقة والتشجيع لولايات أخرى رغبت فى تقليدها واحتذاء أثرها • وقد يتغير شكل الحكم بفعل تقلبات السياسة ، لكن حكم الأقلية قد ساد بوجه عام فى الولايات التابعة لبلوبونيزيا ، والتى دخلت فى حلف مع اسبرطة ، كما سادت الديمقراطية فى ولايات ايونيا التى كان لها علاقات تقليدية بأثينا • ان الفرق بين حكومة الأقلية وبين حكومة الأكثرية لعامل هائل فى السياسة اليونانية • لقد قام كل شكل من أشكال هاتين الحكومتين بتطوير رأيه ، وخصائصه المميزة كما أفرط كل منهما فى اساءة الظن بالآخر •

لقد ارتكز حكم الأقليات اليونانية على الفكرة الارستقراطية المعروفة التى تقول أن أعضاء هذه الحكومات أرفع شأنا من غيرهم ، من حيث المولد والأصل • ويتحدثون عن أنفسهم كأمر طبيعى باعتبارهم « أخيارا » ، « نبلاء » ، « عادلين » ، وعن خصومهم السياسيين باعتبارهم « أشرارا » ، « سفلة » • لقد علمتهم معرفتهم بالحيوانات فضائل النشأة والتربية وآمنوا بأن أصلهم العريق ضمان للتفوق حول لهم الحق فى الحكم وفقا لمبدأ : « من الطبيعى أن تنبثق أرجح العقول من أفضل الرجال » • وبالرغم من أنهم قد يخافون ويسيئون الظن ويكرهون من ليسوا من طبقتهم • الا أنهم من خلال هذا الموقف كانوا يكشفون عن درجة رفيعة من التسامح وتقدير لنزوات الشخصية الانسانية وتنوع مشاربها • ويقدم الينا العصر الأرستقراطى أفذاذ من أمثال أرخيلوخوس (Archilochus)

الذى أفصح عن مكنون نفسه بصراحة طليقة ، متناولا كل ما حرك وجدانه . وألكيوس (Alcaus) الذى تنوع تعبيره عن مثيرات الاضطرابات السياسية والحرب الأهلية ـ متميزا باحساس مرهف من أحاسيس المتعة . وبعين ثاقبة فى مشاهدة الكائنات الطبيعية .

ولعل مجتمعا من هذا النوع هو وحده الذى يبيح قدرا وافرا من الحرية لامرأة من أمثال سافو (Sappho) كى تصقل عبقريتها دون عائق ، وتوالى رؤيتها فى مقابلة بينها وبين ما حولها من أنشطة هائلة عالم الرجال :

على البسيطة السوداء ، بعض الناس يقولون
أحب الكائنات وأجملها ، كوكبة من الفرسان
وبعضهم يقولون ، أحب الأشياء وأجملها
مشاة من الجنود ، وآخرون يقولون
بحارة السفين ، أما أنا فأطلقها صراحة
أعشق أى انسان كائنا من كان دون تفريق

فلو أن رجلا من أمثال أرخيلوخوس وألكيوس يبهروننا بتجاوبهم الطليق واستعدادهم لاطلاق العنان كاملا لأول البواعث التى تنثال عليهم ، فانما يتناولون ذلك بأسلوب واثق قادر وبصراحة آسرة مباشرة . لقد عبر هؤلاء الرجال عن أنفسهم تعبيرا شاملا ، ووجدوا فى اخوانهم تشجيعا على ذلك . وسرتهم أرديتهم وأسلحتهم وزينتهم ، بل راقت لهم شعور رؤوسهم ، واستمتعوا بالخمر والولائم ، ورحبوا بكل تبرير يسوغ ذلك ، أى تبرير يستمدونه من رداءة الجو وموت العدو السياسى ، حتى أثناء الحملات العسكرية كانوا يجدون المناسبات للانطلاق والمرح على ظهر السفن ، أو عند توقفهم قبل خوض الحرب . آمنوا بأنفسهم وبمكانتهم وبامتيازاتهم وجعلوا منها أساسا لوجود فياض لحياة الغزل والمجون .

ان قوة هذه الحياة ـ يعود الى أنها أقيمت على الاقطاع . ان الأقلية الاقطاعية من اليونانيين كانت بالدرجة الأولى من ملاك الأرض ، ويتضح ما تعنيه الأرض بالنسبة اليهم ـ فى مثل قول ثيوجنيس (Theognis) عندما نزعت ملكيته بفعل الثورة الاجتماعية :

عزيزى سيرنوس (Cyrmus) ، لقد تناهى

الى سمعى صوت طائر الكركى (١)
يصيح حاد الصوت ، يأتينى الصوت •
حاملا رسالة تقول :
لقد حان حرث الأرض • ان ما يدفع
قلبى القاتم الى الخفقان أن يستولى
الآخرون على حقول لى ، بكل أزهارها •

وكانت حياة الأرض تعنى أن ملاكهـــا ــ ألموا بالكثير عن الجيـــاد والكلاب ، وتربيتها لتحقيق أغراضهم وتمتعهم بصيد الأرانب البرية ، الأمر الذى كان من الاثارة بحيث : « ينسى المحب رغبات قلبه أو التمتع بالنظر الى فرس يتبختر ، هو من الروعة واثارة الاعجاب بحيث يشد نظر كل من تقع عليه عيناه ، صغارا كانوا أو كبارا • وكان للأرض طقوسها أيضا الموغلة فى القدم ، التى أنشأت أغانى ورقصات تمتع بها الشباب ومدته بالتهذيب والتعليم ، بفضل ايقاعها ووزنها وأسلوبها • ولم يكن يتصدى شاعر مجهول الهوية لمدح الأرض دونما سبب ، واصفا اياها بأم الجميع ، مصدر النعم وروائع المناسبات البهيجة :

مثقلة أرض الزراعة بقمح الحياة ،
وفى المراعى تتزاحم الأنعام ، والبيوت ،
تفيض خيراً وزادا ، ونساء شقراوات
فى مدائنهن ، تحت ظل قوانين الانصاف
يبسطن سلطانهن ، ينهلن من الثراء
ويتمرغن فى ازدهار عريض •
وتغدو الصبية فى تيه مترعة ،
بأزاهير السعادة ، والصبايا بقلوب
مشرقة ورقصات وردية ، يتواثبن
ويمرحن بين زهور المروج الناعمة •
أيتها الملكة العظيمة الهة الجمال ،
هلا وهبت السحر والابداع •

---

(١) طائر مائى طويل العنق والسيقان •

ولم تكن الحياة الأرستقراطية محدودة ضيقة الأفق فى القرن السادس قبل الميلاد على الأقل ، وذلك عندما راح ملاك الأرض ينخرطون فى التجارة ، وينساقون الى المغامرات الخارجية • لقد حارب أنتيمينيداس (Antimenidas) أخو ألكيوس بجانب ملك بابل ، ولعله اشترك فى حملة نيبوخذ نصر (Nebuchadnezzar) على بيت المقدس • ونجد عند أسفل تمثال هائل قائم أمام معبد أبى سمبل العظيم أسماء المرتزقة اليونانيين منقوشة • أولئك الذين حاربوا بجانب ملك مصر بسماتيك الثانى (Psammethichus II) (٥٩٤ ــ ٥٨٩ ق٠م) • وقد وقع خاراكسوس Charaxus أخو الشاعرة سافو (Sappho) فى شباك محظية مصرية مشهورة ــ الأمر الذى عرضه لتوبيخ قاس من قبل أخته • ويتحدث بندار (Pindar) عن أحد حماته فيقول :

وفى مواسم الصيف نراه ينطلق
الى أفق الكواكب ، وفى مواسم الشتاء
يبحر الى ضفاف النيل •

وعلى الرغم من تعبيره المجازى الا أنه يبنى استعارته على حقيقة ملموسة • لقد امتدت جذور العالم الارستقراطى راسخة فى موطنه بحق ، لكنه اتخذ من موطنه منطلقا لمد آفاقه بالترحال والتجارة والحرب •

ووصلت الأقليات اليونانية الى الحكم للتخلص من الملكيات القديمة ، وأقامت أساسها على حكم القانون • وكان شعار حكمهم عبارة « قانونية القانون » ويعنون به أن القوانين ليست صالحة فى ذاتها فحسب ، وانما هى واجبة المحافظة والصون ، وأن شكل الحكم الذى تقره يكفل النظام وعدم الفوضى • ويعبر بندار عن نموذجهم عندما يتحدث عن كورنث (Corinth)

هناك ، تسود الشريعة ، وشقيقاتها
أساسا أمينا للمدن ، عدل وسلام
نشأ فى كنفها • وبنات ذهبيات الشعر ،
موزعات الثروات على البشر ،
أمهن الهة العدل ذات العقل الحصيف •

فلو أن القانون من ناحية ، قد كفل لهم الحماية من مطالب الملوك الطائشين ، فانه من ناحية أخرى قد حماهم من مطالب الجماهير المحرومة

من الامتيازات • وكثيرا ما كان يتعرض مركزهم للتهديد ، فقد عمقوا الوعى الطبقى مما قد يعنى أنهم نظروا الى الماضى أكثر من تطلعهم الى المستقبل ، وشغلهم الاهتمام بابقاء ما لديهم ، أكثر مما شغلهم بتطوير وايجاد فرص جديدة • ومع أن الحياة الأرستقراطيـة كانت قاصرة على الأقلية المختارة فانها قد رسخت جذور الحضارة اليونانية ، وأضفت عليها اطارا خاصا ، والذين حظوا بحريات هذا النظام كان حريا بهم أن يضطلعوا بمسئولية المحافظة على هذه الحريات • وتكفل النظام الاجتماعى باحترام الفرد وأبقى على هذا الاحترام • ان اتحاد القانون والحرية ، وحياة النشاط والتوقير الغريزى للفنون بل وللعلوم ، وتحول المعنى القديم للشرف من المغزى البطولى الى المغزى الاجتماعى، ونموذج الانسان الكامل الذى يستنفد طاقاته ويستغل فرصه ، والاتحاد الناجح بين الفيض الطبيعى الوافر ، والاحساس بالذوق والتنسيق الذى لا يعوق مصادر هـذا الاتحاد وانما يزوده بالتفوق والاتجاه السليم • كلها أمور كان لها فى الحياة اليونانية قوتها الفعالة ، وكلها كانت نتائج لنظام حكم الأقلية • وتميز هذا النظام فى الواقع باستعذابه للحياة وان كان قد أقيم على ايمان راسـخ بقيمة الانسان وامكانياته •

ان الديمقراطية التى وصلت الى أكثر أشكالها تقدما وحيوية فى أثينا ، قد نشأت عن سـلسلة من مد النفوذ الى طبقة أكبر فأكبر حتى شملت فى النهاية كل المواطنين من الرجال •

وسرعان ما تكشفت الديمقراطيـة عن طـابع خـاص يميزهـا عن الديمقراطيات الحديثة فى أكثر من ناحية • فقد تميزت فى أيامها المبكرة على الأقل بنبرة أرستقراطية لا سبيل الى انكارها • كما كان لها تقاليد فى التذوق والجمال أبقت عليها العائلات النبيلة من أمثال عائلة ألكميونيد (Alcmaeonids) الذين رحبـوا بالنظـام الجديد ، وبادروا الى أخذ دور قيادى فى تأسيسه ، وعنهم انتشر الاحساس بالذوق ليشمل قطاعا أعرض ، وزاد من ثراء هـذا الاحسـاس ما ارتاد من مجالات جديدة ، وما حظى به من نفوذ جديد • أما الفنانون والكتاب الواعون بأن جمهورهم لم يعد النخبة المختارة من العائلات ، وانما شعب بأسره ، فقد خلعوا على الأشكال التقليدية معنى جديدا ، ولم يدخروا جهدا فى بذل جهودهم كى يصبحوا جديرين بالآفاق الأرحب •

لذا فنحن لا نرى فى الحياة المدنية والاجتماعية المصورة على الأوانى ، شيئا متدنيا مجافيا للذوق ، كما نرى الذوق واتساق الأسلوب سائدين

دوما ومتميزين بتفوق أرستقراطى ، كما لو كانا ينتميان الى أناس عرفوا بالفطرة كيف يشيعون فى أية مناسبة السحر والجلال ·

لقد تيسر وجود المزايا الأرستقراطية بفضل وجود نظام الرقيق ، وبفضل الاسترقاق توفر لسواد الشعب قدر من الفراغ يكاد ألا يكون معروفا بين العمال الكادحين فى العصر الحديث · ومن السهل ادانة هذا النظام ، بيد أن عيوبه لم تكن جسيمة كما قد نظن · لقد اختلفت أثينا عن كثير من المجتمعات التى ساد فيها الاسترقاق ، وذلك بزيادة نسبة أحرارها عن نسبة العبيد بمقدار الضعفين · وليس هذا بذى بال عند مقارنته بسلم الاسترقاق فى الامبراطورية الرومانية ، أو فى أية امبراطورية شرقية أو حتى بالنسبة لاسبرطة القديمة · ومرجع ذلك الى حد ما أن أثينا كانت فقيرة لا تتسع مواردها لامتلاك العبيد وشرائهم بأعداد كبيرة · ولم يكن العبيد عادة عاملين فى الأرض بل مستخدمين فى المناجم والمحاجر والسفن ، وكانت الاماء تقمن بالتمريض فى بيوت الأثرياء · ونادرا ما يكونون من أصل يونانى ، اذ أن استغلال اليونانيين من قبل مواطنيهم كان أمرا ممجوجا للنفس · وكان العبيد بطبيعة الحال فى أثينا كما هم فى كل مكان يقعون تحت رحمة أسيادهم ، وقد يرهقون من أمرهم عسرا بسبب ما لأسيادهم من أهواء ورذائل ·

ومع ذلك فمما لا شك فيه أن ذوى النفوس الطيبة الطائعة والحكيمة المعروفة من العبيد أكدوا أنهم غالبا ما يعاملون معاملة حسنة · ونحن نستطيع أن نرتاب فى أن تفوق الديمقراطية الأثينية كان يدين بالكثير لنظام الرقيق ، اذ أنه أمد المواطن الحر بفسحة من الوقت أتاحت له أن ينفق وقته فى أمور غير البحث عن وسائل العيش · بيد أن الغالبية من المواطنين كان عليهم أن يجاهدوا ما استطاعوا وان كانت لديهم على الأقل أوقات استطاعوا أثناءها أن يتركوا أعمالهم وأن يعنوا بالشئون العامة ، وأن ينعموا بمتع الفراغ · وبالرغم من أننا قد نشجب بدرجة كبيرة نظام الرق بكل أشكاله ، الا أنه ينبغى علينا أن نتذكر أن تنوع رقيق أثينا من حيث الأصل وقلة عددهم النسبى قد حال دون ازدهار أى نشاط أشبه بالاقتصاد الاستعمارى ·

لقد كون المواطنون الجزء الأعظم من السكان ، بل كان سكان البلاد جميعهم من المواطنين على وجه التقريب · وكان هذا الأمر ديمقراطيا بحق ، ديمقراطيا فى نطاق صلاحيته ومسئولياته ·

وكانت الحيوية الفائرة هى المقوم الثانى من مقومات الديمقراطية الأثينية · واذا ما وجد الناس أنفسهم مهيمنين على أقدارهم ، فسوف

تطلق طاقاتهم لترتاد اتجاهات عديدة • وفي الشعر الذى لم تتضح فيه مزايا أثينا حتى ذلك الحين كانت أغانى ومرثيات العصر الأرستقراطى قد أسلمت القياد لشكل المأساة الرائع ، التى كانت فى ذاتها تطويرا للأغانى الريفيــة المرتجلة . والانتحالات قد ارتبـطت بعبــادة الاله ديونيســوس (Dionysus) لكنهــا فى هــذا العصر ارتفعت الى قــوة فائقة ورفعــة سامية • ومازلنا نرى فى أطلال معبدى بارثينون (Parthenon) وبروبيلاى (Propylaea) كيف تفوق الفن المعمــارى للديمقراطية الجديدة على فن الأجيال السابقة من حيث الجمال والثراء ، كما تصــور التماثيل المنحوتة بمعبد بارثينون فى شكل أسطورى ــ الروح الجديدة فى أوج نشاطها •

وتبين لنــا القوصرة (١) الشرقيــة من المعبد ميلاد الالهــة أثينــا (Athena) فى جبل الأوليمبوس (Olympus) : ان عالما فردوسيا من الهدوء الحالم يبتعث فى داخلنا بظهور الهة كاملة النضج تتخايل فى صحن هذا المعبد وتثير رؤيتها فى نفوسنا الجلال والانبهار •

وتبين القوصرة الغربية صراعا ناشبا بين الالهة أثينا والاله بوسيدون (Posidon) من أجل الاستيلاء على أتيكا (Attica) : « اثنان من عظماء الآلهة يصــطرعان واحســاس مخيف بالقوة والمجاهدة يشيع فى المكان » •

ان كل قوصرة منهما تعرض جانبا مختلفا للأسطورة القومية ــ فلو أن القوصرة الشرقية تكشف عما يعنيه ظهور أثينا فوق جبل أوليمبوس من ذكاء يتسم بالقوة الالهية ، فان القوصرة الغربية تبين ما ينبغى أن تكون عليه مثل هذه الالهة من قوة يتقهقر أمامها اله البحر وينخذل • وكلا القوصرتين يعنيان بالقوة فى ظهورها أو فى نشاطها الكامل ، وكلاهما يعرض على العين القوة الفريدة التى آنسها الآثينيون فى أنفسهم ، وآمنوا أنها من وحى الآلهة •

هذه الروح الجبارة المنطلقة لم تكن لتقنع بالبقاء داخل حدود موطنها تنشد الانتصارات فى توان فى دنيا الشئون المحلية • ومثلما كان الأبطال المنتصرون للثورة الفرنســية ، كذلك كان اليونانيون ، استولى عليهم تحفز جارف لا يقاوم نحو الانطلاق الى ما وراء حدودهم ، وفرض ثمرات نظامهم على اليونانيين الآخرين • ومن الطبيعى أن يصاب جيرانهم الأكثر

---

(١) القوصرة : مثلث فى أعلى واجهة المبنى •

تحفظا بالذعر ـ لكنهم لم يخدعوا أنفسهم بتزييف الحقائق المحيطة بهم •
كما نستطيع أن نستخلص من كلمات كورنثي في اسبرطة أثناء المفاوضات التي سبقت نشوب حرب بلوبونيزيا في (٤٣٢ ـ ٤٣١ ق٠م) « ان رأيهم في قضاء أجازتهم أن يقوموا بأداء ما ينبغي أداؤه ، فهم يفضلون تجشم المشاق وخوض النشاط على الدعة والسلام • وبايجاز مختصر ، نقول انهم بطبيعتهم لا يطيقون أن يحيوا حياة الدعة ولا يبيحون لغيرهم أن يحيا هذه الحياة » • ويعني ذلك أن الأثينيين في القرن الخامس قبل الميلاد قد بدأوا تدريجيا في تحويل الحلف الذي تكون لمحاربة الفرس الى امبراطورية يدين أعضاؤها بالولاء لأثينا • وبقي الحلفاء مستقلين في شئونهم الخاصة ، ولم يكن جزاء ولائهم أن يضمن الأسطول الأثيني حمايتهم ضد الفرس فحسب ، وانما كان الجيش الأثيني على أهبة الاستعداد لشن الحرب من أجلهم وخوضها ضد أنظمة اسبرطة الامبراطورية ولكن الأهم من ذلك أن أثينا كانت تحب لحلفائها أن يتمتعوا بحكومات ديمقراطية • وبالرغم من أن ذلك المنحى كان يعد مصدرا لحقد قاتل في نفوس حكام الأقلية الا أنه كان يعني أن الحلفاء رضوا بوجه عام عن وضعهم حتى لو انتهى بهم هذا الوضع ، الى أن يكونوا واحدا من الشركاء الأقل شأنا ـ ولم يدع هذا الوضع أموالهم تنفق على بناء السفن فحسب وانما أباح انفاقها على اقامة بنايات كانت تمجد أثينا وتخلد ذكراها • لقد أصبحت أثينا بهذه الموارد مصدر تهديد محتمل لكل المدن اليونانية التي لا تشاركها أفكارها ، وللبلدان الخارجية مثل مصر التي كانت ميدانا صالحا للغزو • لقد تحدث بريكليس بانصاف عن المجالات المترامية الأطراف للمشاريع الأثينية :
« اذ أن روحنا المخاطرة قد اقتحمت كل بحر وكل بر ـ وفي كل موضوع خلفنا وراءنا ذكريات خالدة لخير أسديناه الى أصدقائنا أو ذكريات شقاء أنزلناه بأعدائنا » •

وقدمت أثينا تفنيدا فريدا كشفت به الغطاء عن الوهم المتفائل ، الذي كان يدعي أن الديمقراطيات لا تجنح الى الحرب أولا تتوق الى الممالك • ان اعتداد الأثينيين بأنفسهم لم يكن من المستطاع كبحه داخل الحدود ، ومن ثم راح يبحث عن مجالات جديدة للمغامرة على حساب الآخرين •

أما الخاصية الثالثة التي تميزت بها الديمقراطية الأثينية فهي لحرية التعبير ، وكان ينظر الى هذه الحرية على أنها عنصر جوهري ، وقد أفاضوا في تفسيره والحديث عنه • لم يكن لدى اليونانيين قوانين تعاقب على التشهير والقذف ، ومن ثم تميزت مناقشتهم بالصراحة والقدح ، كما كانت

مشاجراتهم مفرطة فى الجدل · ويبدو أنهم كانوا يرحبون بالمجاهرة بدرجة ملحوظة ، وشعروا أن تحقير خصومهم جزء هام من لعبة المجادلة ·

ولهذا الاتجاه بطبيعة الحال فى مجال السياسة أخطاره ، وذلك كلما استطاع زعماء الرعاع من أمثال كليون (Cleon) ، هيبربولوس (Hyperbolus) أن يستقطبوا الى جانبهم جمعا من المواطنين من خلال كلماتهم ذات العنف الفظ ونستطيع أن نفهم السبب فى أنهم أثاروا أجوبة بنفس روح الاثارة ، وذلك عندما يتحدث أندوسيدس عن هيبربولوس : « انى أشعر بالخزى من ذكر اسم هيبربولوس ، ان أباه عبد موصوم ، ما زال حتى يومنا الحاضر يعمل عاملا فى دار الصك العامة ، وهيبربولوس نفسه أجنبيا بربريا صانع مصابيح » · والأمر الذى يزيد من اندهاشنا هو اطلاق حرية الملهاة التى لم تتقيد بشىء فى تناول الشخصيات العامة بالتجريح والتحقير ، اذ يسخر أريستوفانيس دون قيد ، بالفلاسفة من أمثال سقراط ، وبالقادة من أمثال لاماخوس (Lamachus) وبالساسة من أمثال كليون ، وبالشعراء من أمثال يوربيديس (Euripides) · ان مثل هذه السخرية من جانب أريستوفانيس كانت مسفة طائشة وكثيرا ما كانت وليدة طبع مريض · فقد صور سقراط دجالا عفنا ، ولاماخوس شاذا آكل النار ، وكليون ملتويا عنيفا محبا للانتقام ، ويوربيديس مغرورا مريض الحس مولعا بالاستعراض والظهور · ولابد أن ينطوى هذا التصوير الساخر على عنصر من عناصر الحقيقة ، اذ لولا ذلك ما حظى هذا التصوير بتأثير كبير · لم يكن يخشى أريستوفانيس النفوذ وسوء السمعة ، وكان يدرك أين يضع طعنته بالضبط · وليس هناك مجتمع حديث مهما تكن ديمقراطيته — يبيح هذه الحرية ، وانها لميزة كبيرة تميزت بها ثقة الأثينيين بأنفسهم ، اذ أنهم حتى فى أوقات الحرب العصيبة كانوا قادرين على التمتع بها والسماح بممارستها ·

لقد كان لهذه الحرية بالطبع فضيلة صمام الأمان للانفعالات التى ربما اتخذت أشكالا أكثر عنفا من مجرد الكلمات · وربما عانت أحيانا الديمقراطية الأثينية من هذه الحرية ، لكن الافتراض بأن هذه الحرية لا مندوحة عنها لمجتمع متحضر ، كان فى الأساس مصدرا للقوة والفاعلية · ان الشعب الذى يستطيع أن يسخر من نفسه هو شعب أحسن تسليح نفسه حيال كثير من الكوارث والنكبات ·

وبالرغم من اختفاء الملكية الوراثية من مسرح الأحداث فى وقت مبكر فى اليونان ، فان حكومة الفرد المطلق كانت معروفة بكل تأكيد فى شكل

الديكتاتورية « الطاغية » • وتأتى كلمـــة طاغيـــة من الكلمة اليونانية تيرانوس (١) (Tyrannos) والتى يقـــال أن لهـــا أصـــلا فى ليـــديا (Lydia) ، وربما لم تكن تعنى كلمة طاغية فى الأصل أكثر من مجرد الملك » •

لقد نشأت أشكال الحكم « الطاغية » فى أشكال عديدة وعن أسباب مختلفة • فربما كان الطغاة أنصارا للطبقة الأقل امتيازا معادين لطبقة الأرستقراطيين المستقرة ، ومنافحين عن الحقوق القومية ضـــد التعدى الأجنبى ، أو مؤازرين لعامة الشعب ضد الحكومات الفاسدة ، أو مؤيدين لمجموعة من الأرستقراطيين ضد مجموعة أخرى منهم • وكانوا عادة يتملقون عواطف الشعب اليونانى بالتنازلات القانونية سواء كان ذلك فيما يختص بأسلوب وصولهم الى الحكم أم فى القيود المفروضة عليه ، أم فى احترامهم للقوانين القائمة ، بيد أنهم كثيرا ما احتفظوا بالسلطة بفضل أنصارهم المسلحين • وكانوا بين الحين والآخر يورثون أبناءهم الحكم محاكين فى ذلك الملوك بالوراثة ، ولكن هذا الأمر عادة ما كان يفضى الى نهاية محتومة لحياتهم •

وكان الطغيان وليد الصراع من أجل السلطة بين أقسام الشعب المختلفة ، وقد عكس خلافات كانت من الحدة بحيث ساد الناس الاعتقاد بأنه لا علاج لحل هذه الخلافات بغير وجود شكل ما من أشكال الحـــكم الفردى • وقد ساد نظام حكم الفرد فى القرن السادس قبل الميلاد بدرجة كبيرة ، عندما أثار الصراع الاجتماعى ظهور طبقة جديدة من التجار ، صاحبها نمو للصناعات الحرفية ، وابتكار العملة وفتح أسواق أجنبية جديدة ، والرغبة الملحة فى الاســـتيلاء على الأرض ، تلك التى زاد من ضرورتها زيادة الانفجار السكانى الى درجة ملحوظة •

وفى القرن الخامس قبل الميلاد كان الاحتمال كبيرا فى نجاح هذا النظام فى الأماكن المترامية مثل صقلية حيث تعرض الشعب اليونانى الى تهديد الغزو القرطاجى ، وقد يتطلب القائد الحكيم نفوذا خاصا للذود عن مدينته •

وقد أدان اليونانيون الطغيان فى السنوات اللاحقـــة ادانة تكاد

---

(١) يعبر عن « طاغية » فى اللغات الأوربية بكلمة Tyranat ، يعبر عن كلمة « طغيان » فى اللغات الأوربية بكلمة Tyranay وكانت تعنى فى الأصل نظام الحكم ، والحكام دون ضرورة لأن يكون ديكتاتوريا أو طاغيا •

تكون مطلقة ، بيد أنهم لم يستهجنوه ولم ينفروا منه فى السنوات السابقة • وجدير بالذكر أن كلمة الطاغية فى المأساة الأتيكية لم تنطو على ايحاء بغيض من حيث معناها « كملك » • وقد تأثرت وجهات النظر الحديثة المتعلقة بها بمجادلات أفلاطون ، وأرسطو ، كلاهما قد استنكرها باعتبارها أسوأ أشكال الحكم وكانت كلمة « الطغيان » قد تجاوزت فى عصريهما استخدامها الأصلى ، وخرجت عنه وتولدت عنها ايحاءات مرذولة شاعت معرفتها وتأصلت جذورها •

وفى **القرن السادس** استغل الطغاة اليونانيون على نطاق كبير الأذواق الأرستقراطية الرفيعة ، واستخدموا مواردهم المالية الكبيرة ونفوذهم السياسى حتى يجعلوا من أنفسهم حماة يشار اليهم من حماة العلم والفنون • ولم يحتفظ بوليكراتيس (Polycrates) حاكم ساموس (Samos) بالشعراء الذين استقدمهم من خارج البلاد مثل ابيكوس (Ibycus) وأناكريون (Anacreon) فحسب وانما استقدم الصائغ ثيودوروس (Theoderus) وأشهر أطباء عصره ديموسيديس كما استخدم المهندسين الذين نهضوا ببناء سد له وقناة أرضية لايزالان حتى الآن فى تيجانى (Tiggani) •

وعندما حكم أثينا بيزيستراتوس (Pisistratus) وولده حقبة كبيرة من القرن السادس أضفيا عليها روعة جديدة بأقامة هيكاتومبيدون (Hekatompedon) على قلعة أثينا ، وشجعا فن النحت مبتديا فى تصويره للأسود والجياد والكلاب ، بل والنساء والرجال •

وفى القرن الخامس نجد فى صقلية (Sicily) طغاة أقوياء من أمثال تيرون (Theron) حاكم أكراجاس (Acragas) وهيرون (Hieron) حاكم سيراكوزا (Syracuse) لم يشجعا بعضا من أجمل العملة فحسب وانما كانوا رعاة كرماء لشعراء من أمثال سيمونيديس (Simonides) ، باخيليديس (Bacchylides) وبندار ، واسخيلوس (Aeschylus) ، ومازالت معابد أكراجاس تحمل شواهد على استعلاء الحياة التى عاشوها • لقد استطاع الطغاة أن يرعوا الفنون بشكل وافر ، اذ كانوا أكثر ثراء من طبقة النبلاء القديمة ، وطبيعى أن تكون مثل هذه الرعاية وسيلة هامة لذيوع صيتهم ، وكسب اعجاب مواطنيهم وفى عصر الرقة والروعة الرفيعة عرفوا كيف يخلعون على أيامه تأثيرا خاصا أخاذا •

ان القصائد التى كتبها بندار عن الطغاة قد ألقت ضوءا كاشفا على حياتهم ، وكان بندار نفسه أرستقراطيا من طيبة ، وفى ظل آرائه السياسية المحددة أيد حكم الاقطاعيين من النبلاء ، واتخذ من الأرستقراطيين فى ايجا (Aegina) أحب أصدقائه اليه ، الا أنه كان أكثر تأثرا بهذا الاتجاه عندما أقام فى صقلية وكانت هناك فى الواقع الثروة ومظاهر الرفاهية متوافرة أكثر من توافرها فى اليونان بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، وهنالك أيضا اتخذت الحياة مظهر الجلال الملكى ، ذلك الذى أثر فيه تأثيرا عميقا • لم ينظر بندار الى هيرون وثيرون على أنهما محدثا نعمة ، شقا طريقهما الى السلطة ، وانما نظر اليهما كملوك بكل ما للملوك من سحر الماضى البطولى ، ملوك تعرض حظهم فى الواقع لحسد الحاسدين واعجاب المعجبين جميعا :

يعظم شأن انسان ما بشكل من الأشكال ،
ويعظم شأن انسان آخر بشكل آخر مغاير •
الا أن الملوك يعتلون الذروة دون الجميع
فلا تنظر الى ماهو أبعد من ذلك ،
أتوسل اليك ، علك تمضى فرحا •
بكل أيام حياتك •

لقد شعر بندار أن بوسع الملوك أن يأتوا بما لم يستطع غيرهم من الرجال أن يأتى بمثله من ممارسة فضائل عريقة ، من فضائل الكرم وحسن الوفادة ، وبهذا يصبحون مهيئين بدرجة خاصة لحياة خيرة • لكنه شعر كذلك أن وضعهم الرفيع لم يفرض عليهم التزامات خاصة فحسب وانما عرضهم كذلك لأخطار من نوع خاص ، مثلما كان بندار فى موضع ما يحدد لهيرون الفرق بين الملك الشرير تنتالوس (Tantalus) والملك الخير بيلوبس (Pelops) ، كذلك كان فى مكان آخر يستخلص درسا من عصور أكثر قربا ، وتكاد تنطوى كلماته على تحذير موجه :

ان ما لكرويسوس (Croesus) من قلب
فائق الرقة والتمنان لا يهلك أبدا •
لكن الروح الشرير الجافى يشوى البشر ،
فى محمصته العاتية مثلما تشوى طيور البحر ،
يطارده شره فى كل أرض ويقهر كبرياءه •

وبعد انقضاء غبطته فى مراحله الأولى ، انتهى بندر الى ادراك أن هناك خطأ ما فى نظام الطغيان ، ولم تعد تغمره السعادة فى ظل هذا النظام ، ثم اكتشف ما يسود أجواء حكام هذا النظــام ـ من ظلم وجور ، وكره ما شاع فى أيامه من مكائد رخيصة ونفاق مسف • وأدرك بندار أن أسلوب حياته الهادىء خير له وأفضل ، وأنه من المجازفة أن يجاوز الانسان حدود منهج الوسط والاعتدال •

ويبين لنا رفض بندار للطغيان حكمه عليه من خلال تجربته كرجل جاد حساس • ويبدو أن ابيكوس (Ibycus) ، وأناكريون (Anacrreon) وحتى سيمونيديس (Simonides) قد خالجهم بعض الوساوس بشأن هذا ، قبـل بندار بجيل أو جيلين ، بل يبــدو أن هــذا النظام كان دائما مايثير بغض وحذر الاســـتقراطيين من الاقطــاعين ولا يرى ثيوجنيس (Theognis) خطأ فى الاطاحة بطاغيــة « يلتهم قوت الشعب » • ويهزأ الكيوس (Alcaeus) من بيتاكوس (Pittacus) باعتباره سوقيا محدث نعمة ويسخر من قدمه المسحاء (١) ومشيته المستعلية ، وكرشه المنتفخ وسوء خلقه الشخصى وعادات السكر والعربدة • ان هذه البغضــاء التى نشأت عن الفروق الاجتماعية ، وزاد من قوتها الحرب الطبقية لم تتكلف عنتا فى تبرير مسلكها ، وقد قدمت مجمــوعة كاملة من الاقتراحات تبين فساد الطاغية عند استيلائه على السلطة • وكان يدعى أن الحسد والاستعلاء يهيمنان على حركته ، وحيث أنه لا يوجد من يراقبه نراه يتدخل بالعبث فى التقاليد القديمة ، ويغتصب النســاء ويقتل الرجال دون محاكمة ـ وبعبارة أخرى يعتدى على أقدس الممتلكات اليونانيــة بانتهــاك القانون والخروج عليه •

وطبيعى أن هذا الحكم لاينطبق على كل الطغاة بصــورة متساوية ، فقد قيل عن هيبارخوس (Hipparchus) الأثينى أنه امتثل لحكم القانون بصفة عامة ، وان كان فى نهاية المطاف لم يستطع مقاومة اغراءات السلطة التى كانت أقوى من مقاومته • فالطغاة يبتغون فى المقــام الأول ارضاء أهوائهم واشباع شهواتهم • وبحلول القرن الرابع لم يكن التعريض بهم بأكثر مما يستحقون ، ويصور أفلاطون الطاغية بأنه انسان سيطر عليه الخوف والرغبات الغير مشروعة ، وأنه يوجد حوله حالة من الدمار تماثل فى الضخامة ما فى روحه من دمار • ويخبرنا أرسطو كيف يصبح الطغاة

---

(١) مسحاء = مفلطحة أو منبسطة •

أدوات للمتملقين • وأنهم يدمرون ثقة رعيتهم وطمأنينتهم ببث الجواسيس بينهم وأنهم ينخرطون في اللذات الحسية ، وينغمسون في ارضاء شهواتهم ، ويفضلون أشرار الناس على خيارهم ، بل هم في واقع الأمر تجسيد حي للظلم والجور ، مثل هؤلاء الرجال – هم الذين يستولون على السلطة – في حالة تقاعس الأقليات الغنية أو الديمقراطيات عن المتابعة اليقظة ورعاية شئونهم •

وبالرغم من أن كلا النظامين (حكم الأقلية والديمقراطية) كان يخشى بأس الطغاة ، الا أن ذلك لم يربط بينهم برباط ، بل لم يضعف من مقت بعضهم لبعض بل ان كثيرا من التاريخ اليوناني في القرن السادس والخامس قد تحدد في الواقع بفعل هذا الصراع • لقد تحولت الحرب الطبقية بشكل رئيسي الى امتلاك الأرض في دولة عانت دائما من شح المحصول ، وعدم توافره وسكان في تزايد جاهدوا ما استطاعوا في تحقيق الاستفادة الكاملة من كل شبر في مساحة الأرض • لم تكن العداوات بين ملاك الأرض والمعدمين طويلة ومريرة فحسب وانما كانت تعززها مناقشات حامية من كلا الجانبين • وتبين لنا انفجارات الكراهية والازدراء الى أي مدى كان رد فعل المهددين والمطرودين حيال خصومهم • وعندما يتناهى الى سمع ألكيوس خبر موت عدوه مرسيلوس Myrsilus يصيح قائلا « لا مناص من احتساء الخمر احتفاء بالأخبار الطيبة » ؛ ونجد شاعرا آخر فقد كل شيء يدعو الله أن يمد في أجله حتى يشرب من دم أعدائه وفي بعض المدن أقسمت الأقلية الحاكمة على ذلك : « سوف أناصب الناس العداء وسوف أخطط لايقاع الأذى بهم بقدر استطاعتي » •

ان هذه العواطف الغاضبة وجدت لها نظيرا دمويا في التنفيذ الفعلي • وفي عام ٤٢٧ ق•م قام الديمقراطيون باغتيال كل من تسرب اليه الشك في عدائه لهم ، وفي أثينا في ٤٠٤ ق•م قضت حكومة الثلاثين بالموت على الديمقراطيين الذين عارضوهم• وفي هذه الظروف أصبحت الفكرة القديمة القاضية بانزال الأذى على العدو هي البند الأول في العقيدة السياسية • وفي العصر البطولي كانت تطبق هذه الفكرة بشكل رئيس على كل من ينال شرف الانسان بالايذاء والتعريض ، والآن أصبحت تطبق على كل الأعداء السياسيين يساندها من ورائها التضامن المسلح في الطبقة الاجتماعية •

لم يشترك كل أفراد الشعب في هذه الصراعات المريرة ، ولابد أنه كان هناك كثيرون سعوا الى تخليص مدنهم من هذه الصراعات • ونستطيع أن نرى كيف عالج بعض المعنيين هذا الموضوع معالجة جادة من خلال

قطعتين من الشعر الرفيع تنـــاولاه من وجهتين متعارضتين ــ ومع ذلك يكشفان عن تماثل كبير فى هذا التناول . ولعل أولى هاتين القطعتين كتبها سيمونيديس بالرغم من أننـا لانعرف متى ولمن كتبها . وما تبقى منها ما هو الا بداية ترتيلة تنشد فى مكان ما لآلهة القضاء والقدر حيث يكون لهم التكريم الرفيع :

فلتصغوا آلهة القضاء والقدر ،
يامن تعتلون مكان أقرب الآلهة
الى عرش زيوس ، تنسجون بخيوط
القسوة ، خططا لا مهرب منها لعقول
من كل الأنواع تفوق الاحصاء .
يا ايزا ، يا كلوثو ، يا لخسيس
يا نبات آلهة الليل ذوات الأذرعة ،
الجميلة ، انصتوا الى صلواتنا ؛
يا أيتها الالهات ذوات الرهبة ،
الهات السماء والأرض فلترسلوا
الهة التشريع ذات الصدر الناهد
بالزهور ، وشقيقاتها على عروش
مزدهية هما : الهة الحق والهة السلام
المتوجة ، ولتعينوا هذه المدينة على نسيان
بأسائها تلك التى تجثم ثقيلة على قلبها .

وهنا نرى آلهة الأقدار تســتدعى باعتبارها أعلى سلطة بعد الاله زيوس ، ويطلب منها أن ترســل الى المدينـة المضطربة الهات الأوقات المسميات على الطريقة التقليدية بالفضائل المدنيـــة الثلاثة العظيمة . وينبثق هذا المنحى من الجانب الارستقراطى الذى يستشعر مفاخره فى امتلاك هذه الفضائل ، كما يتبين لنا الى أى عمق يصل احساس الشاعر حين اليأس ، وأية حالة من الحالات النفسية تعتريه حين يناشد الآلهة أن تعيد الى المدينة الهناء والأمن . وقد نقابل بين هذا الشعر وبين أبيات من شعر اسخيلوس ، لم تكن وليدة الهام مباشر لأزمة مماثلة ، وان كانت تبين كيف جثم الخوف من هذه الأزمة على نصير راسخ الايمان بالديمقراطية

الأثينية ، وذلك عندما يتضرع الى الآلهة أن تنأى بمدينته عن التورط في الصراع الداخلي :

انى أتضرع متوسلا ، ألا يحتدم الصراع الأهلي
أصل الشر داخل حدود مدينتنا ، وألا ينقع
تراب الأرض غلته من دم أطفالها ،
هنالك يستبد الظمأ ويزداد شراهة
بفعل الانتقام ، الدم يسفك انتقاما للدم ،
وفي تواصل ودى تسدى السعادة من أجل السعادة ،
الكل في موقف من الحب والبغضاء ،
هنالك يوجد شفاء لعلل البشر .

ونلمس لدى الشاعرين رغبة واحدة في ألا تقسم المدينة ويمزقها النزاع الداخلي ، وكلاهما يلجأ الى حب السلام والنظام ، اذ لا مندوحة عنه للتمتع بطيبات الحياة . وبالرغم من أن هذه المشاعر تجد صدى لدى كثير من اليونانيين فلم ينجهم ذلك من الاشتباكات الوحشية ، والصراعات الدموية من أجل السلطة والمنصب . ولما كانت هذه الصراعات تنشب داخل المدينة الواحدة ، فقد ازداد عنفها بسبب زيادة حدة الخلافات السياسية وبفعل الضغائن والتحقير والأضرار الشخصية التى تغذت على معرفة وثيقة بما كان يفعله الآخرون أو يرغبون فعله .

لقد وصلت وحشية الحرب الطبقية الى نسبة لم يسبق اليها ، عندما شنت أثينا الحرب على اسبرطة في موقعة بلوبونيزيا ، كان لكل جانب أصدقاؤه في المعسكر الآخر من الذين تبنوا قضية الحرب . لقد أقامت أثينا ركائز الديمقراطية وأيدتها كما ناصرت اسبرطة حكم الأقلية . ويعنى ذلك أن مخاوف الحرب الأهلية كانت أحيانا تضاف الى مخاوف الحرب الدولية . ونستطيع أن نرى نتيجة ذلك من وصف ثيوسيديدس (Thucydides) لأحداث كوراسيرا (Corcyra) والروح التى كانت متماثلة في كل المدن اليونانية :

« ان الحماس المتعصب علامة كل انسان حقيقى ، والتآمر على العدو خلف ظهره دفاع مشروع عن الذات . بوسعنا أن نثق في كل من يعتنق آراء العنف والقسوة ، وكل من يعترض على هذه الآراء يصبح مشبوها . ان العلاقات العائلية أقل قوة من العضوية الحزبية ، اذ أن

أعضاء الحزب كانوا أكثر استعدادا للتطرف لأى سبب مهما كان شأنه • لم تتكون هذه الأحزاب لتنعم بثمرات القوانين المستقرة ، وانمـــا لتنال السلطان باطاحة النظام القائم ، ولم يتبادل أعضاء هذه الأحزاب الثقة بين بعضهم البعض لأخوة بينهم فى ظل مشاركة دينية ، وانما لأنهم كانوا شركاء فى جريمة واحدة » • ان هذا الاتهام الخطير الذى أدلى به رجــل مشهور بتجـرده ـ يكشف لنــا عن النتائج المشئومة للحرب الطبقية فى اليونان •

لقد فقد الناس احترامهم للقانون بسبب مطالبه المتعارضة ، كما فقدوا احترامهم للآلهة والأسرة والمدينة • لقد انهار التوازن الذى ارتكزت عليه الحضارة اليونانية ارتكازا حساسا ، وظهرت عارية على السطح روح الطموح الشخصى بعـد أن تربت فى جو من المظـالم والتآمر • ويصف ثيوسيديس موقفا شبيها بموقف آخر وصفه هيسيود قبل ثلاثمائة عام ، ويحكى عن المخاوف التى سادت فى العصر الحديدى :

يتشاحن الأب وابنه حتى الموت ، ويتشاحن
الضيف ومضيفه ، والصديق وصديقه •
ولا يطالب الأخ أخاه بحقه فى حب ساد يوما ،
وسرعان ما يشيخ الوالدان ويصطبغان
بالعار والخزى ، ويزدريهما البشر ،
ويصلقونهم بألسنة حداد ، قست
قلوبهم ، ولم تعد خشية الله تغزو قلوبهم •
لايردون ثمن تربيتهم ، وقد يدعون حقوقا لهم
والمتحربون ينفذون من جدران المدينة •

فمثلما كان هذا العصر محاكاة ساخرة ، وتحريفا لعصر الأبطال الذى سبقه ، كذلك كانت الصراعات الأهلية فى أماكن مثــل كورســيرا تقليدا بغيضا لنظام الشرف الشخصى وكذلك لحق الفرد فى تحقيق ذاته •

ويعزو ثيوسيديديس انهيار النظام وانعدام آداب السلوك الى تأثير الحرب المفسد للأخلاق القديمة ، وانه لعلى حق بكل تأكيد • لقد عاشت الولايات اليونانية على حد الكفاف من العيش ، وكانت الروابط بين هذه الولايات روابط واهية الى الحد الذى جعل لأى حرب طويلة أثرها المدمر

على هذه الولايات ويعنى ذلك أن يحرم الناس من كثير مما اعتادوا عليه ، ومن ثم يتخذون في سبيل استرداده كل مايمكن من خطوات • كما كان يعنى تقويض جهاز تعزيز القانون لغياب الرجال في مهـام حربية خارج البلاد ، ووجـود ثغرات ينفذ اليهـا عناصر من الشعب تتصف بالطيش وانحطاط الخلق • ومثلما انتهى تنبؤ بريكليس الصائب في أثينـا الى السعار العصبى لكليون ، كذلك برز على السطح فى المدن الأخرى الساسة الأكثر عنفا ، اذ ان عنفهم ذاته وجد استحسانا لدى الشعب الذى أذهله عن نفسه الكدح والجهد والحرمان ، وزاد من وحشيته سفك الدماء •

ان الظروف التى فرضتها الحياة اليونانية على الحرية جعلت من المستطاع تحول هذه الحرية دون جهد الى فوضى •

وبالرغم من أن النزاع المدنى كان مرضا مستوطنا بل ربما كان داء مستعصيا فى الحياة اليونانية ، الا أنه كان من الممكن الاحتفاظ ولفترة كبيرة بتوازن فعال بين الحاجة الى وجود نظام عام ، ومطالب الفرد فى أن يفعل مايروق له • وبالرغم من الاضطربات الخطيرة في القرن السادس قبل الميلاد ، فقد نجحت حكومات الأقليات على الأقل فى توفير قدر وافر من الكرامة والشرف للأقلية صاحبـة الامتيازات ، وفى القرن الخامس أبقت الديمقراطيات الحاكمة على ممارسة مثلها ، حتى أودوا بأنفسـهم بسبب المبالغات المفرطة وابتغائهم مزيدا يفوق الحد •

ان الحكومات الدستورية التي خاطرت بالموازنة بين نظام الطغيان من ناحية والفوضوية من ناحية أخرى ، كان عليهـا أن تكون دائما على حذر ويقظة فى الدفاع عن نفسـها ـ وليس مما يثير الدهشة أن نجد اليونانيين يرتابون فى أناس قد يحملون على هذه الحكومة • ويعد عنف عواطفهم السياسية ولاء لايمانهم بنظام حياتهم ومقتضيات تراثهم ـ ان الجـو الذى تم فيـه ابعاد الأثينيين لـ ثيميستوكليس (Themistocles) والاسبرطيين لـ بوزنياس (Posuanias) أشهر رجال عصرهما بشهادة ثيوسيديديس ، قد يبـدو موقفـا من الجحود الدنىء ـ ومع ذلك فقد كان برهانا على التصميم على عدم مشاهدة الاطار الاجتماعى ينهار بفعل الطموح الشخصى أو يستسلم لفظائع حرب أهلية لا سبيل الى وصفها •

وبالرغم من أن التاريخ اليونانى يزدهر فى جو الكوارث والاحباطات السياسية ، وبالرغم من أنه كان يقدر للتجارب المقدامة أن تنتهى الى

ملكيات مطلقة من الملوك الهلينيين ، الا أن هذا التاريخ قد احتفظ بجلاله وبهاء أحداثه • لقد ارتكزت السياسة اليونانية على الايمان بأن للناس على الأقل الحق فى أن يعيشوا لأنفسهم لا أن يعيشوا من أجـل نظام فردى بحت ، أو خارق للطبيعة البشرية • ومن العسير فى الواقع أن يقرر المرء وجوب تطبيق هذا النظام على شعب بأكمله أو أن يقصر تطبيقه على قسم مميز من الشعب لكن مجرد حقيقة وجوده تعد ميزة يتميز بها احترام اليونانيين للشخصية الانسانية • بل ان الأسلوب الذى ترجم به هذا المثال الى حقيقة واقعة من خلال حكم القانون — يعد أكثر تأثيرا وأبعـد أثرا • لقد كفل القانون الحرية ، وحتى لو وضع القانون بعض القيود على ما يستطيع الفرد فعله ، فليس ذلك بباعث على الضيق والضجر — بالنظر الى الطمأنينة التى وفرها القانون للفرد ، من حيث أنه يستطيع أن يسعى فى حياته بطريقته الخاصة • لقد رأى اليونانيون أنه لا وجود للحرية فى غيبة القانون ، وأن الانسـان لايستطيع أن يحقق ذاته بين الآخرين الا فى ظل اتحاد القانون والحرية •

الفصل الخامس

الفصل الخامس

الانسان الخير ، والحياة الخيرة

عندما يذكر أرسطو أن كلمة الخير لها من المعانى الكثير ، مثل كلمة الكينونة انما يعرب بذلك عن أن اليونانيين قد وجدوا فى تحديدها صعوبة قدر ما نجد نحن فى أيامنا هذه ، وأنهم قد طبقوا هذه الكلمة على كل الموضوعات بمختلف أنواعها ، وبما لها من تنوع كبير فى المعنى · لكن اليونانيين يختلفون عنا فى أحد الوجوه ، فكلمة الخير فى اللغة الانجليزية لها بالاضافة الى مهامها العديدة وظيفة خاصة ، من حيث علاقاتها بالناس وسلوكهم · ان الانسان الخير أو الفعل الخير ـ هو الانسان أو الفعل الذى يحظى برضا مقاييسنا الأخلاقيـة ، ويكسب لهذا السبب استحسانا · كذلك طبق اليونانيون كلمة الخير على الناس والأفعال ، لكن الاستحسان الذى تولد عن ذلك كانت تمليه اعتبارات مختلفة الى حد ما · فمثلما كانوا يعتبرون أن هذا الشىء خير من حيث المبدأ طالما حقق وظيفته على الوجـه الأكمل ، كذلك يكون الانســـان خيرا ان حقق امكانيـات رجولته فى اتجاهات بعينها ·

لقد بدأوا فى خوض هذا المجـــال بافتراض يتعلق بطبيعة الخيرية أكثر وضوحا من افتراضاتنا ـ وانتهوا الى نتائج تتعلق بتطبيق هذا المعنى احتوت على كثير مما ينبغى أن نقر به ، كما احتوت على أشياء كثيرة ينبغى أن ننظر اليها باعتبارها خارجة عن محيطه ·

وفى القرن الرابع جمع أرسطو كثيرا من روافد الأفكار التقليدية ، وقدم فلسفته الانطباعية عن فكرة الخير ، لكنه بالرغم من تجسيده للرأى

العام المألوف واقامة تعاليمه على أساس من العقائد المستقرة الى حد كبير ، فان نظريته تعد ابداعا من ابداعاته ، بل تنظيم بارع متمكن لكثير من أفكار شبه واعية أو غير مدروسة صبت فى نظام فلسفى ·

لم تكن الفكرة اليونانية المألوفة عن الخير دقيقة وفلسفية · وقد نفسر ذلك بغياب الكتب المقدسة التى تحدد واجب الانسان كاملا ، الا أنه قد يكون أقرب الى الحكمة أن نعزو وجود هذا الاتجاه الى الطابع التجريبى والعملى للتفكير اليونانى ، الذى كان يميل الى استخلاص النتائج بعد اختبار النظريات على محك التجربة ·

لقد فرق اليونانيون بين الانسان الخير والحياة الخيرة ، وأضفوا على كل منهما ايحاءات ومفردات يختص بها · فلو شرعنـــا فى الحديث عن الانسان الخير فسوف نرى أنه من الجدير بالملاحظة أن الفكرة بهذا المعنى لم توجد عند هوميروس · ويطلق على الانســان لفظ خير بما له من قدرة بارعة على فعل هذا أو اتيان ذاك من النشاط ، فقد يكون ماهرا فى اطلاق صيحة الحرب مثلما كان مينيلاوس (Menelaus) ، وافر القوة كما تمنى هيكتور لابنه ، أو ماهرا فى الملاكمة كما كان بوليديوسيس (Polydeuces) وقد يكون ملكا خيرا مثلما كان أجاميمنون (Agamemnon) ، أو طبيبا ماهرا مثل أبناء اسكليبيوس (Asclepius) أو حاملا بارعا للدروع مثل حامل دروع أخيليس ·

وينطبق هذا الاســـتخدام للكلمة على الفكرة التى تعنى أن الخيرية تكمن فى الوفاء بالوظيفة المناطة بفرد ما من الأفراد ، لكنهـــم لم يذكروا الفكرة التى تعنى أن الانسان فى ظل هذا المعنى يستطيع أن يكون لديه وظيفة بوسعه القيام بها · ولعل هوميروس لو ألحت عليه الحاجة الى توضيح هذه النقطة لقال : ان الانســان الخير هو الذى يتفوق فى كل المزايا التى يتطلبها العصر البطولى من عظماء رجاله ، وأن أخيليس نموذج رجاله المتفوق لهذا النوع من الرجال ، لكنـــه لم يذكر شـــيئا عن هذا الموضوع · ولا ريب أن ذلك مرجعـــه الى أنه مستغرق بشكل كبير فى رؤيته للمثال البطولى الى الحد الذى لا يشعر معه بالحاجة الى تحليل هذا المثال أو الافاضة فى تفاصيله ·

لكن الأجيال المتأخرة التى رأت ضرورة تطور المثال البطولى فى عالم متغير ، كانت أكثر تحديدا ووضوحا · ان مطالب دولة المدينـــة عززت

مفهوم الخير الذى كان أكثر وعيا وأكثر تفصيلا ، وأكثر التحاما بالحياة الاجتماعية من أى شيء آخر أشار اليه هوميروس ٠

وأساس ذلك هو افتراض وجود أربع فضـائل هن الشجاعة ، الاعتدال ، العدل ، والحكمـة ٠ ولا تمثل الكلمات الانجليزية أصولها اليونانية تمثيلا مطابقا ، وعلينا أن نتعمق فيهن بحثـا عن كثير من الايحاءات أو التلميحات الدقيقة ٠ ويسـود الاعتقاد فى أن ترسيخ هذه الفضائل الأربع من عمل بيثاجوراس ، وحتى لو أنها قد آلت اليه عبر معرفته بما فى التراث من حكمة ، فانه قد أضفى عليها شكلا أدق وانتشارا أوسـع ٠

وعلى أية حال فقد بقيت هذه الرباعية صامدة من القرن السادس الى القرن الرابع ، بل الى ما بعد ذلك ، لقد عرفهـا اسخيلوس واستحسنها بندار ، وفسرها سقراط ــ وأخضعها كل من أفلاطون وأرسطو الى تحليل مستقص مستفيض ، بل تحليل من القوة السابغة ، بحيث بقيت حية بعد تفكك الهلينية ولعبت دورا أساسيا فى مجال التعاليم الأخلاقيـة الجديدة على يد الرواقيين (١) ، وكانت تجسـد ما يعجب به اليونانيون نظريا ويسعون الى تحقيقه عمليا ، وكثيرا منهم كان يعتقد أن الانسان بممارسة هذه الفضائل وتطبيقها على كل موقف حسب مقتضياتها ، فانه بذلك يكون قد أدى ما ينتظر منه ٠

وليست هذه القائمة بالأمر المسلم به وليس لها مصدر خاص يتمتع بالثقة ، بيد أنها تمثل وجهة النظر العامة فيما يتعلق بالشخصية والسلوك، وتعد مرشدا قويما للمقاييس التى اتخذها اليونانيون أساسا للحكم على بعضهم البعض ، بل وعلى أنفسهم ٠ وربما كانت هذه القائمـة تنظر فى الأصل الى البشر من أربع زوايا مختلفـة ، هى على التـوالى : الزاوية العضوية ، والجمالية ، الأخلاقية والعقليـة ٠ كمـا كانت تعكس مفهوم اليونانيين عن الانسان ذى الصفات الأربع ــ بكل ما لهذا المفهوم من نضج وتوازن ــ لقد كان للشجاعة العضوية فى كل العصور تقدير رفيع من قبل شعب عاقر الحرب كثيرا ، ولا يخالجنا الشك فى أن الانسان العادى ، لم يؤرقه البحث عن دقائق طبيعة الشجاعة ، وانمـا استجاب الى اغرائها

---

(١) اتباع المذهب الفلسفى الذى أنشأه زينون عام ٣٠٠ ق٠م ــ والذى يدعو الى التحرر من انفعال الفرح والترح جميعا ، وأن يخضع الانسان من غير تذمر لحكم الضرورة القاهرة ٠

الخيالى بكل الحب والاعجاب · كما نرى من موقف اسخيلوس فى حديثة عن « سبعة ضد طيبة » :

تلك قلوب ــ لا ينفذ اليها الحديد
هنالك فى معمعة القتال ، اندلعت
روح الحرب متألقة لاتنطفىء ، كانوا
أشبه بأسود ، عيونهم لها بريق السيوف ·

أما فضيلة الاعتدال فهى الى حد كبير من أمور الليـــاقة ، وحسن السلوك فى أداء المهام دون عجرفة أو تظاهر [1]، وهى كذلك حسن التصرف ومعاملة الناس دون غطرسة واستعلاء · فاذا ما حظيت فضيلة الاعتـدال بتقدير رفيع لدى الدوائر الأرستقراطيـــة ــ باعتبارها عنصرا جوهريا لمحاسن الأخلاق ، فقد كانت أيضا من الأمور التى أطرى عليها بريكلس فى طباع الأثينيين ·

« ان حبنا لكل ما هو جميل لا يؤدى بنا الى التطرف والغلو ، وحبنا لنتاج العقل لايجعل منا رجالا رخوة » ·

أما العدل فهو صفة أساسية من صفات الأخلاق ، هو الميل الطبيعى الى الامتثال لقواعد وقوانين المجتمع المتحضر ، ومعاملة الآخرين بما يحبون أن يعاملوا به · وقد أحسن سيمونيديس (Simonides) وصفه حين قال « اعطاء كل ذى حق حقه » · فالعدل فى الأساس اجراء اجتماعى من حيث التطبيق ويبدو أن كلمة العدل قد اشتقت من كلمة يونانية «dikê» تعنى حدود أرض الانسان ، وقد تمت ترجمتها بكلمـة العدل المستخدمة الآن ، ثم بدأت تعبر بشكل مجـــازى عن الفكرة التى تقول بوجوب بقاء الانسان داخل محيطه واحترامه لجيرانه ·

أما الحكمة فهى بكل تأكيد صفة عقلية ، وكانت تطبق فى العصور المبكرة على أى نشاط من أنشطة العقل وتشير الى براعة الفنون ، ناهيك عن المقدرة الفلسفية والعلمية والسياسية · ومن الواضح أنه لم يكن من اليسير أن نجد الفضائل الأربع متوافرة فى انسان واحد على قدر متساو من الوضوح والجلاء ، وان كان ذلك غير محال ، ان تقدير هذه الفضائل قد بين بكل تأكيد التوازن الدقيق للرأى ، فيما ينبغى أن يـكون عليه الانســـان ·

وقد اكتسب هذا المفهوم الواضح مزيدا من العمق بتطبيقه على الحياة المدنية ، واحتياجات دولة المدينة • وعندما كانت تحظى الشجاعة بتقدير لذاتها وفائدتها بالنسبة الى دولة المدينــة ، فان مرجع ذلك ــ الى أن اليونانيين قد رأوا أن مجرد الشجاعة فى المجالات المدنيــة ليس بالأمر الكافى ، وأن الانسان انما يزداد الاعجاب به عند مواجهته للأخطار ، مدركا أنه انما يناضـــل من أجـــل قضية ، وانه من أجل هذه القضية متأهب للتضحية بحياته • ونحن نلمس هذا المعنى خلف ســـطور كلمـــات بريكليس عن الأثينيين الذين قضوا نحبهم فى ميـــدان الحرب : « ان الانسان الذى يعد شجاعا بحق ، هو الذى يدرك معنى ما فى الحياة من حلو وشقاء ثم ينطلق غير هياب لمواجهة ما تخبئه له الأيام » •

وطبيعى أن فضيلة الاعتدال مرتبطة بتعاليم منهج الوسط وبالمبادىء التى وضعها كهنة دلفى « اعرف نفسك » ، وهذا يعنى أن الانسان لو عرف بحق حدوده وحقيقته فسوف يكبح جماح طموحه واستعلائه • ولو توفر للانسان أمن نفسى فسوف يعاون على توفير هذا الأمن لمدينته ، ويبين لنا بندار هذا المعنى فيما يقول :

فلو وضع الانسان الصالح العام لمواطنيه
فى جو من الطمأنينة والسكينة ، فدعه ينطلق
باحثا عن الوجه المتألق لالهة الهدوء والسكينة
ذات القلب العظيم « مقتلعا من نفسه
الصراع الغاضب ، جالب الفاقة
والراعى البغيض للصغار •

ولما كان أســـاس الحرية هو حكم القانون ، فان العدل مرتبط بالضرورة باقتناء التشريع الصالح والانصياع لهذا التشريع ، ولذا فقد نرى سيمونيديس يعانى الى حد ما من الندم رغم وعيه بعصره الذى يعيش فيه ، فيعقد مقارنة بين النموذج القديم للانســـان ذى الفضائل الأربع وبين نموذج المواطن الصالح :

ان الانسان الصالح ليس متدنيا
ولا عاجزا ، وهو صالح ان كان يعرف
حق بلاده عليه فى معاونته اياها •

ان العدل ينفذ خلسة من خلال العلاقات الاجتماعية الى العلاقات السياسية ، ويشمل على وجه التقريب كل نواحى الحكم المندرجة تحت القانون ، كما يشمل كل المزايا التى يتطلبها ؛ كما أن للحكمة مغزاها بالنسبة للسياسة • وليس دون سبب أن يكون هناك سبعة من الحكماء ـ جميعهم ساسة من نوع أو آخر •

ويبين ثيوسيديديس ماذا كان يعنى ذلك فى زمنه عندما يثنى على ثيميستوكليس (Themistocles) لأنه كان متفوقا فى أداء الأمر المناسب فى الوقت المناسب ، كما كان معجبا ببيريكليس لنفاذ بصيرته وتنبؤه الصحيح بما سيقع من أحداث • وبهذه الأساليب المتعددة أسبغت على الفضائل البطولية والأرستقراطية ـ أهمية جديدة فى مجال الحياة السياسية ، وطوعت هذه الفضائل بحيث تتفق ومقتضيات هذه الحياة •

ان ازدهار علم الفلسفة فى القرنين الخامس والسادس كان يعنى أن هناك محاولات مختلفة لدمج الفضائل الأربع الأساسية فى وحدة كلية شاملة وذلك اما بالعثور على بعض المبادىء العامة الكامنة خلفها ، أو باخضاع ثلاث من هذه الفضائل للفضيلة الرابعة • وكان واضحا للعيان امكانية وجود الشجاعة فى مكان آخر أكثر من وجودها فى ميدان المعركة ، وقد يزداد اعجابنا بالشجاعة النفسية أكثر من اعجابنا بالشجاعة البدنية • وتصور ديمقريطس (Dimocritus) أنه ينبغى على الشجاع بحق أن يكون لديه بعض الادراك لمعنى العدل اذ يقول :

« ان الانسان بفضل فهمه ومعرفته للأفعال العادلة يصبح شجاعا سليم التفكير » • أما سقراط فقد ارتقى بهذه الفكرة الى الرأى الذى يقول أن الشجاعة شكل من أشكال المعرفة ، وقد انتهى أفلاطون الى نتيجة مؤداها أن أسمى أشكال الشجاعة أن نواجه مغريات المتعة دون الاستسلام لها ، وبهذا نجعل منها شكلا من أشكال الاعتدال على وجه التقريب •

وسرعان ما تحقق اليونانيون فى الواقع من أن الاعتدال والعدل والحكمة أمور وثيقة الارتباط والتداخل بأى شخص على مستوى المسئولية الى الحد الذى لايمكن معه فى نهاية الأمر التفريق بينهما • وبالرغم من أن كلا من سقراط وأفلاطون قد نظرا الى المعرفة والعدل باعتبارهما مبدأ أساسيا جامعا ، الا أن فرصة الاختيار بينهما محدودة وضئيلة ، اذ أن كلا الرأيين يفترض أن الانسان لو أحسن حكمه على نفسه وظروفه ، فسوف يكون فى موضع صالح لانصاف الآخرين • وما دامت

الحكمة بهذا المعنى قد أخذت مكان الكبرياء فان من الممكن أن يتسع مفهومها متشعبا في اتجاهات عديدة · ولو صح ما ذكره هيراقليطس من « ان الحكمة تتألف من قول الحق » فسوف يتبع ذلك أن البحث عن الحقيقة أمر خير في ذاته ، ويظل الأمر على هذا النحو حتى يرى أرسطو فيه رأيا رآه قبله بيثاجوراس ، مؤداه أن الحكمة أرقى أمور الحياة جميعها ، وصنو لنشاط التأمل الرباني · الا أنه من المحتمل بالنسبة للانسان العادى أن يقنع بالإبتعاد عن هذه المحاولات المتعلقة بالتنظيم المنهجي ، ويقبل الفضائل الأربع باعتبارها مرشدا حكيما للسلوك القويم ، اذ أنها بخاصة تتيح له تحقيق فرديته كما تتيح له المشاركة الكاملة في أمور حياة مدينته ·

فلو أن الفضائل الأربع كانت ترمز الى نموذج الشخصية المتزنة المنضبطة ، فان نقيضهن يكمن فى تلكم المثالب التى تطيح بهذا التوازن، وتشيع الدمار فى الأفراد والمجتمعات · فلو نقصت منهن واحدة فان الثلاث الباقيات قد يتعرضن هن الأخريات الى النقصان والتشويه ، وعلى سبيل المثال فليس مجافيا للتفكير اليونانى أن نرى اجيسثوس (Aegisthus) الذى يغوى كليتا مسترا (C:ytaemestra) ويتآمر معها على اغتيال زوجها ، لا يفتقر فقط الى الاعتدال باعتباره زانيا ، ولا الى العدل من حيث غطرسته المستعلية الفظة ، وانما يفتقر أيضا الى الشجاعة ، اذ يترك كليتامسترا تقتل أجاميمنون ، ثم يطلق عليه ابتداء من هوميروس الى ما بعده لفظ « الجبان » ـ لقد ساد الاعتقاد بوجه عام فى أن الدمار لم يلحق بالفضائل الفردية فحسب ، وانما أصاب وحدة النفوس وتوازنها بفعل الاستعلاء ، وقد يعكس ذلك أيضا انعدام الشجاعة النفسية ، ويعنى كذلك وبكل تأكيد تحديا لضبط النفس والاعتدال ، كما أدى حتما الى الظلم بسبب اغفاله لحقوق الآخرين · وغالبا ما كان ينتهى بارتكاب حماقة ، عندما يتصور مقترفها أنه يستطيع أن يضمن المحال بوسائل جائرة · لقد خلع اليونانيون على الاستعلاء أهمية تافهة القيمة ، اذ أنه كان أكثر من أى شيء آخر تحديا لنموذج النفس المنضبطة وتناغمها وتساوى سوء الظن السياسى العميق بها مع ادانتهم الأخلاقية لهذه الغطرسة · ورأوا أن هذا الاستعلاء يزداد نموا اذا مد بوسائل الغذاء ، ومن ثم يخلق شرورا فى نفس حجمه من الكبر والضخامة ·

ونرى اسخيلوس يخلق عالما من الأساطير لتصوير هذا الوضع :

ان الغطرسة القديمة يستهويها أن تلد

غطرسة صغيرة ، تعيش بين شرور الناس ،
وآجلا أو عاجلا تأتى ساعة المخاض المحددة ·
هنالك يكون الشيطان رفيقا ، والطيش الجامح
المدنس يندفع لايقاوم ، لعنتان سودأوان
يقطنان الموطن أشبه بوالديهما المنحدرين من صلبهما ·

لقد تعرض اليونانيون بسبب الاستعلاء الجامح الى هزة أخلاقيـة وسياسية وجمالية · ونظروا اليه نظرة تختلف اختلافا كبيرا عن نظرتهم الى الطموح المشروع ، اذ أن الطموح أمر ممكن بفضـل توافر درجة كبيرة من انضباط النفس بل والتضحية بها · لقد ظلوا ينظرون الى الاستعلاء منذ العصر البطولى الى القرن الرابع على أنه أسوأ الشرور جمعاء » اذ أنه يشيع الفوضى فى كل المحاولات الهادفة الى تحقيق التوازن والانسجام النفسى ، وأنه يستخف بالالتزامات الاجتماعية التى تعتمد عليهـا دولة المدينـة ·

وقد يبدو لنا مفهوم الفضائل الأربعة الأساسية غريبا ، اذ أنه حتى فى شكله الفلسفى يجاوز حدود الأخلاقيات البحتة ، ويخاطب اعتبـارات عقلية وأخرى غير عقلية · الا أن هذا معناه ببساطة أن المفهـوم اليونانى للخير كان أكثر فيضا وسخاء من مفهومنا ، وقد احتوى على كثير مما يثير اعجابنا ، بيد أنه تقاعس عن تمجيد الفضيلة · ان مثل هذا الاعتقاد يلائم بشكل جيد مع الشخصية اليونانية ، اذ أنه استحث خصائصـها الخلاقة والأكثر ايجابية ، وله علاقة تتلاءم مع أى مجتمع يحترم الفضائل العقلية ويؤمن بأنهـا جديرة بالسعى لذاتهـا · وطبيعى أن يكون لهذا الاعتقاد امكانياته المحدودة ، فهو يخرج من حسابه أية درجة رفيعة للتخصص وعلى الانسان أن يكون ماهرا فيما يضطلع به من مهام ، لكن ذلك لاينبغى أن يحول بينه وبين كونه مواطنا صالحا مدركا لواجباته نحو دولته ، وليس بوسعه الهروب من مسئوليـاته باعتزاله العـالم ، وكل من يفعل ذلك « اما أن يكون الها أو بهيمة » · لم يفسح النظام اليونانى المجال للتأملات الفردية ، فعندما رغب فلاسفة ــ مثل أتباع بيثاجوراس ــ فى تطـوير تعاليم لها مضامين صوفية معينة اضطر هؤلاء الفلاسفة الى المشاركة فى مجال السياسة ، ولم يعش رجال الثقافة والعلم فى عزلة قلقة ·

أما طاليس (Thales) الذى كان رائدا موهوبا فى مجال الفلك الى حد أنه تنبأ بخسوف ٢٨ مايو عام ٥٨٥ ق·م ، فقد قام بدور بارز فى

حث اليونانيين من أهل أيونيا على أن يتحدوا ويصدوا تقدم الفرس ، ويشير النقش المكتوب على شاهد قبر اسخيلوس ـ والمحتمل أن يكون بقلمه ـ الى أنه قد حارب في ماراثون (Marathon) ولم يذكر أنه قد كتب المأساة • وقد قام سوفوكليس بدور القائد في الحملة الاثينية على ساموس (Samos) سنة ٤٤٠ ق٠م ، أما امبيدوكليس (Empedocles) فلم يكن عالما ومصلحا دينيا فحسب وانما كان كذلك قائدا شجاعا في الحزب الديمقراطي في أكراجاس ، وقد حاول أفلاطون مستبسلا وان لم يحالفه النجاح ، في أن يطبق أفكاره السياسية في سيراكيوزا (Syracuse) • ان غالبية الكتاب والمفكرين اليونانيين كانوا من الهواة ، ومع ذلك فقد اكتسب نتاجهم كثيرا بفضل ارتباطه بالدماء الحية والتحامه بأفكار وأعمال عامة الناس ، الأمر الذى نأى بهذا الانتاج من أن يعانى مما يكون عليه مستوى الهواة • وحظى هؤلاء الكتاب والمفكرون بمعايشة عصر لم يكن فيه التخصص أمرا ضروريا ، بيد أنهم استفادوا بشكل كبير مما أحاط بهم من عالم صاخب في اثراء نتاجهم والاتصال بالأحداث المعاصرة •

ان أخطر نقد يوجه لمفهوم اليونانيين لمعنى الانسان الخير ، يتمثل في أن هذا المفهوم ينحصر تطبيقه تقريبا على من حبتهم الطبيعة بهبات قادرة ، بينما يقصى الآخرين عن مجال التطبيق ولايقيم لهم وزنا • ثم انه لايتطلب ذكاء فحسب وانما يتطلب صفات فطرية من صفات الشجاعة والاعتدال لاتتوفر لكل انسان • ولقد وجد هذا الاتجاه لدى اليونانيين أنفسهم موافقة واستحسانا ، وكانوا يعتقدون أن صفة الخيرية حسب ادراكهم ليست في الواقع ميسورة للبشر جميعا ، بل لم يروا سببا يوجب تواجدها • ولما كان اليونانيون لايعتقدون اعتقادا قويا في خلاص أرواح الأفراد ، ولم يتصوروا لمعنى الخير شكلا خاصا ضروريا لهذا الخلاص فلم يخالجهم الشعور بالحاجة الى افتراض فحواه : انه ينبغى أن يكون للناس جميعا فرصة متساوية في أن يكونوا أخيارا ، وانما كان الخير بالنسبة اليهم امتيازا أنعمت به الآلهة عليهم مثلما تنعم الآلهة على البشر بالنعم والنقم • لكن المجال مازال متاحا أمام الانسان ، صاحب المواهب القوية في أن يفيد منها أقصى افادة ممكنة ليصبح خليقا بنعت « خير » بما له من سمو عقلى وأخلاقى •

ولم يشعر اليونانيون أن مثل هذا النموذج هو في النهاية بعيد عن التطبيق ، وانما كانوا مهيئين تماما لقبول وسائل التقريب منه • كما ادركوا أنه ليس كل انسان في الواقع حرا في أن يشكل مصيره ، ولكنه

مادام كذلك فعليه أن يبذل قصاراه في استغلال طاقاته ، وبهذا المعنى كان هيراقليطس (Heraclitus) مصيبا في قوله « الشخصية هي المصير » ·

لقد خلع هذا الاعتقاد أهمية عظيمة على الفرد ، وأتاح له أن يتشكل حسب الطريقة التي يرضاها · ومن الأهميـــة بمكان أن يميط اللثام عن طاقاته حتى أوج كمالها ، ليصبح في وقت واحد مثالا للكائن البشرى الكامل وعضوا صالحا من أعضاء المجتمع ·

عندما نتحول عن الفكرة الخاصة بالانسان الخير الى الفكرة الخاصة بالحياة الخيرة ــ نجد أنه من الواضح أن كلمة « خير » قد اكتسبت معنى آخر ، ولعلنا نتخذ من أغنية شراب أتيكية نصا يحدد أفضل صفات الخير الأربــع :

أولاهما : ان الصحة هي أول وأغلى مقتنيات الانسان
ثانيتهما : أن يولد الانسان مزودا بجمال بهى ،
ثالثتهما : ثروة يجمعها الانسان بالشرف والأمانة .
رابعتهما : أيام الصبا تقضى في المتع مع الصحاب ·

ان السؤال لا يدور حول كينونة الانسان انما يدور حول ما يمتلكه الانسان ، لا عن جوهره وانما عن مخبره · ان مقياس الحكم على الحياة الخيرة يختلف عن المقياس الذى يقـاس به الانســان الخير ، اذ تحتكم النتائج بشكل مباشر الى السعادة باعتبارها نهاية المطاف · ومع ذلك فان صفات الانسان الخير هي الى حد ما من الأمور المفترضـــة سلفـا والمسلم بوجودها ، وليس من المحتمل أن يتمتع بالحياة الخيرة من ليس خيرا بالمعنى الذى يراه اليونانيون · وتشير الأغنية الى هذا المعنى عندما تقول « ان الثروة ينبغى أن تجمع من طريق شريفة » · وعلاقة هذا بالحياة الخيرة ذكره سوفكليس بكل جلاء وذلك حين يقدم الينا قائمـة بأمور مثيرة للاعجاب وشبيهة الى حد ما بما ذكرته الأغنية :

ان أجمل مافى الحياة جميعها أن تكون عادلا ،
وأجمل الحياة حياة بلا علل ، وأعذب ما تفوز به
كل يوم هو تحقيق رغائب قلبك ·

ويربط هذا الاتجاه بين الفكرتين جميعا ، ويبين أن الحياة الخيرة أمر محال بالنسبة للانسان الذى يستهين بحقوق اخوانه ، ويلمح الى أن

السعادة ليست ممكنة مع ضمير خبيث · ولكن اذا ما أقررنا بهذه الصلة فبوسعنا أن نحلل الحياة تحليلا مرتكزا على واقعها الموضوعي ، ولا ينبغي أن تؤخذ أغنية الشراب على أنها تنزيل لايتطرق اليه الشك ، لكنها تمثل الرأى العام وترمز الى كثير مما كان يحظى بتقدير رفيع ·

ولعنا نستطيع أن نضيف الى النعم الأربع سالفة الذكر الحظ السعيد وذيوع الصيت ، فهما أيضا أمران من الأمور التى تتصف بالثناء الرفيع والقبول العام · لكن الصفة الأولى « حسن الحظ » مذكورة ضمنا فى سياق الفكرة العامة للسعادة والثانية « ذيوع الصيت » تكاد تكون نتيجة حتمية للصفة الأولى · فلو أمعنا النظر فى معانى الأغنية فى ضوء الفكر اليونانى لوجدناها تتجه صوب لب الموضوع ·

وقد يتضح لنا احساس اليونانيين بالصحة من خلال أنشودة كتبها اريفرون (Ariphron) عام ٤٠٠ ق·م :

الصحة أفضل نعم الحياة للبشر
هل لى أن أبقى بجوارك ما بقيت لى أيام ،
فى الحياة ! وهل لك أن ترقى لحالى وأن تبقى بجانبى ،
اذ لو أن هناك فرحا بثروة أو أطفال
أو بحكم ملكى يجعل الرجال أشباه الآلهة
أو لذة فى رغبات نقتنصها بفخاخ أفروديت
الخفية أو لو أن لدى الناس أية متعة أخرى
من هبة الآلهة أو راحة من عناء العمل ، فذلك
كله لاجدوى منه الا بوجودك ، ففى كنفك
أيتها الصحة المباركة ، تقوى كل الأشياء
وتتألق بالود والتواصل مع الاهات
الحسن الثلاث ، وبدونك لاتبقى للانسان سعادة

لقد تمنى اليونانيون الصحة باعتبارها أهم النعم لا لأن فقدانها يعنى دمار السعادة كما تصوروها ، وانما لأن اليونانيين كانوا فريسة للأمراض · اذ بدأ الطب فى الواقع يتخذ طريقه الى الظهور الفعال بنهاية القرن السادس ، ولكنه بالرغم من اضطلاعه بواجبه بروح علمية صارمة الا أنه كان لايزال أمامه الكثير مما ينبغى أن يتعلمه ، ولم يكن بمقدوره أن يبرىء المجتمع من كل أدوائه ، هذا المجتمع الذى لم يكن له نظام صحى

للوقاية ، الأمر الذى أدى الى أن يقع فريسة سهلة لأية عدوى جديدة • ونستطيع أن نرى الى أى مدى يمكن للمرض أن يكون مروعا من خلال تقرير كتبه ثيوسيديديس عن الطاعون الذى اجتاح أثينا عام ٤٣٠ ق٠م٠ والذى تتطابق أعراضه مع أعراض التيفوس والحصبة بشكل متباين ، بل ان ثيوسيديديس نفسه قد عانى من هذا المرض ، ولم يسمح لشىء بالتدخل فى تحليله الدقيق العملى لأعراض هذا المرض ونتائجه •

ونرى الصورة بأكملها ، دمارا مروعا ينقض على شعب يبدو أنه كان فى مأمن من مثل هذا الفعل من أفعال الآلهة ، ثم وجد نفسه بغتة يواجه نكبة لاسبيل الى السيطرة عليها أو البرء منها ، مما قوض ثقته بنفسه ، وليس غريبا أن يتصرف الأثينيون على النحو الذى يضعه ثيوسيديديس :

« ان أفظع الأمور جميعا هو ذلك اليأس الذى وقع فى شركه الشعب الأثينى ـ عندما أدرك أن الطاعون قد أصابه ، اذ أنه اتخذ فور ذلك موقفا يتسم باليأس المطلق ، واستسلامه على هذا النحو يفقده طاقات المقاومة » • فلو كانت الصحة هبة تهبها الآلهة ، فان الخوف كل الخوف أن تسترد الآلهة عاريتها •

فالصحة عند اليونانيين ركيزة لامندوحة عنها لكل أنواع الاستبسال البدنى الذى وجد اليونانيون فيه بهجتهم وسرور حياتهم ، وكان ينتابهم حقيقة الاحساس بالوحشة والقنوط عندما يفقدون الاحساس بضمان وجودها •

ان رغبة اليونانيين فى الصحة كان لها ارتباطها الوثيق بتقديسهم الجسد ، وكان ذلك من الممارسات الدينية الأساسية • لقد شابه الرجال الآلهة بفضل أجسادهم ، وكذلك كان الآلهة حراسا ومرشدين لنمو هذه الأجساد وازدهارها • وكان مولد الأطفال يتم فى ظل الحضور الالهى البهى • ونستطيع أن نرى احساس اليونانيين بصدد ذلك من خلال ماكتبه بندار مخاطبا الهة ميلاد الأطفال :

لقد قبعت أليثيا (Eileithyia) عند جانب
من جوانب الاهات القدر ذوات العقول الراجحة ،
يا ابنة هيرا القوية القادرة ، فلتصغ أيتها الآتية
بمخاض الأطفال • لولا وجودك ما رأينا

ضوء النهار أو ظلام الليل ولا وقعنا على أثر
لشقيقك الشباب المتألق المزدهر ·

وتعهدت هيرا (Hera) بحماية المولود الجديد ، هيرا التى كان يرافقها الاهات الأوقات رمزا لأيام المولود المقبلة · وعندما يشتد عوده تتولاه ارتميس (Artemis) ، الهه الصغار والكائنات النامية ، كانت المربيات يأتين بالصبية الى معبدها متخذات اليه نهرا خارج اسبرطة لتكون الصبية نذرا موقوفا عليها ، وكانت تحيا أعيادها بالرقص والتنكر وقرابين الخبز ورضـــع الخنازير · وفى مهرجانات أباتيـوريا (Apaturia) فى أتيكا كانت الصبية تقدم اليها خصلات من شعورهم ، وهى التى عاونت على نمو الصبايا وتولت بالرعاية الألعاب وأنواع الرياضة ·

وعندما تصل الصبية الى شرخ الشـــباب تنضوى تحت امرة أبوللو (Appollo) تقص شـــعرها الطويل قربانا اليـــه · وكانت اجراءات الولادة والنمو جميعها تمضى تحت مراقبة وتوجيه الآلهة ، وفى كل مرحلة كان الجسد الغض هو الذى يحظى بعنايتهم سواء تمت تقويته فى البداية بمروره فوق النار أم بعد ذلك بتدريبه على الألعاب والرقصات أم باختياره بمراسم الشـعائر الدينية · فلو كانت الصحة أولى طيبات الحياة ، فانما مرجع ذلك الى أنها هبة وهبتها الآلهة ورعتها لدى من أولته الآلهة حبها ·

ان ايمانهم بالصحة يتحول تدريجيا الى ايمان بالجمال ، وكلاهما مســتمد من الفكرة التى تعنى أن النســاء والرجال يشبهون الآلهة من خلال ما للفريقين من جمال لم يستطع اليونانيون في الواقع أن يتصوروا جمال شـكل عضوى دون أن يكون سليما معافى · لم يكن لديهم ذوق مريض يستسيغ الذبول والاعتلال ، ولم يروا فى الشيخوخة جمـــالا وانما كانت بالنسبة اليهم محزنة مثيرة للتأثر · ان الجمال الذى حظى باعجابهم والذى مجدوه فى تماثيل عارية للشباب وأخرى لصبايا حسنة الهندام انما كان جمال الجســد حين دخوله مرحلة الرجولة او مرحلة الأنوثة · وافتنانهم بجمـال الرجولة لم يعمهم على الاطلاق عن جمـــال الصـــبايا ، اذ نجـد فى اسبرطة الكمـان (Alcman) الذى يكتب فى القرن السابع كلمات يهديها للفتيات ممتدحا عشرته لاحداهن :

على شعر قريبتى هاجسيخورا (Hagesichora)
تزدهر متألقة سبائك ذهب نقى ·

وفى ليسبوس (Lesbos) تقام مباريات الجمـــال بين الفتيات على مقربة من مقام الآلهة هيرا (Hera) ويبين ألكيوس الذى شاهد هـذه المبـاريات أنهم أطلقوا العنـــان لاحساسـهم بالمناســبة السعيدة مسترشدين بالقبول الالهى :

ونجد بنات ليسبوس حيث تقدر جمالهن ،
يمضين ، يجررن أثوابهن ٠
وكل ما حولهن يرتفع برنين عجيب ،
رنين الضجيج المقدس ، ذاك الضجيج
الذى ترتفع به أصوات النسوة عاليا فى كل عام ٠

وكلتا المناسبتين سابقتى الذكر واللتين كانتا تحت رعاية الآلهات انما تعكسان اقتناعا بأن اليونانيين قد وجدوا فى الجمال البدنى ابتهاجا وحبورا ، كما أسعدتهم مشاهدته ٠

لم يكن تكريمهم لجمـال الرجال بأقل شأنا ، الا أن هذا الجمـال لابد له أن يكشف عن قدرة فى مجال الفعل الايجابى ، وهذا هو أحـد الأسباب الرئيسية لتفسير ارتباط اليونانيين بالألعاب ارتباطا وثيقا ٠ لم يحتفل اليونانيون بمباريات المهرجانات العظيمة لزيوس أو أوليمبيا (Olympia) أو مهرجانات أبوللو فى ديلفى (Delphi) فحسب وانما حظيت مهرجات زيوس بشهرة مماثلة فى نيميا (Nemea) وبوسيدون فى مضيق كورنث ، وقد ســاد الاعتقاد بأن الذين اشتركوا فى هذه المهرجانات ، كانوا شبابا نماذج للجمال الذى لاتختص به الا الآلهة ٠ ويعد الانتصار فى المباريات تحقيقا للصحة والحسن والجمال ، فلو أن الرياضيين المتنافسين خلعوا ثيابهم لمزيد من الراحة ، فقد كان ذلك أيضا وسيلة لاظهار أجسادهم كما خلقها الاله ٠ ولو أحرزوا فوزا فى المباريات حظى جمالهم بتقدير أكثر كما نرى باخيلديس (Bacchylides) يمتدح (Automedes) من رعايا فليوس (Phlius) لما له من سيطرة كاملة على حركات جسده :

لقد التمع فى الأحداث الخمس ، كما يلتمع
قمر مضىء فى احدى ليالى منتصف الشهر
ان تألقه قد فاق شعاعات النجوم ،
حتى بدت شاحبة ، وفى حشد

من اليونانيين لايحصى عدده تبدى جسده
الرائع وهو يقذف بحلقة الرمى المستديرة

فى مثل هذه اللحظة يحقق الانسان وعد الجسد ، الذى وهب اياه عند مولده ويستحق التكريم لتهيئته لتحقيق أقصى ما فى طاقاته — من حيث الرشاقة والبراعة والقوة • انه فى الواقع قريب من نعيم الآلهة الذين تشابه معهم فى الجمال والنجاح • ولعل هذا يفسر السبب فى أن فيليب (Philip) من رعايا كروتون (Croton) الذى كان من المنتصرين فى الألعاب الأولمبية « وأجمل رجال عصره من اليونانيين » قد كرم بعد موته باعتباره بطلا من أبطال سيجستا (Segesta) تقدم اليه القرابين • وأحاط اليونانيون فى الواقع المنتصرين بتكريم عظيم وأسبغوا عليهم احتراما فوق طاقة البشر ، الى الحد الذى جعل بندار يشعر بضرورة توضيح درس مؤداه « لاينبغى على أى انسان أن يسعى ليكون الها » ، ومع ذلك فقد رأى فى الشجاعة البدنية حظا يهبط على الانسان من أكثر الحظوظ اثارة لحسد الناس وغيرتهم •

وعندما هاجم نقاد جادون من أمثال اكسينوفانيس (Xenophasses) ويوربيديس (Euripides) المكافآت والامتيازات الممنوحة للفائزين من الرياضيين مستندين الى أن هؤلاء الرياضيين لم يقدموا للمدينة خيرا ، فقد فاتهم أن يقدروا أن الانتصـــار فى المباريات ماهو الا مظهر متفوق للهبات البدنية التى يستطيع البشر أحيانا بفضلها أن يقترب من بنية الآلهة المنزهة عن المثالب والعيوب •

وتحدد الأغنية الأتيكية موضع الثروة فى المرتبة الثالثة ، اذ وجد اليونانيون فى البحث عن المال متعة مثلما يجد الناس جميعا ، وكانت قدرتهم على استجلابه لايتطرق اليهـا الشك ، بيد أنهم اعتقدوا أنه لمن التدنى أن يتعاملوا مع المال باعتباره غاية لذاته ، بل لم يحظ الأثرياء بالتبجيل لمجرد أنهم أثرياء • والاتجاه الطبيعى الذى ســاد فى المجتمع اليونانى كان يتمثل فى أن الانسان الخير انما يحتاج للمال للاستعانة به على أن يحيا حياة خيرة كما ذكر ذلك سيفالوس (Cephalus) لسقراط : « لو صح أن الانسان الخير ســوف لايتيسر له أن يتحمل الشيخوخة والفاقة معا ، فليس فى وســع الثروات أن تجعل من الشرير انســانا راضيا مبتهجا » •

وتبعا لذلك لم يجد اليونانيون فى الفقر فضيلة ، ونظروا اليه على أنه حالة يتدهور معها من كان الفقر نصيبه • ثم اننا نجد ثيوجنيس

(Theognis) الذى فقد أرضه فى الثورة السياسية والذى أدرك معنى الفقر يقول :

ان الفاقة أكثر سوءا من الشيخوخة أو الحمى المرجفة ، وأن تحاشيها يقتضى أن يلقى الانسان بنفسه من شاهق أو يزج بنفسه فى قاع البحر ، اذ أن الفاقة تسلب الانسان حرية الفعل والقول » • وكان من الأمور العادية أن يفقد الانسان أصدقاءه يفقد ماله ، ويستشهد بندار على ذلك بحالة صارت مضرب الأمثال لأريستوداموس (Aristodamus) من أرجوس :

« المال ، المال صانع الانسان » •

قالها عندما فقد ممتلكاته وأصدقاءه جميعا •

ان الثروة لها التزاماتها مثل المولد الذى ارتبط بها ارتباطا دائما ، فاذا ما نظر الى الشح على أنه حماقة ، فان الكرم يكاد يكون واجبا مفروضا • وكان ذلك أمرا طبيعيا للغاية فى بلد لم يكن من الميسور أبدا لأحد أن يقتنى ثروة كبيرة ، وحيث يتعرض الثرى لمتابعة دقيقة من قبل جيرانه الذين عاش تحت أنظارهم • فلو أن الآلهة قد حبته ثروة فقد تعين عليه أن يشارك اخوانه هذه الهبات ، لكن ايمانهم بأن حلاوة الحياة لاتتيسر دون قدر مامن الثروة كان أقوى من ذلك كله • واحتاج اليونانيون للمال باعتباره وسيلة لاقتناء الأشياء الجميلة التى هاموا بها حبا ، ويتناول أرسطو هذا المعنى عندما يتحدث عن « الانسان الرائع » الذى هو أشبه بالفنان ، لقدرته على رؤية ماهو ملائم ، وانفاقه مبالغ كبيرة بشكل مناسب » ويعنى أرسطو بعبارة « بشكل مناسب » ما للانسان من ذوق وأسلوب وتفوق •

ولما كانت الثروة أمرا ضروريا للحياة الطبيعية ، فقد انطوت كذلك على جاذبية خيالية ، انجذب اليها شعب ظل لأمد طويل يجد البهجة والحبور فى صنع التحف الذهبية الرقيقة ، وشرع فى القرن السابع فى استخدام العملة الذهبية • لقد ارتبط معدن الذهب بالآلهة ارتباطا لا فكاك منه بما له من جمال وبريق وبقاء ، كما شيدت منه قصور الآلهة وعروشها ، وصنعت منه مركباتها وقيثاراتها وسهامها ودروعها • حتى الآلهة أنفسهم وجيادهم كانت ذهبية التشكيل ، وذلك لما يشع منهم من نور ربانى ، بل ان العصر الأسطورى الذى كان الناس فيه أدنى الى حياة الآلهة سمى بالعصر الذهبى • وينظر الى الذهب على نحو ما على أنه من المقدسات ، اذ يعيد الى الذاكرة بهاء الآلهة وتألقها • ونجد بندار

لا يسميه فقط « طفل الآلهة » لعجز العثة والسوس عن التهامه فحسب وانما يقدمه الى ثيا (Theia) الابنة الالهية لإله السماء والأرض والتى تسبغ الحسن والجمال على كثير من أفعـال البشر ، وما ذلك الا تقدير للتكريم الذى حظى به الذهب :

يا أم الشمس ، ياثيا ذات الأسماء العديدة ،
بفضلك يتصور الناس أن الذهب بما له
من قوة وسلطان ، يفوق كل الكائنات الأخرى ·

وتمتع الذهب بقيمة رمزية لما له من ايحاءات ربانية ، اذ عندما يرغب بندار فى التأكد على روعة أمر من الأمور ينعته بالذهبى ، سـواء كان المنعوت تاجـا من الزيتون البرى أم فاتحـة أغنية · وكان الذهب يرمز الى الثروة فى أكثر أشكالها سحرا وأقلها ابتذالا لما يتمتع به من ائتلاق يزين به فن الأحياء وما له من قدرة على ايجاد الحسن والجمال ·

لقد قوى من هذا الاتجـاه شح الموارد الطبيعية ، وعندما اتصل اليونانيون من ايوليا (Aeolia) وأيونيا (Ionia) سـاكنى ساحل آسيا الصغرى بالثراء الذى فاضـت به مملكة ليديا ، أخذهم الانبهار والابتهاج ثم استجابوا متحمسين للفرص الجديدة فى دنيـا الأناقة ورغد العيش · وتشـير سافو الى أن مثل هذا التطرف الضئيل أشبه بنوع خاص من أحذية ليديا وتنعيم ملكى ، بيد أنه بالرغم من أن مجتمع ليسبوس ربما أفاد من اتصاله بمملكة ليديا من حيث بحثه عن أوجه جديدة للجمال تصلح للحياة الاجتماعية ، فليس هناك برهان يدل على تأثر جوهر شخصيته اليونانيـة ، أو أن هذا الشعب قد فقد أيا من حيويته الفائقة ·

وحتى لو خالجنا الاحساس بأن فى شعر سافو حبا غير منتظر للراحة والدعة ، فمن غير المحتمل أن يعود ذلك الى المؤثرات الشرقية أكثر مما يعود الى كونها كاتبة لمجتمع النساء · ولقد اختلف الموقف نوعا فى ايونيا فى القرن السادس على الأقل ، أما اكسينوفانيس الناقد اللاذع للأحوال الاجتماعية ، فقد جأر بالشكوى من أن اخوانه من كولوفونيا (Colophonia) قد أصبحوا فريسة جاهزة للغزو والطغيان بسبب ما تعلموه من أهل ليديا من ترف لا جدوى فيه ، وكان يعنى بذلك أنهم ارتدوا الحلل الأرجوانية ، وتحلوا بالزينة الذهبية وانغمسوا فى الشراب حتى أنهم لم يروا شروق الشمس أو غروبها · وليس الترف هو الذى يصـدمه بقدر ما تصـدمه

نتيجته ، تلك التى تبدأ بالتظاهر المتعجرف وتنتهى بالاستهتار الذى تعبث به أيدى أعدائهم ·

ان جمال حياة ايونيا المتبدى فى فن النحت وفن الزينة وصناعة الخزف يبدو فى الواقع أنه قد بقى مصانا بفضل ازدهار اتجاه الفردية على حساب الروح العامة · لقد قهرت الفرس شعب ايونيا دون عناء ، وعندما حاول شعب ايونيا أن ينقلب على الفرس أخفق فى فرض الانضباط على صفوفه ، ودفع ثمن ذلك عند دخوله اختبار الحرب · لقد خشى اليونانيون الجادون من شرور الثروة ، اذ ربما تغذى روح الانغماس فى اللذات وتوهن الاحساس بالالتزامات العامة والفردية ·

وكانت مدينة سيباريس (Sybaris) مصدر المزيد من دروس اللذات الحسية ، وهى مدينة اغريقية فى الجانب الشرقى من ايطاليا ، عاقر أهلها حياة الترف وقد وافانا التراث بخبر عن مقتهم لحياة الضوضاء والضجيج، الأمر الذى أدى بهم الى نسيان صخب الحدادين وصياح الديكة، كما أخبرنا التراث كذلك عن حللهم المترفة وعن الثياب الأرجوانية بوجه خاص ، والزينات الذهبية التى كانت تتحلى بها لعب أطفالهم · كما ورد ذكر أحد أبناء سيباريس الذى زار سبارطة ثم قال : « انه لخير له أن يموت ميتة الجبان من أن يعيش حياة من هذا المستوى » · وأفاد التاريخ أيضا بخبر عن جيادهم التى دربوها على الرقص على أنغام الموسيقى والتى كانت لهذا السبب عائقا مربكا فى ميدان الحرب ، وكذلك عن ولعهم بالحيوانات الأليفة مثل الكلاب والقردة ، وعن التقدير الذى حظى به طهاتهم · وقد قيل انهم انغمسوا فى اللذات وأخذهم الكبر الى أقصاه حتى أنهم فى سنة ٥١٠ ق·م عندما أثاروا غضب جيرانهم من أهل كروتون الى درجة الحرب وقعوا فى أيديهم ولم يتمكن أهل كروتون من احراز انتصار سهل فحسب ، بل لم يرضوا بذلك ولم يهدأ لهم بال حتى طمسوا آثار سيباريس بتحويل مياه نهر كراثيس (Crathis) اليها ودفنها فى الطمى · وتعنى حياة الترف فى سيباريس بالنسبة الينا عصرا ذهبيا من عصور التأنق والنعيم · من العسير علينا أن نعتقد أنها كانت مدينة استعراض أجوف أو ابتذال ممجوج · ونحن فى الواقع ان أردنا أن نحكم عليها من خلال مستعمرتها فى بوسيدونيا (Posidonia) حيث يجمع معبد من معابد مطلع القرن السادس قبل الميلاد بين الجلال (١) الدورى

---

(١) دورى : نسبة الى الدوريين وهو شعب غزا بلاد الاغريق حوالى القرن ١٢ ق·م واستقر فى دوريس ولاكونيا ·

وبين تصميم أصيل رائع ، فسوف نجد أن احساس أهل سيباريس بالجمال والتأنق لم تفسده حياة الترف والدعة . ولن يجد عالم آثار كنوزا دفينة فى انتظاره أكثر ثراء من أطلال مدينة سيباريس النائمة فى عمق أقدام عديدة تحت سطح ما هو معروف بالغابة المحمومة ، وتبين ادانة اليونانيين لسيباريس أنهم التزموا بأفكار صارمة فيما يتعلق بأمر الثروة ولم يتسامحوا فى أمر الخروج على القاعدة المستقرة بشأن حياة التقشف والبساطة . فهم يقرون بضرورة توافر الثروة لتحقيق الحياة الخيرة ، ومع ذلك فقد رأوا أن للثروة أخطارها ، ويتفقون مع سافو فى أن « الثروة بغير فضيلة ان هى الا جار سوء وأذى » .

وصفة الخير الرابعة التى تشير اليها الأغنية الأتيكية هى أن يكون الانسان شابا يافعا بين أقرانه ، ويتضح معنى ذلك من خلال المتعة التى وجدها فنانو النحت والتصوير اليونانيون فى تصوير لهو الشباب ، وانغماسهم فى اللذات . فهم يحافظون على لياقة أجسادهم بممارسة المصارعة ولعب الكرة ، وكانوا يمارسون ما يشبه لعبة الهوكى الحديثة والقفز فوق الحواجز ورمى ما يشبه الأطباق الطائرة . ويدربون الخيل فى ميدان الحرب أو يصغون الى عازف القيثارة فى تأنق مفرط لا يشوبه خجل ، وكان لهم كذلك أوقات استرخاء مفعمة بالشر والبشاشة . وسرعان ما يعمهم البشر بمجرد جمع شملهم ، فيندفع الشباب الى أوانى الخمر المعتقة يعبون ويملأون كئوسهم ويعزفون الموسيقى لبعضهم البعض أو يعزفونها لصبايا يرقصن لهم . وفى النهاية يجاوز اللهو حد احتمالهم فيدفعون ثمن ذلك بأن يقيئوا ما فى جوفهم بينما يتولى الكهول أو الصبايا الرقيقات العناية بهم . ولم يتوقع اليونانيون أبدا من الشباب أن يسلكوا دائما سلوكا منضبطا ، وكان يرضيهم أن يطلق الشباب بين الحين والحين العنان لما يفور داخلهم فى جو من أجواء الانغماس السعيد . وكان يعد ذلك جزءا من مفخرة الشباب وله نظيره فى عالم الأوليمبوس (Olympus) وصحيح أن الآلهة لا تعربد الا أنها تتمتع بالضحك والمتع البالغة ، وهناك أوقات تنخرط فيها الآلهة فى رقص ليس فى الواقع رقصا همجيا وانما هو رقص يتسم بأرفع درجات المرح والحبور :

هيا الى الرقص الهات الأوقات الرقيقات ،
والهات الحسن ذوات الشعر المسترسل ،
والآن تحتل هارمونيا (Harmonia) الهة النغم
وهيبى (Hébé) حاملة الكأس مكانهما بجانب أفروديت
مولودة السماء ، الجميع فى حلبة مستديرة وكل

يأخذ الآخر بمعصمه ، ويتمايليون والمرح
يفيض حولهم ، وليس بينهم من هو ضئيل
الشأن أو وضيع المولد مشترك فى الايقاع
وانما الجميع أقوياء البنية والمقام ذوى حسن
وذوات جمال ، أرتميس (١) ، رامية السهام
توأم أبوللو · جو يضفى المرح على اله الحرب
ثم يأتى بعد ذلك القاتل المترقب لأرجوس (Argos)
ليفور بلذته ، أما أبوللو فيحوز بخطوته أعلى
درجات السمو ، عازفا أثناء ذلك نغما ، محاطا
بانبهار عرش المجد ، انبهار مبعثه ومض قدميه
وخفق لباس من الدمقس والديباج

وما دامت الآلهة تتمتع على هذا النحو فللناس الحق فى ايجاد متع مماثلة حين الاسترخاء والاستجمام ·

وتقدم أغنية الشراب الأتيكية ملخصا لعناصر الحياة الخيرة ، كما فهمها اليونانيون وأحبوا ممارستها ، الا أننا قد نعترض على أنها تقصر اهتمامها على الشباب ، ويبدو أنها لا تنطوى على معنى له وجود فى حياة الشيوخ من الرجال · وفى هذا قدر من الحقيقة وليس كل الحقيقة · ومن المؤكد أن كثيرا من اليونانيين نظروا الى الشباب والرجولة المبكرة على أنهما ريعان الحياة ، ونظروا الى ما يتلو ذلك على أنه هبوط مفاجىء من الذروة ، وقد يكون ذلك صحيحا بالنسبة للنساء ، فليس من غريب الأمر أن نجد أنفسنا مضطرين الى أن نقرن بين أوقات الصفاء للصبايا وبين العرس والأمومة :

تزدهر النبتة الرقيقة فى مكانها الواقى
لا ترتج لمس حرارة الشمس ولا سقوط
المطر ، ولا تهزها ريح تعصف · فهى تشرئب
مرتقية بحياتها فى جو من السرور الخالص
حتى يأتى ذلك اليوم الذى تأخذ فيه
الفتاة لقب الزوجة ، وفى الليل تجد

---

(١) الهة القمر والقنص عند الاغريق ·

نصيبها من الهم والغم ، تخشى
على الزوج وتخاف على أطفالها ٠

لكن قدرا من هذا الشعور وعلى نفس المستوى كان يتجه نحو الرجال الذين يبكون على الموتى ولا يبكون على ضياع زهرة الشباب وهى تموت رويدا رويدا ، وقد استمد أفكاره من فلسفة يبدو أنها سادت فى ايونيا فى القرن السابع قبل الميلاد ، عندما نجد ميمنرموس (Mimnermus) ينوح على الشباب لما يتهدده من مصيرين محتومين هما الشيخوخة والموت ، متصورا أن الشيخوخة قد تكون أكثر الاثنين سوءا ٠

وطبيعى للغاية أن يكون الأمر كذلك فى عالم لم يجد الشيوخ فيه الا قليلا من العزاء والمواساة لقصور قوتهم البدنية ، وأن ذكر الشباب قد تزيد من مرارة الاحساس بالشيخوخة :

عزيز دائما ما يكون الشباب عندى ، فالشيخوخة
عبء يجثم على الرأس أكثر ثقلا
من صخور اتنا (Etna)

ومع أن اليونانيين أقروا بعدالة هذه الشكاوى ، وتعاطفوا معها فانهم لم ينظروا اليها على أنها صحيحة بوجه عام ٠

وبالرغم من أن اليونانيين شغفوا بالشباب ، اذ أن الناس أثناء فترة الشباب ، بل ربما أثناء فترة الشباب فقط ، يستطيعون الدنو من حالة تشبه حبور الآلهة ، الا أنهم مع ذلك رأوا أن مرور السنين يحول التجربة الى موقف خليق بأن يسعى الانسان الى الفوز به ٠ لقد ظل اليونانيون يفيضون حيوية ونشاطا حتى بداية الشيخوخة بفضل المحافظة على صحتهم بممارسة الحياة الخلوية ٠ وعندما خاض سقراط الحرب فى موقعة أمفيبوليس (Amphipolis) عام ٤٢٢ ق٠م ، كان قد بلغ بالفعل سن السابعة والأربعين ولم تكن الحياة العسكرية فى هذه العصور حياة الرفاهية والدعة ٠ ولم يكن أمر اشتراكه فى الحرب غريبا على الاطلاق اذ أن غالبية اليونانيين كانت ينتظر منهم الاشتراك فى الحرب حتى سن الستين ٠ ويعنى هذا وجود مستوى رفيع من الصحة والقوة ، ويؤكد هذا الانطباع فترات الحياة المديدة التى توفرت لبعض عظماء اليونانيين ، فقد مات جورجياس (Gorgias) بعد أن جاوز المائة عام ، وجاوز اكسينوفانيس الثانية والتسعين وناهز ديمقريطس التسعين عاما ، وكذلك كان سوفكليس ــ أما أفلاطون فقد نيف على الثانية والتسعين ٠ وظل

هؤلاء جميعا يخوضون معترك الحياة حتى النهاية ، ولم يعانوا من نقصان في طاقاتهم ٠

ولم يكن منافيا لطبائع الأمور أن يشكو الناس من حقيقة مؤداها أن الشيخوخة الطويلة قد احتوت الشرور جميعها : فقدان الصواب ، أفعال لا طائل تحتها وأفكار جوفاء ، لكن هناك على الأقل استثناءات كثيرة لهذه القاعدة تبرر الاقتناع برأى أكثر ابتهاجا وتفاؤلا فيما يتعلق بمضى الزمن ومعناه بالنسبة الى البشر ٠

ولم يكن الحل الأمثـل متمثلا فى التبرم بمضى السنين وفقـدان الفرص ، وانمـا يمثل الحل فى السؤال عن المزايا التى يأتى بهـا تقدم السنين ، وتمثلت الاجابة عن هذا التساؤل في أنه بالرغم من فقدان الانسان لطيبات الحياة ، الا أنه ما زال فى وسعه أن يكون خيرا متمتعا بفائض من الطاقة والثقة والتجربة ٠ فقد لا يكون قادرا على امتاع نفسه بنفس القدر الذى كان له من قبل ، ولكنه يستطيع أن يزيد من استغلال طاقاته وأن يصبح كائنا أكثر اكتمالا وأكثر انضباطا ٠ اذ تضيف التجربة الى كل فضيلة من الفضائل الأربع المتعارف عليها شمولا خاصا وعمقا واضحا ٠

هناك تصبح الشجاعة شكلا من أشكال الصمود الصابر ، مثلما كان أوديب العجوز الذى مزقته المعاناة وكف البصر ، وما زال مع ذلك نبيلا جليلا يقول عن نفسه :

لقد علمتنى السنين الطوال الرضا ، كما
علمنى النبل والأسى القناعة والاطمئنان ٠

أما الاعتدال فميسور لأولئك الذين أصبحت عواطفهم مع مضى السنين أكثر ضعفا وأقل عنفا ، كما قال سوفوكليس عندما سأله صديق لا اسم له – ان كان لا زال لديه رغبات جنسية : « لا تخاطبنى بهذه الطريقة ولا تتحدث معى عن هذا الأمر ٠ انى فى غاية الحبور لتحررى من هذا كله ، ان التحرر من الرغبات الجنسية أشبه ما يكون بالتخلص من قيد يقيد مجنونا يهذى » ٠

أما العدل فهو بأكمل معناه الاجتماعى والمدنى متفق على أنه الواجب الشرعى لكبار السن ، ويتمثل هذا المعنى فى هذا المثل السائد : « الأعمال للشباب الصغار ، والأفكار للشيوخ الكبار » ٠

وتؤتى الحكمة ثمارها بفضل مرور السنين مستمدة مزيدا لرصيدها من القدرة الالهية الكامنة فى كل انسان :

فالحكماء لا يشيخون أبدا ، تتغذى
عقولهم بمعايشة ضوء النهار المقدس ٠

والى كل فضيلة من الفضائل الأربع الرئيسية يضيف العمر امتيازا جديدا ونفعا أثرى وأعم ٠ فالانسان الذى خلف وراءه الشباب وطيباته أولا يستطيع التمتع بهذه الطيبات الا لماما ، هو الذى يبلغ منزلة جليلة من خلال فرصه المجددة فى أن يكون رجلا خيرا ٠

وعلى هذا النحو ربط اليونانيون دون وعى أو حذر بين مفهوم الانسان الخير وبين مفهوم الحياة الخيرة ـ وبقى المفهومان منفصلين ، ولم يكن الانسان الخير بالضرورة هو الذى يحيا حياة خيرة ٠ بيد أنه من المستطاع الجمع بين المفهومين فى مدى حياة واحدة ، فاذا كانت الصفات الأربع الأكثر جمالا تخص الشباب بصفة خاصة فان الفضائل الأربع الرئيسية انما تتجلى فى أبهى صورها بفضل التجربة ٠ ويتفق التمييز بين هذه الأمور جميعها مع الطبيعة المتناقضة للانسان الخير وموقعه الغامض مع الكون ٠ فطالما يستطيع الانسان أن يشارك فى متع الآلهة فانه بذلك يحظى بنصيبه من الصفات الأربع المثلى ، الا أنه مادام يختلف عن الآلهة وعليه الوفاء بمقتضيات طبيعته الانسانية الخالصة ، والامتثال لالتزاماتها فان عليه أن يتصرف وفق الفضائل الأربع التى لا مندوحة عنها للاحتفاظ المنظم بالمجتمع المتحضر ٠ لقد حددت طبيعة الانسان الفريدة فكرة اليونانيين عن اللذة ، ولم يكن موقفهم من اللذة فى بعض نواحيها أنها الخير الأسمى ٠ لكنهم فى الوقت ذاته شعروا أنه ينبغى أن تظل اللذة فى حدودها لا تتعداها ولا يباح لها أن تقلق الاستقرار المنسجم لكل من الفرد والمدينة ٠ كما شعروا كذلك أن أقوى الملذات وأشهاها لا تلائم الا الشباب بشكل رئيسى ، وأن الانسان بمضى الزمن يجاوز هذه الملذات الى أخرى أقل اثارة ٠

وهذا التمييز يأتى نتيجة للتمييز العام الذى فرق به اليونانيون بين البشر وأربابهم فاذا كانت الآلهة تتمتع بالجاه والحرية ، فان للبشر مسئولياته التى يستطيع من خلال مباشرتها أن يبلغ منزلته الرفيعة ٠ ولهذا النظام ميزة تتمثل فى أنه يجمع بين الاستعذاب الطبيعى للمتعة وبين التقدير الحقيقى للقدرات الممتازة فى مجال الفعل والفكر ٠ ومن التناقض

الظـــاهر أن هـذا النظـام ربما يعنى أن الانســان أدنى الى الآلهـــة بجانبه الأكثر انسانية منه الى ما يتيح له الفـوز بالتكريم والتوقير • لكنه يعنى كذلك امكانية الجمع بين الخيرية والسعادة فى انسجام متوازن ، وذلك لأن اليونانيين كانوا يعتقدون أن الانسان لا يكون سعيدا الا اذا كان خيرا ، وكانوا يعتقدون كذلك أن الانسان لا يكون خيرا الا اذا كان سعيدا •

الفصل السادس

الفصل السادس

الأسطورة والرمز

الأسطورة هي قصة لا تستهدف اعطاء اللذة لذاتها وانما يكون هدفها تبسيط التعقيدات التي يعاني منها انسان ما قبل التاريخ اذ أن عقله لم يتهيأ بعد لادراكها . فقبل الارتقاء الى مستوى المفاهيم العامة يتخذ تفكير الناس صورا فردية تصورية ، ولو قدر لهم أن يصلوا الى اصطلاح لشيء من الأمور المحيرة أو غير المألوفة فسوف يتعين عليهم أن يسلكوا هـذا الشيء في فلك الأشياء التصورية وأن يهيأه للتعامل معها . ولما كانوا يواجهون عالما تقع فيه معظم الأمور دون سبب معلوم ، فقد احتاجوا الى الأسطورة لتفسير ذلك وان هذا التفسير الذي يجب أن يلائم مجال خبراتهم الخاصة هو تفسير عاطفي أكثر منه تفسير عقلاني ويباشر عمله لا بوصف العلة والمعلول وانما بربط كل تجربة بالأخرى وبطرح وايضاح ما يكون بين هذه التجارب من صلة وتشابه . والحل الذي يتمخض عن ذلك يجعل من السهل مواجهة وقبول الظواهر الطبيعية بجعلها أقل ايغالا في الغرابة .

ومن الطبيعي أن لهذه العملية علاقة كبيرة بالدين طالما أن الدين كان في المجتمع البدائي يوافيهم بالوسائل الرئيسية لفهم الطبيعة ، ومن ثم نجد أن غالبية الأساطير تنطوي على عنصر ديني بشكل أو بآخر .

انه من العسير علينا نحن الذين اعتدنا أن ننظر الى العالم بعيون العلم وما له من قوانين وتجديدات أن نتورط في فكر يصر على أن يكون لكل شيء صبغته المادية والفردية بيد أن هـذا المنحى كان بالنسبة ـ للانسان البدائي المنهج الوحيد لتشكيل وتحديد المهام التي كانت تعتور طريقه ، فهو يرى الآلهة والأرواح تنشط في كل مكان ولو أريد له أن

يشعر أنه على مقربة منهم فليس بوسعه تحقيق ذلك الا من خلال الأساطير اذ أن الأساطير توصل ما بين المجهول والمعلوم وتعين على هدم الحواجز القائمة بين البشر وبين مجموعة الظواهر التى تحيط بهم والتى تستعصى على الفهم والادراك .

لقد حظى اليونانيون بثروة وفيرة من الأساطير الا أن كثيرا من هذه الأساطير قد خضع لبعض عمليات التهذيب والتشذيب ولا تنبثق جميعها من أصل واحد ولا تلبى نفس الاحتياجات ، وبعض هذه الأساطير فى الواقع يتفق مع الفكرة الصارمة التى تقول ان الأسطورة ان هى الا قصة ابتكرت لتجعل لبعض الطقوس معنى ، تلك الطقوس التى طمس مغزاها ان كان هذا المغزى قد فهم حقيقة فهما كاملا .

وليست هناك ضرورة تجعلنا نجزم بأن مثل هذه الأساطير موغلة فى القدم بالرغم من أن الطقوس الدينية التى تنطوى عليها هذه الأساطير قد يكون مصدرها عالما من الماضى السحيق ، حيث تكون الأفعال الدينية كافية بذاتها ولا تتطلب تفسيرا واضحا لها اذ أن هذه الأفعال تستميل الوعى على مستوى عاطفى وهذا فى حد ذاته يكفى لتبريرها .

فلو كان بوسعنا أن نعرف أى شىء كانت عليه هذه الطقوس الدينية فى الأصل لاستطعنا أن نشرع فى معرفة كيف تكونت الأسطورة .

هذا هو الحال مع اسطورة هيبوليتوس Hippolytus الشاب الغض الذى يرفض الحب ويموت أبشع ميتة عندما يمزق اربا فى نوبة غضب من نوبات جياده . وبالرغم من أن القصة التى كتبها يوربيديس Euripides هى مسرحية لها اضافات متأخرة غريبة الا أنها تكشف عن أصلها فى أحد الطقوس الدينية وذلك عندما تعلن أرتميس فى نهاية المسرحية قائلة : « اليك أيها المنكوب سوف أخلع عظيم الشرف من أجل معاناتك العظمى فى مدينة تروزين Troezen ومن أجلك سوف تقص الفتيات شعورهن قبل يوم زفافهن وسوف تتلقى دموع أحزانهن عبر الدهور والأحقاب » .

والشعيرة الدينية المشار اليها تحكى أن فتيات مدينة تروزين تقدمن قبل الزواج خصلة من شعورهن الى هيبوليتوس ، ويرمز هذا الفعل الى ما تفقده الفتيات من زينتهن التى يتعين عليهن التضحية بها وتقديمها الى هيبوليتوس الذى يرمز الى القدرية والتضحية كما يرمز الى الخسارة الفادحة ، خسارة شىء رفيع القيمة غالى الثمن . ان فكرة ارتباط الفتيات به قائمة على هذا المعنى يعنى الخسارة الفادحة . ويكفى ذلك لأن يجعل

للشعيرة معنى وأن يجعل من الضرورى للأسطورة تفسير هذا المعنى • ثم يتم التعبير عما هو غامض ومتعثر من الأشياء الأخرى بشكل مادى ملموس وتبرز الايماءات العاطفية لموقف مثير من خلال مؤثرات فعالة أثيرة الى النفس •

وليس من المحتمل دائما أن تفسر كل أسطورة الشعيرة الدينية على هذا القدر من الاقناع والارضاء مثلما لهذه اذ أن كثيرا ما يتعرض رمز الشعيرة للغموض والابهام بمرور الزمن •

وعندما أصبح اليونانيون على وعى بطقوسهم ساعين الى ايجاد تفسير لها كانوا أحيانا يجدون صعوبة فى العثور على هذا التفسير وليست جهودهم فى هذا المضمار بمقنعة لنا على الاطلاق • وعلى سبيل المثال عندما كانوا يقدمون القرابين للآلهة كانوا يخصون أنفسهم بأطيب قطع اللحم ولم يقدموا للآلهة الا عظاما ملفوفة برقائق الشحم ، ونحن لا نعرف سببا لهذا ومع ذلك فقد كان هذا التصرف غاية فى التعقل بالنسبة لبلد لم يكن الطعام به يوما كثيرا وافرا • ومن الواضح أن هذا المسلك لم يقدم للآلهة أى تكريم ومن ثم كان لابد لهذا من تفسير • لقد جاءت الاجابة فى قصة سردها هسيود فحواها أن بروسيوس الذى لم يكن من آلهة الأولمب والذى ينتمى الى سلالة التيتان القديمة المخلوعة قد أنكر حب زيوس وعندما كان يقدم له ثورا راح يخفى العظام بشحم لامع بقصد خداعه وتوريطه فى أخذ ما كان يشبه النصيب الطيب ولكنه فى الواقع ليس كذلك •

ويتناول زيوس نصيبه ويدرك على الفور أنه قد غرر به لكنه طالما تصرف بمحض اختياره فقد تقبل هذا النصيب • وهذا هو المقدار الذى ظل يقدم الى الآلهة منذ ذاك الحين الى ما بعد ذلك •

ولم تتخلص الأسطورة حقيقة من الصعوبة المتعلقة بالعار الذى تلحقه الشعيرة بالآلهة لكنها على الأقل تعيد أصلها الى أغوار الماضى السحيق وتمدها بنوع من التفسير التاريخى الأمر الذى يصاحب عادة الأساطير التاريخية •

ان الطبيعة الحقيقية للشعيرة الدينية لأمر فوق استيعاب هذا النوع من الأساطير وليس بد من أن تكتفى بقصة تربط هذه الشعيرة بالمجال المألوف للتجربة •

والمجموعة الثانية من الأساطير لا تأتينا من الطقوس وانما تأتى من الرغبة فى تفسير الظواهر الطبيعية من خلال حكاية كونية درامية والمثال

البدائى لهذا يكمن فى قصة يورانوس Uranus (السماء) وجايا Gaea (الأرض) اذ لا يبيح يوارنوس لأطفال توشك جايا أن تلدهم أن يروا النور وانما يواريهم فى أعماقها · ويتراجع الأطفال الآخرون عن مهاجمة أبيهم ، لكن كرونوس (Cronus) يتناول من أمه سلاحا مرهف الحد وينقض على جايا فيبتر عضو التذكير ويلقى به فى قرار البحر ·

وللقصة نظير وثيق الصلة فى بولينيزيا (Polynesia) كان يحكى بهدف تفسير فصل السماء عن الأرض ، ومن المؤكد أن الأسطورة اليونانية كانت تنطوى على نفس الغرض · وبعد هذه الكارثة لا تستطيع السماء والأرض أن يتحدا كما كانا من قبل وأن انفصالهما له تفسيره على نحو ما ، والقسوة التى تنطوى عليها هذه القصة هى من الأمور التى لا نصادفها عادة فى الميثولوجيا اليونانية ولم يلق موضوعها استحسانا كبيرا فى عالم الشعر أو الفن ومع ذلك تعد من الآثار التى تلقى ضوءا مبينا والتى تبين أن اليونانيين بدأوا علاقاتهم بأساطير فجة غير مصقولة كأساطير الشعوب البدائية لكنهم فى الوقت المناسب خلفوها وراءهم متجهين الى أساطير أخرى لها سحر أرق وقبول أفضل ·

ومن تلك الأساطير أسطورة ديميتر Demeter وبرسيفون Presephone التى ترمز الى دورة المحاصيل السنوية على الأرض ولا يشك أحد أن هذا من عمل الآلهة الا أنه من الطبيعى أن يدور السؤال لماذا قضى الآلهة أن تكون هذه الدورة على هذا النحو · ونحن نجد فى احدى تراتيل هوميروس اشارة الى ديميتر وبرسيفون ابنة ديميتر الهة الأرض وقد حملها هاديس اله الموت والعالم السفلى وتنطلق أمها فى الهواء باحثة عنها دون جدوى وفى تلك الأثناء تشح المحاصيل وتكف عن الظهور وفى نهاية المطاف تكشف ما قد حدث وتعقد بينهما اتفاقية تقضى بأن على برسيفون أن تنفق الشتاء تحت الأرض مع هاديس وتقضى الصيف مع أمها فوق سطح الأرض · وتمد هذه الحكاية العقل العادى بوصف رائع لما يحدث للأرض سنويا ويتم ذلك بطريقة غاية فى الفاعلية والتأثير كما تقدم اليتا دورة النمو والاضمحلال بروح تتصف بالخيال والجو الدينى أو بالأحرى تتصف بالخيال لوجود العنصر الدينى ، ونحن نجد أن الغبطة البشرية وقت الربيع والكآبة فى وقت الشتاء يقارنان بغبطة ديميتر فى استعادة ابنتها وحزنها على فقدها وارتباط برسيفون بهاديس رمزا لتفاعل الموت والحياة ·

وتعبر برسيفون فى قرارها بتقسيم وقتها بين زوجها وأمها بلغة الحب والفراق مما يقنعنا بوجوب تصالحنا مع الحياة والموت على حد سواء ·

وليس هناك احتمال فى أن تكون أسطورة على هذا المستوى من العمق والاقناع من الأساطير البدائية بيد أنها توضح المقدرة اليونانية على العرض الحى للأسرار الغامضة التى وان كانت بعيدة عن متناول التحليل الدقيق الا أنها تكشف عن مضامينها فى شكل مادى ملموس ٠

لقد أضيفت على هذه الأساطير الرئيسية بل استبدلت الى حد ما بقصص أخرى لم تكن أساطير بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة اذ أنها لم تستهدف أساسا تقديم التفسير انما كان هدفها الرئيسى أن تقدم اللذة والامتاع ، ان حكايات الآلهة الأكثر قدما والتى نشأت عن طقوس ووظائف أولئك الآلهة قدمت نقطة البداية لكثير من القصص الرائعة التى تدور حول الآلهة والتى قد تفترض سلفا خلفية دينية أو هدفا من أهداف التعليل التاريخى الا أن هذه القصص تركت هذه الحكايات خلفها مصاغة فى الشكل الجديد التى تلقته وعلى سبيل المثال فعندما يقص علينا هوميروس كيف أن هيرا قد جرت زيوس الى مخدعها حتى لا يرى ما يدور على أرض المعركة فى حرب طروادة ، فمن المحتمل أن تكون القصة قد أخذت من شعيرة الزواج الالهى التى يتم أثناءها تشريف ملك وملكة الآلهة فى حفل دينى بوشرت فيه مراسم حفل الزواج . وقد نتعرف على صدى لهذه القصة فى الزهور التى تنمو حول مربضهما الأمر الذى يتوافق مع حفل أقيم فى الربيع ٠ لكن هوميروس لا يفصح عن شىء يتعلق برمزها الدينى ومن الواضح أنه لم يكن بها شغوفا ، ان كل ما يعنيه هو الجانب الممتع الدرامى فى القصة ولا شىء غير ذلك ٠ ويكشف هوميروس فى مثال آخر عن عدم اكتراث مماثل حيال أسطورة ينبغى أن تكون فى نهاية المطاف من أساطير التعليل التاريخى ٠ ان رفقاء أودسيوس يعدمون لأنهم بالرغم من تحذيره يأكلون أنعام آلهة الشمس ٠ ولما كان عدد تلك الأنعام يبلغ الثلاثمائة والخمسين فنحن لا نشك فى أنهم كانوا يرمزون الى أيام السنة حسب التقويم البدائى ، وليس هناك سبب يدعو الى أن يكون لهم مكان فى حكاية من حكايات المغامرات ٠ لكن هوميروس لا يعنيه أصلهم وانما الذى يعنيه هو أنهم يمدونه بدافع وجيه لاعدام رفقاء أوديسيوس ولتبرير عودة أوديسيوس الأخيرة وحيدا الى ايتاكا ٠

أما التعزيز الآخر فقد جاءنا من القصص الشعبى ، قصص موغلة فى القدم حكى بهدف الامتاع وخلا من أى محتوى تعليمى أو دينى ٠

وفى الأوديسا يطلق هوميروس يده فى استخدام مثل هذه القصص ٠ وان بعضا من هذا القصص قد نسج من خيوط حكايات الرحلات التى تعكس عدم الفهم للحقائق غير المألوفة مثل جزيرة أيولوس Aeolus

الطافية والصخور المتصارعة المنشقة عن مضيق زادت من خطورته التيارات المتحركة وعالم الظلام بسكانه السيميريين (١) الذى يعد صدى لليالى الشتاء الطويلة فى أقصى الشمال ومخلوقات أخرى يجود بها الخيال البدائى مثل سيكلوبس Cylops ذى العين الواحدة والحيلة المسماة بـ (لا أحد) والتى تفوقه دهاء ، وساحرات مثل كاليبسو Ca.ypso وسيرس Circe اللتين تخفيان المتجول عند عودته الى موطنه ووحوش مثل سكيلا Scylla الذى ينتمى الى سلالة المرعات (٢) والسبيدجات (٣) العمالقة والسيرانات (٤) المغنيات التى تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك ٠

ان مثل هذه القصص قد يوجد فى أجزاء كثيرة من العالم ويكتب له البقاء بحكم جاذبيته لعشاق المجهول وغرائب القصص بيد أن هذه القصص قد هبأت وذابت فى أساطير البطولة اليونانية وأصبحت جزءا من ذخيرة القصاصين ٠ انها قصص لا ترمز الى شىء خارج نطاقها ولا تعبر عن درس يراد توصيله ولا تفسر أى سر غامض من أسرار الطبيعة بل انها لا تتخذ نسقا خاصا بها لكنها تقدم فى شكل حكايات لكائنات بشرية وتتناول هذه الكائنات بأسلوب انسانى ولا تتخطى مكانها الصحيح ٠

ان كلا من الأساطير الأصيلة والقصص الاضافية قد جمعت فى اطار رحب من الشعر البطولى ، والتراث الطويل الذى اكتملت عناصره والذى بقى حيا فى شعر هوميروس قد خلق هيكلا من السرد القصصى الذى احتوى كل هذه العناصر وأسهم اسهاما مميزا فى أعمال الانسان المجيدة تلك الأعمال التى استمدها فى النهاية من الأحداث التاريخية ٠ وكان مختزن التراث من الثراء بحيث استمد منه كتاب الدراما اليونانيون مادة أعمالهم كلها على وجه التقريب ، كما أفاد منه فنانو النحت والرسم واعتبروه الركيزة الأساسية لتزيين بناياتهم العامة ٠ ونتيجة لذلك امتزجت الأساطير والحكايات الشعبية بقصص البطولة التى كانت فى الواقع أساسا لها ٠ ان الأيام العظيمة لليونان الميسينية فى القرنين الرابع عشر والثالث

---

(١) السيميريين : مفردها سيميرى وهو فرد من شعب خرافى ذكر هوميروس أنه يحيا فى ظلام سرمدى ٠

(٢) المرعات مفردها مرعة وهو طائر بحجم السمان ٠

(٣) السبيدجات : هى الحبار : مخلوق رخوى مائى ٠

(٤) السيرانات : مفردها سيرانة وهى واحدة من مجموعة كائنات اسطورية عند الاغريق لها رءوس نسوة وأجسام طيور ٠

عشر ق٠م قد مدت الغناء بموضوعات عديدة ظلت حية تذكر لقرون كلما أعاد الشعراء روايتها وأضفوا عليها تجديدا سخيا واضـــافات شعرية خاصة ٠ لم يبق لنا ما كان ذات يوم مقدارا هائلا من الشعر الشفهى الا الالياذة والأوديسة وعلينا أن نتخيل قصائد أخرى عديدة ليس ضروريا أن تكون على قدر من النضج والموهبة لكنها شبيهة فى الأسلوب والنظرة وتحكى عن الأعمال المختلفة للأجيال البطولية ٠ هذا هو الشعر الذى مد اليونانيين بالأساطير بأوسع معانيها وهو أيضا الذى زودهم بقصص حظيت بالتكريم اذ أنها كانت تمثل الموروث من التراث لشعب بأكمله ٠ وفى هذا الاطار وضع الشعراء الترجمات الأسطورية للدين والتاريخ والأدب الشعبى والخيال ٠ لقد احتوى الاطار البطولى الفياض كل هذه الأشكال فى يسر وبقايا من طقوس كان لها وجود حقيقى ولا سبيل الآن الى تأويلها أو تفسيرها كما أضاف اليها هؤلاء الشـــعراء ابداعا من ابداعات التخيل ودون عناء وأسبغ عليها امتيازا وسلطانا نابعين من عرض هذه الأشكال فى أسلوب رفيع المستوى يتميز باحساس من أحاسيس الجلال البطولى ٠

لقد عنى كثير من هذا الشعر بالآلهة وبعلاقات الآلهــة مع بعضهم البعض ومع البشر ٠ ان لهذا الشعر فى الواقع عناصره المتميزة بالخوارق والعجائب بيد انه من الجدير بالملاحظة أن نتصور أن هذه الخوارق والعجائب هى دائما الأعمال المباشرة للآلهة فعندما يتحدث جواد اخيليس Achilles أو تتغير هيئة أوديسيوس Odysseus فليس المسئول عن ذلك غير هيرا أو أثينا Athena وتتصرف الآلهة من خلال وسائل بشرية طالما أن لسلوكها علاقة بالبشر وحقيقى أنها تذهب فى أعمالها الى مدى يعز على طاقة البشر الا أنها مع ذلك تستنفد أقصى طاقاتها الى حد بعيد وهذا الأمر حرى بالملاحظة اذ أن البطل فى القصص البدائية والموغلة الى الغاية فى القدم لم يكن الشخصية الرئيسية التى تعتمد على قدرتها البشرية من رأس وأذرع لكنه كان فى هذا القصص الســاحر الذى يأتى بالخوارق بفضل أعمال السحر ٠ ويبدو أن اليونانيين قد اجتازوا هذه المرحلة بل تجاوزوها وخلفوها وراءهم فى مرتبة دنيا وكان لديهم فى الواقع ذكرياتهم عن السحرة من أمثال كلخاس Calchas الذى مات بحقده اذ أنه أخطأ بينما أصاب منافسه موبسوس Mopsus فى اعطاء الرقم الصـحيح لأوراق شجرة ما لكن هوميروس قد حوله الى نبى واجبه الأساسى أن يفسر ارادة الآلهة وقد نرى ساحرا آخر فى قصة برسيوس Perseus الذى يطير فى خف مجنح ويرتدى كساء من الظلام ويقتل الفرغونة (١)

(١) الفرغونة احدى أخوات ثلاث فى الميثولوجيا الاغريقية مكسوات الرءوس بالأفاعى بدلا من الشعر اذا نظر اليهن أحد تحول الى حجر ٠

مستعينا بمرآة سحرية لكنه يتغير تغيرا كاملا ولا يختلف الا قليلا عن البطل الأصيل .

واستبعاد قصص الخوارق لمن الأمور التى تسترعى الاهتمام الى حد كبير اذ لم يفتقر اليونانيون الى الرجال الذين كان لهم حق أكيد فى ادعاء القوة الخارقة . فقد ادعى ارستياس Aristeas وهو من بلدة بروكونيسوس Proconnesus أن باستطاعة روحه ان تخرج من جسده وتطوف مستعرضة كل أقطار الأرض . وقد راح ابيمينيدس Epimenides فى سبات عميق لخمسة وسبعين عاما فى أحد الكهوف وقد توفرت لهيرموتيموس Hermetimus معرفة غير عادية بفضل اطلاق روحه من قيود الجسد لتجول فى رحلات قاصية حتى عادت روحه ذات يوم فوجدت الأعداء وقد أحرقوا الجسد .

وبالرغم من هذه الغرائب فقد بقى اليونانيون على استمساكهم بوجهة نظرهم القائلة بأن البشر محدود فى نطاق قدراته البشرية المحضة ، وان كثيرا من أساطيرهم تتناول هذه الغرائب من الأمور .

ولا ريب أن اقصاء أعمال السحر كان يمليه الاحساس بتفوق الأبطال والشعور بأنه أمر دون مستوى كرامتهم وهذا بدوره قد ارتكز على ايمان اليونانيين الفريد بأن الناس يكرمون لما يقدمون من أفعال بفضل وسائلهم البشرية البحتة .

وتعد الأساطير فى مراحلها البدائية ملكا مشاعا للشعب ولا تحتاج الى تبرير تداولها ، وقد وصلت الأساطير بالفعل الى مرحلة لاحقة عندما نراها متداولة فى ربوع اليونان وذلك عندما كان يتم تكريمها فى الواقع باعتبارها تراثا قوميا ولم تعد فى خدمة هدفها الأصلى وسيلة لتفسير الطقوس أو تبرير ظواهر الطبيعة . حتى هسيود القديم المحافظ الذى كان على وعى بهذه الأغراض نراه يجمع وينظم الأساطير لسبب مختلف تماما ويهتم بالتأكد من أنها معروفة وأن جيله ينبغى أن يلم بهذه الآثار الماضية وأن قدرا من التوجيه وان لم يكن من التعاليم ينبغى أن يتوافر فى أشكال جذابة من اليسير تذكرها ــ وتكرم الأساطير فى هذه المرحلة لانتمائها الى الدين والى الماضى البطولى ولم تفقد أبدا الهيبة والجلال اللتين يضفيهما عليها هذا الاعتبار .

ولقد قلد المصلحون ومدرسو الدين بعد ذلك منهج هسيود وأفرزوا نظريات أخرى لنشأة الكون متميزة بطابعهم الخاص بل انهم بذلوا قصارى جهدهم فى اعادة كتابة التاريخ البعيد وذلك باعادة تنظيم علم الأنساب

بينما نظم عشاق أورفيوس قصائد حول هبوطه الى هاديس وحول موته البشع عندما مزقته اربنا امرأة من تراقيا ، لقد ساعد هذا الشعر على صون كرامة النظرة الأسطورية وجلالها كما بين أن هـذه النظرة ما زال لهـا فوائدها فى عالم قد تأثر حقيقة بالقيم والفلسفة واضطلع فنانو النحت بمهمة مماثلة مثل النقوش والزجاج المصور الذى تميزت به كنائس العصور الوسطى وكان فن النحت فى المعابد اليونانيـة نوعا من العرض المرئى للأساطير التى عنيت بالآلهة والالهات الذين كان لهم أضرحة يزينها هذا الفن والتى كان لها علاقة بأبطال الماضى من أمثال تسيوس وهرقل الذين كان لهم علاقة بهذه الأساطير والذين كانوا يمثلون صفات رؤى أنها خليقة بالمحاكاة والتقليد ·

ومن المهم أن تعرف مثل هذه الأمور ، ومن المهم أيضا أن تصور بحيث تستحضر فهما سليما وتفسيرا مقبولا ·

لقد حظى اليونانيون بوجود أعراف كانت فى ذاتها مثارا للمتعة واستمالت أولئك الذين تعشقوا الفعل الجسور وأجواء المرح والمجون ·

ولما كانت الآلهة تجسيدا للقوة والسلطان فقد حق على الفنانين أن يميطوا اللثام عن هذا الموقف برؤية تتميز بالوضوح والاتساق ، وفى وسع الفنانين الأخذ بزمامها ·

ان مثل هذا الفن كان تعليميا من حيث أنه مدنا بالأخبار عن الآلهة لكنه لم يعن بالموضوعات الأخلاقية الخالصة ، ان كل ما كان يعنيه هذا الفن هو انبعاث الرهبة والاندهاش أمام قوة الآلهة الغالبة وروعة الأبطال الذين كان يسرى فى عروقهم دم الآلهة ·

ولقد لعبت الأساطير بهذه الطريقة دورا خطيرا فى تعليم وتهذيب الشباب اليونانى ولكن الأهم من ذلك والأكثر نفوذا هو وقعها المبـاشر وتأثيرها الحافل الخلاق الذى توفر لها من خلال ما لها من بهاء وحيوية وادراك يعتنى بالقيم الانسانية ·

وبالرغم من أن هوميروس لا يجنح الى تحديد هدف أخلاقى ولئن كان على قدر من التجرد مثلما كان لشكسبير الا أنه يشيع فى عمـــله انسانية هى فى ذاتها تعليم وتهذيب ·

ان ولعه بشخوص أساطيره ولع حى متفهم الى الحد الذى يجعل هذه الشخصيات تروق لنا وتستهوينا كما لو كانت رجالا ونساء أحياء وتعتبر ان لم تكن نماذج للسلوك فهى على الأقل أمثلة للانسانية فى أوج كمالها ·

أن عالم شعره عالم من الخيال أقيم على تجربة واقعية ويؤدى الى قبول الكائنات الحية وجاذبيتها وذلك بفضل الانتقال بها الى أغوار ماض سحيق . وأسدى هذا العالم خدمة جليلة فى جعل اليونانيين ينظرون الى الانسان باعتباره موضوعا أساسيا للدراسة والبحث ، ولقد أدى عرضه بما له من قوة وبراعة الى جعل هذه الدراسة أكثر ضرورة وأكثر موضوعية ·

ان اهتمام اليونانيين الدائب بانسانية الانسان قد تمخض الى حد كبير عن التراث البطولى للشعر وكان أكثر وثوقا وضمانا بسبب اهتمام التراث العميق بعلاقات الانسان بأربابه وادراكه ضمنا لقيمة أفعال الانسان ولما كان سائدا من فكرة مؤداها أن على الانسان أن يفرغ طاقاته الى منتهاها مستعينا بقدراته الطبيعية ·

واذا كانت الأساطير أعطت التعليم فقد فعلت ذلك بروح فياضة دون محاولة لانتحال أسلوب الوعظ والارشاد وعاونت كذلك على تشكيل الشخصية بتوضيح مسائل السلوك فى عرضها الدرامى لهذه المسائل وبتباين موضع الانسان من الكون وبما وفرته من أخبار عن علاقاته بالآلهة ·

وفى كثير من الفن اليونانى نرى روحا شبيهة تستهدف تبيان الآلهة والأبطال فى حالة من حالات الفعل مظهرة قوتهم وشجاعتهم ، وحتى فى زمن هوميروس عندما كان التصوير بالنقش على الأوانى ما زال فى مهده ، صور الفنانون مناظر شبيهة بتصويره مثل المعارك البحرية والجنائز بنعوشها ومناظر من المواقع الحربية وسباق المركبات وحطام السفن ، وفى العصور المتأخرة عندما حظى المثال البطولى بمغزى جديد فى دولة المدينة قام الفنانون باضفاء طابع الاقناع والمعاصره عليه ، وذلك بعرضهم قصص قديمة فى أوج ممارستهم لقوتهم مثل عرضهم لهرقل وهو ينطلق حاملا المرجل الذى انتزعه لتوه من الاله أبوللو فى معركة مكشوفة أو فى عرضه لأخيليس ذى القلب الحجرى وهو يقتل بنتسيليا Penthesilea الأمازونية (١) · لقد أمدتنا هذه الأعمال الغنية باللذة بفضل أسلوب هوميروس كما مدتنا بشىء له نفس الروعة ·

وهنا يقدم الفنان موضوعه بهدف جاذبيته الدرامية والتصويرية ويعبر بشكل عفوى ودون اقحام عن الرؤية الكاملة لجوهر الانسان ·

---

(١) الأمازونية : امرأة من عرق خرافى من المحاربات زعمت الأساطير الاغريقية أنهن كن يقمن قرب البحر الأسود ·

ولا يخالجنا شك فيما يراه هوميروس فى الأجسام القوية المتينة المفعمة بالأغراض الحية والحيوية المتفجرة والتى تبعث فينا لذة الاعجاب وتجعلنا نتساءل أى نوع كان هؤلاء الرجال فى غمرة كبريائهم الحى وبسالتهم المقدامة ٠

ان تناول الأساطير بشكل مباشر صريح قد رسخها فى أعماق الوعى اليونانى وجعل هذا الوعى متوائما معها فى انسجام وتآلف ، بل اعتمد عليها هذا الوعى فى توضيح وتبرير مناهج السلوك المختلفة وعبدا الطريق لظهور أطوار تستطيع الأساطير استغلالها لتوصيل مقصدها الخاص ٠ واذ تم تحويل المثال البطولى كى يلبى مطالب دولة المدينة فقـــد حول اليونانيون أساطيرهم الى أغراض أكثر تعقيدا ٠ ان الأساطير بما لها من انجاز هائل فى مجال الملحمة وبما توفر لها من ثقة أكيدة بأن قصصها كانت الى حد ما مألوفة للجميع فقد استطاع اليونانيون أن يمعنوا فى قراءتها وأن يتناولوها تناولا ايمائيا وأن يستخدموها لاضفاء الطـــابع الدرامى على مسائل الحياة والموت التى أيقظت فيهم الشـــوق والتـأمل العميق ٠ لقد اســتخدم كتاب المأساة الثـــلاثة الأتيــكية اسخيلوس وسوفكليس ويوريبيديس الأساطير المعروفة مادة لمآسيهم وكانوا كثيرا ما يستمدون مادتهم من رصيد القصص البطولى وكان هذا الرصيد فنـا مجيدا ليس به شىء من التافه والمبتذل من الأعمال الأدبية ٠

لم تكن المأساة اليونانية دائما ذات طابع مأساوى بالمعنى الحديث لهذه الكلمة ، ولم يكن من الضرورى أن تنتهى بكارثة وهى فى ذلك تعد انعكاسا للملحمة التى كانت تتناول موضوعات ذاخرة بالكوارث والنكبات وكانت تحقق ذاتها بادراكها لحاجات الانسان الملحة وأهمية الفعل الذى يتطلبه تحقيق هذه الحاجات ٠

ولم تكن المأساة الاتيكية أقل جدية وصرامة وهى من هذه الناحية تعد الوريث الشرعى للملحمة ٠ لكنها بدلا من أن تجعل هدفها قاصرا على تحقيق اللذة الرفيعة دون غير راحت تجاهد فى جعل مؤثراتها أكثر تأثيرا وذلك بربط هذه المؤثرات بمســائل جوهرية فى نطاق علاقات الناس بأربابهم ولعل هذا كان ضروريا بالنسبة لفن يؤدى فى مهرجانات لاله أو لآخر وليس أقل احتمالا من أن يكون ذلك راجعا الى الروح الأثينية التى كانت تؤمن بارتباط البشر بالآلهة ارتباطا وثيقا لا انفكاك منه كما كانت ترغب فى دراسة وتمحيص هذه العلاقة بتطلع جسور وبصيرة نافذة ٠

لقد مدت الأسطورة فى المسرح بالاطار الذى أجلى بعضا من المشاكل

والأزمات الهامة في أسلوب متماسك مقنع رفيع المستوى ، ولذا فبوسعنا أن نسمي المأساة اليونانية مأساة رمزية ٠

كان الكتاب يقصون القصص القديمة ويعيدونها لذاتها لا يعوزها التوتر الدرامي ولا تخلو من الاهتمام الانساني وانما تمثل مشكلة بعيدة المدى تقدم في شكل فردي على نسق يثير الاعجاب ٠

ان أبطال الماضي أبقوا على فرديتهم لكنهم أصبحوا كذلك نماذج تمثل المصير الانساني وأمثلة لعلاقات البشر بالآلهة ٠ ان كل فرد منا قد يرى في هؤلاء الأبطال شيئا بعينه ويشغله وبالرغم من أن عرضهم كثيرا ما يكون مثيرا باعثا على اللذة فان هناك وخلف هذا العرض تكمن مسألة كونية هامة اكتسبت مغزاها بفضل صيغة خاصة احتوت هذا المغزى وجسدته ٠

ان جوهر الرمز يتمثل في أنه أداة تعبر بشكل محسوس خاص ومميز عن موضوعات هي بغير هذه الأداة تعـلو فوق ادراكنا اذ لو كان من المستطاع التعبير عنها في أشكال مجردة فسوف يفوتنا ادراك مغزاهـا الكامل حيث أن كثيرا من هذا المغزى يتمثل في قوة جاذبيته لانفعالات مهوشة ورغبات وذكريات شبه منسية ٠ ولا مندوحة لنا عن الرمز عندما نتناول موضوعا يتصل بالنظام العلوي للكائنات فبفضل الرمز يصبح هذا الموضوع محسوسا مرئيا لعين العقل فالرمز يستحضر شكله وخصائصه بالاشارة والايماء والتنويه والتلميح ٠

وتختلف الرموز اليونانية عن الرموز الحديثة في جانب هام اذ أن اليونانيين كانوا يعتقدون أن الآلهة والبشر يعيشون في عالم واحد ويمثلون بعضهم بعضا في أسـاليب متعـددة ولقد احتاج اليونانيون الى الرموز لا لتعبر عن غموض يكتنف نظاما ما يعز على الادراك وانما لتبيين نشاط وحركة العنصر الالهي في واقعنا المألوف وكيف أنه يغير الأفعال الانسانية ويشيع فيها ويضفي عليها أهمية لا يتطرق اليها الشك ويجعل تمثل هذه الأهمية محسوسا في ظروف غير متوقعة وبأساليب لا يتم التنبؤ بها سلفا ٠

ولقد كان الاحتياج الى الرموز مبعثه الحاجة الى التعبير عن نوعيـة التدخل الالهي في المجتمع البشري الشديد الانشغال بنشاطاته الخاصة الا أنه بسبب رؤية اليونانيين لآلهتهم في أشكال بشرية وما توفر لهم من خلال الأساطير من مفهوم واضح عنهم ، فان رموز الشعر اليوناني كانت من الوضوح والكمال بحيث لا تكاد نتصور أننا بصدد رموز على الاطلاق ، اذ أنها لا يشوبها اللبس والابهام وليست عاطفية وانما تكمن قوتها في كونها عقلية وعاطفية معا وأنها تجلى مسائل غامضة تتناولها تناولا حاسما

متماسكا وتخاطب الشعور الانسانى بكل تفاصيله من خلال أحداث مثيرة ، وتحظى برسوخ هو من الجودة بحيث تسترعى الانتباه لتوها وتستولى عليه دون عناء كبير ٠

لقد كان كتاب المأساة الأتيكيون منشغلين انشغالا عميقا بالمشاكل الجارية وقد نظروا اليها حقيقة بتجرد رفيع لكنهم مع ذلك كانوا يعتقدون أن المادة الواقعية للمأساة هى الأمر الذى يعنى جيلهم ٠ لقد نقلوا الى عالم الأسطورة القديم مشاكل عصرهم المقلقة والمناقشات الحامية التى اتسمت بها الديمقراطية الآتينية وأضفوا عليها جلالا وغرابة مما جعل موضوعاتهم من الوضوح الذى ارتفع بها فوق خلط محاورات سريعة الزوال ٠ لقد انتزعوا هذه الموضوعات من مسارها المعاصر وأماطوا اللثام عن حتميتها المطلقة وأضفوا عليها حياة جديدة من خلال الأساطير التى حوت هذه الموضوعات بين ثناياها ٠

ومن ثم نجد أسخيلوس فى مسرحياته الثلاث أورستيا تناول على التوالى اغتيال أجاممنون على يد زوجته وثأر ابنها منها وانقاذه على يد الاله أبوللو وأثينا من اضطهاد آلهة الغضب الذين يسومونه الخسف والعذاب من أجل أمه المقتولة ٠

ان كل مسرحية من المسرحيات الثلاث لها تصميمها الكامل الخيالى ومستوفية عناصرها الشكلية لكنها جميعها كل متكامل وليس أجزاء متفرقة والمسرحيات الثلاث مجتمعة تمدنا بموضوع ذى أهمية بالنسبة لأثينا ذلك هو دور الدولة باعتبارها نصيرا للعدل ويؤدى ذلك بشكل أسطورى مستلهم من روعة الشعر الرفيع ٠ ولعل تناول اسخيلوس لهذا الموضوع راجع الى أن الأثينيين قد بدأوا يرون أنه اذا ترك لعائلة القتيل أخذ الثأر فلا بد أن تكون نتيجة ذلك سلسلة مفزعة من الصراعات الدموية ، يثأر لتموت بموت آخر وسوف لا تكون هناك نهاية لمذبحة متبادلة ٠ ان اقامة نظام يحل محل هذه الفوضى تكون فيه الدولة الحكم المحايد لهو اصلاح عظيم بحق ٠

ولقد أدرك اسخيلوس المغزى البعيد لهذا الوضع الأمر الذى جعله يسند الى الآلهة دورا بارزا فى مسرحياته ٠ عندما يقدم اسخيلوس على المسرح أبوللو وأثينا فى مناظرة مع آلهة الغضب فانما ينشىء مواجهة بين قوى النظام والعقل من ناحية وبين التعطش البدائى المحموم لسفك الدماء من ناحية أخرى ٠ انه يقدم موضوعاته بقوة فعالة من خلال كلماته الحارة ذات الجلال الى الحد الذى تجعلها تعيش فى عالم من الفن خاص بها بيد أنها تجسد موضوعات كبيرة تجسيدا محسوسا كما تظهر على المسرح فكرة العدل الالهى متميزة بحضور ظاهر لا سبيل الى اغفاله ٠

ولما كانت المأساة أداة لاظهار طبيعة التجربة الدينية فغالبا ما كانت تتناول المسائل والهواجس التى تنتـــاب الانســـان من حيث علاقتـــه بالآلهة ٠

وفى مسرحية « برومثيوس مقيدا » التى هى احدى مسرحيات ثلاث عن أسرة التيتان التى قام أحد أفرادها برومثيوس بسرقة النار من السماء مساعدة للبشر ، والذى أمر زيوس بتقييده عقابا له على جبل كوكاسوس نجد أسخيلوس يواجه قوى ما وراء الطبيعة التى تتيح للآلهة أن تكون على ما هى عليه من قوة ويسأل عما يعنيه ذلك بلغة انسانية ٠ يقدم أسخيلوس الاله زيوس وهو يعاقب برومثيوس مصورا اياه طاغية صلفا مغرورا بينما يقدم برومثيوس صديق الانسان شهيدا صابرا صامدا معلنا تمرده ٠ وتنجذب عواطفنا اليه انجذابا كاملا لما لديه من حنو وعطف على جهـل البشر وعجزهم المحزن ومضاهاة هذا الحنو بقسوة زيوس وعدم مبالاته بعذابات البشر ٠ ولا مرية فى أن أسخيلوس يريد لنا أن نشعر بما يدور وان لم يكن ذلك الا جانبا واحدا من الصورة أما الجانب الآخر فنجـــده فى المسرحيتين الأخريين المفقودتين التى نرى فيهما زيوس يحرر فى نهاية الأمر بروميثيوس يبين أن تحقيق القوة انما يكون بالعقل والعدل ٠

وفى هذه المسرحيات نقل اسخيلوس الى المسرح الكونى أمرا من الأمور التى تجلت بشكل خطير فى الديمقراطية الآثينية الجديدة الفياضة بالحيوية ٠

لقد ذاقت أثينا بعد الحروب الفارسية طعم السلطان وازداد عطشها للمزيد منه وأثناء ذلك فقدت أثينا قدرا من سخائها ٠ فمثلما بدأت من فورها في استخدام القوة ضد أولئك الحلفاء الذين رفضوا الخضوع لارادتها ، كذلك انقلبت على منقذيها والمحسنين اليها من أمثال ثيمستوكليس (١) Themistoclis وأرستيديس (٢) Aristides وذلك بسبب ارتيابها فى استقلالهم واخلاصهم وعرف هذا كله اسخيلوس بل ورأى ما هو أبعد من ذلك وأدرك أن مثل هذا الأمر قد أثار مسائل كونية عامة اتخذ منهـا موضوعا لفنه المسرحى ٠

---

(١) ثيميستوكليس (٥٢٤ ـ ٤٦٠ ق٠م) سياسى وقائد عسكرى أثينى عمل على تعزيز اسطول أثينا ٠

(٢) أريستيدس (القرن الخامس ق٠م) قائد عسكرى وسياسى اثينى يعتبر مؤسس حلف ديلوس عام (٤٧٨ ق٠م) ٠

ولعلنا نستطيع أن نقارن بين هذه المسرحيـة التى تعبر عن توسع الامبراطورية الآثينية بأخرى تكشف عن أقول نجمها • ها هو سوفوكليس نراه قد كتب مسرحية « أوديب فى مدينة كولونا » قبل موته مباشرة عام ٤٠٦ ق٠م عندما دنت نهاية أثينا ولم يكن ممكنا لصراعها الطويل مـع اسبرطة الا أن ينتهى بالهزيمة المحققة •

لقد اختار موضوعه عن اسطورة محلية ومن طقوس كانت تؤدى الى أوديب فى كولونا بالقرب من أثينا باعتباره نصف آله عاش تحت الأرض وساد بشأنه الاعتقاد فى أنه قد عاون حديثا الآثينيين فى حربهم ، وتحكى لنا مسرحية سوفوكليس عن نهاية أوديب وتصوره مسنا مكفوفا قد مزقته المعاناة الكثيرة وهو ينتهى الى أخدود فى كولونا هنالك يدرك أنه قد آن له أن يحط الرحال وأن نهايته قد حان حينها ، فيتهيأ لاسلام الروح •

وفى محنته الأخيرة يكشف النقاب بقوة متزايدة عن صفات نصف الاله الذى قضت الأقدار بأن يكونه بعد قليل حتى يدعوه أخيرا صوت من السماء وبالرغم من كف بصره يتحرك منطلقا دون مساعدة من أحـد ثم يختفى من عالم البشر •

والمسرحية غنية بالأحداث العنيفة والأناشيد الفريدة الا أنها قد تشكلت بفكرة مؤداها ان هناك وجودا غير مرئى لقوى غيبية تتولى حراسة أثينا • ونجد سوفوكليس معنيا باظهار حقيقة نصف الاله مسبغا عليه جلالا مهيبا وتأثيرا عاطفيا قويا وهنا يتفق سوفوكليس مع العقيدة التى تعنى أن مثل هذه الكائنات تحب أصدقاءها وتكره أعداءها ولهذا السبب يظهر أوديب عناية ودودة لبناته اللائى أخلصن له الود والوفاء فى مأساته كما يظهر قسوة لا تعرف الصفح لأولئك الذين ظلموه وساموه الخسـف مثلما فعـــل به ابنه الخائن بولينيسيز Polynices وأهم من ذلك كله أنه بحكم صداقته لثيســيوس Theseus ملك اثينا يتنبأ كيف أنه سيحمى أثينا بعد الموت من موقعه من الأرض حيث يقيم •

لقد فهم سوفوكليس التجربة الدينية لدى اليونانيين وواجه فى هذه المسرحية واحدة من أكثر فقرات العقيدة غموضا وخفاء وبسبب وضوح تصوره لأسطورته تمكن من تبيان ما يعنيه نصف الاله بالنسبة لأولئك الذين يولونه تكريما •

وفى الحالتين السابقتين يوضح الشاعران درسا أخلاقيا أو يطرحان على الأقل مشكلة متبوعة بحلها كما يتراءى لهما ، بيد أن ذلك لم يكن

ضروريا بل ولعله لم يكن من الأمور العادية . ومن بين وظائف المأساة الرئيسية أنها تقدم في شكل ملموس موضوعات كانت موضع اهتمام الناس بشأن علاقتهم بالآلهة وعلاقة بعضهم ببعض .

وفي كل مسرحية من المسرحيات الباقية نكاد نجد خلف الحدث الفردى موقفا عاما أو مشكلة أو مسألة تعرض جميعها بأسلوب من الدقة بحيث ندرك ما تعنيه حقيقة بالنسبة للكائنات البشرية . ان الاختيار الذى يحدده الشاعر من الأساطير لا يمده فقط بموضوع درامى وانما يمده أيضا بوسيلة لتوضيح جانب من الجوانب التى تستغرق اهتمامه أو تقلق باله ، وتنبع قوة مسرحيته الى حد كبير من درجة تفكيره واحساسه بهذا الاختيار وما يعنيه متجليا فى لغة الفعل البشرى ، وحتى لو توفر لديه حل لهذه المشكلة فان ذلك عادة ما يكون أقل فى الأهمية الخيالية والشعرية من عرض الموقف الذى ابتعث هذه المشكلة ، وعلى سبيل المثال نجد سوفوكليس فى مسرحية « أوديب ملكا » يواجه مشكلة لانسان موهوب ينحط قدره بشكل شنيع لخطأ لم يرتكبه ويعانى مصيرا بشعا ، ويلمح سوفوكليس الى أن هناك حلا لهذا الموقف يتمثل فى أن الآلهة انما تذل العظماء لأنها ترغب فى تحذير البشر من مخاطر القوة والجاه لكنه يحتفظ بهذا الحل حتى نهاية المسرحية ولا يفرد له دورا كبيرا فى أحداث المسرحية .

ان ما يثير الاهتمام فى الحدث الدرامى هو ذلك التأثير العاطفى المروع الذى يتبعثه فينا سوفوكليس والذى يحملنا الى التعاطف معه فى موقفه المأساوى تعاطفا أكيدا بكل ما لهذه الكلمة من معنى كما يدفعنا الى التفكير فى أنفسنا عندما يعرض لنا مثل هذا الموقف .

وتتحرك الأحداث الدرامية فى عالم يتصور الناس أنهم يعرفون فيه شيئا من أنفسهم وعن أقدارهم وان كانوا ضحايا للخداع والوهم . فهم لا يعرفون شيئا والآلهة هى التى تفرض الحقيقة عليهم فى نهاية المطاف وليس ذلك بدرس يلقن وانما هى حالة من حالات النفس تنطبع فى أعماقنا وتتسرب داخلنا بفضل ما للشعر من قوة وما للأسطورة التى يستخدمها سوفوكليس من تأثير .

ويعد سقوط أوديب فى أبسط صورة سقوطا لرجل يهبط من مستوى النعيم المقيم الى محنة من محن الحظ العاثر ، وتمد الأسطورة الشاعر بكل هذه المعانى كى يفيد منها ويحسن استخدامها . وما يقوم به لا ينحصر فى اضفاء الشكل الدرامى على الأسطورة بشكل يجعل لكل

كلمة ولكل حدث تأثيره الذى ينطبع علينا فحسب وانما يكشف النقاب عن الاطار النفسى الذى يكون فيه مثل هذا السقوط ممكنا ، ويتمثل ذلك فى الأخطاء التى تتربص برجل قوى ناجح مثل أوديب وما تفضى اليه هذه الأخطاء من أخطاء أكبر وأعظم • وليس هذا التكنيك الفنى مجرد استغلال حاذق لأسطورة معينة ، وانما هو فى ذاته انعكاس بطريقة من طرائق التفكير الأسطورى • وان الموضـــوعات التى يتخذها سوفوكليس نواة لمسرحياته لا تحظى بأفضل عرض ومعالجة باعتبارها تجريدات عقلية وانما تحظى بذلك عندما تكون حالة من حالات النفس الحية المضطرمة التى نعرفها جميعا فى نفوسنا والتى تزداد حيوية وتصبح أكثر الحاحا عندما نشاهدها على خشبة المسرح •

وبفضل اعتماد كتاب الدراما اليونانيين على الأساطير فى استلهام الموضوع لم يستطع هؤلاء الكتاب أن يقدموا فنا مسرحيا مثيرا فحســب وانما استطاعوا كذلك أن ينقلوا الينا موقفا لا يمكن الكشف عن طابعه الكامل ومغزاه الا بفضل هذا التماثل الخيالى لمشكلة عامة مع حالة مــن الحالات الفردية •

وليست الأســطورة بأقل نفعا حتى عندما يكون الكاتب المسرحى عاجزا عن اكتشاف حل لمشكلة من المشاكل وكذلك عندما يكون راغبا فى تقدير هذا الحل لذاته باعتباره أمرا من الأمور التى تقلق باله وينبغى على الآخرين من الناس أن يلموا به الماما واعيا • وهذا هو مفتاح مسرحيات بعينها ليوربيديس لقد كان رجلا من الذين رحبوا بالأفكار الجديدة وان كان يبدو أنه لم يستقر أبدا على نظام للعقيدة أو الفكر وفى هذا كان نموذجا دقيقا للحقبة المتأخرة من القرن الخامس عندما ضاعفت الحرب من الشكوك والوساوس التى بدأ الناس يشعرون بها نحـــو العقـــائد الموروثة •

ورغم أنه تناول الأفكار الجديدة ووضعها فى مسرحياته بشــــكل عفوى بجعل شخصياته تتولى التعبير عن هذه الأفكار الا أنه لم يستخدم هذه الأفكار لتخلع على تأويل أساطيره شكلا معينا • وكان يوروبيدس أكثر من اسخيلوس وسوفوكليس انشغالا برؤية مأساوية لا علاج لها • اذ أنه لم ير مواساة ولا راحة لما كان يتعرض له من جور ونكبات اتخذ منها موضوعات لمسرحياته • كما كانت الأساطير بالنسبة اليه اداة استطاع بفضلها أن يكشف حقيقة مثالب الحياة وعيوبها وكيف أنها تنبع بلا عناء من الطبيعة الانسانية ولم يكون عسيرا أن نبرر الدور الذى تلعبه الآلهة فيما يتعلق بهذه العيوب • وحتى فى الحالات التى يبدو فيها أنه يقترب

من فكرة قديمة نجده يتركنا فى حيرة نقلب النظر فيما يعنيه بحق من هدف واتجاه . لذا نراه فى مسرحية عابدات باكخوس Bacchants عندما يقفو أثر التراث مبينا كيف مزق بنثيوس اربا لاستخفافه بالاله ديونيسوس ، يبدو أنه يتفق مع الفكرة القديمة التى تعنى أن بنثيوس يستحق ما حاق به من مصير اذ أنه بصفة خاصة مستهتر ومتزمت مبالغ فى الغطرسة والكبرياء ومع ذلك فلسنا على تمام الاقتناع بما يجرى . وقد يكون بنثيوس مخلوقا تعسا الا أن ديونيسوس يكاد أن يكون شيطانا له فى الواقع سحره الآسر وجاذبيته الأخاذة لكنه شرس لا يرحم عندما يتعرض كبرياؤه للمهانة والاساءة .

ولعل يوروبيدس كان يعتقد ان الآلهة على هذه الشاكلة حقا أو ان ديونيسوس يمثل قوة الطبيعة الانسانية التى تتخطى حدود الخير والشر وهو عنيد لا يلين ولا يرحم الا أن ما يثيره يوروبيدس فى أعماقنا ليس هيبته ولا خوفا من ديونيسوس ، وانما يثير فينا شيئا أقرب ما يكون الى الرعب والذعر . وقد نعتبر هذا الموقف موعظة على نحو ما . وأهم من ذلك كله اننا حيال موقف لابد ان يكون قد شعر به يوروبيدس وأنه أراد لنا كذلك أن نشعر به ونلم بأطرافه . بيد أن تأثير يوروبيدس يتم كلية من خلال اثارة العواطف ولا يحاول أن يتخطى هذه العواطف الى ما وراءها ، ويقدم يوروبيدس أسطورته فيما يحتمل أن يكون شكلا قديما غير متسق الأمر الذى يزيد من قوة تأثيره الى أبعد مدى . ويكشف أمام أعيننا حقيقة الاله بالنسبة للذين يؤمنون به ويسوق مجموعة كاملة من الانفعالات العنيفة والبدائية موائمة للموضوع الذى هو بصدده . ولما كانت معالجته للأسطورة معالجة صادقة وكانت الأسطورة ذاتها واضحة المقصد ، فقد توفر لها عنصرا الانجذاب والتنفير . ونجد أنفسنا مستسلمين لاثارة قد ملكت علينا حواسنا محمولين على أجنحتها لنجد أنفسنا فى نهاية المطاف نرتد عنها وقد استولى علينا احساس أقرب ما يكون الى الخوف والذعر .

ويستخدم يوروبيدس أسطورته ليضمن تحقيق نوع خاص من الصراع النفسى داخل نفوس مشاهديه ، ولا ريب فى أن هذا الصراع هو ما كان يمور داخل كيانه .

وبالرغم من أن الخطوط الرئيسية للأسطورة كانت الى حد ما مستقرة ومعروفة الا أنه قد أتيح للشاعر حريات كبيرة من حيث معالجة الأسطورة وتأويل أحداثها وكانت هذه الحرية فى الواقع أمرا حتميا على وجه التقريب اذ كان كتاب المأساة مضطرين بحكم العرف والعادة أن

يستخدموا قصصا كثيرا ما سبق استخدامها من قبل ونادرا ما كان يفوتهم أن يطبعوا هذه القصص بطابعهم الشخصي القوى ، ونستطيع أن نرى الى أى مدى من الحرية كانوا يذهبون فى أعمالهم من خلال المسرحيات الثلاث التى كتبها إسخيلوس وسوفوكليس ويوروبيدس عن انتقام أورستيس من أمه كليتيمسترا (١) Cytaemestra لقتلها أباه أجاممنون • ويبين أسخيلوس فى مسرحيته « حاملات القرابين » كيف يتعرض أورسيتس بعد أخذه الثأر الى مطاردة آلهات الغضب وتعذيبهن وهى طريقة أسطورية تحكى عن كيف يؤثر قتل الأم فى الانسان الى الحد الذى يذهب بعقله ويطيح باتزانه • ولا يذكر سوفوكليس فى مسرحيته « الكترا » شيئا عن آلهات الغضب وانما تهتم مسرحيته بالانتقام والعقاب وتبين أنه عندما يرتكب شر مخيف مثل قتل أجاممنون فلا سبيل الى معالجته الا بشر آخر مماثل مثل قتل الابن لأمه • لكنه يصر على أن هذا الأمر قد صدر عن الآلهة ويكمن خلف أحداث المسرحية ايمان بأن الشر يقوض التناغم المنظم للعالم الى الحد الذى يستوجب استعادة هذا النظام بوسائل لا يعنينا كم هى باهظة الجهد واننا فى نهاية المطاف نجد الكراهية قد حل محلها الأمن والسلام هنالك يسترد البشر رضا الآلهة وعطفهم • ويكاد يوروبيدس أن يتخذ موقفا فكريا مناقضا وذلك عندما يقتل أورستيس أمه بأمر من أبوللو فلا يجد الا بؤسا ويشعر أنه قد غرر به • وليس هناك حل لمثل هذه الحالة • وتتركنا المسرحية نشقى باحساس مأساوى حقيقى من أحاسيس الضياع والاحباط تلك التى تزداد ايلاما وتعذيبا بسبب بقاء أورستيس حيا يرزق • وكان كتاب المأساة اليونانيون يقصون الأساطير المألوفة لشعبهم المرة بعد المرة مثلهم فى ذلك مثل الرسامين الايطاليين أصحاب مدرسة الأربعمائة الذين صوروا بريشتهم قصص الانجيل المعروفة المرة بعد المرة • وكلا الفريقين أفاد من ذلك كثيرا • ولقد استطاع كلاهما أن يسلم بأمور كثيرة الى الحد الذى جعلهما قادرين على الوصول مباشرة الى الهدف الرئيسى دون مقدمة تفسيرية والتأكد من أن كل دور جديد أضفوه على القصة القديمة سوف يحظى لتوه بتقدير لقيمته كاملة غير منقوصة • ومن ثم استطاعوا أن يأتوا بأعمال لها أصالة باهرة ، أعمال قدموا بها مجالا حرا لافكارهم داخل حدود اطار التقاليد والأعراف الذى فرض صرامته الجادة على هذه الأعمال وجعلها ترتقى الى مستوى متطلباته •

---

(١) كليتيمسترا فى الميثولوجيا اليونانية : زوجة أجاممنون •

فاذا ما كانت المأساة تبين على نطاق كبير كيف تستخدم الأساطير لتفسير مسائل لها مجالها العريض وفحواها الخطير ، فان أشكالا أخرى من الفن أفادت منها على مستوى كبير مماثل • وعندما نجد النقوش الموجودة فى ردهات معبد برثينون تبين انواعا من الصراع بين البشر وأشباه الوحوش « القنطورات » فانما تشير الى أن رجال أثينا كانوا يصارعون بشكل بطولى عنصر التوحش الذى مازال ينمو فى أطوار الانسانية ، ويرمز اليه بهذا الكائن الوحشى الذى نصفه رجل ونصفه فرس • وتعد لوحات معبد أوليمبيا التى تصور هرقل صورة لأنواع المعاناة التى يتعين على الانسان احتمالها لو أريد أن يحقق طاقاته فى مجالها الأكمل • وتكشف الروح الكامنة خلف فن النحت عن نفسها دون تلكؤ ولا ترك أدنى ريب فيما يتعلق بمقصدها •

وبدقة متناهية ومعالجة غير مباشرة نجد بندار Pindar باستخدامه للأساطير يعبر عن دروس وتوكيدات وتعليقات عديدة اذ أنه غالبا ما يقدم أساطيره فى جو من الفتور كما لو كانوا مجرد محسنات زخرفية وليسوا عنصرا أساسيا ، ومع ذلك فقد تم انتقاؤها بعناية واستبصار •

ويحكى بندار لثيسليان الشابة عن قوم من أهل الشمال لا تدركهم الشيخوخة يعيشون فى نهاية العالم وينفقون أيامهم فى الرقص والغناء تحت رعاية أبولو وهم نظير مثالى للشباب ورفقاء المرح ثم يحكى لشاب من اجينتان Aeginetan غنى بالرجولة النبيلة عن طفولة أخيليس الرائعة الذى بشر بمستقبله البطولى عندما صرع أسدا ومازال فى السادسة من عمره • ويضرب مثلا كلاسيكيا لمصارع من أرجوس عن التفانى التى تحكى عنه أسرته من سوء الحظ السياسى يقدم مواساة من ثلاث قصص محلية فى كل منهن يحدث خطأ ما كى تنتهى القصة نهاية سعيدة •

وتتنوع لديه النبرة من المرح الطليق الى الضرورة المأساوية الملحة وكثيرا ما يضرب على وتر يجمع بين الجدية والتجرد الهادىء وتمكنه الأساطير من شحذ مواعظه وتعليقاته بما يضيفيه عليها من عنصر المفاجأة كما تمكنه أيضا من القاء ضوء جديد على هذه المواعظ وتمجيد كل موقف من مواقف الحاضر بتدعيمه بسوابق رفيعه من سوابق الماضى •

ان استخدام الشعراء وفنانى النحت للأساطير أمر طبيعى الى حد كبير لكننا لانتوقع من الفلاسفة استخدامهم للأساطير ومع ذلك فقد رأى الفلاسفة أن الأساطير لها استخداماتها أيضا فى مجالهم الخاص •

والقرن السادس عندما كانت الفلسفة فى أيامها المبكرة تعين عليها أن تتصل بمنافسها الأقدم عهدا والأرسخ قدما ألا هو الشـــعر · وينبغى أحيـانا على صاحب الفكر التجريدى أن يعبر عن أفكاره فى أشـــكال أســـطورية اذ لا شـــك أنه من الطبيعى الى حـــد ما أن يتخذ هـــذا النهج بل والسبب الأكثر من ذلك ضرورة أن هـــذا النهج كان يوصـــل طبيعـــة وأهم هذا الواجب الفريد الى وجـــدان جمهـــور تدرب على الشعر · ومن ثم نجد بارمنيدس عندما يبدأ قصيدته العظيمة عن طبيعة الكينونة يستخدم أسطورة الا أننا نجد أن خلقه الفنى قد تألف بمهارة من أساطير أخرى · انه ينطلق فى مركبة عبر السماء ترافقه بنات الشمس ويشتعل محور مركبته أثناء انطلاقه على طريق الآلهات هذا الطريق الذى يعيـد الى الذاكرة التسمية اليونانية للمجرة وهو فى هذا يشبه فيثون Phaeethon حين قيـادته لمركبة أبيه اله الشمس لكن بارمينيدس يختلف عن فيثون فى أنه لا ينتهى الى كارثة اذ يصـعد الى بوابة فى السـماء قائلا :

« تلك بوابات طرق الليل والنهار
ترفعها أسكفة من أعلى ومن أسفلها عتبة حجرية
وتقام عاليه فى الهواء عوائق من أبواب ضخام
وتحتفظ آلهة العدل المنتقمة بمفاتيح مزدوجة » ·

ويشـــبه طريق البوابة طريق الأولمبوس وعندما يصـــل اليه بارمينيدس يتشـابه مع هرقل حين قدومه بعد الموت وهـو يعلم أنه سيصير الها ·

وتؤكد أسطورة بارسينيدس على الجسارة والأصالة وروعة بحثه عن الحقيقة وفيها يقارن بارمينيدس نفسه ضمنا بنصف اله وعلى الرغم من أنه لا ينبغى أن نغلو كثيرا بشأن هذا الموقف فلا ريب أنه موقف متعمد واع وأن بارمينيديس يعتقد حقيقة ان مهمته تتجاوز الى مدى بعيد أية مهمة أخرى من مهام العاديين من البشر · ولعلنا نستطيع أن نرى الى مدى من الجدية يتناول بارمينيدس أسطورته عنـدما نجده يقيم آلهة العدل وليست آلهة الأوقات حارسا على بوابات الأولمبوس ثم عندما نجده فيما بعد يقص علينا كيف ترحب به الهة وتزوده بعلم عن طبيعة الحقيقـة · وبالرغم من أسطورة بارمينيديس تصطبغ لها مطالب رائعة فى مجال دوره الفلسفى الا أنها فى ذات الوقت تصر على موقف لا يزدرى الآلهة ولا يتحدى سلطانهم وانما يتلقى الوحى منهم بشكل مباشر دون وسيط ·

وفي أواخر القرن الخامس وجدت الأساطير لها مجالا جديدا مع ازدهار ما كان يسمى بالحركة السفسطائية ٠

والسفسطائيون فريق من المعلمين الشعبيين الذين كانوا غالبا مفكرين بالأصالة بحكم حقهم فى ذلك الا أنهم كانوا يقتاتون من خلال توصيل المعرفة الى الجمهور فى صيغة جذابة ٠ ومن بين موضوعات بحثهم حظى علم الأخلاق بمكانة بارزة وكان للأساطير جدواها فى توضيح وتوكيد عنايات الكاتب المرادة وفى اعطاء افتراضات بعينها قوة الالهام والعقيدة التى ما كانت هذه الافتراضات بدونها لتبرهن على شيء فى يسر وسهولة ٠ وعلى هذا نجد مثالا بسيطا فى حكاية تعزى الى بروديكوس Prodicus مؤداها أنه على مفترق من الطرق يوجه هرقل امرأتين احداهما آسرة الفتنة والأخرى حيية عاطلة من الجمال ٠ تعده أولاهما بحياة الدعة والمسرة يفوز بها دون جهد كبير وتدوم له بفضل ثمار معاناة الآخرين من الرجال ، وتعرض عليه ثانيتهما حياة الكفاح والتضحية والتفانى فى سبيل الآخرين بفضل ما يختص به من تحكم صارم فى جسده وعقله ٠ ومن الطبيعى أن الجسد والعقل رذيلة وفضيلة ويختار هرقل الفضيلة ٠٠

وتعد الأسطورة بسيطة الى حد ما بالنسبة لاصحاب الأذواق المرهفة الدقيقة وقد يجأر الناقد بالشكوى من أن فحوى هذه الاسطورة لا يزيد على القول بأنه من الأفضل للانسان أن يتصف بالفضيلة وليس بالرذيلة ٠ الا أنها فى واقع الأمر تقول أكثر من ذلك بكثير فهى تفرق بين الرذيلة والفضيلة على أسس من اشباع الذات وانكار الذات وبهذا تقدم قاعدة واضحة المعالم للأخلاقيات ثم تنتهى بتبيان أن الرذيلة لا تفوز الا بالاستهجان العام بينما تحظى الفضيلة بمجد لا يغنى ٠ انها تستميل الانسان العادى الذى يوفيها حقها من التقدير والتمييز ويستجيب للنبل الصادق البسيط الذى اتسمت به حالة الفضيلة حين عرضها ٠

واستخدم الاساطير سفسطائيون آخرون لتوضيح مزيد من الدروس الأكثر تعقيدا ٠ ان الأسطورة التى ينسبها أفلاطون الى بروتاجوراس عن بدايات المجتمع البشرى لا تبين معنى الارتفاع عن حالة الوحوش فحسب لكنها تبين أيضا ما للقانون من معنى فى مجال التقدم البشرى ولما كانت على قدر من الوضوح والخيال فانها تمس فى نفوسنا مواضع لا يستطيع التاريخ أن يمسها ٠

أما أسطورة أطلنتيس Atlantis التى يعزوها أفلاطون الى كريتاس فانها فى واقع الأمر مبتورة بيد أنها تقدم صورة حية لمجتمع يكاد أن

يكون مثاليا قبل أن يعتوره الفساد بفعل السلطان والكبرياء · وأهم من هذا كله أن أفلاطون يقدم الى حبيبه سقراط أساطير لابد أنهـا كانت نوعا من القصص التى كان يقصها أفلاطون نفسه وهى تجسـد عنصرا لا مندوحة عنه لنظام أفلاطون ·

وفى هذه الأساطير يرسخ أفلاطون معنى القيم بشكل لا يتيسر له بالمنطق وحده ويؤيده برؤيته للحياة بعد الموت حيث يتكشف معنى الخير والشر فى طابعه الحقيقى · ولا يدعى أن هذه الأساطير صحيحة معنى ونصا لكنه يريد لها أن يتناولها الناس بشكل جاد وأن تخاطب الضمير بشكل مباشر · انها تحرك كوامن النفس بشكل لا يتوفر للمناقشـة والحجة المجردة ·

وحتى عندما تفوقت الفلسفة على الشعر باعتباره الوسيلة التى شكل بها اليونانيون مشاكلهم المقلقة ، ظل للأساطير دورها فى اضفاء الحيوية والوضوح على الموضوعات الأساسية ·

فلو أن أفلاطون قد طور الأساطير لتتسع للتجلى الدينى فان آخرين أفادوا منها لأغراض أخرى وخاصة لعرض أفكار تحوم حول حافة المجهول وأحيانا نستطيع أن نرى كيف تتحرك الاسطورة فى أجواء جديدة عندما يضاف اليها تغييرات واضافات جديدة ·

وفى القرن السادس حكى الشعراء عن أورفيوس الذى سـحرت موسيقاه الطبيعة كلها هذا الذى ذهب الى هاديس عالم الموتى وهناك رأى ما يحدث للموتى ثم عاد ليطلع الناس على معرفته الجديدة ·

وكانت القصة حتى هذا الحين أسطورة بسيطة عن منشد هو فى ذات الوقت نبى وقد أضفت هذه الأسطورة قوة الثقة على التعاليم الدينية المتصلة باسم أورفيوس · ولتأكيد قدراته حكت الأسطورة أنه أعاد من عالم الموتى زوجته المفقودة يوريديس · وكانت هذه الواقعة فى أول الأمر حادثة عرضية لا تزيد على أن تكون مثـالا لقدراته الخارقة ولم تتصف بمكانة بارزة خاصة بل لم تسترع انتباه أحد فى مجال القول والفن · الا أن شاعرا ما فى القرن الخامس قد يكون من كتاب المأساة رأى ما لها من امكانيات فلو استطاع أورفيوس أن يفوز بزوجته فان ذلك بكل تأكيد لم يدم طويلا ولابد له من أن يضطر بعد وقت قصير الى تسليمها واعادتها مثلما حدث لبروتيسيلوس الذى تمتع بامتياز مماثل ·

ومن ثم تغيرت القصة ووجهت بحيث تحكى أنه بعد الفوز بزوجته كان عليه أن يسمح لها بالعودة الى عالم الموت ثانية · ويتم تصوير المنظر

الأساسى على صورة منظر فى مسرحية أتيكية حيث يزيح أورفيوس النقاب عن وجه يوريديس ليلقى عليها النظرة الأخيرة ثم تضع ذراعها على كتفه فى حركة وداع رقيقة بينما يمد هيرميس مرشد الموتى يده ليصطحبها الى هاديس عالم الموتى . وفى هذه المرحلة نجد القصة تعرض فى شكل أسطورى الجهود الميئوسه لأية محاولة لهزيمة اله الموت الذى هو دون الآلهة جميعها لا يحب الهدايا ولا يذعن لاقناع ولا يلين لاستعطاف أو تضرع . وحتى هذه القصة تبدل فيما بعد اذ تحكى بشكل آخر مؤداه أن أورفيوس أخفق فى النهاية فى استعادة زوجته ويرجع فشله الى أنه بعد أن أقنع آلهة الموتى بخلاصها عصى أمرهم فى أن عليه ألا يحول نظره الى الوراء ناظرا اليها حتى يصل الى العالم العلوى ولما غلبته الرغبة نظر الى الورء ففقدها الى الأبد . وهنا نجد شاعرا من الشعراء قد أدخل الفكرة القديمة التى تقول ان على البشر دائما أن يحولوا أبصارهم عن الآلهة أو عن أشباح العالم السفلى . وتعد القصة على هذا النحو من التعديل مأساوية ثرية بالمغزى الرمزى اذ أنها تبين أن قوة الغناء الذى يكاد أن يستعيد الموتى يخفق فى الاختبار الأخير لكونه تحت رحمة القلب البشرى بل ان الحب نفسه ليس أكثر قوة من الموت ، ويمثل هذه التعديلات أبقى اليونانيون على حيوية أساطيرهم حتى عندما فقد الدين القديم سلطانه فقد أصبح من الممكن أن توضع القصص المستمدة منه فى استخدامات جديدة فى عالم مازال فى حاجة اليها لكشف النقاب عن أسراره الغامضة .

ويكمن ازدهار وتجدد شباب الأساطير اليونانية فى مخاطبتها للذكاء واستمالتها للعواطف والخيال فهى تخاطب الذكاء لما تنطوى عليه أحداثها الدرامية من تأمل قوى وتوكيد ايجابى معروض بشكل ملموس عن الوجود يدعو الى استنباط النتائج المتعلقة بهذا الوجود .

ونجد أحداث هذه الأساطير ماهرة فريدة الى الحد الذى تثير معه رغبتنا فى الاستفسار عما تعنيه بل وتدفعنا الى أن نستخلص من هذه الأحداث تنويرا يضىء لنا جوانب الموضوعات اليومية ، وتروق هذه الأحداث للعواطف اذ أن ما يجرى فيها من أحداث يثير الذعر أو الخوف أو الاعجاب واللذة ويدفع الناس الى مقارنة رغباتهم وأهدافهم بهذه الأحداث بحيث يرغبون فى مجاراة لحظات الغبطة والسعادة أو يتحاشون لحظات الكوارث التى تنطوى عليها هذه الأحداث ، وهى تخاطب الخيال لأن كل انسان فى حاجة الى صورة يستطيع أن يقارن نفسه بها على حدوده بهدف الاتقاء بها فى ظل ما يلقى على المواقف المألوفة من ضوء

وكذلك فى ظل اتساع ملكاته الغير منظورة وذلك سواء كانت هـذه الأحداث تقود خياله الى المواطن الذهبية للآلهة أم الى ليل آلهات الغضب ذى النور السحيق أو الى ميادين الماضى البعيد · انها تخرجه من ذاته الى نظام آخر للكائنات حيث تجلى بصيرته وتتطهر أحاسيسه ·

ولما كان اليونانيون يقتربون من مشاكلهم ويعالجون تجارب حياتهم بكل طبائعهم المستجيبة فقد احتاجوا اذن للأساطير لا فى مجـال فنهم فحسب وانما فى مجال حياتهم كذلك ·

ان مثل هذه القصص كانت بمثابة التدريب الرئيسى فى مجـال تعليمهم ومن خلالها وجدوا الوسيلة لتنظيم وتفسير ونشر تجربتهم ·

الفصل السابع

الفصل السابع

الخيال والحقيقة

ليس فى وسع أحد عند تقييم اليونانيين أن يغفل الدور الذى لعبه الشعر فى حياتهم اذ أنه ضارب بجذوره الى ماض بعيد الأغوار ، فبالرغم من أن أول نماذجنا لهذا الشعر ترجع الى القرن السابع قبل الميلاد على شكل قصائد كتبها هوميروس ، فان هذه القصائد تشتمل على عبارات وقصص ربما تعود الى الوراء ستمائة عام حتى العصر الميسينى · وعندما اختفت الكتابات القديمة عام ١٢٠٠ ق·م ، مضى الشعر فى طريقه يزدهر على شفاه الناس عبر تراث شفهى أمدا من الزمن امتد قرونا منذ اختفاء الأبجدية المقطعية القديمة حتى ظهور الحروف الهجائية الجديدة بعد منتصف القرن الثامن · ولقد شجع ظهور الحروف الهجائية الجديدة الناس على تدوين الشعر ، ونستطيع أن نعرف مدى السرعة التى صاحبت ذيوع وانتشار هذا الشعر من خلال أبيات نجدها مصورة أو منقوشة على الأوانى الفخارية قبل عام ٧٠٠ ق·م وفى أماكن متنوعة النشاط مثل أثينا ، اتاكا (Ithaca) ، اسخيا (Ischia) (*)

لم يحصر اليونانيون نشاطهم الشعرى على المناسبات الدينية أو الأسرار الخفية وانما كان الشعر جزءا من الحياة العامة يكرمه ويتمتع به عدد كبير من الناس · لقد احتاجوا اليه فى تراتيلهم وتوسلاتهم الى الآلهة ، وقد حظى بتوفير بسبب ارتباطه بالآلهة ، وكان مستودعا لقصص شعب شغف بشكل عميق بالانجازات الجليلة لأسلافهم ، وفى المهرجانات العامة كانوا يحتفلون فى الواقع بتمجيد المدينة حين ابتهاجها بنصر أو فوز فى مباريات الألعاب الرياضية · كما خلع الشعر جلالا وتقديسا على المناسبات الاجتماعية مثل حفلات الزفاف ومراسم الجنائز ، واذا رغب الأفراد فى

أن يزيحوا عن كاهلهم عبء حب أو كره ، فقد كانوا يجدون فيه متنفسا طبيعيا فى تحويل هذه الانفعالات الى أغان حظيت بانتشار حى أكثر مما كان يحظى به كتاب من الكتب أو نشرة من النشرات .

وأهم من ذلك كله أن اليونانيين ظلوا لفترة طويلة يلتمسون فيه الوسيلة الرئيسية للتعبير عن معتقداتهم ومعضلاتهم . والشعر شكل فنى أكثر قدما من النثر الذى ظهر بدوره فى القرن السادس ق.م مع متطلبات البحث العلمى ، وحتى بعد ظهور النثر استمر الشعر أداة اتخذهـا اليونانيون لتوضيح ونشر موضوعات قضت مضاجعهم أو هاموا بهـا افتتانا . لقد كان الشعر أقدم فنونهم جميعا وأكثرها اتصالا واستمرارا على مدى التاريخ ، وفى أعظم أيام حياتهم كان الشعر التعبير المباشر البليغ عما شغل بالهم وحظى باهتمامهم .

وفى المجتمعات البدائية كانوا ينظرون الى الشاعر باعتباره أداة للقوة الخارجية التى تسخره لها ، وتتحدث عن طريقه وبصوته هو ، انه نبى ومطلع على الغيب ويتكلم بلغات كثيرة وأداة لقوى غيبية . ويكاد ينتمى اليه الفن ، اذ أن الشاعر يعتمد على الوحى والالهام ، وقد يرى ما لا يراه الآخرون ، وقد يكون أستاذا متمكنا من المعرفة الخفية التى يفصح عنها فى كلمات مبهمة عصية على الفهم ، بيد أن معرفته وكلماته لا تعد ملكا خاصا به حقيقة . وتتطلب عباراته تأويلا وتفسيرا ومن الممكن أن يكون لها أكثر من معنى واحد ، فهى بين أيادى الناس ليتبينوا منها ما يستطيعون ، فهى رسالة حكمة خفية أرسلت من عالم آخر للكائنات . وكان الاسم الذى يسمى به الشاعر فى روما القديمة هو نفسه الذى كان يسمى به النبى . وفى الشعر العبرى كان ينسب البيت المقفى الى الاله مثلما كان ينسب الى الانسان . ولم يكن كهان معبد دلفى ليلقوا برسائلهم المبهمة فى أبيات من الشعر دون سبب ، أو أن يتحدث هسيود (Hesiod) عن نفسه على أنه يعلم ما مضى من الأمر وما هو حادث وما سوف يكون .

وأقر اليونانيون هذه الافتراضات ، ولم ينكروا على الشعر نشاطه الملهم ، وكان أفلاطون يميل الى الاعتقاد بأن الشعراء جميعهم قد مسهم الى حد ما مس من عالم خفى بل ان الشعراء أنفسهم أبانوا عن ولائهم للوحى عندما كانوا يتحدثون عن الهة الشعر على أنها القوة القدسية التى تولت توجيه فنهم ، ونجد هوميروس يبدأ كل ملحمة من ملاحمه العظيمة باستدعاء لالهة الشعر متوسلا اليها أن تقص عليه قصة ، عن غضب أخيليس أو عن غضب الرجل ذى الخدع الحربية المتعددة . ويقص هيسيود بشكل أكثر تأكيدا كيف أنه سمع الهات الشعر تغنين على قمة جبل هيليكون (Helicon) وقد ألقين اليه بصولجان الشاعر وأنبأنه بما ينبغى أن

ينشده · وتجد بندار يناشد الهة الشعر أن تنفخ فى أغانيه من روحها ، أو تصاحبه الى أن يبلغ ايجه Aegine ان الهة الشعر هى القوة الالهية التى يستدعيها الشاعر لتمده بالعون ، ويعنى ذلك أنه بدونها يصبح الى حد ما عاجزا لا حول له ، وليس له عليها سلطان ، وانما تستطيع أن تحقق له من الأفعال ما لا يستطيع أن يحققه هو لنفسه · انها تشخيص يجسد حقيقة واقعة لا ريب فيها ، وهى رمز للقوة الخارقة التى تزور الشاعر بين الفينة والفينة وتملأ كيانه وتفيض عليه ·

وقد يبدو أن هناك موقفا فكريا آخر لا يقل شيوعا ، مناقضا للموقف الفكرى من الشعر الذى يرى أن الشعر ما هو الا الهام الهى · ويصر اليونانيون أيضا على أن الشعر ما هو الا شكل من أشكال الحرف ، أو البراعة المتدربة ، وتتضح طريقة تناولهم للشعر من خلال الكلمات التى ينتقونها له · فهم لا يطلقون عليه كلمة محددة شاملة بمفردها ، اذ أن أصل كلمة « الشعر » فى اللغة اليونانية تعنى ببساطة الصنعة وكان هناك فى الواقع كلمات تستخدم لأنماط مختلفة من الشعر مثل « قصيدة ملحمية » (epos) أو أنشودة (Aoidê) أو أغنية راقصة (Molpê) · وليس هناك كلمة مفردة محددة تشمل كل الفروع التى تتفرع عما تعتبره فنا مستقلا متفردا · فلو أراد اليونانيون أن يتحدثوا عن هذه التفريعات جميعا ، فان الكلمة التى استخدموها لهذا الهدف بعيدة كل البعد عن توقعاتنا · انها كلمة تعنى « الحكمة » أو البراعة (Sophiâ) وتنسحب على كل الفنون الجميلة بلا تفريق ، ابتداء من الشعر الى فن النحت والزخرفة · كما تنطبق كذلك على أنواع مختلفة من الأنشطة بعيدة كل البعد عن الشعر ، مثل فن ادارة دفة السفينة والبناء والقيادة والطهو · وليس هذا كله مجرد أشكال « للحكمة » بل هو كذلك أشكال « للبراعة » الفنية · ونجد بندار يتحدث عن نسقه على أنه حرفى ماهر يقارن قصائده بالأبنية والتماثيل التى هى نتاج أيد ماهرة · ورأى بندار كما رأى معه كثير من اليونانيين فى عصره أن الشاعر انما يمارس مهارة خاصة · وكان للشعر مادته الخاصة ممثلة فى الكلمات كما كان له قواعده الخاصة ممثلة فى العروض والوزن والأسلوب ، لكنه وبرغم كل شىء حرفة يتمرس عليها رجال مدربون ملمون بأسرار مهنتهم ، وحتى لو كانوا هواة فهم خاضعون للحكم عليهم بمقاييس مهنية رفيعة ، مقاييس ترتكز فى حكمها على القدرة والكفاية ·

ولو أخذنا هذا الرأى مأخذا حرفيا صرفا فسوف نجده لا يخلو من بعض الازعاج · لقد ألفنا الرأى الذى يقول بأن الشعراء مولودون بالفطرة شعراء وليسوا صناعا حتى أننا قد نزدرى افتراضا غير مستساغ يعنى

أن خلق القصيدة مساو لطهو وجبة من الطعام • ونحن نعلم بالاضافة الى ما تقدم أنه فى مجال تجربة غالبية الشعراء لا يكفى مجرد العمل على صنع القصيدة ، انهم يعتمدون على أبيات ملهمة يبدو أنها لا تأتى من مصدر محدد أكثر مما يعتمدون على الأبيات متقنة الصنع المعاونة والمكملة لسوابقها من الأبيات الشعرية •

وانه من العسير علينا أن نعتقد أن أعظم روائع بندار واسخيلوس ذات نمط مصطنع بحت ، ومع ذلك نكاد نوقن بأن نظرية الشعر باعتباره حرفة استطاعت أن تجد لها مؤيدين يتشيعون لها بشكل خطير •

هذه الآراء المتعلقة بالشعر التى تتسم بالتنـاقض الظاهر ، هى فى الواقع زاويتان ينظر من خلالهما الى موضوع واحد • ان الالهام والصنعة أمران لهما ضرورة متساوية فى مجال قرض الشعر • وكان اليونانيون يدركون ذلك ادراكا واعيـا ، وحتى لو أنهم أكدوا أحيـانا حاجتهم الى الالهام ، فقد أكدوا حاجتهم فى أحيان أخرى الى الصنعة • وأتاح تقديرهم للبراعة الفنية مجالا فسيحا للالهام مفترضين أن لكل الفنون آلهة رؤساء ، وأن جاذبية الشعر الخاصة انما تولد من الجمع بين الحافز الالهى وبين الجهد الانسانى ، اذ تعطى الهة الشعر الشاعر ما لا يستطيع أن يأتى به وحده ، بيد أن على الشاعر أن يستعين ببراعته المتمرسة فى حدود ما أوتى من قبل الهة الشعر •

وليس الشاعر مجرد بوق كما أنه ليس مجـرد أداة ملهمة فى يد الآلهة وانما له مهامه الخاصة الواجب أداؤها ، وبالرغم من وجود الهة الشعر عند الاستعانة بها الا أن للشاعر شعره الذى يفرضه حسب هواه • وفى هـذه الناحيـة تختلف فكرة اليـونانيين بشأن الشـعر عن الفكرة الرومنطقية التى تقول أن الشعر يحتوى على توترات كثيرة لفن عشوائى ، كما تختلف كذلك عن الفكرة الكلاسيكية التى تعنى أن الشعر انما هو مسألة صقل وعناية ــ وبين هذين النقيضين شق اليونانيون منهجا وسطا موفقا حكيما ، تعززه الحقائق المعروفة فى مجال عمليات الخلق والابداع • وعلى هذا الأساس أقام اليونانيون بناء رائعا أضفوا عليه طابعا خاصا • ان السماح للذهن والعقل الباحث المدقق بدخول مملكة الشعر الملهمة قد تمخض عن نتائج ثورية وثرية لم يسبق لها مثيل ــ فلم يحصر الشعر نفسه فى تجارب قليلة مبهمة وانما استطاع أن يجعل من نفسه أداة قادرة على أن تلم بأطراف الشعور والوعى الانسانيين فى كل مجالاتهما • وبدلا من أن يكون الشعر ببساطة صوت اله ، كان الشعر صوتا للانسان الذى له اله يدفعه ويحضه على قرض الشعر •

لقد نشأ هذا المفهوم لطبيعة الشعر عن فكرة اليونانيين للمهام المنوطة به . ان الباعث الرئيسى للفن يتمثل فى اخفاء صفة الدوام على اللحظة العابرة ، لتدوم وتبقى اذ ليس فى وسعنا احتمال فقدانها ، كما يتمثل فى تحدى الفناء بفضل خلق حالة لا يستطيع الزمن أن ينال من قوتها . ولقد عبر اليونانيون عن موقفهم هذا بمقارنة الشعر بأشياء جامدة مثل الأعمدة أو المعابد أو الذهب أو العاج أو المرجان . لكنهم رأوا نقيض ذلك أيضا ، فبالرغم من أنه لا بد للشعر أن يكون له بقاء الأشياء الجامدة فهو حى على نحو من الأنحاء ، اذ أنه لا يوجد فحسب وانما يؤدى دورا ، هو لا يوجد منعزلا فى ذاته وانما يؤثر فينا ، وانه بالرغم من صرامة الشكل الذى يتخذه فما زال يثير عواطفنا ويحرك فينا دوافع العمل . وهذا هو السبب فى أنهم قارنوه أيضا بالكائنات الحية مثل الأزهار والطيور والنحل والمركبات المتحركة والرياضيين فى مبارياتهم ، لكنهم رأوا شيئا آخر وراء ذلك كله استطاعوا التعبير عنه فى التصوير المجازى بالنار والضوء ، فالشعر لا يبعث الدفء فى القلب فحسب وانما يلقى تألقا على الموضوعات التى يمجدها ، ويضفى اشراقا سماويا يقرب الانسان بطريقة ما من الاشراق الالهى الباقى على الزمن ، وكان الشعر وسيلة هامة سعى اليونانيون بفضلها الى ادراك الغبطة الالهية .

لقد أحس اليونانيون فى حضرة الشعر أنهم يتمتعون فى الواقع بكمال الهى يمتلىء به كيانهم ، ورأوا فى قدرته التى بها يجاوزون حدود أنفسهم حالة أقرب الى الأمان الدائم الذى تتصف به الآلهة . كما رأوا فيه تجسيدا من الأهمية والتفرد بمكان بحيث أرجعوه الى نظام الكائنات الأعلى .

وعندما نتأمل معنى هذا كله ، ونتسائل عما يجعل الشعر خلابا فاننا نجد اليونانيين قد كونوا مفهوما عن الشعر شاع بين عامة الناس الى الحد الذى يجعلنا لا نتوقف لملاحظته . ومع ذلك فان فكرة الجمال برمتها كانت من اكتشافهم ، وقد لعبت دورا أساسيا فى تناولهم للفنون . وكانوا مثلنا يعرفون أنه لا سبيل الى وضع تعريف محدد لها ، وفى هذا المجال كان أفلاطون يعكس رأيا عاما عندما قال « ان الجمال يتسلل داخلنا ويروغ منا » . ومع ذلك كان اليونانيون على يقين من التعرف عليه وبدونه لا يكون للشعر غرض من الأغراض .

فاذا ما حاولنا أن نحلل ما كان يعنيه اليونانيون بالجمال فسوف نجد من الواضح أنه لم يكن شعورا ذاتيا يختلف من انسان لانسان وانما شىء دائم البقاء فى طبيعة الأشياء ، خاصية كونية يفسرها الشعراء والفنانون ويجسدونها وهى فى متناول كل من له عيون ترى وآذان تسمع

وافترضوا أن الجمال احساس مبهم وقوة عارمة لها وجودها ، وتتكشف من خلال حالة مفاجئة من حالات التنوير نجدها عندما يأسرنا ويستولى على انتباهنا احساس ما • وتوضح استعارة اليونانيين للضوء طابع الجمال فمثلما يغير الضوء شكل العالم الأرضى كله ، كذلك يغير الجمـال هيئة الأفعال والأشكال ويضفى عليها مغزى جديدا • فعندما يكشف الجمال عن نفسه لا تملك الا عشقه،وعبر اليونانيون عن احساسهم به فى الأسطورة التى غنت فيهـا الهـات الجمـال فى حفـل زفاف كادموس (Cadmus) وهارمونيا :

كل ما هو جميل يعشق ،

وما ليس جميلا لا يعشقه أحد •

وعلى الشاعر تقع مهمة ادراك الجمال الكامن فى الكائنات المنظور منها وغير المنظور ، وعليه كذلك بتأثير الكلمات أن يطيل بقاء لحظات حالة التنوير المنتشية التى عاشها هو وعرف أثرها وأن يشارك الآخرين معايشتها •

لقد فسر اليونانيون فكرة الجمال بمعناها العريض الشامل ، فاذا ما رأى اليونانيون أن أول وأهم تطبيق للجمال : يتمثل فى كل ما يجتذب ويستحوذ على حواسنا سـواء كان من الأشـكال الانسانية أم الكائنـات الطبيعية ، فان لذلك علاقته المتساوية بعناصر الشخصية والسلوك ، تلك العناصر التى لا تقل فتنة واستحواذا •

ولم يحاول اليونانيون أن يحصروا فكرة الجمال فى مقولات مستقرة محددة ، ولم يفترضوا أن هناك مجموعة معينة من الأشياء هى بذاتها دائمة الجمال بشكل أساسى • وكان كل ما يعنيهم وجود حالة من التنوير ذات نوع فريد تهبط على الشـاعر فى كل مناسبة وتحرك كرامته الى كتابة الشعر • ان هذا المفهوم الفنى الرصين للشعر مكنهم من الكتابة عن مسائل كثيرة قد يتصورها أصحاب الرأى السطحى مسائل قبيحة وأليمة فكل ما يلقى علينا سحرا من سحره يصلح موضوعا للشعر ، ومن ثم نلتمس لكل من هوميروس وكتاب المأساة الأتيكيين العذر والتبرير فى سردهم أحداثا قاتمـة مزعجة • ونحن فى الواقع اذا ما استفسرنا عن مفهـوم هوميروس للشعر فمن المحتمل أن تكون الاجابة : ان كل ما يلمس أعماقنا بحق هو موضوع صالح للأغنية • ومن هذا المنطلق طور هوميروس نظريته الهادئة والمؤثرة عن المعاناة الانسانية • ومن ثم نجد هيلين (Helen) تنبىء هكتور (Hector) بأن أحزان طروادة انما تأتى منهـا ومن باريس (Paris) اذ أن زيوس قد أنزل بهم شرا مستطيرا :

لسوف يتخذ منا رجال العصور القادمة
قصصا يتغنون بها فى مستقبل أيامهم ·

وعندما يحول هوميروس أبغض الكوارث الى موضوعات للمتعة الرفيعة وأغنية من وحى الآلهة ، فانما يقدم ترضية ومواساة للمظالم وأنواع الاحباط التى تحل على الأحياء من البشر · وما كان لهذا الاعتقاد أن يكون ممكنا لو لم يؤمن هوميروس ، وشعراء يونانيون آخرون من بعده بأن الشعر يحول التجربة الى سعادة علوية ، ويرتفع بها فوق مستوى الوعى العادى الذى نكون فيه تحت رحمة انفعالاتنا ، لا نملك أن ندفع عن أنفسنا ضربات القدر والأحداث · وعندما قال أرسطو فيما بعد أن المأساة تحدث فينا التطهير ، فربما يكون بذلك قد ضيق حدود تعريفه دون ضرورة الى ذلك ، لكنه كان فى حدود التراث اليونانى الصحيح ــ عندما رأى أن العرض الشعرى لأحداث لها فى الحياة العادية آلام فوق الاحتمال يغير هذه الأحداث ويضعها فى عالم ممتع ونقى لسبب لا نعلمه ·

ان ادراك اللحظة السحرية وامتلاكها فى كلمات ثابتة باقية الأثر لأمر يتطلب درجة كبيرة من درجات الفن · ولما كان اليونانيون يعتقدون أن الشعر مهنة البراعة والمهارة ، فقد أولوا صيغه اهتماما كبيرا ، وكانوا أقرب الى الالهام منهم الى الخوف من تحديات تفاصيل التكنيك الفنى · وكانوا يجدون سعادة فى امتلاك أشكال تقليدية من أشكال الشعر وفى استغلالها الى أقصى مدى · ولم يشعروا بحاجة ماسة الى ابتكار أشكال جديدة ، واذا ما تم ابتكار أشكال ووسائل جديدة فقد كان ذلك فى الجزئيات والتحسينات الظاهرية أكثر منه فى التخطيط العام والاصلاحات الأساسية · وأقيم استخدام هوميروس الناضج للتفعيلة السداسية على فن قديم أعد لأداء ارتجالى وزوده هذا الفن بحيل وعبارات نمطية لمواجهة متطلبات سرد قصصه ، وكانت براعته الخاصة تكمن فى استخدام هذه العناصر القديمة بقوة جديدة وتفوق خاص ·

لقد كان فى الواقع لأغانى سافو وألكيوس وأناكريون مجال رائع من مجالات النغم العذب ، ولكننا نستطيع أن نتبين خلف هذه الأغانى تأثير الأغنية الشعبية بموضوعاتها القديمة وصدقها المباشر البسيط · ان مقاطع شعر الرثاء التى استخدمت فى نقوش المقابر وفى الاهداءات المكتوبة على المعابد وفى أغانى الخمر ــ كانت تدين بالكثير للغة الملحمة ، كما احتفظت بوسائلها الفنية التى كان لمضى الزمن دوره فى نضجها واقرارها · حتى الفن الرائع للأغانى الجماعية الذى مارسه كل من بندار

وباخيليدس لم يكن أقل التزاما بالتراث فى معالجة موضـوعاته . وفى احتفاظه بنبرة معينة مميزة . وهيمن التراث القديم على الشعر اليونانى دون أن يعوق مسار حريته البتة . ولما كان التراث يسلم بأسلوب الفن المتوقع من نوع معين من القصيدة ، فقد ترك الشاعر حرا فى الكشف عن براعته فى اتجـــاه بعينه دون أن يزعج نفسه بابتداع شكل جديد أو ابتكار أسلوب أو معالجة جديدة .

لقد مضى الشعراء اليونانيون داخل هذه الحدود يطورون الأشكال القديمة ويعملون على اثرائها بطرق عديدة . ان الشعر الغنائى الجماعى كما نعرفه يمتد خلفه تاريخ طويل ، ولا بد أنه كان ذات يوم أكثر بساطة وأقل غلوا فى التعقيد والتنظيم . لكننا نستطيع أن نرى بجلاء عبقرية اليونانيين فى الاحتفاظ بالشكل القديم ، وفى صنع شيء جديد ومؤثر من هذا الشكل ، وذلك من خلال المأساة والملهاة الأتيكيتين ، وكلتاهما قد تولد من الطقوس البدائية الدينية . وتعنى كلمة المأساة « أغنية للماعز » ، ونحن نجـد بدايات الفن الأولى فى أغنيـــة جماعية تغنى لديونيسوس (Dionysus) ذلك عندما كانوا يمزقون فى أول الأمر ماعز يتصورون أنه يجسد الاله ، ثم بعد ذلك يقدمون لحمه جائزة عن أفضل أغنية .

وكانت الأغانى تحكى لنا عن أحداث بطولية أو أحداث أسطورية ، وبعد فترة من الزمن يبرز متحدث من بين المنشدين الآخرين ويمثل حدثا ما من أحداث القصة ، ومن هذه الاحتفالات ولدت المأساة . ومنذ ذلك الحين وما زالت المأساة تحتفظ ببعض من بقايا أصلها ، لم يتجاوز عدد الممثلون أربعة ، وكانت الجوقة تقوم بدور على قدر من الأهمية حين تدخلها فى تطوير الحدث ، وقد تظهر الآلهة على مسرح الأحداث وبخاصة فى بداية أو نهاية المسرحية ، وكثيرا ما كانت تتخذ المحادثة بين شخصيات المسرحية شكلا من أبيات للشعر مفردة مبتورة . وبالرغم من أنه سرعان ما أصبح ارتباط المأساة بديونيسوس ارتباطا هزيلا ، فقد بقيت المأساة ذات طابع دينى فى نبرتها واختيارها لموضوعاتها . وبالرغم من أنها لم تكن دائما مأساوية ، بمعنى أن تكون النهاية نهاية تعيسة ـ الا أنها كانت دائما تتناول مسائل خطيرة تخص علاقات البشر بالآلهة . ولابد أن قيود الشكل قد وضعت بعض القيد على حرية الممثلين وكتاب المسرحية ، فلم يكن من الميسور أن تتواءم الجوقة مع الحدث ـ اذ كانت أحيانا تلعب دورا فاترا مضحكا الى حد ما وذلك فى لحظات التوتر الدرامى العنيف ، وقد يشترك الممثل الواحد بدورين أو ثلاثة أدوار مختلفة فى المسرحية الواحدة ، ولابد أنه وجد صعوبة فى أن يؤدى كل دور باقناع مماثل ـ وحتى عند دخول المناظر الطبيعية الى المسرح ، لم يكن من المستطاع نشرها على مدى واسع ،

كما كانت المؤثرات المسرحية محدودة للغاية من حيث المجال والشخصية . أن التقليد القديم الذى كان الممثل بمقتضاه يلقى مقدمة للمسرحية ، ويقص الحقائق الرئيسية للموقف ، بل وحقائق الحدث المقبل ـ كان يتطلب مهارة وبراعة كبيرة فى جعل هذا التقليد مقنعا .

وبالرغم من أن كتاب المأساة اليونانيين قد احتفظوا بآثار الماضى الباقية وأحاطوها بالتبجيل ، فقد حولوها الى ابداعات رفيعة النبل بعيدة الأثر والتأثير . لقد صارت القصص القديمة أداة للتعبير عن مسائل ملحة حاضرة ، وقدمت أغانى الجوقة فرصا جديدة لاتساع وبسـط العبقرية الغنائية ، وكان يعنى تحديد عدد الممثلين أنه لا بد لكل دور أن يؤدى بوضوح وقوة ـ وللمأساة اليونانية صرامتها الشكلية القديمة ولكن ذلك لا يقف عائقا دون الارتفاع الى أسمى المناسبات أو التأثير العاطفى المكثف لما اكتسبته من طابع انسانى ودرامى .

وينطبق على الملهاة موقف مماثل ، اذ تولدت هى الأخرى عن واحد من طقوس ديونيسوس ، وهو طقس الخصب الذى يقوم فيه فريق صاخب بأداء حركات تقليدية بهدف ابتعاث خصوبة الأرض ، ولم يداخلهم الخزى ولا الخجل من استخدام رموز الذكورة واستعمال لغة بذيئة لا تحفظ فيها . والمظاهر الداعرة التى أحاطت بهذه المناسبة كان لها فى الواقع هدف دينى فى درء السوء عنهم ، لكنها كانت كذلك مرغوبة لذاتها ، فقد قدمت جوا صالحا للهجوم والنقد اللاذع . نشأت الملهاة عن هذا الطقس وتشابهت مع المأساة فى توفير الممثلين الذى يشتركون بأدوار متعددة وفى الابقاء على الشكل القديم للأغنية الجماعية ، لكنها اختلفت عن المأسـأة فى أنها أجازت الاسفاف والفجور ولم تتناول الماضى الأسطورى ، وانما تناولت الحاضر المباشر كيفما يحوله الخيال الرشيق ، ويعمل فيه عمله بحيث يظهر السخافات للعيان . ومن ثم فبينما نجد أغانىأريستوفانيس شطحات خالصة من شطحات الخيال الغنائى ، وبينما نجد حركات تفعيلة مقاطع شبيهة بوثبات جياد الشمس ، فانه يستمد أحداثه بحرية من رصيد الحياة المعاصرة ، ويزيد من حجم هذه الحياة بنقلها الى عالم اللامعقول : تتحدث فيه الطيور ، وتنبت للرجال أجنحة أو يمتطون خنافس الروث صعودا الى السماء . ولما كان هذا الفن قد أقيم على تراث من لغة حرة من القيود فقد استخدم هذه الحرية فى كل أنواع الموضوعات ، ولم يرهبه أو يرده توقير أو تقدير لاحسـاس شخصيات رفيعة المقـام ، بل احتفظ عضو التذكير بما له كعنصر أساسى . فكثير من نكات أريسـتوفانيس تعرض المؤلف الحـديث الى الادانـة القضـائية ، وفى مسرحيته ليزيستراتا

(Lysistrata) يحول الغريزة الجنسية الى هدف درامى للمسرحية التى تهتم اهتماما جادا بشرور الحرب بالرغم من جانبها الهزلى المرح ٠

وليس للملهاة اليونانية علاقة بقاعات الاستقبال الرسمية ، اذ أنها تستمد قوتها من السفاهات المتداولة فى ساحة السوق ، وتستند راسخة على حقها فى تحقيق أقصى نفع من هذا السلوك ٠ ومثلما كان السعى الى الطقس القديم بهدف جلب الصحة والحياة الى التربة ، كذلك كان للملهاة التى نشأت عن هذا الطقس دورها فى تطهير نفوس جمهور النظارة من كثير من المتاعب بجعل هذا الجمهور يضحك من هذه المتاعب ويستخف بها ، فاذا ما تولت المأساة عن طقس خاص بالموت السنوى للاله فان الملهاة قد تولدت عن طقس خاص بمولده السنوى ، وبذلك قدمت تباينا وتناقضا لكل ما كانت ترمز اليه المأساة ٠

ويدين الشعر اليونانى بكثير من قوته الباقية لنظام الوزن والقافية الذى أتاح له مجموعة متنوعة من الأوزان تفوق على وجه التقريب اللغات الأخرى جميعها ٠ وأساس ذلك يعود الى أن الأوزان اليونانية لا تقوم على التشكيل ، وانما تقوم على الكم وعدد الفقرات ٠ ويعنى ذلك أن القافية ترتكز على وحدات تملى توازن المقاطع عن طريق الكم أو زمن نطقها وليس بالتوكيد وارتفاع النبرة ــ حتى أننا نجد بحر التفعيلة السداسية ذا البساطة المفرطة ، يتميز بدقة وصرامة يعز وجودهما فى الشعر التشكيلى ، إذ ليس هناك تشكيل من القوة الوافرة بحيث يستطيع أن يأتى بما يأتى به الكم ، فالوزن السداسى الانجليزى كثيرا ما يتعثر هو الآخر وتهون قوته ٠ فعدد الكلمات اليونانية معروف وثابت ، أما الحركة الانجليزية فمن الممكن تغييرها وفقا للذوق ، ويتميز التقسيم اليونانى للمقاطع الى طويلة وقصيرة بالحركة المطلقة وليس فى وسعنا التأكد تماما من مدى القوة التى يتميز بها التشكيل أو حتى التأكد من المقطع الذى يحمل هذا التشكيل ٠ ومن ثم نجد للغة اليونانية تنوعا فى اللحن ليس فى مقدور اللغات التى تقوم على التشكيل والاعراب ٠ ومن اليسير أن تكتب التفعيلة السداسية الانجليزية بل وبصعوبة قليلة نستطيع أن ننهج منهج ألكيوس وسافو فى انتاجنا ، لكنه من المحـال أن ننشىء عملا يماثل الأوزان المعقدة للشعر اليونانى الجماعى : مثل شعر بندار وأناشيد كتاب المأساة والملهاة مثل أريستوفانيس ويرجع ذلك الى سبب بسيط يتمثل فى أن الحركة الانجليزية تهبط فى تردد وتوجس الى الحد الذى لا نستطيع معه أن نعرف تماما أى نوع من القافية نحن بصدده ، بينما يختلف الأمر فى اللغة اليونانيـة لوضوحها الكامل وقوة توكيدها منذ البداية ٠

ان التنوع الغريب لأوزان الشعر اليوناني الغنـائي وقدرة هذه الأوزان على اتخاذ أشـكال جديدة تدين دون شـك الى كل من الرقص والموسيقى • وتعد المقاطع المتقنة لهذا الشعر جزءا من وحدة معقدة تسامت فيها أهمية الرقص والموسيقى بالكلمات وألف ثلاثتهم كلاما متناغما متماسكا فى وحدة مستقلة • ان كلمة « التفعيلة » التى ما زلنا نستخدمها كجزء من وحدة الوزن والتى نتبع فى استخدامها سابقة يونانية ، انما تشير الى شكل من أشـكال الرقص • لقد أقيمت التفعيلات الفردية مثل — الدكتيل والأنبسط والعميق والترويشـة — على وقع الخطوات الراقصة والتوازن بين الحركات القصيرة والطويلة • وكانت الموسيقى تتناغم مع هذه الخطوات أثناء أدائها ، مميزة ومتوائمة مع طابعها • ومن هذا الاندماج تولدت أوزان الشعر الغنائى اليونانى • ولم يكن يؤدى الرقص اليونانى بين مثنى وانما كان يؤدى بين أفراد يتعاونون فيألفون فريقا ، يؤدى كل فرد فيه تتابعا محكما من الخطوات ، قد يزداد احكاما كلما تقدم الرقص وتنوعت معه الموسيقى • وبفضل هذا لم تتدرب الأذن على الاستجابة لكل أنواع الحركات الايقاعية فحسب ، وانما دفعت أيضا بالأغنية المصاحبة الى اتباع هذه الحركات الا أنه بينما أتاح هذا الرقص تنوعا عريضا داخل مجال محدد ، فقد آكد كذلك على ضرورة الالتزام بالصرامة المستحكمة ، وهذا ما نجده فى بناء القصيدة الغنائية الجماعية • وبالرغم من أن لكل قصيدة من قصائد بندار اطارا مختلفا من الوزن ، فان كل قسم من أقسام بنائها الرئيسية ينسجم برغم جدته وبراعته الذاتيتين ، ومع كل قسم آخر بدقة لا تجيد ولا تخطىء • ومثلما صنف اليونانيون موسيقاهم فى أنواع مختلفة وألحقوا بكل نوع طابعـه وجوه ، كذلك قد نستطيع أن نميز من حيث الأوزان على الأقل بين ايقاعات الدوريين وايقـاعات أهل ايوليا ، اذ تميزت أولاهما بما تجلى فيها من حيوية قوية عارمة ، بينما اتسمت ثانيتهما بالعذوبة المنغمة المتسقة •

ويعنى هذا أن الأنشودة الغنائية اليونانية لم تكن غنائية بشـكل قاطع ، بمعنى أنها كانت تغنى على القيثارة فحسب وانما كانت جزءا من نشاط مجمع للصوت والرقص والموسيقى المصاحبة • فاذا ما أضفى عنصر الرقص على الكلمات تلك القوة الحية المؤثرة التى كان اليونانيون ينشدونها من الشعر ، فان تماسك شكل الوحدة الكلية أضفى كذلك على الكلمات معنى البناء والبقاء الذى لم يكن أقل ضرورة من عنصر الرقص •

لقد كان الشعراء اليونانيون مهيئين بما فى حوزتهم من وسـائل التكنيك الفنى لكتابة الشعر عن أى موضوع يبدو أنه ينطوى على العنصر الضرورى لمعنى الجمال ، ومن ثم أصبح لعملهم مجال فسيح بشكل فريد •

فنجد أعمالهم القصصية تحكي عن موضوعات تافهة لا أهمية لها مثلما تحكي عن العواطف الغاضبة الشرسة والأحداث العنيفة القاسية • ولا يرى هوميروس انجذابا فى صراع هيكتور الأخير أو قتل خطاب بينيلوب (Penelope) فحسب ، وانما تستهويه كذلك أنشطة عادية مثل اندفاع فوق ماء البحر فى المساء ، أو غلى الماء للاستحمام ، وطى الملابس ونشرها قبل النوم ، وغسل الثياب فى ماء النهر • وقد يكتب الشعراء الغنائيون وجيشان العواطف العارمة يمور فى كيانهم ، ولكن ذلك لا يمنعهم من الكتابة عن موضوعات بسيطة مثل الأزهار والأشجار ومزج الخمر فى الحفلات وتحليق الطيور أو تقلبات الجو • ان مثل هذه الموضوعات تجد طريقها فى يسر الى الشعر ، وذلك لأن الشاعر يدرك أن فنه ليس نشاطا معزولا ولا مقصورا على مجموعة خاصة من الموضوعات ، وانما يدرك أن عليه أن يستجيب لكل ما يحركه أو يثير عواطفه ، وأحيانا يتناول الشعر اليونانى فى الواقع موضوعات يتقاعس عن تناولها الشعر الحديث • فنحن على سبيل المثال نخشى من تناول موضوعات تعليمية فبالرغم من ميلنا الطبيعى الى التعليم الا أننا نتوجس خيفة من أى شعر له مذاق التعليم والتوجيه ، فنفضل شعر العواطف والأحاسيس المتميز على الموضوعات العامة والسياسية وننشد الأغانى ولا نسعى الى المواعظ ، وليس اليونانيون كذلك •

لقد استخدم هيسيود الشعر عند كتابته عن المحراث ، واستخدمه بارمينيديس Parmenides لشرح وحدة الكينونة ، واستخدمه أرخيستراتوس (Archestratus) لوصف مشهيات المائدة ، وفسر به امبيدوكليس (Empedocles) طبيعة العناصر • ونكاد نجد لدى كل شاعر مبادىء أخلاقية ، ذكرها بجسارة كما لو كان قد استهدف بها صلاح أمرنا • وقد تبدو هذه الحكم أحيانا تافهة مبتذلة ، وأحيانا أخرى تكاد أن تكون طفولية ، لكنها ليست أبدا زائفة أو بغيضة • واليونانيون مبرؤون من أية شبهة بشأن محاولة فرض رأى لا يروق لنا ، قد يجلبون الابتسامة بين الحين والآخر لكنهم لا يثيرون كراهية أو يبعثون على الضيق والتبرم •

وليس بنا حاجة الى أن نجأر بالشكوى من أنهم كتبوا عن موضوعات لا تتصل بالشعر بسبب ، وصحيح أن طبيعة المحراث والكون قد يكون من الأفضل اظهارها بأسلوب نثرى ، وأن السمك قد ينمو ويزداد على صفحات نص من النصوص ، الا أن هناك كثيرا مما يمكن ذكره حين الكتابة عنها بالأوزان السداسية ذات النغم العذب • ان الأسلوب والايقاع المنظم يضفيان على هذه الموضوعات جلالا وسحرا ، ويجاهد الشاعر ما استطاع فى أن يبعث فيها الحياة بما لفنه من محسنات تقليدية •

ويرجع السبب فى حدوث ذلك الى أن اليونانيين قد أفسحوا للعقل دورا كبيرا فى مجال الشعر ، الا أن هناك جانبا آخر لهذا الموقف يتسم بأهمية أكثر وتنوير أشمل • لقد زود اليونانيون الشعر بمصدر رائع من مصادر القوة . ذلك لأنهم كانوا ينظرون اليه باعتباره نشاطا عقلانيا • وضمنوه رأيا خطيرا مدروسا من آرائهم فى الحياة وتصوروا أن واجبهم فى الحياة أن يفصحوا بحق عما يعنون • ولهذا السبب نراهم يبثون فيه قوة لا تتأتى الا من التفكر الطويل المكثف • فعندما ينشىء اسخيلوس مأساة ، نراه يسخر الحدث لتوضيح التشريع الالهى الذى ينظم حياة البشر • ولا يتسم رأيه فى هذا التشريع بالأصالة فحسب ، وانما انتهى اليه بعد تأمل عميق فى شئون البشر ثم يجىء عرضه لهذا الرأى ثريا الى أبعد مدى بفضل اليقظة العاطفية والاهتمام الخيالى اللذين خلعهما على هذا الرأى • وليس هذا التشريع بأحكام تقليدية تم اختيارها دون مبالاة وتم عرضها دون أناة • انها وليدة ما فرضته عليه التجربة وغرسته فى أعماقه ، وفى معالجته الجليلة الفاحصة لهذا التشريع نجد قوة فريدة مرجعها الى اهتمامه المستميت بالبحث عن الحقيقة • ويختلف عنه سوفوكليس فى احتفاظه بآرائه مستخفية فى الأطواء وان كان يتيح لها الظهور من خـــلال شخصياته وحظوظ هـــذه الشخصيات • بيد أن حظوظ هـــذه الشخصيات تقدم أمثلة لمشاكل قضت مضجعة أمدا طويلا ــ مشاكل مثل الفرق الشاسع بين الخطايا الانسانية والمعرفة الالهية ، الصراع الناشب بين المعايير البطولية للسلوك والمعايير البشرية العادية والأوهام التى تعمى أولئك الذين يتولون السلطة دون استحقاق • ويرى سوفوكليس موضوعاته بأقصى وضوح وجلاء وقد أمعن التفكير فيها الى حد أصبحت معه جزءا من وعيه ، وعندما يبثها فى شعره تصبح أكثر ثراء بفضل الايحاءات وقوة التأثير الخاصة التى تنبع من الألفة الشخصية ذات الأثر الباقى •

ان انشغال اليونانيين بصفة الصدق فى الشعر يكشف النقاب عن جدية الهدف ونزاهته • وكثيرا ما نوقشت هذه المسألة وقد وجدت لها حلول متعـــددة المشارب • بيد أن اليونانيين كانوا يصرون على أن يكون للشعر عنصر قوى من الصدق • وبالرغم من أن هوميروس لم يذكر عن هذا العنصر شيئا ، وبالرغم من أننا لا ندرى الى أى مدى كان يعتقد فى صدق قصصه التاريخى ، الا أنه كان على الأقل حريصا كل الحرص فى بعض المواضع التى نستطيع أن نختبر صدقه فيها • فما زالت سهول طروادة تبدو الى حد كبير كما وصفها هوميروس دون تغيير ، بل وما زالت اتاكا (Ithaca) طبقا لوصف كبار النقاد وعلماء الآثار هى أرض

المعركة الصخرية الخفيضة ، وفى نواح كثيرة ما زالت أقرب ما تكون الى الشكل الذى عرفه أوديسيوس وأحبه ٠

أما هيسيود فيتصدى لهذا الموضوع بشكل أكثر صرامة ، عندما يدعى أن الهات الشعر قلن له : « نحن نعرف كيف نلبس الزيف رداء الصدق ، ونعرف أيضا عندما نختار كيف نقول الصدق » ، ونجد الجانب الحيوى فى هذا الاعتراف ممثلا فى تسليمه بأن الشعر لا يستطيع أن ينتزع نفسه بشكل كامل من عالم التزييف والصــدق ، بل انه دائمـا لا يميز بين الصــدق والتزييف ٠ وطالما طرح الســؤال فليس هنــاك اجابة واحدة ويعد بندار نموذجا تعليميا للشاعر الذى يشعر بأن عليه أن يقول الصدق ٠ وكان التراث يقتضيه أن يحكى فى قصائده الغنائية عن الآلهة والأبطال ، ولقد التزم بهذا النهج ، الا أنه كان حريصا ألا يقول الا ما يعتقد بصحته ٠ فاذا ما وجد بندار حكاية قديمة عن الآلهــة تضعهم موضعا مذموما ، انصرف عنها ونسـج تُرجمـة جديدة تكون أقرب الى التصديق ، واذا ما وجد قصة تحكى أن أبوللو (Apollo) قد سمع من غراب أخبارا ، صححها لمعرفته أن أبوللو اله النبوءات لا حاجة به الى غراب ينبئه الخبر ٠ وكان يدرك فى الواقع أن القصص القديم قد اشتمل على كثير من التزييف ، والى هذا يرجع السبب فى أنه لم يتعاطف أبدا مع هوميروس تعاطفا كاملا ، ويقول عنه :

على تزييفه ومكره المجنح يتربع

جلال مهيب ٠ اذ يحتال الفن ويخدعنا

بالحكايات ، وجموع الناس تعمى قلوبهم عن الحقائق ٠

لكنه كان واثقا أن الزمن كفيل بالتمييز بين الخبيث والطيب ، وأن أيام المستقبل شواهد حكيمة لا تخطىء التقدير ٠ لقد صده ورعه الطبيعى عن التسليم بأية قصــة تسىء الى الآلهة ، وأكد حقه فى أن يقول الصدق كما يراه ٠

ويتجلى هذا الموقف أكثر وضوحا فى الشــعراء الذين يتحدثون بضمير المتكلم عن أفكارهم الخاصة ، ومع ذلك فمن الممكن تطبيقه دون عناء كبير على شعر المأساة والملحمة ٠ فاذا لم يؤمن كتاب المأساة دائما بالحقيقة الحرفية للأساطير التى نسجوها مسرحيات ، كذلك لم يؤمنوا بالاضافات والتغييرات التى أضفوها على هذه الأساطير ، وانمـا آمنوا بكل تأكيد بأهميــة الموضــوعات التى عرضت من خــلال الحدث الدرامى كما آمنوا

بتفسير وأسلوب تناولهم لهذه الموضوعات · كان للشعراء اليونانيين فكرتهم الخاصة عن نوع الحقيقة التى كان فنهم يتطلبها · وفى القرن الرابع تصدى أرسطو لهذا الموضوع باخلاص وانصاف ، وعند مناقشته للفرق الكائن بين التاريخ والشعر انتهى الى استنتاج واضح محدد :

« ان الفرق فى الواقع يكمن فى هذه النقطة : فالتاريخ يصف ما قد وقع ، والشعر يصف ما يحتمل وقوعه · ومن ثم فالشعر أكثر فلسفة وجدية من التاريخ ، اذ يتحدث الشعر عن الكليات العامة بينما يتحدث التاريخ عن الجزئيات الخاصة » ·

ولم يكن الشعراء اليونانيون ليستخدموا مثل هذه اللغة ، وكثير منهم يندهش عندما يسمع أن أعمالهم توصف بأنها فلسفة ، الا أنهم مع ذلك كانوا يعتقدون أن الشعر له خطره الجاد · ومع ذلك فقد كان أرسطو على حق فى وصفه بالفلسفة ، اذ أن الشعر فى رأيه معنى يكشف الحقيقة · والحقيقة التى نحن بصددها كما رآها أرسطو ليست من الحقائق الخاصة وانما حقيقة المبادئ الكونية أو الخصائص العامة أو الاتجاهات العامة ·

وحتى فى حالة وجود أخيليس التاريخى وهو أمر ممكن بلا نزاع ، فان الأهمية التى يتسم بها عرض هوميروس لشخصيته لا علاقة لها بوجوده · فأخيليس الذى نعرفه هو فى الواقع شخصية عامة بمعنى أنه يجسد بشكل مقنع واف صفات من الممكن توافرها فى كثير من الرجال ، وان كان من النادر أن تكون على هذا المستوى من الوضوح وقوة التأثير · وحتى يتحقق للشاعر وجود هذا العنصر العام ـ عليه أن ينتقيه بدقة من الحقيقة الواقعة ثم يعرضه عرضا يتسم بتمييز دقيق حاسم · ومثلما أكد فنانو النحت على ما تصوروا أنه الخصائص الأساسية لموضوعاتهم على حساب ما هو عرضى وعفوى كذلك أكد الشعراء على ما تصوروا أنه الخصائص الأساسية للكائنات البشرية ، وأبانوا كيف تؤدى هذه الصفات الى نوعية معينة من النتائج فى مجال الفعل والمعاناة · ورأوا كذلك أنه لا بد أن يكون خلف التنوع المطلق لمسلك الانسان وحظه قوى تعمل ، ومن المستطاع بدرجة ما فهمها وعرضها فى شكل محسوس ، لقد تركزت فكرتهم عن الحقيقة فى اكتشاف هذه المبادئ واستجلاء تلك القوى التى تنشط بحق فى نفوس الأفراد ، ومن الممكن الوصول الى أفضل ادراك لها لو أمكن تجريدها من وضعها الخاص واظهارها من خلال مواقف تظهر مغزاها وحقيقتها بكل جلاء · وفى هذا المجال اتصفت فكرتهم عن الحقيقة الشعرية بالسخاء الفائض والرحابة الفسيحة · ورأوا أنها لا تكمن فى

مجرد الكشف عن القوى النشطة التى تحيط بالطبيعة الانسانية ، وانما تكمن فى التفهم الحانى للعناصر العاطفية والعقلانية التى ينبغى تصويرها وهى فى قوتها الأصيلة ، بمعنى أن للقلب حقيقته كما للعقل حقيقته أيضا ، وأن الشعر يتحرك عبر الاثنين بقدر واحد • وبالرغم من أن هذا المفهوم يتطلب فكرا ثاقبا وبصيرة مستبصرة ، فهو يتطلب أيضا قوى غريزية أكثر منها عقلانية كما يقتضى استجابة خيالية مباشرة للنزوات العديدة التى تمور فى الروح الانسانية وتدفعها الى غايات لا تعد ولا تحصى •

ان **هذه الحقيقة التى تعنى** أن القوة الخفية من المستطاع ادراكها ان عرضت في أشكال مرئية محسوسة ، تبين أن المأساة اليونانية واقعية بحكم أسلوبها ، اذ تتناول عواطف حقيقية ويهيمن على شخصياتها دوافع نحسها فى أنفسنا • وهى تقدم أحداثها بتقدير حذر للحقائق الجوهرية المحتمل حدوثها • وبالرغم من أن المأساة اليونانية تميل الى تحاشى الأحداث الرومنطقية والخارقة للعادة ، فان هناك ظروفا تقتضى ضرورة وجود هذه الأحداث للعقدة المسرحية • ثم تحول هذه الأحداث الى مواقف مقنعة مماثلة لواقع الحياة بقدر المستطاع • وعندما يعرض اسخيلوس على خشبة المسرح شبح ملك الفرس داريوس (Darius) ، فانه يتيح له الحديث بنبرة آمرة تتفق مع ملك الملوك ، ويبين أن المحارب العظيم وصاحب الأمر والنهى فى قومه لم يتخل حتى بعد موته عن العناية برفاهية شعبه • وقميص نيسوس (Nessus) الذى يرتديه هرقل وينتهى به الى نهاية مروعة ، هو فى الواقع عمل من أعمال السحر ، الا أن الدمار الذى يحل بهرقل يحكى لنا فى كلمات تكاد أن تكون اصطلاحات طيبة • وما يصاب به هرقل من خبل تنزله هيرا به لأمر مقنع ومأساوى للغاية ، اذ يتخذ هذا الجنون شكلا يدفعه الى قتل أطفاله معتقدا أنهم أطفال عدوه يوريثيوس (Eurytheus) • أما الوحش الذى يخرج من البحر لتدمير هيبوليتوس (Hippolytus) فلا يكاد يحظى بوصف محدد ، ومع ذلك يتركنا الكاتب نشقى بكابوس مروع ممثل فى ثور رهيب متوحش • وفى الفن الذى تعود مادته الى عصر لم تعرف فيه حدود بين الحقيقة والخيال ، نجد كتاب المأساة وقد بذلوا قصارى جهدهم فى بعث الحياة فى الأشباح وفى التقريب بقدر المستطاع بين الخوارق وما وراء الطبيعة وبين نشاط الطبيعة البشرية •

ان **الكائن البشرى والآلهة** بطبيعة الحال هما موضوع الأدب اليونانى ، اذ أن الآلهة تتصل بالحياة البشرية وتقوم بدور لا مندوحة عنه للحياة • ولقد احتوى الأدب اليونانى على قصص للحيوانات ، وبالرغم من أن هذه

القصص تنتمى الى فن بسيط خال من الخزرف ، فقد كانت أيضا تقص قصصا عن الكائن البشرى ، بمعنى أن الحيوانات المختلفة تكشف النقاب عن الخصائص الانسانية فى شكل حكايات خرافية ، من أمثال ما ينسب الى أيسوب (Aesop) . وصحيح أن جواد أخيليس تحدث يوما عندما تنبأ بموت سيده ، الا أن ذلك كان يرجع الى أن هيرا قد منحته النطق هذه المرة لا غير .

ان للكلاب والجياد فى الواقع مكانهم فى الأدب ، لكن ذلك لا يختلف عن مكانهم فى الحياة . ويستنفر هيكتور جياده الى مجهود عظيم للتعرف على الشعير والخمر اللذين قدمتهما أندرماك اليهم ، كما نجد كلب أوديسيوس العجوز منطرحا على كومة من الروث وقد امتلأ جلده بالقرادات (١) ويتعرف على سيده بعد غياب عشرين عاما ثم يموت لتوه . بل اننا نجد فى العالم الأسطورى الخيالى الذى ينتمى اليه تطواف أوديسيوس ، ميلا من جانبه الى أن يطبق على الكائنات البشرية ما يطبقه الفن الأقل تكلفا على الحيوانات . فعندما يقذف بأوديسيوس خارج البحر على جزيرة سكيريا (Scheria) ، تنقذه ابنة الملك نوزيكا (Nausicaa) وهى فتاة نجدها فى كل مرحلة تعيش فى ريعان شباب المرأة ، فتاة يافعة ، شجاعة بارعة ، ذات احساس مرهف . وتعرف هذه القصة فى رواية مصرية تعود الى مرحلة مبكرة جدا ، لكن الغريق فى القصة المصرية لا تنقذه أميرة وانما ينقذه ثعبان مهيب ، يبلغ طوله ثلاثين ذراعا ، جلده من الذهب واللازورد (٢) حتى بوليفيموس (Polyphemus) الذى هو فى الواقع حيوان كريه ، له جانبه الانسانى عندما نجده يتحدث حديثا ودودا الى كبشه .

ونجد ملكة ليستريونيا (Laestryonia) المتوحشة التى هى فى ضخامة الجبل ، تحاط بجو انسانى عندما يتحدث الشاعر عن رفقاء أوديسيوس « الذين كانوا يمقتونها » . ومثلما توضع الآلهة فى اطار بشرى ، كذلك توضع الحيوانات والوحوش ثم تطوع بقدر المستطاع حتى تتفق وهذا الاطار . وتكاد أفعالهم أن تحوز القبول ، ويعاملون كما لو كانوا قد اعتادوا أساليب البشر .

وبفضل شغف اليونانيين بالكائنات البشرية ، رأوهم فى بساطة ودون التواء ومداراة ، وقدموهم فى الملاحم وعرضوهم على خشبة المسرح

---

(١) القرادة حشرة تمتص دم الحيوانات .
(٢) حجر كريم ــ سماوى الزرقة .

بعين ثاقبة تجتلى خصائصهم • وكان احساسهم بجوهر الشخصية يختلف عن احساسنا ، اذ كانوا أقل اهتماما بدقائق وغرائب أطوارها وأكثر شغفا بسيماتها السائدة ، ويختلف أبطال هوميروس عن بعضهم البعض ، ولكل شخصيته المميزة التى نلم بأطرافها من خلال كلماته وأفعاله وتكشف هذه الأقوال وهذه الأفعال النقاب عن الأفكار والعواطف التى تقود خطاه ومن خلالها نحس وكأننا نعرفه • ويصح الحكم نفسه على أريستوفانيس وكتاب المأساة • ان ما تمارسه كليتامسترا Clytaemestra – احدى شخصيات اسخيلوس – من تأثير كبير لا ينشأ عن أى تعقيد نادر لمركبها النفسى ، وانما ينشأ عن الجرأة الرائعة التى تتسم بها تصرفاتها ، كذلك يتحقق هذا التأثير بفعل الكلمات الرنانة التى تخدع بها زوجها أولا وتسيطر عليه فيما بعد ، ثم تحقق بعد ذلك مجدها فى قتله • وبالرغم من أن أنتيجون تلقى حتفها بسبب ضميرها ، فانها ببساطة قد استغرقت فى تصديق نفسها الى الحد الذى لم تستطع معه استجلاء دوافعها بشكل محدد ، وانما تتصرف على هواها لعلمها أن ما تأتيه هو الصواب دون حاجة الى حجة أو برهان • وعندما يقدم يوربيديس فى مسرحيته ميديا (Medea) شخصية مأساوية فى صورة امرأة من البربر أذلها زوجها اليونانى ، يدرك الغضب الجامح الذى تتصف به رغبتها العنيفة فى الانتقام ، وان كان من الطبيعي أن تنبع هذه الرغبة مما عانت منه واحتملته•

ونحن لا نجد في الأدب اليونانى شيئا نقارنه بعقدة هاملت أو ريتشارد الثانى ، بل وكذلك بالدراسة النفسية الفاحصة التى تميزت بها كتابات تولوستوى Tolstoy أو بروست (Proust) ، ولا شك أن ذلك الى حد ما يرجع الى أن هذا الأدب يتحرك فى نطاق محدود نوعا • اذ كان لزاما على كل من المأساة والملهاة أن تحدث تأثيرها بشكل سريع فى نطاق حيز محدود ، وألا يداخلها أدنى شك فيما يتعلق بغاياتها • ولكن ينبغى علينا كذلك أن نعزو شيئا من هذا الاتجاه الى ما كان اليونانيون ينشدونه فى الانسان ، وقد كان هذا هو الجانب الجوهرى فى نظرتهم الكلية الشاملة•

لقد شغفوا بالانسان باعتباره كائنا خلق للعمل وهيىء له ، ودرسوا بعناية دوافع العمل ونوعية الانسان الذى سيؤدى دوره فى هذا العمل أو ذاك • ولم يركزوا اهتمامهم على « المساخر والفكاهة » ، وانما شغلوا بالأفكار والعواطف ، والتوحيد بينهما للارتقاء بهما الى نتائج محددة • وينطبق هذا الموقف حتى على تحليلهم المفصل الدقيق للشخصية ، بل وعلى توقعاتهم للدراسات النفسية المنظمة • وفى مأدبة أفلاطون عندما نجد ألسيبياديس يلقى خطابه الرائع فى مدح سقراط ، فان كل ما يعنيه

هو الدوافع الحقيقية التى تحض سقراط على العمل بشكل غريب غير مألوف ، ولا نجد فى تفسيره شيئا يتصف بغير الصراحة والادراك • وعندما كتب ثيوفراستوس Theophrastus « الشخصيات » كان مشغولا فى الواقع بغرائب السلوك الانسانى ، وقد صور هذه الغرائب بعين فاحصة لا تخطىء تحديد أوجه الشذوذ الهامة ، بيد أن هدفه ببساطة هو أن يبين أن مثل هؤلاء الناس ، انما يتصرفون وفق مبادىء أساسية فى طبيعتهم • وكان اليونانيون على وعى كامل بما يمور فى دمنا ولحمنا من نزوات ، وكثيرا ما أمتعهم ذلك وشغفهم حبا ، مثلما نجد هيرودوت يتحدث عن كاندوليس (Candaules) ملك ليديا قائلا « وان هذا الكاندوليس قد وقع فى شرك حب زوجه ، أو مثلما يتحدث أرسطو عن ذلك الانسان المبذر الذى يقدم عشاء فاخرا فى مستوى ولائم العرس » • ولا مندوحة للأدب عن هذا الرصد والتعليق وقد حظى اليونانيون من ذلك النصيب الأوفى • لكن اليونانيين توقفوا عند نقطة محددة ، فلم يهتموا بشكل عميق بالصراعات والتناقضات الفائرة فى الشخصية الانسانية ، وتقاعسوا عن تحليل أنفسهم تحليلا دقيقا مضنيا • وجدير بالأهمية أن نذكر أنهم لم يكتبوا اعترافات أو سيرا ذاتية • وصحيح أن ايون (Ion) من كيوس (chios) قد كتب فى القرن الخامس ذكريات ، الا أنه يبدو أنها تتعلق بآخرين أكثر مما تتعلق به ، وأن أول روح بشرية تكشفت لنا فى الأدب اليونانى بفهم ثاقب ليست يونانية وانما هى لعبرى من العبريين هو بول (Paul) من تارسوس (Tarsus) • لقد عنى اليونانيون فى الواقع بالكائن البشرى عناية هائلة ، لكنهم لم يوجهوا اهتمامهم الى ما يضطرم فى نفوسهم من تيارات يدركها المرء دون عناء ، وانما أحبوا أن يروا الناس منطلقين يعملون بحيث استطاعوا بعد ذلك أن يروهم على حقيقتهم دون تحليل مقلق محير لالتواءات النفس •

ان اهتمامهم بالحقيقة كما تجسدها الكائنات البشرية ، يعنى أن الشعر اليونانى ليس بأية حال شعر الهروب • لقد أدرك الشعراء أن دورهم يتمثل فى تفسير التجربة وذلك بعرضها فى أشكال فردية فى مقدور كل فرد أن يربط بينها • ان التقوقع فى الأحلام معناه التقاعس عن واجب رئيسى ، ولم يخاطر يونانى بشطحات خيالية مطولة مثلما فعل أوفيد (Ovid) بكتابته عن كائنات ممسوخة ، أو أرسطو فى أورلاندو فوريوزو Orlando Furioso تلك الكتابات التى اختلطت فيها الحقيقة والأحلام اختلاطا لا تمييز معه فى جو من الايهام الذهبى • لقد استبدت بهم بحق رغباتهم فى الهروب لكنهم أدركوا حقيقة قدرهم وتعاملوا مع هذه الرغبات بحذر ووعى كما نرى عندما ارتاعت جوقة يوربيديس لانتشار عوامل

الذعر حولهم وتمنوا لو كانوا طيورا يستطيعون أن يطيروا الى نهاية العالم . لكنهم يعرفون أن الرغبة ليست رغبة ، ومن ثم يرتدون عن هذه الرغبة الى الحقيقة الواقعة . وعندما رغب اليونانيون فى الذهاب الى أقصى حدود الخيال ، تصوروا منظرا بسيطا مثل الذى نراه عند سوفوكليس :

ان حديقة أبوللو العتيقة تقع خلف كل البحار ،
خلف نهاية حدود الأرض ، ومنبع الليل وفيما
وراء قبة السماء الزرقاء الفسيحة .

كل شيء واضح يكاد أن يكون مصورا على خريطة . وكان لجهود اليونانيين فى استطلاع أشياء خلف المشاهد الفانية ، الفضل فى جعل هذه الأشياء مماثلة للحياة بقدر الامكان . لقد ركزوا على أكثر جوانبها اشراقا وجلاء ، واختاروا التفاصيل بعناية ، وفى النهاية توفرت لديهم صورة ان لم تكن صورة للحياة بالفعل ، فقد كانت على الأقل شبيهة بالحياة . وبكل تأكيد مفعمة بعناصر الحياة والحيوية . وحتى فى المحاكاة الكونية لأريستوفانيس التى فيها كثيرا ما يستخف بقوانين الطبيعة — نراها تعج برجال ونساء أصلاب لهم شهية قوية ومفردات من الكلمات العادية المألوفة . ولم يفقد اليونانيون قط قبضتهم على الحقيقة .. حتى فى أكثر شطحات الخيال جسارة وانطلاقا . بل كانوا فى الواقع كلما أوغلوا فى البعد عن الحقيقة ، ازداد انشغالهم بالاتصال بها والوقوف عليها ، كأن الشعر لا يعود شعرا ان فقد اتصاله بالشخصيات الواقعية وأعمال البشر .

ولعلنا نقدم سببا واحدا على الأقل نعلل به هذا الاتجاه . لقد أدرك الشاعر اليونانى ادراكا كبيرا أن مستمعيه ليسوا فئة مختارة من الضلعاء(١) فى الأدب مثله ، وانما هو جمهور للشعر فى حياته مكان مقبول ، جمهور يختص بمجموعة الاهتمامات العادية كبقية الناس . ولم يكن الشعر أمرا فريدا أو غريبا يتطلب نمطا عقليا قد هيء تهيئة خاصة . وكان الشاعر يغنى لأقوام لهم أذواق متنوعة وأنشطة مختلفة ما شغلتهم مشاكلهم ، فانتظروا من الشاعر أن يقص عليهم شيئا لا يجانب الحقيقة ولا يجافى الصواب ، وانما له بتجاربهم صلة وسبب . وقد تحتوى قصصه أيضا على عناصر غريبة كل الغرابة ، ولكن دوره يتمثل فى جعل هذه القصص واقعية يجيزها العقل بقدر المستطاع ويحكى لنا سوفوكليس فى مسرحيته

---

(١) جمع ضليع — وتجمع أيضا على ضلاع .

« أوديب ملكا » حكاية قديمة مروعة عن انسان يكتشف أنه قد قتل أباه دون قصد وتزوج بأمه · وقد يفزع الذوق الحديث وينقبض مما لهذه الموضوعات من ذعر مروع ، وما تنطوى عليه من استحالة التصديق · وليس كذلك سوفوكليس الذى يبين بشكل كيف وقعت هذه الأحداث ويحكى أوديب كيف قتل أباه فى مكان موحش ، وهو لا يدرى من هو · لقد هدده الشيخ العجوز ، ودافع الشاب عن نفسه ودم الشباب يغلى فى شرايينه · وحتى عندما يستعيد القاتل وقائع المواجهة فلا يستطيع أن يتذكر الا قليلا من أحداثها المثيرة · ونرى أمه على خشبة المسرح بعد أن تزوج منها ، وبينهما علاقة تتصف بالصدق ورقة المشاعر · وتولى جوكاستا (Jocasta) أوديب عناية شأن الزوجة التى تكبر زوجها . بل وتحاول أن تواسيه بكلمات حانية عندما تراه نهب الشكوك والهواجس القاتمة · انها زوجته وأمه فى آن واحد ، تتحدث اليه بود طليق وتحرص الحرص كله على ألا تراه يعانى عنتا · وليس هناك من شىء أكثر موافقة لجوهر هذه الطبيعة من ذلك الموقف عندما تتحقق جوكاستا من الحقيقة المروعة ، التى هى زواجها من ولدها — ثم تغادر المسرح لتقتل نفسها وهى تقول ·

واحسرتاه ، واحسرتاه ، يا صاحبة
القدر النحس ، هذا هو الاسم الذى
اطلقه عليك ، وليس غيره
يطلق عليك بعد هذا اليوم ·

ولا يوافق سوفوكليس على الاحتمالات التى تضمنتها القصة القديمة ، ويحاول أن يفهم كيف أمكن لها أن تحدث ، وما هى عناصر الصدق التى يستطيع أن يعثر عليها فى هذه الأحداث · فهو يعرضها مثلما وقعت حقيقة ، ولعلنا نقول أنه يعرضها كما تيسر لها أن تحدث · ولسوف يرى مشاهدوه المفعمون بالحياة ومعرفتها ، ان كان على حق ويدركون ما يعنيه ·

ومن الخطأ أن نفترض أن الشعراء اليونانيين العظام كانوا يضحون بأى شىء من أجل تملق عواطف الشعب ، أو لتبسيط وتيسير فهم ما يكتبون · وعلى النقيض من ذلك تميزوا بالحصافة والرصانة ، وانتظروا من مشاهديهم الارتقاء الى مستوى ما يكتبون · ولم يقدموا أى تنازلات بهدف امتاع آذان السوقة من المشاهدين · ولعلنا نرى التكامل والاستقلال الفكرى فى تمسكهم المتين بأفكارهم وقناعتهم ، وفى تصميمهم على ذكر

الحقيقة بأى ثمن ، وفوق كل شيء نرى ذلك كله متجليا فى أسلوبهم .

ان كتاب المأساة الأتيكيين الثلاثة لم يتخذوا لكتابتهم الا ما يمكن أن يسمى بلغة شعرية ، وكان لكل منهم خصائصه الخاصة ، بيد أن كلا منهم تساوى مع الآخر فى بعده عن اللغة المتداولة بين عامة الناس . ومن العسير علينا حقا أن نرى كيف يستطيع المشاهدون أن يشتركوا فى أغنية جماعية لأسخيلوس يسمعونها للوهلة الأولى ـ وعصى على ادراكنا كذلك أن نلم بما تزخر به كتابتهم من عبارات مثقلة مركزة بشكل كثيف . واستعارات وفيرة قوية النفوذ والأثر ، ذلك بالرغم مما يتوفر لدينا من وسائل البحث وما تحت أيدينا من وقت متسع غير محدود . وقد يبدو لنا الى أى مدى من الصعوبة كانت هذه الكلمات بالنسبة لسواد الناس وهم يسمعونها تغنى ولأول مرة . ومع ذلك لم يحظ اسخيلوس بمجرد التبجيل وانما تمتع كذلك بالحب ، تمتع بحب كان من الوفرة فى الواقع بحيث استطاع أريستوفانيس أن يستشهد بكلمات عفوية من كتاباته لعلمه أن الناس سيتعرفون عليها ، وأن يوليه حقه من ذلك الثناء الذى لا يمكن أن يكون حقيقيا الا عندما يكون الشاعر من أولئك الشعراء المقلدين المعروفين والمتمتعين بالاعجاب . وليس بد من أن محاكاته لأسلوب اسخيلوس قد أثارت الضحك بين كثير من الآلاف الذين استمعوا اليها .

لقد تميزت هذه المحاكاة بكل الحب والتقدير ، وبرزت الى الناس مدعمة بمزيد من القوة ، اذ أن المشاهدين كانوا قادرين على أن يضحكوا على أى موقف عرفوه من قبل وحظى باحترامهم .

لقد فهم اليونانيون شعراءهم ، وهذه الحقيقة وحدها أمر جدير بكل الاعتبار وكانوا بطبيعة الحال أذكياء ما فى ذلك شك ، وليس بنا حاجة الى تعليل أو تبرير لذكائهم ، بيد أن كثيرا من الأذكياء لا يفهمون الشعر ، وفهم اليونانيين له فى أكثر تراكيبه تعقيدا لا يعود فقط الى ذكائهم ، وانما يرجع الى تدريبهم على الشعر منذ نعومة أظفارهم . فلم يتعلموا أثناء حياتهم التعليمية لغات أجنبية ولم يتعلموا على وجه التقريب العلوم الطبيعية ، ودرسوا قليلا من الجغرافيا والتاريخ ولم يدرسوا الاقتصاد على الاطلاق . لكنهم تعلموا الموسيقى والشعر ، وعندما كانوا ينصتون الى عمل شعرى كانوا يفهمونه بما يكاد أن يكون تلقائية غريزية نتيجة التدريب المبكر والتمرس الطويل . وكانوا مهيئين تهيئة لا تتاح الا لنقلة ، مهيئين لأن يفهموا تعقيدات وصعوبات فن ناضج يكاد لا يتوفر الا لذوى الخبرة .

واذ عرف الشعراء أن الناس سيفهمون ما يكتبون أفاضوا بأحسن ما لديهم واستمدوا من شعورهم قوة هائلة دون نفور أو تجاف لذوق جمهورهم · ولم يكن هناك سبب يدعوهم الى الدفاع عن فنهم لكونهم شعراء · ولم يكونوا فى حاجة لانفاق الوقت فى تفسير موقفهم · فان مثل هذه المقدمات التمهيدية كانت من الأمور المسلم بها · لقد اتفق الشاعر وجمهوره على مسائل أساسية ولم يخالجه احساس كما كان يحدث للشعراء فى عصور أخرى بأن عصره عدو للفنون ، الأمر الذى يحول دون الاتيان بأفضل ما لديه ·

ان انتشار الشعر بين طبقات الشعب فى اليونان ، لأمر يدعو الى كثير من النظر والاعتبار ، اذ أنه كان يكتب عادة بما يمكن أن يسمى لغة متكلفة · فان الشعر اليونانى كله مكتوب بلغة كانت تستخدم للشعر ولا شىء غير الشعر ، وذلك باستثناء قلة من الشعراء الغنائيين من أمثال سافو ، ألكيوس وأناكريون الذين كتبوا أشعارهم الى حد ما بلغة الشعب العامية · وقد يكون رد الفعل الأول الذى تشعر به تجاه هذا الموقف احساسا يعلوه الفتور ، اذ ربما نشعر أن مجرد كلمة لغة متكلفة تشجب الشعر ، وأن أصدق الشعر هو ما نجده فى أنغام محلية فى لغة خالية من التكلف والصقل ·

أما الآن فالشعر اليونانى فى الواقع لديه القدرة على البساطة السامية وتجاوز الاستعارات والصور الخيالية ، والارتقاء الى مراق رائعة خالية من الزينة والمحسنات ، حيث يخلف وراءه البهرج والزخرف ، وتنطلق فيه العاطفة بقوتها المجردة من أردية التزييف والتعمية · ونحن نجد أوديب عندما يبدأ فى اكتشاف مصيره يصيح قائلا :

أيها الاله زيوس ، أى
تدبير قد دبرته ليحل على ؟

ونجد هيبوليتوس عندما يعرف ساعة موته أن حاميته آرتميس لا تقوى على عونه يقول :

انك بكل استخفاف ودون اكتراث
تتخلين عن صحبتنا الطويلة

بيد أن لحظات البساطة الرفيعة ما هى الا نتاج أسلوب لغة متكلفة ، ويزداد تأثير هذه اللحظات قوة وروعة ، اذ أنها تتقطر صافية من هذا الأسلوب · ان معظم الشعر اليونانى مكتوب بلغة تتألف من كلمات قديمة وكلمات غريبة وتركيبات جديدة وكلمات أخرى من لهجات مختلفة ، لغة

تنتشى بالاستعارات والتشبيهات وليست فوق الاطناب والصور المجازية ، مثلما نجد أسخيلوس يتحدث عن التراب فيقول « التراب : هو جار الوحل وأخته الأولى » ، ويسمى بتدار الالهام : « المشحذ الوهاج على طرف اللسان » . بل اننا نجد هوميروس ، أستاذ التعبير الصادق المباشر يستخدم لغة لم يكن فى الامكان تداولها والتحدث بها ، وانما خلقت بأكملها لأوزان الشعر البطولى .

ان قرونا من الانتقاء الخلاق قد هيأت له نعوته الرائعة مثل وصفه البحر بعبارة « له الدوى العالى » ووصفه الموت بعبارة « الذى يرقد متمددا » . والفجر بقوله « ذو الأصابع الوردية » ، والرمح « ذو الظل الطويل » . وقد أمدته هذه القرون الطوال بعدد كبير من المترادفات والصيغ البديلة لتتواءم على وجه التقريب مع كل المطالب الممكنة لأوزانه . وكانت لغة الشعر اليونانية محصلة ابداع فنى ، وأبعد ما تكون عن نموذج الأسلوب الشعرى لوردزورث (Wordswarth) .

ان جوهر الأسلوب الفخم كما هو حال أسلوب اللغة اليونانية ، انما يهدف الى التسامى بالتجربة والارتفاع بها فوق أفكارها العادية . وطبيعى أن تتعرض هذه التجربة الى مخاطر نابعة من ذاتها . ونحن نجد حتى عند أفول العصر العظيم توافه تجانب الصواب فى كتابات ثيموثيوس (Timotheus) الذى يطلق عليه الاسنان « أطفال الفم البراقة » ويطلق على المجاديف « أقدام السفينة ذات المولد الجبلى » . وفى مثل هذا الزخرف الأجوف يذبل الأسلوب العظيم ، ويذوى فى طرائق من الأسلوب المتكلف البغيض ، الا أننا لسنا فى حاجة الى أخذ هذه الأساليب فى الاعتبار حين تقييمنا لأفضل الانتاج . فالكلمات الرقيقة انما تختار لرنينها ، والعبارات الموحية تستطيع أن تأتى بما لا تستطيع أن تأتى به دائما الكلمات البسيطة الخالية من الزخرف . اذ تضفى الكلمات الرقيقة والعبارات الموحية جوا من الغرابة والجلال ، وتبين أن تجربة الشاعر ليست مثل تجربة الآخرين من الناس ، وتحتاج الى أدوات من التعبير الخاصة . وليس من الضرورى أن تتسم مثل هذه الكلمات بالابهام والغموض ، وهى كذلك فى اللغة اليونانية ــ اذ نادرا ما تتصف بالالغاز والابهام ، ومن خصائص الأسلوب الضخم : انه يستطيع أن يظل على صلة بالحقائق الواقعة ، وأن يبين هذه الحقائق بكل ما لها من روعة حقيقية . فعندما يجعل هوميروس أخيليس يقول ان بينه وبين موطنه : « جبال تمتد ظلالها وبحر يتردد صداه » . انما يستخدم ألفاظا بعيدة كل البعد عن لغة الحديث المتداول . ومع ذلك فهى ألفاظ صحيحة ملائمة بل وتتصف بالفخامة كذلك . وليس الأمر قاصرا على مجرد اختيار الصفات اختيارا صادقا موفقا ، بل ان العبارة

بحركتها الشاملة الكاملة تنقل تأثيرا نافذا واحساسا لا يقاوم بالبعد والانفصال ، انها تجسد ذاك البحر وتلك الجبال الواقعة بين أخيليس وموطنه ٠ ان هذا الأسلوب ، أسلوب تقليدى لكنه ليس جامدا متحجرا ، وينطوى على امكانيات هائلة من امكانيات التطور والازدهار ٠

قد التزم كل شاعر جديد فى عمله بالخطوط التى صار عليها سابقوه ، لكنه أضاف على مفرداته جدة ، واستخدم العبارات القديمة فى سياق جديد مزود بتنويعات ناجحة ٠ ومن ثم تحاشى الأسلوب الفخم أخطر مخاطره ـ ذاك هو الجمود والتحجر ، واحتفظ بحيويته ، اذ أن الذين استخدموه كانوا يدركون أن غرضه هو أن يحقق تأثيرا ، ويضفى متعة ويفتن الآخرين ، الذين تدربوا على سماع الشعر ، وانتظروا أن يوافيهم بلذة رفيعة ذات طابع خاص ٠

ان كلا من التراث الطويل الذى عزز بقاء الشعر اليونانى والفكرة التى سلمت الحاجة الى هذا الشعر كانتا من الأمور التى ارتبطت بالدين ارتباطا وثيقا ٠ فلم يقدم الشعر للدين خدمة بسرد القصص عن الآلهة فحسب ، ولكنه أيضا جعل من الدين أمرا حقيقيا أكثر صلة والتصاقا بفضل عرضه الملموس المتماسك للقوى الغير منظورة فى نشاطها داخل الانسان وخارجه ، هذا ما يصنعه الشعر دائما على نحو من الانحاء ٠ اذ يعرض فى شكل محسوس جلى ما لا يمكن التعبير عنه بلغتنا اليومية البسيطة ٠ واستطاع اليونانيون أن يتيحوا للشعر مجالا فسيحا متميزا ، وذلك لأن عالمهم كان يزخر بموجودات غير مرئية ، رغبوا فى فهمها وادراكها ادراكا يتفردون به ٠ بل اننا نجد أكثر قصائدهم واقعية توحى بآفاق تجاوز المنظور المباشر والقوى المطلقة التى تتأبى على التحليل الدقيق ٠ ويعود قدر من قوة الشعر اليونانى الى الجهد المبذول بهدف ادراك هذه القوى واظهارها ، وهى فى نشاطها بأسلوب جلى مقنع ٠ ان العاطفة والصدق اللذين يتسم بهما هذا الجهد لا يسعهما الا أن يزيدا من سحر هذا الشعر وأن يضفيا القوة على تلك المزايا ـ التى تجعل منه شعرا فريدا فى بابه ـ بيد أن البحث عن المجهول ظل قويا كما كان دائما ، اذ أن اليونانيين كانوا مفتونين بالعالم المرئى وبخاصة عالم البشر ٠ ان الذى دفعهم الى البحث عن المبادىء الكامنة خلف مشاهدتهم هو ذلك الفضول الشامل الفياض بالحيوية والطاقة ٠ وعندما كانوا يكتشفون هذه المبادىء ويصيغونها فى عبارات جليلة ، كانت المشاهدات المرئية هى التى تحظى بالكثير ، اذ أن اكتشافها كان يقوم على أساس من القاوة الرصينة التى لا ينالها التلف ، الأمر الذى أعطى للناس تبريرا يبررون

به متعهم الفائضة ، ورغبتهم فى ادراكها بكل ما للملكة الخيالية من قوة كاملة .

وتنبع القوة الفريدة للشعر اليونانى من اهتمامه المتحمس بالعالم الحى ، ورغبته فى أن يرى هذا العالم بكل أعماقه وثرائه ، ورغبته فى اجتياز الموقف المباشر الى ما يكون خلفه ، والتمتع بحالة التنوير التى يضفيها الشعر على الكائنات العادية المألوفة .

الفصل الثامن

الفصل الثـامن

الرؤيا من خلال الفن التشكيلى

ان منزلة الشعر فى الحياة اليونانية كانت تضاهى منزلة الفنون المرئية • وبالرغم من أنه لم يكن أحدهما أقل من الآخر أو تابعا له ، بل مضى كل فى طريقه داخل حدود أداته التعبيرية ، الا أن اليونانيين أدركوا أن هناك عنصرا جوهريا مشتركا بين الشعر من ناحية وبين الرسم والنحت من ناحية أخرى • وذكر هذا الموقف سيمونيديس (Simonides) بايجاز واحكام عندما قال « الرسم شعر صامت ، والشعر رسم يتحدث » •

ويفترض هذا الاتجاه مهمة مشتركة وغاية واحدة ، ويعترف بأن كلا من الرسم والشعر فروع واحدة من فروع الحكمة • تروق لنا بأساليب ليست متباينة تباينا شاسعا • لقد نظر اليونانيون الى فنانى النحت والمصورين على أنهم فنانون مثل الشعراء ، مهمتهم الأولى هى التمكن من وسائل فنهم • فلو أن الشعراء اعتمدوا فى الهامهم على آلهة الشعر ، فان الفنانين كانوا خدما لالهة أثينا التى وقفت بجانبهم تعلمهم أو تستحث طاقاتهم ، لقد تناولوا جميعا نفس الموضوعات • واذا ما تناول كثير من فن الرسم والنحت موضوعات من عالم الأسطورة البطولية ، فقد تشابه مع الملحمة والمأساة ، واذا كان الرسم والنحت قد كرما أفرادا من النساء والرجال واختار كل منهما مشاهد من الحياة اليومية ، فقد كان هناك نظير لهما فى الملهاة والشعر الغنائى • ولئن كانت الفنون المرئية بحكم طبيعتها لا تستطيع أن تكشف عن تماثل وثيق مع اللغة الرفيعة التكلفة التى يتسم بها معظم الشعر اليونانى، فانها تستطيع أن تضمن تأثيرا مماثلا من تأثيرات

التجرد والتباعد بفضل تحاشيها للواقعية المفرطة والعرض الميلودرامى المثير . فبالرغم من ان الفنون المرئية تقوم على أساس من المشاهد الحية ، وتستقى منها مادتهــا بلا قيود ، فانها تهدف الى ما يجاوز حدودها ، محاولة كشف النقاب عنه بانتقاء ما تتصور أن له أهمية وعلاقة حقيقية وثيقة . وعندما إستوفى أفلاطون فى القرن الرابع نظرياته فى الفن ، طبقها جميعها على الشعر والرسم والنحت دون تفريق ، وقد اقتفى بعمله هذا أثر الفكرة التقليدية ، التى تقول بأن كل الفنون وثيقة الارتباط بعضها ببعض ، وينبغى أن نتعامل معها تعاملا موحدا نظرا لاستخداماتها الاجتماعية والأخلاقية .

ان النحت والرسم مثلهما فى ذلك مثل فن العمارة الوثيق الصلة بهما ، قد تطوروا فى وقت متأخر عن الشعر وافتقروا الى الارتباط المتصل بالماضى المسينى الذى أيد ازدهار الملحمة . وقد تطلبت هذه الفنون أدوات قادرة . ولكن طالما كانت هذه الأدوات فى المتناول القريب ، فقد أيدت الظروف الطبيعية التقدم السريع . ان المدد الوفير من الرخام وحجر الجير من المستطاع تحويله الى أى احتيــاج يعن للبنــاة وفنــانى النحت . وما يصنع من هذه المواد يستهين بهجمات عوامل الجو ويكتسب ظلالا جديدة وأنغاما وتركيبا متماسكا بمضى الزمن . ان ما تعرضه هذه الأبنية من خطوطها العريضة ذات الحدود الواضحة فى مواجهة السماء ، يجعل منها خلفية مؤثرة وملائمة لحياة ينفق كثير منها خارج المنازل ، كما يقـــدم الشكل الجغرافى المتنوع للمناظر الطبيعية مواقع درامية لاقامة المعـابد على صخور فوق وديان سحيقة مثل معبد أبوللو فى دلفى ، أو على قنن الجبال المواجهة للبحر مثل معبد بوسيدون (Posidon) فى سانيوم (Sunium) . أو على تلال صخرية ترتفع فجأة من السهول مثل معبد الالهة أثينا فى أثينا ، أو على جبل يتوسط جبالا أخرى مثل معبد أبوللو فى بساى (Bassae) وتدل الأبنية اليونانية بلونها وتركيبها عـلى الأرض التى قدت منها الحجارة ، وترتفع فى الهواء وبينها وبين مـادة بنائها صلة وتجانس وتتشرب واجهتها ذات البريق الجميل شعاعات الشمس عند شروقها وغروبها فتتخذ منها ألوانا جديدة ، بينما تحتفظ واجهتها وقت العاصفة والظل ببعض من بريقها متحدية بذلك العناصر المتغيرة فيما فوقها وحولها . لذلك نجد فن النحت اليونانى قد اتخـذ مكانه بشكل عام فى الهواء الطلق أو على الواجهات الخارجية للمعـابد مبينا عمقه الكامل ومظهرا السهول المتنوعة المترامية فى مواجهة الضوء الثاقب .

أما الرسم الذى هو فن يمارس بشكل أساسي داخل المنازل ، فقد بدأ بمجموعة محدودة من الألوان ، ولعل سبب ذلك يعود الى عدم اكتشاف المواد التى تمدنا بالتنوع الكبير ، فقد أدى غياب هذه المواد الى اخضاع هذه الألوان لرسم حاد عاطل ، من الزينة ، معتمدا على الضوء اليوناني فى تخفيف حدة ألوان لو تبدت فى أجواء ضبابية لكانت مؤثرات غاية فى الحدة والعنف .

وكان اليونانيون عادة يطلون تماثيلهم الحجرية ، وبهذا جعلوا الصلة بين فن النحت والرسم أكثر قربا . لقد كان الشكل واللون والخط على حد سواء فى انسجام مع البيئة الطبيعية ، وقد راق ذلك كله للعين التى اعتادت رؤية هذه البيئة .

وبالرغم من أن الفن اليونانى يدين بكثير من موضوعاته للأسطورة والخرافة الا أنه ليس فنا حرفيا بالمعنى الضيق المتشدد لهذه الكلمة . ولا يعتمد على ما يكون للشعر من قدرة على تداعى الايحاءات الغير مباشرة، وانما يعتمد على عرض المشاهد للعين بشكل مباشر لما تتصف به هذه المشاهد من شكل مرئى . ونتاج هذا الفن أعمال كاملة بذاتها ، يستجيب لها بشكل غريزى مباشر أولئك الذين تم من أجلهم ابداع هذا الفن — وليس ذلك معناه أن الفن اليونانى لا يخاطب الا حاسة التصميم والتخطيط ، أو أنه لا يعبأ الا بالتنظيم المخطط للأجسام الملقاة فى الفضاء انه يولى هذه الأشياء عناية عظمى ، لكنه انما يفعل ذلك باعتبارها أجزاء من الكل الأكبر والأشمل . وغالبا ما يقص قصة على طريقته ، أو على الأقل يقدم لحظة حية من لحظات الحدث القوى العارم . لكن جاذبيته تختلف عن أية جاذبية يأتى بها سرد القصص ، ويعتمد على استجابتنا الوجدانية الكاملة لانطباعات مرئية معينة ، ويقدم كل ذلك بطريقة ندرك بها مغزى هذه الانطباعات وطابعها الجوهرى ، وذلك من خلال عمليتين فى وقت واحد من عمليات عقولنا وعيوننا . وليس يعنينا من هذا الفن أن تكون موضوعاته درامية أو جذابة أو مبهمة وانما الذى يعنينا هو التأثير الكامل الذى يحدثه فينا تصوير هذه الموضوعات . ويعبر منظر أتيكى : لجندى منهوك القوى عن احساس قاهر من أحاسيس الانهاك ، لكل جزء من أجزاء جسده — فى رأسه المتدلية ، ذراعيه القابضتين على صدره ، وركبتيه المنحنيتين ، فعندما يقتل أخيلس بنثيسليا (Penthesilea) تتكشف لنا قوته الكاسحة وانهيارها العاجز ، فى قبضة ذراعه القاسية واسترخاء جسدها المنبسط .

لقد نظر اليونانيون الى الجسد باعتباره قادرا على التعبير عن نفسه

مثل : الوجه وله وسائله الكثيرة المتنوعة لهذا التعبير . فاذا ما زود الشعر فنى الرسم والنحت بموضوعات كثيرة ، فلا يعنى ذلك أنه قد فرض على هذين الفنين أفكاره الخاصة أو أنه قد حدا بالناس الى أن ينظروا اليهما على أنهما مجرد وسائل ايضاح للكتب . لقد كان الشعر والفنون المرئية متممين لبعضهما البعض فى رؤية مشتركة للحياة ، لكن كلا من الشعر والفنون المرئية بقى متميزا مختلفا عن الآخر ، مستنفدا أقصى طاقاته فى محيط مجاله . ومادامت الفنون المرئية ملتزمة بمملكتها الخاصة فلم يكن هناك حاجة الى حمل هذه الفنون على الاتيان بأى شيء أكثر من انجذاب العيون انجذابا مباشرا .

ان كلا من فن النحت والرسم اليونانيين يثير بطريقة خاصة سؤالا حول مكان العواطف من الفنون الجميلة ، فهما بكل تأكيد يكشفان عن هذه العواطف فى أعمالها بل يبعثان هذه العواطف داخل نفوسنا — بيد أن استجابتنا ليست عاطفية بشكل مطلق . ان ما نشعر به نحو محارب يحتضر فى تمثال من ايجة أو أكيتون تلتهمه كلابه ليس نهاية المطاف شعور الألم والأسى أو الشفقة . وقد تكون هذه الأحاسيس هى أول رد فعل مباشر يصدمنا إلا أنها سرعان ما تسمو لتتحول الى شيء آخر هو فى الواقع حبور بهيج .

ونجد الفن اليونانى على الأقل فى الفترات الكلاسيكية القديمة مهيمنا على موضوعاته بحيث يجاوز التصوير الواقعى الطبيعى الى مجال آخر . ويتحكم الفن فى كل ما هو مؤلم فوق الاحتمال ويبدله تبديلا بحيث لا يسبب تعاسة وانما يثير ابتهاجا . ان التجربة الجوهرية التى يقدمها مستمدة فى الواقع من المشاهد الحية لكنه يضفى عليها نظاما ونسقا بحيث تؤثر فنيا تأثيرا لا يتيسر للمشهد الحى كما أن انتصارات الفن اليونانى ليست فى الواقع قاصرة على الجسد الانسانى — ان الثنيات الطويلة المتدلية من ثوب سائق مركبة دلفى ، أو طيات أثواب نساء عرش الليودوفيزى (Ludovisi) معبرة ممتعة بشكل مثير حتى لو لم يتوفر لها عنصر العاطفة والفن الدرامى ، وفيها نجد المادة الجامدة التى لا تثير عادة الانتباه قد قدمت بتناغم جديد حقق لها جاذبية جديدة . حتى الموضوعات الانسانية الحية ليست دائما بحاجة الى أن تكون بذاتها مثيرة أو فريدة فى نوعها . ان حامل العجل فى قلعة أثينا لا يذكرنا بأساطير أو طقوس ولا يوحى بأى تاريخ شخصى ، ومع ذلك يحقق امتاعا مرضيا الى أسمى درجة . وتقع التفاصيل البسيطة فى تصميم شامل محكم ، وتتبدى الحالة السائدة للقوى الهادئة فى كل من الوجه والقبضة الواثقة للذراعين

على حد سواء ، ويطابق العجل طبيعته الخاصة ، كما يطابق الانسان الذى يحمله طبيعته أيضا • وخلف هـــذا كله تكمن قوة التأثير التى تستولى على نفوسنا وتجد هذا الفن فى نهاية المطاف يتحدى التحليل وقد نطلق عليه « الشكل الهام » أو أية تسمية نحب ، لكننا لا نستطيع الا أن نقول أن هذا الفن يروق للعين الحساسة ، ومن خلالها يروق لكل كياننا• ويعتمد هذا التأثير بشكل نهائى على الطريقة التى تستطيع بها الطبيعة المادية أحيانا أن تتحكم فينا وتأخذ بجماع قلوبنا بما لها من سحر عات لا يقـاوم • ولقد فهم الفنانون اليونانيون ذلك واختـاروا من الطبيعة الموضوعات التى أثرت فيهم تأثيرا عميقا ، ومثلما تكون التجربة الحاسمة فى الشعر مستعصية على التفسير لكونها لسبب ما فوق اســتجاباتنا العاطفية ، لذلك يتحرك فن الرسم والنحت اليونانى بشكل أكثر جلاء ومباشرة نحو حالة هى مثل تجربة الشعر مستعصية على التفسير ، حالة تشكل الاستحقاق الأساسى لتقدير هذا الفن والاعجاب به •

لقد كان اليونانيون على وعى حقا بهـذا الفن عندمـا حاولوا أن يصوروا فى أشكال مرئية حالة يغفل عن رؤيتها عادة الانسان العادى • وقد وصفوا هذه الحالة فى الشعر والفنون بالجمال ، واكتفوا بوجه عام بترك الأمر على هذا النحو ، حتى فى حالة سعيهم الى ربط فكرة الجمال بالحقيقة الباقية الكائنة خلف عالم المظاهر المتغيرة •

ومثلما سعى الشعر الى أن يجسد فى شكل ملموس مسائل تجاوز مجال الفكر العادى كذلك فعل كل من الرسم والنحت • وجعل كل منهما عنايته الأولى للكائنات الحية ، وأصبح هدفها الرئيسى هو تفسير وترجمة هذه الكائنات فى طبيعتها الجوهرية • ويفسر لنا هذا الموقف السبب فى أن الطبيعة الجامدة لم يكن لها دور فى مجال الفن اليونانى ، وأن الفن اليونانى لم يتناولها أبدا بالرسم والتصوير قبل انتشـار رسم المناظر الطبيعية فى العصر الهيلينى – واذا ما ظهرت هذه الطبيعة الجامدة فانما تظهر كخلفية يسعون اليها ، باعتبارها ضرورية للموضوع الانسـانى الرئيسى ، مثلما نرى فى الشجرتين اللتين يحاول من فوقهما أحد الرجال أن يصيد الطيور ، أو مثلما نرى الشـــجرة التى تلتقط منهـا فتاة تفاحة •

ولا يعنى ذلك أن اليونانيين كان يعوزهم الشغف بالطبيعة ، وانما يعنى أنهم لم ينظروا اليها باعتبارها موضوع الفن الأول • ونستطيع أن نرى نفس الاتجاه فى شعرهم الذى لا يكشف عن افتقار الى عشق جمال الطبيعة ، لكنه نادرا ما يركز عليها تركيزا عميقا ، وانما يبقى عليهـا

كخلفية للفعل الانسانى · وعلى النقيض من عشاق الطبيعة المحدثين لم يكن اليونانيون بعيدين عن الطبيعة بحيث لا يظهرون الا توقا رومانتيكيا اليها كملاذ وملجأ ، وبالرغم من أنهم أكثروا فيها الآلهة من كل الأنواع وعلى كل المستويات ، فان الآلهة هى التى أثارت شغفهم أكثر مما أثارته منازل هذه الآلهة · ويتخذ الفن اليونانى من الكائنات موضوعاته الرئيسية سواء كانت هذه الكائنات آلهة أم بشرا ، اذ أن ذلك كان ملائما لمفهوم وحدة الكون ، ذلك الكون الذى يتساوى فيه الطبقتان مساواة شاملة فى اتخاذ مسلك واحد الى حد كبير · وكذلك يفرد للحيوانات مكانا محترما · تلك الحيوانات التى غالبا ما يتناولها الفن بالتصوير لذاتها أو كملحقات مساعدة ضرورية أو لمجرد الزينة التى يبتغيها البشر · ولا تختلف كثيرا الغيلان الذين يصر التراث على أهمية وجودهم ، أولئك والذين احتلوا مكانا فى الأسطورة والرمز ·

لقد انجذب الفنانون اليونانيون الى أى موضوع تميز بالحياة والحيوية وجسد الطاقات الخفية الكامنة · ولقد حدد هذا المنحى مجالهم بشكل ما الا أنه قد توفر لهم اختيار كبير داخل هذه الحدود ، واستطاعوا أن يخلعوا على موضوعاتهم المختارة اهتماما خاصا نابعا من الحب والاعجاب ·

لقد أجمع اليونانيون على أن الفن هو المحاكاة بمعنى من المعانى · والكلمة الشائعة للتمثال باليونانية كانت تعنى حرفيا « التشابه » أو « الصورة » ويردد رأيا عاما لمؤلف أبقراطى عندما يقول « ان فنانى النحت انما يصنعون محاكاة للجسد » · لكن كلمة المحاكاة كلمة غامضة ، لاتزيد فيما تخبرنا به عن أن اليونانيين ابتدعوا شخوصا عرفت بمشابهتها لأصولها الحية · ولم تنبئنا كلمة المحاكاة عن نوع المزايا ومناحى الحياة التى تصور اليونانيون أنها من أكثر الأمور جدارة بالمحاكاة والتقليد ـ ومادام كل فن يعتمد اختياره لمجموعة معينه من الاحتمالات ، فقد أصبح حتما علينا أن نكتشف ما اختاره الفنانون اليونانيون وما نبذوه · ويتضح من حقيقتين ثابتتين أن فنهم لم يكن مجرد فن خاضع لمقاييس المذهب الطبيعى أو الواقعى بمعناه الضيق ـ وأولى هاتين الحقيقتين ، أنهم كثيرا ما صوروا آلهة وأغوالا (١) لم يروها أبدا وليس فى هذا محاكاة بأى معنى واقعى اذ يجسد الفنان رؤياه الخاصة عما ينبغى أن تكون عليه صورة الاله أو الغول · فاذا ما وضع الفنان فى تمثال الاله أرفع درجات

---

(١) أغوال : جمع غول وتجمع أيضا غيلان ·

القوة والجمال التى فى وسعه تخيلها ، مستمدا هـــذا كله من ملاحظته للكائنات البشرية ، فانه لا يزال بعيدا عن محاكاة فرد بعينه ، ولا يزيد على جعل غيلاته من الوحشية بقدر المستطاع ، وذلك بتوحيد الملامح والأوصال المتنافرة لهذه الكائنات وبهذا يحاكى شيئا حقيقيا فى عـالم الحيوانات ·

وثانية هاتين الحقيقتين ، اننا نستطيع أن نشـــك فى أن الفنانين اليونانيين سعوا الى تصوير الكائنات البشرية تصويرا لا يســـتند الى ما يتبدى من هذه الكائنات للملاحظة العفوية ، وانما يستند الى بعض الاحساس بما هو اكثر امتاعا وأهمية فى هذه الكائنات · ويتضح مـن تعليق سقراط أن اليونانيين قد أباحوا لأنفسهم درجة عظمى من الحرية وقد وافق على تعليقه الرسام بارهاسيوس (Parhasius) « عندما تنسخ نماذج للجمال فمن العسير أن تعثر على نموذج كامل ، حتى تضطر الى جمع معظم التفاصيل الجميلة للأشياء المتعددة ، وبهذا تجاهد فى أن تجعل التمثال بكامله يبدو جميلا » · ولا نستطيع أن نشك فى أن الفنانين اليـونانيين قد اســـتمتعوا بحرية عظمى فى تنـاولهم لنماذجهم · ولم يشعروا بالتزام يلزمهم بتصويرهم تصويرا يشمل التفاصيل الدقيقة ، ولم يكن فى وسعهم أن يفعلوا ذلك لو لم يشعروا أن تصوير الكائنات البشرية حجرا أو طلاء ، لابد له أن يتفق مع فروض معينة تفترضـــها طبيعة الفن ·

ويقال عن فنان النحت بوليجنوتوس (Polygnotus) أنه صـــور الناس على صورة « أفضل من حقيقتهم » · وبالرغم من أن كلمة «أفضل» كلمة غامضة محيرة ، فلا تعنى بالضرورة أنه جعل هـؤلاء الناس أكثر جمالا ، كما فعل زيوكسيس (Zeuxis) وانما توحى هذه الكلمة أنه حاول أن يبرز أفضل ما لديهم ، ولأنه اشـــتهر ببراعته فى تصـــوير الشخصية ـ فقد نفترض أن هذه البراعة على الأقل قد لعبت دورا ما فى ابداعه للكائنات الأفضـل · ويبدو أن بوليجنوتوس قد بذل جهده فى استغلال موضوعاته أقصى استغلال ، ليظهرهم على صـورهم الحقيقية وهذا ما يصنعه فن النحت اليونانى بوجه عام ·

ونستطيع أن نلمس هذه الروح تمارس عملها هذا حتى فى الفن القديم فى القرن السادس قبل الميلاد · وليست هذه الروح على الاطلاق عاجزة أو حائرة ، وانما حصرت نفسها فى مجال ضيق من المؤثرات ، كما لو أحست أن المؤثرات هى أهم ما يتسم به الفن · ونرى أن التماثيل الأولى للعراة من الشباب هى بكل تأكيد متشددة غير مرنة بينما تقف

وأقدامها اليسرى الى الأمام وأذرعتها متدلية على الجوانب ، وقد ارتفعت رؤوسها منتصبة ، وأضاء وجوهها ابتسام عجيب · وقد تدين شكلية وضعهم المتشددة بقدر ما الى سابقة مصرية ، بيد انه ليس من الممكن أن تكون قد حظيت بالقبول ، دونما سبب وجيه ·

انهم يمشون بخطوة ثابتة واثبة ، وسبب ذلك يعود الى أن هـــذه هي الطريقة التي يظهر بها الشباب توازن أجسادهم والتحكم فيهـــا ، ويتمتعون بالاجلال والانضباط ، اذ أن تماثيلهم توضع عادة في ساحات المعابد أو في مكان عام لا يقل شرفا وعلوا ، وابتسامتهم الغريبة هي نوع من مكارم الأخلاق ، وتعبير عن سعادة الشباب وكفـــايته · وكان لدى الفنانين فكرة واضحة عن حقيقة الشباب وعن أهم الخصائص الجوهرية التي تميزه ، وقد ترجموا هذا كله في تحت الحجر ·

ولو نظرنا الى هذا الاتجاه على أنه محاكاة فهو المحاكاة التي لا تحاكي الا صفات محددة تم اختيارها بحرص وعناية ، محاكاة تركز على هــذه الصفات على حساب صفات أخرى · وكل ما يعنينا هو الرؤيا المرشدة، والتمييز الأكيد الدقيق الذي يقضي بأن الشباب ينبغي أن يصور عـلى هذا النحو · فاذا ما كان هذا التصوير صورة فهو أيضا تمثال ، وكلمة تمثال تعني في اللغة اليونانية القديمة « البهجة » أو « الحبور » · ومهمة مثل هذه التماثيل هي اعطاء اللذة ، وقد تحقق هذا بتجسيد الصفات الدائمــة للشباب · ويجـد فنانو النحت خلف الخصـــائص الشخصية لموضوعاتهم شيئا أكثر بقاء يجعلهم على ما هم عليه من حقيقة وتميز ·

ان هذا الاتجـاه الى ترجمة الشخصية بانتقاء سمات معينة مميزة أصبح أكثر وضوحا باعتباره فنـا تكتيكيا متقدما · وعندما تكون هذه التماثيل الآلهية فمن اليسير أن نعرف سبب تصويرهم في كامل قوتهم وشبابهم ، بيد أنه من المهم أن تنشد نفس الصفات في تصوير البشر · حتى لو أن هذه التماثيل المصورة أكثر صدقا من تماثيل العصر السابق فلا يزال الفنان يطوعها بحيث تتفق مع فكرته عن حقيقة الشباب ، وليس من قبيل المبالغة أن نقول أن الصفات التي تبتغي هي تلك التي يتشابه بها الانسان مع الآلهة الى حد كبير · وليست هذه التماثيل نماذج مجردة فغالبا ما تحتوي على سمات شخصية ، مثلما نرى في صورة صبي من جزيرة كريت يتميز بالمرح الهادىء الخجول ، أو صورة صبي أشقر يتميز بالجدية القلقة ، لكن الأمر الذي يجمع بين هذه التماثيل جميعها ــ ويبدو ضروريا لا غنى عنه ، هو شبابهم ونضارتهم ورشاقتهم المياسة وأطرافهم ذات التـــكوين الجميل ، ومظهرهم الدال على أنهم يمتلكـون بنيـــة

لا يستطيعون الا أن يفيضوا سعادة بامتلاكها · لقد كان فنانو النحت ينشدون في موضوعاتهم أكثر الصفات جاذبية وفتنة ، ومن الممكن العثور على هذه الصفات فيما هو أكثر من مجرد الشكل أو تغير وجوههم ·

كان اليونانيون خبراء واعين بتفاصيل الجسد الى الحد الذى جعلهم يقدرون بعين فاحصة كثيرا مما قد يفوتنا ملاحظتـه ، وكل الذى حظى باهتمامهم هو الشكل الكامل باعتباره أكثر من مجموع أجزائه · وتعبر مثل هذه التماثيل بتوازن وتناسب أعضائها عن كامل شخصياتها ، من الناحيتين العقلية والبدنية ، وتكشف النقاب عن كينونتها الجوهرية ،وعن حقيقة شبابها المتألقة فى أوج أيامها ، عندما كان أصحاب هذه التماثيل لفترة قصيرة يشبهون الآلهة التى لا تشيخ أبدا ·

ان ما يصنعه الجسد العارى بالنسـبة للشـباب ، يصنعه الثوب للصبية الشابة ، ومثلما يلذ لهوميروس أن يحكى كيف كانت هيرا تتزين بالثيـــاب اغراء لزيوس ، كذلك نجد فنانى النحت اليونانيين يبدأون بتصوير النساء فى ملابس ضافية متقنة الصنع · لقد كانوا بكل تأكيد على وعى بمفاتن أجسادهن العارية ، بيد أن الممارســـة الطبيعية كانت تقتضى الاستفادة الكاملة من الملبس ، باعتباره عنصرا مبهجـــا فى ذاته وملائما بشكل حميم لأية فكرة تتعلق بمعنى المرأة · ومن الطبيعى أن ترى النساء ضافيات الثياب ، ولم يتشابه الصبايا مع الصبية فى ممارسة الألعاب عاريات الا فى مدينة اسبرطة · ومن مقتضيات اللياقة أن تراعى نفس الآداب مثلما تراعى فى الأوليمب ، وذلك عندما توضـــع تماثيل النساء فى الميادين العامة · ونجد سلسلة التماثيل النسائية المنتشرة على قلعة أثينا تتفق مع هذه الفكرة ، بالرغم من الفروق الكبيرة فى الحجم واتساق الشعر ، وأشكال الملابس واللون · وكان الشـــكل المألوف للتمثال أن تقف صاحبته منتصبة ممشوقة القوام ، ذراعهـــا الأيمن الى جانبها ، بينما ذراعها الأيسر مقدما قربانا ما كتفاحة مثـــلا ، وقد تدلى ثوبها حتى لامس الأرض ، ويكشف فنان النحت عن قليل من تكوينها ، ما عدا الرأس والعنق والكتفين والذراعين ، ويستطيع الفنان أن يعمـــل فنه فى هذه الأجزاء بعناية كما لو كان يصور شابا عاريا · ان هـــذه الأجزاء تعطينا فكرة ايضاحية صحيحة وكافية عن جسدها الغض ، ويكفل الفنان جو البساطة بعدم اظهاره المزيد من هذا الجسد ، مما يخلع أهمية خاصة على هذا الملبس الذى يكشف النقاب عن شخصية مرتديه ، كما يتجلى ما للثوب من سحر وتميز ·

ولعلنا نرى الى أى مدى فهم فنانو النحت موضوعاتهم فهما جيدا ، من خلال تمثال قلعة أثينا عام ٦٧٩ ق٠م ، ان تمثال الفتاة الهادئة الصغيرة التى يتأرجح وضعها بين الصبية الشابة والمرأة المكتملة ، انمـــا يرى وضعها هذا ، من خلال نهديها الصغيرين ووقارها الخجول الأخاذ ٠ومثلما يكون شعرها متسقا مصففا ، كذلك ليس لثوبها طيات كبيرة ، وانما يتدلى لصيقا بجسدها ٠ وقد نقارن هذا التمثال بتمثال متأخر نوعا هو تمثال قلعة أثينا عام ٦٨٦ ق٠م ، حيث نرى الوجه يكشف عن شخصية صاحبه بشكل أكثر جلاء ، ويرجع ذلك من ناحية الى أن الفنان قد أصبح أكبر ومن ناحية أخرى الى أن الفتاة نفسها أكبر قليلا من الأخرى ، وأن الثوب الذى قصبت ثنياته وطياته بمزيد من التفصيلات يتواءم بشـكل جميل مع مظهرها ٠ وتقدم التماثيل اليونانية النسائية نظيرا لتماثيل الرجال فى تجسيدها للصفات الأساسية لجنسها كما رآها اليونانيون ، وقد قدمت على هذا النحو اذ انهم تصوروا أنها بذلك تكشف النقاب عن أهم خصائصها وأكثر صفاتها تميزا ٠

وبالمقارنة الى الكائنـات البشرية نجد أنه من غير الممكن اعطـاء الحيوانات تمييزا يبين قرابتهم بالآلهة ، الا أن اليونانيين كانوا على قدر كبير من المعرفة بهم وقد أمضوا معهم زمنا طويلا الى الحد الذى جعلهم يعرفونهم معرفة خاليـــة من المشاعر المثاليـــة المزيفـــة — لا تخطىء حقيقتهم ٠

كان الجواد جزءا من حياتهم اليومية ، لكن لما كان للجواد هيئته الخاصة فى السباق — وقد يرى على حقيقته فى مجال السباق ، فان صور الجياد تلاحظ هذ الأمر وتظهر الحيوانات نحيلة ، رشيقة ، قوية البنية، تواقة الى الحركة ترفع أرجلها فى مرح وثقة ٠ وقد ربى اليونانيون الكلاب بهدف استخدامها وليس بهدف التباهى بها ، وقد تبدو هزيلة بارزة العظام ، بالمقارنة الى حيوانات أخرى أكثر هزالا ، بيد أن بهم وافر من القوة سواء كانوا يرقدون مترقبين فى يقظة أم يحكون جلدهم منغمسين فى لذة فائضة ، أم ينطلقون الى أداء مهـامهم راغبين معتزمين ٠ وتظهر الحيوانات الأقل خضوعا للانسان روحا مستقلة ، كما هو حال الثيران التى تندفع لا تلوى على شىء أو تنطح ما يعترض طريقها ، أو المعز الذى يقع أو يتمدد أو ينتظر حدوث شىء مـا يعتـــاد بغيض ٠ ان الحيوانات المفترسة مثل الأسد الذى لم يكن يوما مألوفا ، والذى ظهر فى الفن القديم غولا خياليا ، انما تظهر هذه الحيوانات اكتفاءها الذاتى عندما ترقد طلبا للراحة أو تظهر هجمتها القاضية عندما تنطلق للعمل ٠ وقـد

لا يقل الخنزير فظاعة ، وكان بكل تأكيـد معروفا أكثر من الحيوانات الأخرى سواء فى فره هاربا أو كره منقضا • وفى الجانب المقابل للخنزير نجد الأيل (١) البرى بكل رشاقته ورقته يقف مشدوها عند مشـــهد غير منتظر ، أو يرعى الكلأ وهو هادىء مطمئن •

وقد تكون الحيوانات أصدقاء أو أعداء للانسان ، لكنهم فى الحالتين يعبرون عن حقيقتهم تعبيرا صادقا ، ويتخذون شخصياتهم الخاصة تلك التى يكشفون عنها أثناء الراحة والعمل • ولم يقـدر للحيوانات أن يفسر سلوكهم بأسلوب مزيف مؤثر ينسب اليهم المشاعر الانسانية ، وانحصرت مهمة الفنان فى فهم وتحديد أهم خصائص الحيوانات واظهـــارهم فى طبيعتهم الجوهرية •

ولم يكن من المستطاع أن يحدث نفس الذى حدث للحيوانات بالنسبة للغيلان التى زخر بها المخزون الوافر من الأساطير اليونانية • وفى مجال تناول الغيلان ومعالجة حياتهم كان الاعتماد على الطبيعة من الأمور المعوقة ، اذ أن ذلك لم يتح للفنانين أن يستمدوا من مخزون خيالهم مادة معينة بجرأة وجسارة • لذا فقد زينوا تصوير غيلانهم بأحسن مـا يستطيعون من المصادر الطبيعية • وينبغى أن نقر أن هذه المهمة كانت أحيانا أمرا فوق طاقاتهم ، فنحن نرى على سبيل المثال الغول (Chimaera) مقدمته أسدا ، وسطه ماعز ، ومؤخرته ثعبانا ، وقد يبدو هذا أمرا جميلا فى شعر هوميروس لكنه يصبح أمرا ساذجا مثيرا للضحك عندما نتخيله• وتعتمد الغيلان بوجه عام فى بث الذعر ، على ما يكونون عليه من ابهام يجعل تصورنا لهم كليلا غامضا ، ولا يكون لهم عادة تأثير فى أى فن يصر على تصويرهم تصويرا واقعيا — وليس من الممكن للأيادى البشرية أن تصور بشكل واف مخلوقا مثل الغرغونة (Gorgon) — الذى كان من المعتقد أن يتحول الى حجر كل من ينظر اليهـــا ، وبالرغـم من أن الغرغونات اليونانية لها فى الواقع مناظر بشعة الا أنها نادرا ما تجمـــد الدماء فى العروق • او أبا الهول اليونانى الذى كان يوما رمزا للموت ، يفقد ذعره الغامض عندما يتربع على قمة أعمدة دلفى — تمثالا جليلا ودودا باعتباره رمزا قوميا لناكسوس — والثعبان العتيق ذو الرؤوس الآدمية الثلاثة لأقل ترويعا وأكثر ودا لجاذبية ابتساماته وذيله ذى الشكل اللولبى الأنيق البراق • أما القنطورات (٢) (Centaurs) الذين كان نصفهم رجـــل ونصفهم فرس فانهم يعرضون علينا حالة من أكثر الحالات امتاعا •

---

(١) الأيل : حيوان من ذوات الظلف •

(٢) القنطور : حيوان خرافى نصفه رجل ونصفه فرس •

ونجد فى الفن القديم تأكيدا على الجانب الانسانى ، فهناك رجال لهم أجساد جياد وأرجل خلفية ـ وهم على ما هم عليه لهم سحر غريب غير مألوف ، ويذكروننا بخيرون (Chiron) العجيب الذى كان مدرسا لأخيليس • ثم أصبح الجانب الحيوانى أكثر بروزا فيما بعد عندما كانت الأعجاز والرؤوس أشكالا آدمية تتصف بحيوانية وحشية أثناء صراعها المتسم بشراسة الوحوش البرية وخبث البشر • ولم يقصد من الجواد المجنح بيجاسوس أن يكون مخيفا ، وانتهز الفنانون هذه الفرصة لخلق كائن رشيق ، سريع العدو سواء كان يثب فوق الأرض أم يرتدى أجنحة للزينة ، أم يدور نصف دورة قبل أن يصعد الى السماء •

أما الغيلان فتكاد أن تكون خارج مجال الفن اليونانى ، اذ أنه لم يكن من السهل فهم طبيعتها الجوهرية أو تصويرها • ولقد أصر التراث أن يكون لها مكان مع الآلهة والأبطال ، الا أنها تنتمى الى عالم أبعد قدما كان لها به صلة ما ، ولم يكن يعنى الكثير بالنسبة للعصر المتأخر الذى ركز على الآلهة أو البشر الذين اتخذوا صور الآلهة •

ان أشكال فنى الرسم والنحت اليونانيين مثلهما مثل أشكال الشعر اليونانى ، كانت تمليها الى حد كبير اعتبارات خارجية ، بل وأحيانا ما تكون اعتبارات غريبة ، لا علاقة لها بهذه الأشكال ـ والانجاز الفنى الرائع للمشاهد المصورة على الأوانى الفخارية كان بالضرورة مقيدا بشكل وحجم هذه الأوانى ، وكان هذا الفن بدوره محددا بوظيفة هذه الأوانى ان السلطانية أو الجرة أو الطبق أو الابريق قد قدمت مساحات مختلفة يستخدمها الفنان ، وكان لكل منها مشاكله • وعانى فن النحت من مشكلة مماثلة عندما يستخدم لتزيين المبانى وواجهاتها وممراتها وأطنافها • وليس من الأمور اليسيرة أن نعد مجموعة من التماثيل فى شكل مثلث متساوى الساقين ذى زوايا حادة عند قاعدته ، وتبين أول هذه المثلثات أن الفنان لم يحل الألغاز الصعبة حلا كاملا • وفى القوصرة(١) القديمة فى أعلى واجهة كورفو (Corfu) نجد فى الأركان تماثيل يعوزها قليل من الرشاقة ، لكن الفنان قد رأى بالفعل امكانيات الشكل حين نجده يضع الغرغونة الضخمة فى الوسط ، ثم يجعلها تستولى على المنظر وتهيمن عليه ـ لقد اضطلع بهذا الحل فنانو نحت آخرون سواء كان ذلك بوضع تمثالين يمسكان مركز القاعدة كما هو الحال مع أبوللو وهرقل فى خزانة سيفينيا (Siphnia) أو تمثال واحد مثلما هو الحال مع

---

(١) مثلث فى أعلى واجهة البناء •

آبوللو فى أوليمبيا • واذا ما تم مثل هذا الأمر لم تعد هناك صعوبة كبيرة فى ملء الزوايا بتماثيل منكبة الوجوه على الأرض ، أو فى اكمال سلم الارتفاع الصاعد بتماثيل أخرى جالسة أو منحية •

لقد فرض الاطار المثلث الشكل مقتضياته على فنانى النحت ، ولكنه لم يمنعهم من تحقيق الفائدة المرجوة منه ــ ان الميتوب (١) لكونه على شكل مربع يعنى تصميما بسيطا مستقلا هو أمر لا مندوحة عنه تقريبا • والميتوبات المبكرة من أمثال تلك الموجودة فى معبد سيلينيوس (Selinus) تخضع للخلفية الهندسية بفضل استخدام الخطوط المستقيمة بتأثير فعال ، مثلما نرى فى مشهد الصراع بين هرقل والقرد الغريب الشكل، تلك الصورة التى تتميز بالزوايا القائمة والعمودية ، بينما نرى صور ميتوبات اوليمبيا وبخاصة ما يخص هرقل ــ ممسكا باله السماء أو متصارعا مع ثورة كريتى مبينة كيف يستغل الفنان الشكل لخلق اطار حسن التوازن مستقل متكامل • وعلى النقيض من ذلك نرى الطنف يتيح حرية كبيرة الى الحد الذى يثير سؤالا حول أحسن الطرق لاستغلاله ونرى فنانى النحت فى تماثيل خزانه سيفيا ينوعون تصميمه الهندسى بالجمع بين مشهد صاخب لمعركة حربية وبين تماثيل للآلهة ، قابعة فى هدوء ، ويظهر هذا الجمع الموفق على جدران معبد بارثينون (Parthenon) حيث نرى هياكل بشرية فى المهرجان القومى تتنوع وتتبدل بفضل آلهة متربعة على عروشها •ان الخاصية الأساسية للطنف هى استمراريته، لكنه لا ينبغى أن يسمح لهذه الاستمرارية أن تصبح شيئا رتيبا • ولا ينبغى للفنان أن يظهر الأنواع المختلفة للحدث فحسب ، وانما يتعين أن يكون لكل مشهد طابعه وكماله ،وليس بد من أن ينسجم مع التسلسل العام الذى ينتمى اليه • وحتى فى مثل هذه الأعمال تنظم حرية الفنان وتصبح جزءا من الخطة المهيمنة ــ ان وجود أشكال معينة فى مجال الشعر وفن النحت لم يكن عائقا وانما كان وحيا والهاما ، وان هذه الأشكال كانت تحدد للفنانين الحدود التى يتعين عليهم أن يعملوا داخلها، كما كانت تستحثهم على استغلال هذه القيود استغلالا جديدا مميزا •

ويختلف كل من الرسم والنحت عن الشعر فى نقطة هامة تتمثل فى عدم وجود صلة لأى منهما بالموسيقى والرقص ، بيد أن الايقاع قد لعب دورا كبيرا فى الوعى اليونانى الى الحد الذى يجعله لايستطيع الا ان يظهر ظهورا طفيفا فى الفنون المرئية • ومع أن كل الفنون تعوزها

---

(١) الفسحة الفاصلة بين واجهتين فى بناء (فى أفريز) وتكون عادة مزدانة بصورة منحوتة •

الحركة ، الا أنها على الأقل تستطيع أن تجسد العناصر الايقاعية في أطرها الجوهرية ، ومما تميز به اليونانيون الذين ربطوا الموسيقى بالرياضيات هو وجوب توافر هذا الايقاع فيما قد تسمى الأساس الهندسى للتصميم ، لذا بحث أتباع بيثاجوراس عن الحقيقة المطلقة فى الاعداد ، وبالرغم من أن مسائل مثل تدرج الألوان من المستطاع تفسيرها من خلال الأعداد ، فان كثيرا من اليونانيين كان لديه شعور طبيعى بجلاء هذه الألوان وتناسقها ·

وفى مجال خلق الأعمال الفنية كثيرا ما يبدو الرسامون وفنانو النحت والمعماريون من اليونانيين ، وقد هيمن عليهم احساس بالاطار والنسق الهندسى ، وقد كان هذا الاتجاه أكثر ما يكون وضوحا فى مجال الهندسة المعمارية كما قد نتوقع · فاذا ما أصرت تقاليد الفنون المعمارية على أن تصميم المعبد لابد أن يتسم بالبساطة ، فان الرغبة فى النسق الهندسى كانت على وجوب الاحتفاظ بالتصميم المستطيل الشكل على حساب أى شىء آخر ، وانه اذا ما كان هناك احتياج الى التنويع فلابد من توفير ذلك عن طريق ادخال أو اضافة مستطيلات أخرى · وليس من الميسور العثور على مواقع مستوية فى الجزيرة اليونانية ، لكنهم بدلا من اخضاع أبنيتهم الى أرض الموقع ، فقد عمد اليونانيون الى جعل الموقع يتلاءم مع الأبنية بتسويته بحيث يتسنى له استيعاب هذه الأبنية بكامل تناسقها ، خشية أن يتدخل أى عنصر آخر فى الطبيعة الأساسية لهذه المبانى · بل ان معبد بروبيلاى (Propylaea) فى أثينا الذى هو بناء دنيوى على سفح منحدر ، نجده لايخضع الا قليلا لهذا السفح مؤكدا كتلته الجليلة المنسقة شامخة فوق صخرة متعرجة وعرة · لقد كان هذا الاتجاه فى الواقع ملائما لفن يعتمد فى تحقيق جاذبيته الأولى على الخطوط المستقيمة · فاذا ما كان الشكل المستطيل هو الخطة الرئيسية فى البناء فان السقف بميله المنخفض كان يعنى بناء له عند نهاية كل قوصرة زوايتان حادتان ممتدتان الى قاعدته وزاوية منفرجة صاعدة الى قمته · وكانت الأعمدة هى التى تمد هذه الخطة الصارمة بالتنويعات اللازمة · فاذا لم تزد هذه الأعمدة ذات يوم على دعامات خشبية ، فسرعان ما طورت لها طابعا متميزا ، وكانت هذه الأعمدة لها شكل أنبوبى مستدق الطرف مخدد (١) على شكل تعامدى ، ومع أنها فى الواقع يستدق طرفها بشكل نظامى ، فقد تم صنعها بحيث تبدو متضخمة عند اسطوانه العمود ،

---

(١) الحدة : أخدود فى عمود معمارى كلاسيكى ·

الأمر الذى يخدع العين ويريحها ، ونرى الخطوة المنتصرة في مسيرة هذا الفن المعمارى عندما ارتقى من مجرد استخدامه في أروقة الأبنية الى تكوين معلم أساسى فى الاطار الخارجي للبناء بأكمله . كما هو حادث فى معبد بارثينون اذ نرى خطوطا أفقية تمتد بين أسفل أساس المبنى وبين أعلى عوارضه المرتكزة على أعمدة ·

ويعنى ذلك أن المعبد اليونانى معبد مريح للعين سواء نظرنا اليه من الزاوية الأفقية أم الزاوية العمودية · اذ نجد فى الحالة الأولى (أفقيا) وحدة التصميم معتمدة على الاستخدام الصارم للخطوط المستقيمة التى تغمر المبنى بالمناظر الطبيعية ، وتؤكد اختلافها ببساطتها الصارمة ، وفى الحالة الثانية والعمودية ، نجد الأعمدة تجذب العين الى أعلى وتعطى انطباعا عن الكتلة المرتفعة عن الأرض فى جلال وهيبة وتتحد الدوائر والخطوط المستقيمة اتحادا له دقة المسألة الهندسية ، وبالرغم من بقائهما متميزين مختلفين ، فان اجتماعهما يضفى طابعا فريدا على الفن المعمارى عند اليونان ·

إن هذا الفن المعمارى يعد وظيفيا · ومن حيث أنه يؤدى ما يطلب منه على وجه التحديد · ويعلن المعبد عن نفسه للعين التى تراه على بعد أميال ، اذ أنه أبعد مايكون عن التظاهر بأى شىء غير حقيقته · لكن ذلك لايعنى أن اليونانيين تحاشوا عمل الزينة · لقد كانوا فى الواقع حريصين على حذف الزينة من أجزاء البناء التى لها وظيفة تتسم بالصرامة الزائدة، لكنهم كانوا يحبذون وجود الزينة فى أماكن أخرى · وأعدت القوصرات والميتوبات والحوائط الداخلية جميعها ، لتحمل فن النحت فى الأماكن المستديرة والحليات البارزة · الا أنه لم يتح لفن النحت أن يتدخل فى السيطرة الأساسية الخاصة بالخطوط والمنحنيات · والتدخل الوحيد الذى نلحظه يتمثل فى تيجان الأعمدة ، التى لاتتيح فى الواقع الزينة سواء كانت أيونية أم دورية ــ ولكنها على الأقل تتساهل فى وجود صلة بين الأنواع المختلفة من الخط ، حين استخدام هذه الأنواع فى المنحنيات المسطحة والأشكال الحلزونية · ونستطيع أن نرى الى أى مدى من الأهمية كان اخلاصهم للخط من خلال الحالات القليلة حيث لايمكن ملاحظته وبخاصة فى ابداع الكرتيدات (١) (Caryatids) أو التماثيل النسائية التى كانت تقوم مقام الأعمدة فى رفع قوصرة الرواق فى خزانة

---

(١) الكرنيد : تمثال امرأة يقوم مقام عمود فى مبنى ·

سيفنيا فى دلفى ، وفى العوارض المرتكزة على أعمـــدة فوق ضريح اريكتيوس (Erechtheus) فى أثينا • وبالرغم من أنهم يبهروننا بذاتهـم الا أنهم يفسدون الصفاء التجريدى للتصميم الهندسى بما يدخلونه من عنصر غريب متنافر • ولو قدر للتصميمات الرياضية والأشكال البشرية أن تتحد اتحادا ناجحا ، فلم يكن ذلك ليتم بوسائل من هذا النوع • ان الجمع الدقيق والأكثر وثاقة (١) بين العناصر كان أمرا ضروريا ، وقد توفر فى فنى الرسم والنحت •

ان الرسم اليونانى الذى بقى على الأوانى بشكل رئيسى ، كان منذ بدايته يشابه الفن المعمارى من الناحية الهندسية البحتة • فنحن نجد القاعدة تغطيها خطوط متوازية ومربعات وأطر توضيحية ، وأشكال معكوفة ودوائر وأشباه دوائر • وعندما كانت تظهر فى القرن الثامن تماثيـــل بدائية كانت تحمل أجساما مثلثة الشكل تتلاءم بشـكل موفق مع الأطر التجريدية التى تحيط بها ، كما نرى على الآنية العظيمة فى معبد ديبيلون (Dipylon) فى أثينا ، حيث تصور ـ الميت ولابسى الحداد ـ خطوط مستقيمة وزوايا حادة • وعندما أكب اليونانيون على تصوير أشـــكال طبيعية وانسانية ـ بشكل خاص ، كان ذلك مرجعه فى الواقع الى حركة حسية قد يبدو انها تشير الى تغيير جذرى فى وجهـــة النظر اليونانيـــة ، الا أن اليونانيين هبطوا بعرض الأشكال الانسانيـة الى نظـام مازالت الهندسة تحتل مكانا فيه • وبالرغم من أن الأطر الهندسية البحتة أصبحت أكثر ندرة ابتداء من القرن السابع فصاعدا ، فاننـــا نرى التماثيل معدة اعدادا يستهدف التوازن والنظام • وقد لا يعنى هذا فى أبسط صورة ، أكثر من مجرد صنف لتماثيل عمودية بينها فواصل منتظمة ، مثلما نرى صفا من الآلهة والآلهات مسرعين الى تجمع أوليمبى • ومن الممكن احداث التنويع فى هذا الشكل بأن يقطع الخطوط العمودية خط أفقى ، سواء من القمة حيث نرى محاربا مقتولا على أكتاف أربعة من الرجال ، أم يقطعه فى الوسط حيث يحمـــل ملاك الفجـر جثمان ميمنون (Memnon) ومن المستطاع تنويع الخطوط المستقيمة كما تفعل الدوائر فى فن المعمار ، كما نرى على لوحة من رودس (Rhodes) الدرعين المستديرين للمحاربين يتوازنان مع بعضهما البعض فى الوســـط ، وتقـدم أشكالهما المنتصبة خطوطا عمودية ممتدة الى الخارج • لقد ألهمت اللوحـــات الدائرية ـ بالاستخدام الموفق للتصميمات الدائرية أو المتحدة المركز مثلمـــا نرى

---

(١) وثاقه : مصدر وثق يوثق وثاقه ـ ثبت وقوى وكان محكما •

ديونيسوس محاطا بالأسماك حين ابحاره فى سفينة ، أو نرى أفروديت تمتطى بجعة ٠

ان مثل هذه الأطر الأساسية كان فى مقدورها التنوع من انبساطة المتطرفة الى التوازن المعقد للمثلثات والدوائر ، لكننا نستطيع أن نلمح فى التصوير اليونانى كله على وجه التقريب، هيكلا هندسيا خلف الأشكال الحية للناس والحيوانات ، ويكتسب التصميم بفضل هذا الهيكل الهندسى توازنا واتساقا خاصا ، ويشبع رغبة اليونانيين فى تحقيق نظام شامل جلى ٠

وكان هذا الاحساس بالنظام المتسق يدين بالكثير الى الاحساس بالمساحة ومثلما توجد الهياكل الهندسية منعزلة فى المساحة ، وتكشف عن أشكالها فى غيبة المنافسة كذلك ينفرد فن التصميم اليونانى بتماثيل الرجال والحيوانات فى مقابلة لخلفية من الفراغ ، ويشد انتباهنا كاملا الى هذه التماثيل ، وهى فى كمالها واكتمالها ٠ وقد تبعث على هذا الاتجاه المناظر الطبيعية لليونان التى نجد فيها المعالم الطبيعية : مثل الجبال والجزر ، تقف منعزلة فى شكل خطى واضح محدد فى مواجهة السماء ، ونستطيع أن نراها فى محيطها الكامل ومنظورها الشامل ٠ ان شكل الطبيعة فى اليونان يميل الى عزل العناصر الأساسية فى تفرد أشكالها وارتفاعها ، ومن الطبيعى للعين التى دربت على رؤية هذه المناظر أن تسعى الى الاتيان فى فنها بعمل ما شبيها بهذه المناظر ٠ ومثلما يفسر فقدان الآفاق المفتوحة فى الأراضى الكثيفة بالنباتات المتشابكة الطابع المكتظ لنحت كل من مايان (Mayan) أو كمير (Khmer) الذى يعكس الغابة أو الأدغال فى حبوره الغامر ، كذلك يكون الأمر فى اليونان على النقيض ، اذ أن الأماكن المفتوحة والارتفاعات المختلفة تستحث الرغبة فى وضع العمل الفنى فى مقابلة مع خلفية الفراغ المفتوح ٠

ان العملة اليونانية ـ التى تظهر الآلهة والشعارات المحلية ـ لاتستهدف عمقا باستخدامها النقوش البارزة كاملة فحسب : وانما تضع موضوعاتها متسقة فى اطار دائرى بمساحة فاصلة بين هذه النقوش وهذا الاطار ، الأمر الذى يضفى امتيازه الخاص على الفرس المجنح ، أو سنبلة قمح أو اخطبوط ، أو صبيدج ، أو سرطان البحر ٠ ومن الطبيعى أيضا أن ترغب الأحجار الكريمة فى تحقيق أقصى استفادة مما ينقش عليها كما تستخدم المساحة لتشد أنظارنا على اوزة ، أو طائر البلشون(١) فى الهواء ،

---

(١) البلشون أو مالك الحزين = طائر ٠

أو دلفين فى الماء ، وبالرغم من أن الأوانى الفخارية تعكس أحيانا رسما على نطاق كبير ، فى تصويرها للصراعات أو المشاهد المكتظة ، فانها أحيانا أخرى تضفى تأكيدا خاصا على الموضوع بوضعه فى مواجهة خلفية من الفراغ ، كما نرى هرقل حاملا مرجلا يخطو فى جلال وقد سيطر بشكل كامل على هذا المرجل ، أو نرى فتاة تجلس وحدها تفيض سعادة وهى تعزف على قيثارة • ويتركز التصميم الهندسى فى تمثال واحد يزيد الفراغ المحيط من التأكيد على فرديته • وليس بالتمثال حاجة الى ما يكمل جماله ، اذ يفيض روعة بحكم وضعه الصحيح •

كما ترتب الطبيعة اليونانية معالمها فى أطر طبيعية ، محتفظة بصلة هذه المعالم بعضها بالبعض ، يفصل بين الجبال وديان أو بحر ، وتتوازن قنن الجبال بعضها مع البعض عند المداخل أو الخلجان ، لكن السماء أو البحر يفصلان بين هذه القنن ويتيحان لكل منهما أن تتخذ طابعها الخاص • ويقدم الفراغ الوسيلة التى يتماسك بفضلها النظام المعقد ،ومن هذا تعلم الفنانون قيمة المساحة فى تصميماتهم الخاصة • ورأوا أن الرعب من الفراغ لم يعد يشكل مخاوف طالما أحسنوا استخدام الفواصل بين تماثيلهم المختلفة • ولقد تلاءم هذا الأسلوب بشكل طبيعى مع التماثيل وبخاصة تلك التى توضع خارج المنازل • لذلك قضى اليونانيون كثيرا من حياتهم فى الفضاء المفتوح ،ومن ثم فان موضوعات كثيرة سواء منها البطولى أم الرياضى ، تشتمل على فراغ يتيح الحركة ، ولا يخطىء الفنانون ملاحظته ، فيوجهونه لغايتهم الخاصة • وحتى فى مطلع القرن السادس عندما كان فن النحت يجرب تصميمات جديدة ، وكان هناك اتجاه لملء المساحة المسموح بها من الأرض بالتماثيل ــ نجد طنف سيفنيا يستخدم فواصل فراغية بهدف تحديد ممر الدخول أو الخروج عبر ميدان الحرب ، وعندما جاءنا الفن الكلاسيكى بحرية أعظم تتيح لنا التوفير والتدبير ، هنالك أستغلت المساحة بشكل أكثر درامية وبراعة •

فعندما نرى على آنية فخارية شابا يمسك بجوادين ، نرى كذلك أن الفواصل بينهم تشير الى وجودهم فى الميدان ، الأمر الذى يجعل هذه التماثيل كاملة مستقلة ، ومع ذلك تخضع لتصميم واحد • وعندما نرى شبابا يقفزون فوق عصاة نجد أن تفرد أجسادهم يحدد المراحل المختلفة للعبتهم الرياضية ، ويؤكد فى الوقت نفسه أنهم جميعا منشغلين بشىء واحد • وعندما تطبق هذه التصميمات الفنية على النقوش الرخامية ، توجد مساحات كثيرة تسمح بالتوازن الموفق ، كما نرى فى قاعدة تمثال من أثينا شبابا يلعبون الكرة ، وكل من هؤلاء الشباب له دوره الذى

يؤديه والذى يختلف طبقـا لما يتخذه الشاب من وضع لرأسه وذراعيـه ورجليه ، وان كان يجمع بينهم جميعا ايقـاع يستغل الفواصـل بينهم استغلالا كاملا ٠

وفى هذا الوضع يدرك العقل المنظم للنحات ادراكا كاملا أن الأطر الشكلية ينبغي أن توحد فى تصميم واحد يقيمها ويسمو بها ٠ ان علمى التشريح والهندسة قد انصهرا فى بوتقـة واحـدة ، وكل منهما يحقق شيئا ما للآخر ٠

لقد سبر اليونانيون غور هذه المسألة وحاولوا توضيحها بالبحث عن النسب الرياضية التى هيمنت على الأعمال الفنية المرئية ٠ وبالرغم من أن أجوبتهم ليست حاسمة قاطعة الا أنها تلقى الضوء على نظريات الجمال اليونانية ، ويقول الفيلسوف بلوتينوس (Plotinus) الذى كتب عن الفن فى القرن الثالث قبل الميلاد : « ولعلى أذكر هنا أن الرأى العام يقول ان العلاقات المتداخلة بين الأجزاء بعضها بالبعض وبين الكل ، وكذلك بين العنصر الاضافى للون الجيد هى التى تكون الجمال ، كما تلتقطه العين ، وبعبارة أخرى فان الجمال الكائن فى الأشياء المرئية كما هو فى أى شىء آخر ، انما يتألف من التماثل والنسبة والتناسب » ٠ ومن المحتمل أن تعود هذه النظرية ، الى منتصف القرن الخامس على الأقل مارة بأفلاطون ٠ وتبلغ أهمية النسبة والتناسب أعلى درجات الوضوح فى فن المعمار حيث تبدو أبنية مثـل معبد بارثينون ومعبد أبوللو فى باسـاى (Bassae) قائمة على أساس من « القسم الذهبى » ، الأمر الذى يعنى تقسيم الخط الى نسبة متطرفة ومعتدلة ٠ ولا يعنى هنا أن المعماريين قد نفذوا فكرة تناهت اليهم من نظرية معروفة سلفا ، وانما يعنى أنهم استخلصـوا نتائج من الممارسة ، وطبقوها كقواعد وأسس ٠ ومن اليسير الى حد كبير تطبيقها فى مجال الهندسة المعمارية ، لكنه من الجدير بالاعتبار أن نلاحظ أن حالة من نفس النوع قد طبقت على فن النحت ٠ وعندما كتب بوليكليتوس (Polyclitus) موجزه المعروف «بالقانون» قال: يتألف الجمال من وجود النسبة والتناسب بين الأجزاء وليس من وجودها بين العناصر ٠ وهذا يعنى نسبة الأصبع الى الاصبع ونسبة كل الأصابع الى راحة اليد ونسبة هذا كله الى الساعد ونسبة الساعد الى أعلى الذراع ، ونسبة كل الأجزاء الى بعضها البعض ٠ وبالرغم من أن بوليكلينوس لم يذكر فى كلماتـه الباقية ما هى النسبة المطلوبة ، وبالرغم من أن فقدان أعماله يحول دون تذوقنا لما يعنيه من ممارسته ، فمن الواضح أنه علق الحقيقة على رأيه القائل أن الجمال فى

النسبة والتناسب ، ان مثل هذه الفكرة ، تعاون فى تفسير ما يكون بدونها غامضا فى الفن • ويرجع هذا التفسير الى نظام الأشياء • وبالرغم من أهمية النسبة والتناسب فى الفن اليونانى ، الا أن هذه الفكرة لا تزودنا بتفسير كل شيء وتكن خلف هذه الفكرة الجاذبية التى تتسم بها الأعمال الواقعية فى كل من تفاصيلها الجزئية والكلية ، ويستعصى هذا الموقف على النسبة وحدها •

لقد شعر اليونانيون بهذا ـ ولعله السبب فى أنهم احتفظوا الى تاريخ متاخر بالفكرة المبكرة والحية تقريبا ، التى تعنى أن التماثيل تتمتع بالحياة على نحو من الأنحاء • وقد عنيت الأسطورة بتسجيل هذا الاتجاه فى قصصها الى الحد الذى جعل هيفيستوس (Hephaestus) وديديلوس (Daedelus) صنعا صورا تتحرك وفق هواها ، الأمر الذى يجسد الاعتقاد بأن الصورة على قبر الانسان على سبيل المثال ، انما هى الانسان نفسه بشكل من الأشكال والى هذا يرجع السبب فى أن الكلمات المنقوشة تجعل الصور بشكل عام تتكلم بصيغة المتكلم • وقد يعنى هذا بالنسبة لبسطاء الناس معنى من المعانى ، اذ أنه كان ينطوى على معايير متضمنة فى تماثيل الآلهة ، تلك التى كانوا يعتقدون أنها تجسد الحضور الحى للآلهة ، وكان هذا الاتجاه يجد تأييدا فى شعور الناس بأن صورة الميت لابد أن تكون أكثر من مجرد قطعة من الحجر أو المعدن • ومع ذلك فسوف يجد كثير من الناس صعوبة فى الاعتقاد بأن التمثال أو الصورة ، من الأشياء التى تتمتع بالحياة الحقيقية بنفس المعنى الذى يكون لحياة الانسان التى تمثلها هذه التماثيل • وقد انتهى ديمقريطس الى هذه الفكرة عندما قال : « ما الصور الا مشاهد براقة فى زينة لباسها ، لكن ليس بها قلب ينبض بالحياة » • وعندما يتحدث اسخيلوس عن الوحدة الأليمة التى عاشها منيلوس (Menelaus) عندما هجرته هيلين (Helen) ، يدرك أن التماثيل ما هى الا بديل هزيل للجمال الحى •

ان حسن التماثيل الجميلة •
بغيض الى زوجها
وفى جوع العيون
ينساب كل الحب •

أما سقراط فقد طبق على فن الرسم نقدا مماثلا عندما جأر بالشكوى من عجز فن الرسم عن الاشتراك فى فن الحديث ، هذا الذى وهبه سقراط

حياته : « ان نتاج فن الرسم ينتصب قائما مثل الكائنات الحية ، بيد أنك لو طرحت عليها سؤالا فسوف تجدها فى صمت كامل وعجيب »· وانهار الرأى القديم لاخفاقه فى ارضاء العواطف ، وقد أدى اخفاقه الى انعاش الرأى الذى يقول بأن الفن ليس بأية حال أكثر من مجرد محاكاة الحقيقة · واتخذ هذا الرأى معنى جديدا عندما أصبح الفن أكثر قربا من المذهب الطبيعى · ويتضح من موقف الرسام برهاسيوس (Parrnasius) أن هذا الرأى الجديد لم يرد على أى سؤال طرح عليه ، اذ نجد برهاسيوس عندما سأله سقراط ان كان يستطيع أن يرسم صورة تحاكى الروح أجاب «كيف يمكن محاكاة الروح وليس لها شكل ولا لون · بل وليست مرئية على الاطلاق » · ويرى برهاسيوس أن المحاكاة ليست بكافية وأن روح الانسان أو شخصيته لايمكن الايحاء بها الا من خلال الطريقة التى يعرض بفضلها سمت الانسان · مع ذلك فان الفكرة التى تقول أن الفن هو المحاكاة كانت تنطوى على صدق كاف ، بحيث استطاعت أن تكسب لها أنصارا ومتشيعين · ومن المهم أن نذكر أن أرسطو قد اختارها فى وصفه للمأساة عندما استخلص برهانا من مقياس فى الفنون المرئية : « فبالرغم من أنه قد تكون الأشياء ذاتها مؤلمة حين رؤيتها الا أننا نستمتع بالنظر الى تصويرها الأكثر واقعية ، فنرى على سبيل المثال صورة أحط الحيوانات وجثث الموتى » · وفى هذا الرأى بعض الصدق ، لكنه ليس الصدق كله ، اذ أننا نبدأ فى أن نرى امكانيات هذا الرأى المحدود عندما يمضى أرسطو فى قوله أن متعتنا بالفن تتألف من اعترافنا بأن هذه صورة لهذا الشخص أو ذاك ، وقد تكون هذه اللذة لذة مشروعة لكنها ليست اللذة الوحيدة أو اللذة الأساسية التى يتعين على الفن أن يقدمها الينا · ولم يتفق مع أرسطو فى هذه النظرية كثير من النحاتين والرسامين اليونانيين فبالرغم من رغبة هؤلاء الفنانين فى تصوير موضوعهم بصدق ، فقد كانوا دائما ينشدون شيئا ما أبعد من مجرد محاكاة النفس الزائلة ·

ولم تمد هذه المعالجة الفن اليونانى بالحدود التى نشط داخلها والتى أبقته بعيدا عن الهندسة البحتة فحسب ، وانما أمدته كذلك بالعناية والهدف · وكان هذا الهدف يتمثل فى تقديم موضوعاته فى طبيعتها الأساسية وجوهرها الأزلى المطلق · فلو قصر الفن عن بلوغ الحقيقة لعجزه عن جعل نتاجه يتحدث أو يثير العواطف ، فانه على الأقل قد سما بعالم الأحاسيس الزائل ، ببلوغ ماهو ثابت وجوهرى · فاذا ما كانت الأعمال الفنية خالية من الحياة والحيوية ، فقد أوحت على الأقل بحياة أكثر قربا الى الحقيقة من حياة الفانين من البشر ، ولو كانت هذه الأعمال جامدة

بلا قلب فان ذلك مرجعه الى أنه حتى العواطف من الممكن السمو بها الى حالة أكثر اتساعا وشمولا من حقيقتها • لقد وجد اليونانيون متعة فى الأعمال الفنية ، ولكنهم لم يروا فيها امتدادا للمشهد الحى لذاته ، بقدر ما رأوا إرتباطا بين هذا المشهد وبين شىء آخر • وقد راق لهم أن يرغبوا فى ايجاد حقيقة باقية خلف هبات الحواس ، ولم تكن هذه الحقيقة منفصلة عن مظاهرها وانما كان من المستطاع معرفتها من خلال هذه المظاهر ، وبفضل ما يتبدى منها ، وقد خلعت هذه الحقيقة على هذه المظاهر ما تتسم به هذه المظاهر من قوة خاصة وطابع متفرد •

ولقد سعى الفنانون الى ادراك الطبيعة الأساسية والتعبير عنها فى موضوعاتهم سواء كان هذا الموضوع الهيا أم بشريا ، رفيعا ام وضيعا ، محزنا أم مبهجا ، بطوليا أم داعرا ، ذلك كله اذ أنهم شعروا أن ايمانهم بالجمال الذى تحقق لهم من خلال زيارات ملهمة غامضة انما هو مستمد من نظام أرقى للكائنات ، ولابد أن يعامل هذا الجمال معاملة تتسم بالوعى الكامل بوجوده المسيطر المقيم • ومن ثم قدم الفنانون مارأوا بطريقتهم الخاصة بعد تجريده من كل الاضافات التى تتصف بالخلط وانعدام الفائدة ، مركزين على قوته الداخلية وكينونته الأساسية التى تنتمى بدورها الى الكينونة الأساسية لعموم الكائنات • فلو أن اليونانيين قد رأوا آلهتهم فى تشابههم المجد مع الانسان ، فان الفضل فى ذلك يعود الى تلك المزايا التى بفضلها نستطيع أن نعرف الآلهة ، ونلم بأسرارها ، وعلى النقيض من ذلك فعندما حاول اليونانيون أن يروا الانسان بصفاته الدائمة المتميزة ، فان الفضل فى ذلك يعود الى صلته الوثيقة بالآلهة الثابتة • ان ادراك الصلة بين ما هو مرئى وغير مرئى ، وما هو عرضى وما هو جوهرى ، وبين ماهو زائل وما هو دائم ، هو الذى أمد الفن اليونانى [illegible] وانضباط [illegible] مقبولا ، وأضفى عليه نبلا بفضل التجريد الخالص والتناغم المتسلسل المتسق

لقد جعلت هذه النظرة الفن اليونانى على ما هو عليه ، وهى تفسر مزاياه الخاصة وتبرر افتقاره الى كثير مما نحبه ونعجب به فى فنون الشعوب الأخرى ، ومن أهم خصائصه المتميزة فى فتراته الكلاسيكية القديمة ، أنه بالرغم من اهتمامه الدائم بالبحث عن الجمال فانه يجعل هذا البحث أمرا مألوفا ميسور المنال بفضل عرضه لهذا الجمال • ونحن لانجد فى رؤيا هذا الفن للآلهة والأبطال شيئا غريبا أو عنيفا أو متأبيا زائفا فهم متصلون بالعالم المعروف ، وحتى لو كانوا أكثر نبلا من كل كائنات هذا

العالم ، الا أن لهم فيه مكانا بشكل ما يبدو وكأنهم ينتمون اليه • والفن اليوناني بعيد كل البعد عن خلق الاحساس بوجود فجوة بين الأشياء كما نراها أو كما هي على حقيقتها ، وهو يصر على أن كل الأشياء ما هي الا شيء واحد ، وأن كل من هذه الأشـــياء يؤكد طبيعة الآخر في وحدة متفردة مستقلة تعكس عالما متماسكا متكاملا • وحتى تتواءم ابداعاته مع المشاهد العامة ، نرى الفن اليوناني يتجشم عنتـــا كبيرا في جعل هذه الابداعات حقيقية بحكم أسلوبها الخاص ، ولايدع هذا الفن صغيرة أو كبيرة ولا يخشى الاقتحام •

ان ثنيات ثوب سائق مركبة دلفي قد لايرى من داخل مركبته ، ومع ذلك لابد لهذه الثنيات أن تكون نموذجا متمشيا مع الاحساس الصادق والكامل بنوعيتها • ولا نرى التماثيل القائمة على واجهات معبد بارثينون الا من جانب واحد أو من بعد ، بيد أنه لابد لهذه التماثيل من أن تشكل تشكيلا كاملا وواعيا عند استدارتها • ان الشكل الخارجي هو الذي يهم العين أكثر من أي شيء آخـر • وان كل شكل سـواء كان في التصميم الرئيسي أم التفاصيل الصغيرة لابد أن يتخذ طابعه ومغزاه ، ان نزول الفن على رغبة الواقعية ــ بمعنى تصوير الأشياء بهدف اظهار خصائصها الأكثر ظهورا لا الأكثر اقترابا من الجوهر ، قد يعني فقدان أو فساد الاحساس بالشكل ، وأن اهتمامنا قد شـــد الى أمور غاية في التفاهة بدلا من أن ينجذب الى ما يعنينا حقيقة ، مما تتخذه الأعضاء من أوضاع ، وما يكون للجسد من عضل مفتول •

وفي أيامهم المتأخرة جرب اليونانيون الواقعية الدرامية الا أننا في أعمـــال مثـــل فارنس بول (Farnese Bull) ولاكون (Laocoon) نفتقد التناغم الذي كانت تختص به الأعمال المبكرة ، والذي كان ينشأ نتيجة لما يحاوله الفن من جعل كل جزء يتحدث عن نفسه دون أن يدعي حقوقا على حساب الأجزاء الأخرى • ونجد الواقعية المتأخرة بعيدة كل البعد عن جو الحقيقة المنشودة في الفن الكلاسيكي الجديد ، فهي أكثر عنفا وجموحا ، والتصاقا بالأمور الحسية • ولهذا السبب نجدها تفتقد الجلال والتوازن اللذين ينبعان من عدم محاولة الافصاح بالكثير ، وانما تدع التصميم يوحي بالامكانيات اللا متناهية من خلال التلميحات التي يشي بها هذا التصميم • ومثلما يحقق الشعر اليوناني بعضـــا من أكثر نتاجه تأثيرا بفضل أقل قدر من الافصاح عن الموضوع الذي يراد الافصاح عنه ، كذلك يمارس كل من الرسم والنحت اليونانيين اقتصادا مماثلا وانضباطا مماثلا ومشابها ، ويبدو أن كلا منهما قد يحيد عن طريقه بهدف رفع

العنت عن كاهلنا بفضل حملنا على أن نستوعب أكثر مما نستطيع بيسر ودون معاناة ، فاذا كان السبب الحقيقى الذى يعود اليه هذا الاتجاه هو الرغبة فى تصوير الكائنات الحية فى طبيعتها الجوهرية ، فقد تمخض عن ذلك فن يستطيع أن يستميل كل الناس على وجه التقريب بحكم بساطته وصدقه • وبسبب رؤية اليونانيين للأشـياء على هذا النحو فقد حققوا أسلوبا جليلا فخما بأجمل ما لهذه الكلمة من معنى ، ويتمثل ذلك فى عدم اذعان الفن للأحاسيس الفجة وتركيزه على نقاء الخط ومغزى الشكل •

لم يكن اليونانيون أمة من الفنانين ولا من عشاق الجمال ، والسبب فى ذلك يعود الى حد كبير الى أن الفن قد لعب دورا فى حياتهم كان من الضخامة والقبول ، الى الحد الذى لم يشعروا معه بضرورة لتبرير وجوده ، أو اتخاذ موقف المدافع عن هذا الفن • فاذا ما كان الفنان رجل حرفة ، فهو كذلك مواطن يشارك فى الحياة المدنية ، ويضطلع بمهامه القومية ، ويضع الفنان فى فنه رؤياه الخاصة للأشياء من حوله ، لكنه يشكل هذه الرؤيا غريزيا ودون وعى بفضـــل حياته بين الآخرين الذين يشاركهم أفكارهم وأذواقهم ، والذين يجد فى تأييدهم لأعماله تشجيعا وتعزيزا • لم يكن هدفه الكشف عن أصالتـــه أو اختلافه عن الفنانين الآخـرين ، بقدر ما كان يهدف الى اظهار براعته فى أداء هذا النوع من النشاط الذى قام به غيره من الفنانين ، لكنه كان يأمل فى أن يأتى بما هو أفضل • كانت تحكمه أعراف كثيرة وآداب دينية ، وسلوك اجتماعى وقواعد فنية من قواعد التوازن والتناسب ، ومع ذلك فلم يجد فى هذا كله عائقا ، وانما وجد فيه العون • ولما كان يدرك تمـــام الادراك مدى الحدود التى يتعين عليه أن يعمل داخل اطارها ، ولما لم يقلقه التزامه باســـتخلاص وسائل جديدة وعديدة ، فقد توفر لديه الوقت لبلوغ الكمال بوسائل فنه ، وتحقيق أقصى فائدة من المهمة المنوطة به • ان التطور السريع للفن اليونانى لابد أن يدين بطبيعة الحال بالكثير الى أصالة فنانيه ، بيد أنه ليس هناك من سبب يدعـونا الى الاعتقـاد أن هؤلاء الفنانين كانـوا يسعون الى هذه الأصالة ، وكان تطورهم أقرب الى أن يكون موضوع حل مشاكل طرحها هؤلاء الفنانون أنفسهم ، ومحاولة الاتيان بما هو أفضل قليلا مما أتى به الفنانون الآخرون من قبلهم • وكان يعزز مسيرتهم فى هذا المجال جمهور ألم بالفن وعرف الشكل الذى يتبغى أن يكون عليه هذا الفن • والى هذا يرجع السبب فى أن الفن اليونانى فى أيامه العظيمة فن قومى بشـكل جوهـرى ، وأنه لايبهرنا باعتباره كشفا للشخصية الفـردية بأكثر ـ ما يبهرنا باعتباره تعبيرا عن مجتمع بكامله وحضارة برمتها •

وكان اليونانيون في حبهم للفن يدركون أنه لا ينبغي عليهم أن يخلعوا على الفن قيمة رفيعة للغــاية أو يطلبون منه أكثر مما كان في مقدوره أن يقدمه اليهم • وكان الفن في الواقع وســيلة لقتل الفراغ ، واضفاء الحياة على الذكريات وتخليد المجد بعد الموت ، وحتى لو أنه أتى بكل هذه الأمور فلم يكن في وسعه أن يأتي بهـا الى الأبد ، وليس الفن بمنأى عن متناول الخط والتغير • وكانت هناك لحظات نجد فيها الايمان بالفن قد يستحث آمالا رفيعة تنطوي عليها طاقته مثلما نجد كليوبولوس (Cleobulus) من رودس (Rhodes) والذي يعد واحدا من الحكماء السبعة قد كتب تأبينا على ضريح ميداس (Midas) :

انى فتاة برونزية انتصب على مقبرة ميداس
طالما تنساب المياه وتزدهر الأشجار الباسقات
وطالما تطلع الشمس وتشرق ، ويضيء القمر البهي ،
وطالما تتدفق الأنهار ، ويموج البحر عاليا
هناك في هذا المكان سـوف أبقى فوق هذه المقبرة التي كثر النواح عليها
وأنبيء العابرين أن ميداس قد ثوى الثرى في هذا المكان •

وقد يبدو لنا أن هذا التأبين لايدعى حقوقا تزيد من حيث الكثرة والافراط عما يدعيه الشعراء والفنانون لأعمالهم ، ويقوم هذا الاعتـداد على أساس من الثقة الطبيعية في أن هذا النصب التذكارى سوف يقهر الســنين بحق ، بيد أن هذا الاعتداء قد قوبل باســتهجان وأطلـع سيموندیس (Simondes) على هذه الأبيات الشعرية وتناولها بالنقد اللاذع :

من ذا الذى يثق بفعله ومع ذلك يثنى على كليوبولوس
هذا الذى عاش في ليندوس (Lindos)
وذلك عندما نجده يقارن قوة شاهد القبر بالأنهار الخالدة
وازهار الربيع ، وتالق الشمس والقمر الذهبى
ودوامات البحر
فكل الكائنات أقل قوة من الآلهة •
وحتى الأيادى الفانية تستطيع أن تحطم البحر
ان الانسان الذى تصور ذلك ماهو الا أحمق •

لقد كان للنصب التذكارية لعظماء الرجـــال فى الواقع جمالهـا وعجدها ، وكانت تعد دائما من جلائل أعمـال الآلهة وأشباه الآلهة من البشر . بيد أنه من غير الحكمة أن تجاوز فى تقديرنا هذا الحد . لقد كان للفن منزلتـــه الصحيحة فى الحيـــاة ، منزلة غاية فى التكريم والتبجيل الا أنه لم يكن هنـــاك ضرورة فى أن يبـالغ الفن فى ادعاء حقوق له ، أو ندعى انه لم يعان من القيود الموضوعة على كل ماصنعه الانســـان .

ان المطالب المتواضعة نسبيا والتى وضعها اليونانيون تحقيقا لمنزلة الفن فى الحيـــاة ، قد أكدت التناقض المقلق برأى أفلاطـون فى هذا الموضوع . لم يعارض أفلاطون وجود فن الرسم أو الشعر فى ظل هذا الاعتبار ، بيد أنه تصور أن قدرا كبيرا من الرسم أو الشعر قد حيد به عن جادة الصواب ، ولذا فقد رغب أفلاطون رغبة عظيمة فى تحديد مجال فن الرسم والشعر . وقد وافق على الرأى القائل بأن الفن فى جوهره محاكاة ، وقد استخلص من ذلك نتيجة مؤداها أنه مادام الفن يحـاكى كائنات خاصة هى بدورها محاكاة لصور مثالية ، فهو فى المرحلة الثالثة من حيث بعده عن الحقيقة . وتعد هذه التعاليم على قدر كبير من الروعة والامتياز ، وكان أفلاطون على قدر كبير من الاستجابة الحساسة الحادة لجاذبية الفنون وكان فى تدبيج عباراته فنانا لا نظير له . ولا يكفى أن نذكر أن أفلاطون قد شجب الفن الواقعى التصويرى فى أيامه ، اذ أنه من الواضح أنه صدر حكما متساويا بالادانة على كل فنون القرن الخامس ، وكانت حيثياته أكثر عمقا من مجرد استهجان الاتجاه السائد . واهتم اهتماما متحمسا باكتشاف الصدق الجوهرى للحقيقة ، وآمن بأنه من الممكن ايجاد الحقيقة فى نظام مثالى لايستطيع ادراكه الا العقل المدرك . وقد تأثر باقتناعه بأن كثرة الفن قد جلبت على الآلهـــة عارا وخزيا ، بما يحكيه الفن من قصص تدور حولهم ولم يستطع أفلاطون أن يعتقد فى صدق هذه القصص . لقد دفعته أسباب فكرية وأخلاقيـــة الى المطالبة بوضع قيود صـــارمة على مضـــمون الفنون ، اذ أنه لايستطيع بغير هذه الوسائل أن يفسح لها مكانا فى نظامه الذى كان يرغب فى فرضه على المجتمع . ومع ذلك وبالرغم من بلاغة وصدق محاوراته الا أنه قد جانب الصواب فى كلا الجانبين ، ولم يكن اهتمام الفنانين والنحاتين بأقل من اهتمام أفلاطون بالعثور على نظام مثالى يكمن خلف مظاهر الأشياء ، وجعل هذا النظام معروفا لدى الناس ، لكنهم كانوا يعتقدون بأن هذا النظام لايكشف عن نفسه للفكر الهادىء المستقر ، بقدر ما يكشف عن نفسه للنفس الكلية الحساسة ، ولم يكن هدفهم بأقل جدية من هدفه .

وتمثل الفرق بينه وبينهم في أن رأيهم في الآلهة كان على سبيل الحصر ، أقل التزاما بالاتجاهات الأخلاقية ، وأنهم قد سعوا الى تحسين أوضاع الناس بمعناه الشامل ، وليس ذلك بتلقينهم أخلاقيـــات ذات نوعية خاصة ، وانما بممارسة نفوذ يجعلهم أكثر وعيا بالمسائل الجليلة وأكثر قدرة على الاستجابة لتحدياتها ٠

لقد رأى اليونانيون أن الرســـم والنحت والشعر كذلك ، وسائل أخرى أكثـــر فاعلية وتأثيرا من الحوار والقواعد الأخلاقية فى انبعـاث شعور الرهبة والاندهاش أمام جمال العالم ٠

الفصل التاسع

الفصل التاسع

منزلة العقل

لقد عبر اليونانيون في شعرهم عن التأملات الهـامة في فترات تاريخهم القـديم ، وحتى عندما غزا هذا الاتجـاه كلا من فن النحت والرسم ، كان لايزال التعليم الشعرى ومبادئه يشكل نظرتهـم الى حد كبير • وحتى لو تركت أسـاطير التراث القديم كثيرا من الأمور دون تفسير ، وحتى لو ناقض بعضها بعضا فى مسائل هامة ، فقد قدمت هذه الأساطير معالجة للتجربة ، بعيدة عن التفكير بالصور الحسـية ، التى ترضى شعبا ليس لديه سبب يدعوه الى الشـك فى وجود آلهـة عاملة تمارس واجباتها فى كل الأنحاء • ان معرفتهم تشرح كثيرا من الظواهر الطبيعية والعقلية ، الا أنه قد تولدت مع بداية القرن السـادس روح جديدة ، نمت ـ استكملت نضجها حتى أثرت على فروع كثيرة من فروع البحث والتحقيق • ويعد هذا الاتجاه رغبة فى فهم الأمور فهما أكثر دقة ، فهما يستجلى الغموض الذى يغلف هذه الأمور حتى يتيسر تفسيرها فى لغة عقلانية محدودة ، كما كان هذا الاتجـاه يستهدف العثور على مبادىء وقواعد فى الطبيعة أكثر مما كان يستهدف العثور على التقلبات المبهمة التى تعزوها الأساطير الى الآلهة • ان مثل هذه الحركة الفكرية كانت حتمية فى شعب على قدر كبير من الذكاء مثل شعب اليونان الا أن هذه الحركة كانت تستحثها تغيرات سياسية واجتماعية • بدأت هذه الحركة فى أيونيا ، وحظيت بتأييد طاليس (١) (Thales) من ميليتوس

(١) فيلسوف يونانى ـ قال بان الماء أصل الأشياء كلها •

ان اختفاء الملكيات الوراثية واحلال طبقة حاكمة جديدة محلها ، سرعان ما حول اهتمامها الى التجارة الخارجية ، وكان يعنى أيضا أن الآفاق الفكرية ازدادت رحابة بفضل التقدم المادى ، واقامة مراكز تجارية ، مثل التى أقيمت فى مصر ، والتى جعلت اليونانيين على صلة بمجال المعرفة التطبيقية التى وان كانت محدودة الأفق ، الا أنها لم تكن مألوفة لدى اليونانيين - وفى داخل الجزيرة اليونانية طرح البناء والنحت والصناعات المعدنية مشكلات فنية تطلبت حلا ، كما أن النشاط المتزايد للبحارة الذين طووا الآفاق حتى الطرف الغربى البعيد للبحر الأبيض المتوسط ، كان هو الآخر يتطلب معرفة أكثر من مجرد المعرفة الأسطورية معرفة بعلم الجغرافيا والفلك ، واستحث انتشار علم الرياضة البدنية التعرف على الجسد الانسانى تعرفا صحيحا ، ولو لمجرد معالجة الأطراف المصابة بكسر ومداواة الالتواءات المفصلية • وغزت الأحداث روحا جديدة للبحث فى العالم المرئى ، وقد اتخذ هذا البحث أشكالا رئيسية • وبالرغم من وجود بعض التداخل بين الأشكال الا أن كل شكل قد احتفظ بطابعه الخاص وخضع لقوانين تطوره •

وكان علم الرياضة هو أول هذه الأشكال • ولم يكن ابتكارا يونانيا ، وانما مارسته بابل ومصر بقدر من المهارة ، ويقال أن طاليس هو الذى استجلبه من مصر • ولعل هذا هو السبب فى أنه استطاع أن يحدد ارتفاع الهرم بتحديد درجة الظل ، ويبدو أن علم الرياضة المصرى كان علما تطبيقيا أكثر منه نظريا ، ولقد حدد طاليس الطابع الخاص لعلم الرياضيات اليونانى عندما برهن أن الدائرة تشطر بفطرها الى نصفين ، وتبدأ بالاتجاه الذى بدأ البرهان الرياضى يتجه اليه من الآن فصاعدا • وارتفع اليونانيون بعلم الرياضيات متجاوزين التطبيق العملى الذى حظيت به الرياضيات من قبل المصريين فى مثل مجالات البناء ، وكذلك أكد اليونانيون على طابعه النظرى •

ومثلما كان اليونانيون فى فنونهم يبحثون عن الحقيقة خلف المظاهر ، كذلك كانوا ينشدون فى علم الرياضة مبادىء ثابتة يمكن تطبيقها فى كل المواضع التى تكون فيها الظروف واحدة • وجذبت احتمالات هذا البحث خيال فيثاغورس (١) (Pythagoras) وتلاميذه الذين رأوا فى الأعداد مفتاح كل المسائل وأكدوا الحقيقة القائلة

---

(١) رياضى وفيلسوف يونانى • قال بان الحقيقة هى فى أعمق أعماقها رياضية ، وبان العدد أساس كل شىء •

« ان الكائنات هى الأعداد » • واذا نظرنا الى هذا الأمر نظرة بعيدة عن الحرفية ، فسوف نجده اتجاها يميز مرحلة هامة من مراحل التطور الفكرى ، اذ أنه يقر المبادىء القائلة أننا نستطيع فهم مجموعة كبيرة من الظواهر الطبيعية لو استطعنا أن نكتشف من الناحية الرياضية القوانين التى تحكم هذه الظواهر • ومن حقائق التاريخ الغريبة أن دراسة فيثاغورس للموسيقى هى التى دفعته الى دراسة علم الرياضيات • فقد عني باقامة علاقات ثابتة بين النغمات العديدة للسلم الموسيقى ، ورأى أنه من الممكن حل ألغاز هذا السلم باعتباره موضوعا من موضوعات النسبية الحسابية • ومن هذا المنطلق يبدو أنه قد انتهى الى النظرية الرياضية التى مازالت تحمل اسمه ، (ان مساحة سطح المربع المنشأ على وتر المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع مساحتى المربعين المنشأين على ضلعى القائمة) •

وقد عرفت هذه النظرية فى مصر بشكل محدود وعملى ، ويقال أن الهند قد اكتشفتها اكتشافا مستقلا عن أى تأثير خارجى ؛ بيد أن البرهنة اليونانية لهذه النظرية تعد انتصارا للتصور الرياضى البحت دون اشارة الى أى اعتبارات عملية • وبدأ علم الرياضة اليونانى بعلم الهندسة وظل وفيا له طوال مسيرته المديدة •

وكانت الفلسفة هى الشكل الثانى الذى اتخذه هذا التطور ، وكانت أيضا محاولة للعثور على الحقيقة خلف الظواهر الطبيعية ، لكنها لم تتخذ من الأعداد أداة لها ، وانما اتخذت أداتها من الكلمات • ويبدو أنها منذ البداية طرحت سؤالا يقول « ما هو الجوهر الأساسى للكائنات ؟ » • وجاءت اجابة طاليس على هذا السؤال أنه الماء ، وأجاب أناكسيمينيس (١) (Anascimenes) أنه الهواء •

لقد اتخذت الفلسفة فى بحثها منهجا كونيا ؛ من حيث أنها راحت تسعى الى الثورة على نظرية أكثر اقناعا من الأساطير التى كانت تحكى « ان الفوضى قد أنجبت الضوء والظلام وأن كلا من الضوء والظلام قد تمخض عن ذريته الخاصة » • واحتوى هذا السؤال فى الواقع على سؤالين ، « ما هو أصل الأشياء ؟ وما هى طبيعة الأشياء ؟ » • ولقد تصدى الفلاسفة لكلا السؤالين ، وانتهوا الى اجاباتهم المتعددة • الا أن

---

(١) فيلسوف يونانى قال بأن الهواء هو أصل الأشياء كلها •

الفلاســفة اتفقوا على أن هذه الأسئلة هي في الواقع أسئلة جوهرية ، ومن المستطاع الاجابة عليها من خلال الفكر الجاد • وبهذه الطريقـــة وضعوا أسس علم المنطق ، وأسسا للتطور الصحيح ، الذى يقضى بأن أى تناقض بين قضيتين يعنى أن احداهما على الأقل زائفة وغير حقيقية • وبالرغم من أن الفلاســـفة قد يلجأون الى الظواهر لايضـــاح وتأكيد نظرياتهم ، فان النظريات نفسها قد أقيمت على نظام قوى متماسك من الحوار الفكرى انطلاقا من المقدمات المفترضـــة المتفق عليها — وفى هذه الناحية تشبه الفلاسفة مع الرياضيين وبالرغم من أن الفلسفة فى مراحلها الأولى كانت أقل تجريدا من الرياضيات ، الا أنها بكل تأكيد آمنت بأنه ليس هناك نظرية عن الكينونة ، قادرة كافية ان لم تكن متماسكة ثابتة لا تناقض فيها •

وكانت العلوم الطبيعية هى الشكل الثـالث من هذه الأشـكال الثلاثة • فلو أن العلم قد تساوى مع الفلسفة بحكم رغبته فى اكتشاف وتفسير طبيعة الظواهر الطبيعية ، فانه يختلف عنها من حيث وسائله التى يتخذها لهذا الكشف والتفسير ، وقد آمن العلم بالملاحظة والتجربة أكثر من ايمانه باقامة نظرية ثابتة ، وبالرغم من أن العلم يعتمد فى مجال الفلك على الرياضيات الى حد كبير ، الا أنه قد تمكن من الاحاطة بعلم الفلك بفضل ملاحظته الواعية والحريصة للحقائق الثابتة •

وكان الطب أكثر مجالات بحثه من حيث التطبيق ، والنجـــاح ، والروح العلمية الصارمة ، ويبدو أن الطب قد تحرر منذ البـــداية من الافتراضات المسبقة التى تشتمل عليها فروع العلم الأخرى كما التزم بحدود محددة واضحة المعالم • وبدأ الأطباء ثورة بعيدة المدى باحلالهم التمريض ونظام الغذاء المنضبط محل وسائل الســحر التقليـدية • وانحصرت مهمتهم فى دراسة أسباب الاضطراب فى الجسم الانسانى ، ومحاولة اعادته الى حالته الطبيعية ، قياسا على ما يفعـــله الموسيقيون عندما يشذ اللحن والتناغم الموسيقى • وفى القرن الخامس ، وقت قيادة أبقراط (١) (Hippocrates) (٤٧٩ — ٣٩٩ ق•م) ، انفصل الطب اليونانى عن الماضى وعن الاعتقاد بلعنة الآلهة ، وطور نظاما كاملا قائما على وسائل علمية • وتكشف كتابات أبقراط وأتباعه عن عناية دقيقة فى مجال فحص الأعراض المرضية • « ولابد من فحص كل جزء من أجزاء

(١) طبيب يونانى ، يعتبر ابا الطب •

الجسم ، وملاحظة أية غرابة فى درجة الحرارة والحركة واللون • ولا مندوحة للطبيب عن معرفة حاسة التذوق والشم للمريض، ونومه وأحلامه وشهيته من عدمها ، آلامه وحكات الجلد ، وأن يحلل الغائط والبول • وبعد تجميع الشواهد ومقارنة الأعراض بحالات أخرى ، هنالك يشعر الطبيب أن بوسعه أن يمضى الى التشخيص والعلاج ، واثقا انه قد عرف كل ما استطاع أن يعرفه عن الحالة وأنه يستطيع داخل حدود معينة أن يتنبأ بما سيحدث • » ومن الضرورى أن نتعلم بدقة تكوين فصول السنة ، وتكوين المرض أيضا ، وما هو العنصر الشائع فى البيئة أو فى المرض — الذى يكون نافعا أو ضارا ، وما هو المرض الطويل الأمد والمهلك ، وما هو المرض الطويل المحتمل أن ينتهى بالشفاء ، وما هو المرض الحاد المميت ، وما هو المرض الحاد المحتمل أن ينتهى بالشفاء • وبهذه المعرفة يصبح من الميسور اختبار نظام الأيام الحرجة والتنبؤ بفضلها • ومن يلم بهذه المسائل يستطيع أن يعرف ما ينبغى معالجته كما يستطيع أن يعرف فترة وطريقة العلاج » •

وهنا نجد روح البحث العلمى تعتمد على الملاحظة الواعية وتستطيع أن تعطى تنبؤا ما عما يحتمل حدوثه • ولا يدعى المؤلف أنه يستطيع ابراء المرض ، حتى عندما يعرف حقيقته ، ويكتفى بتشخيصه وتحاشى الأخطاء فى علاجه لهذا المرض • ان مبادىء الطب اليونانى هى بعينها مبادىء العلوم الطبيعية فى أيامنا هذه ، ومن الملائم لطبيعة الأشياء أن اليونانيين قد حققوا هذا الانقلاب العلمى الخطير من خلال عنايتهم بالجسم الانسانى •

وبالرغم من أن كلا من علم الرياضيات والفلسفة والعلوم الطبيعية قد اختص بافتراضات ووسائل ومبادىء مستقلة للعمل ، فان هذه العلوم جميعها يجمع بينها قدر كبير من الصفات المشتركة ، وتشترك فى خصائص أساسية معينة تنتمى الى عصر التنوير اليونانى • ولم تكن هذه العلوم فى أيامها الأولى المبكرة فى صراع مع الدين ، اذ أنها مثل الدين تناولت مسائل عن الطبيعة وأصول الأشياء ، وليس غريبا أن يدفع طاليس الى القول « ان الآلهة تشيع فى كل الكائنات وتتلبسها » •

أو نجد أناكمسندر (١) (Anaximander) يطلق كلمة اله على الهواء •

---

(١) هو الذى قال أن الكون من مادة لا نهائية تشتمل على مختلف المتناقضات •

ان مثل هذه اللغة كانت متوائمة مع مجتمع رأى الآلهــة فى كل مكان ، ولم يزعجه كثيرا أن يحدد محيط نشاطهم بشكل دقيق • ولما كان اليونانيون يعتقدون أن عالم الآلهة والبشر واحد فلم يجدوا صعوبة فى الاعتقاد بأن ما يرونه حولهم له جانبه الالهى مثلما كان له جانبه المادى وأن الاثنين فى نهاية المطاف يختلفان • وانطلاقا من رغبتهم فى العثور على مبدأ عام شامل ، افترض اليونانيون وجود نظــام كونى مثلمـــا صنع المفكرون من رجال الدين • وفى تطوير أفكارهم بشأن هـــذا الأمر ، استخدموا اللغة القديمة التى تعزو السيطرة الالهية الى مجالات متنوعة من مجالات الحقيقة • وحتى لو أنهم لم يستطيعوا فى نهـــاية الأمر أن يميطوا اللثام عن القوانين التى تحكم الظواهر الطبيعية ، فقد استطاعوا على الأقل أن يدعوا وجود هذه القوانين ، كما استطاعوا أن يستخدموا لغة أسطورية لاظهار ما كانوا يقصدون • ان أول بوادر قوانين الطبيعة ، قد استمدت من القوانين الالهية ، ونستطيع كذلك أن نفهم أنه عنــدما رغب أناكسمندر فى اظهار توازن القوى المضادة كأساس للحقيقــة راح يقول « ان الكائنات يعطى بعضها البعض حرية واشباعا عوضا عما تلقاه من ظلم يقرره سلطان الزمن » • أو نجــد هيراقليطس (٢) (Heraclitus) يتحدث عن انتظام حركة الشمس فيقول « لن تجاوز الشمس حدودها ، واذا ما فعلت فسوف يكتشف أمرها أعوان الهة العدل » ــ وطالما سلمنا بوجود دور للآلهة ، فلم يعد من العسير على الفلاسفة أن يطوعوا أفكارهم لنظام تميز بالمرونة والتسامح ، نظام يسعده تماما أن يرحب بالمهـــام الجديدة الملقاة على عاتق الآلهة •

ان كل فروع البحث هذه تفترض سلفـــا أنه من الممكن والملائم للانسان أن يكتشف حقيقة طبيعة الأشياء ، ويوافق من حيث المبدأ على قول هيراقليطس « ان الحكمة أمر واحد متفرد ، انها معرفة الفكر الذى يقود كل الكائنات من خلال الكائنات ذاتها » •

ونحن نجد للوهلة الأولى أن هذا الموقف مناقض لاعتقاد سائد مؤداه أنه ما دامت الآلهة تعامل الناس كما تحب ، فمن المحال أن تكون على يقين من أى شىء •

ونجد كلا من بندار وسوفوكليس على حد سواء يجعل من جهل البشر بمصائرهم محور الخلاف الأســـاسى بينهم وبين الآلهة • لكن لما كانت

---

(٢) الذى اعتبر أن النار الجوهر الأول •

الفلسفة والعلم يتطوران ،فقد تغيرت هذه الفكرة وتواءمت مع نموذج المعرفة الجديدة · وفي القرن السادس نجد سولون الذى كان ملما بحكمة التراث ، يتبع شكلا أشبه بالسلم المتصاعد بادئا من الجهل المطبق الى توقع فكرى أفضل · فلو أن كلا من التاجر والمزارع تحت رحمة تقلبات الجو . التى لا يستطيع أحدهما أن يتنبأ بحدوثها ، فان للصانع ، والشاعر والعراف والطبيب على الأقل راعيا الهيا يعلمهم ويحميهم ويعزز معرفتهم بأعمالهم · ومن الطبيعى أنهم قد يخطئون ، وليس بوسعهم التأكد مما سيحدث مستقبلا ، لكنهم لا يعملون فى ظل جهل مطلق ·

لقد كان اقتناء مثل هذه المعرفة في الواقع احدى الوسائل التى يستطيع البشر بفضلها أن يصبحوا مثل الآلهة ، دون أن يعنيهم الى أى مدى يكون تشابهم مع الآلهة ، وأن يصبحوا أكثر قدرة على تقرير مصائرهم · والاجابة العملية تقول : على الرغم من أنه ليس فى وسع البشر أن يتمتع بالأمل فيما هو مؤكد ، الا أنهم يستطيعون أن يتكهنوا بتخمينات طبية كما فعل الطبيب الكميون Alcmaeon الكروتونى (٥٠٠ ق·م) « ان لدى الآلهة معرفة جلية عن كل ما هو مرئى ، وعما هو من الكائنات الفانية ، أما نحن البشر فليس فى وسعنا الا أن نستنتج ما سوف يحتمل حدوثه » · ويتبنى هذا الاتجاه الفكرة القديمة ويعطبها تطبيقا عمليا ·

والاستنتاج هو على كل حال محاولة ما ، وقد يكون له جدواه · فقد يسعى الانسان داخل قيود محددة ، الى التشبه بالآلهة ، ولو تذكر الفرق الهائل بين قدراته وقدرات الآلهة ، فلن يكون هناك سبب يمنعه من النظر الى المعرفة باعتبارها غاية من الممكن تحقيقها ، شريطة أن يحصر هذه المعرفة فى مجالات معينة ولا يبالغ فى مطالبته بحقوقه ، تقديرا لهذه المعرفة ، وبخاصة حين محاولته التنبؤ بالمستقبل أو معرفة ما هو مختص بالآلهة · ولقد كان هذا الموقف حساسا دقيقا ، ولم يكن من السهل الاقتناع به ، بيد أنه لو أمكن ابقاؤه داخل حدود معينة ، فسوف يتحاشى الوقوع فى تناقض صريح مع العقيدة الدينية ·

وكان على كل من الفلسفة والعلم أن يتصالح مع الدين ، اذ أن كلا منهما قد افترض فروضا شبيهة بتلك التى افترضها الدين · ومن الطبيعى أنه كان من الممكن اتخاذ موقفا سلبيا بحتا ، ورفض العلم لعدم جدواه · كما فعل بندار عندما قال « ان الفلاسفة الطبيعيين يقطفون ثمارا من المعرفة التى لا طائل تحتها » ــ وقد كان هذا بالنسبة لبندار أمرا طبيعيا للغاية ، اذ أن المعرفة التى يقدرها بندار كانت أقل ارتباطا بالعالم المادى

وأكثر اتصالا بالآلهة . الا أنه يبدو أن قليلا من الناس قد ذهب الى هذا المدى الذى ذهب اليه بندار ، بل ان سوفوكليس الورع قد تأثر أحيانا بالأفكار العلمية وان كانت لم تفعل أكثر من ترسيخ عقيدته الدينية القوية بالفعل . ولقد باشر فى الواقع الفلاسفة الأوائل مهمتهم بروح تكاد أن تكون دينية ، واستهدفوا تقديم هذه المهام كما لو كانت وحيا يوحى بمعنى من المعانى ، ولم يكن بها شبه من حيث المضمون بالعقائد القديمة ، وان تشابهت معها فى روحها ووسائلها ، وبالرغم من أن هيراقليطس قد رفض بازدراء غاضب القصص التى قصها كل من هوميروس وهسيود (Hesiod) (١) ، الا أنه قد كشف عن نفاذ بصيرته فى « مبدأ الكون العقلانى » الذى يوجه كل الكائنات ويحدد مسارها .

ولم يكتف بارمينيدس (Parmenides) بالتأكد على أن معرفته قد منحته اياها الهة ، وانما يتحدث عن نفسه باعتباره واحدا من المطلعين على الأسرار الخاصة الغامضة وعن نظامه كوسيلة الى هذا الاطلاع . أما فيثاغورس فقد سعى الى أن يجد فى الأعداد أداة للخلاص والغفران وأداة لعلم الهندسة . ولم يكن الفلاسفة اليونانيون فى البداية مارقين عن الدين ، بل انهم طرحوا ترجمات معدلة للفروض التقليدية وقدموا هذه الفروض فى لغة يفهمها أواسط الناس ، وكانوا على قدر كبير من الصدق والاخلاص . وآمنوا بأن لديهم شيئا ينبغى الافصاح عنه أوحى به من قبل الآلهة ، وأن واجبهم أن يقدموه بكل ما له من ضرورة ملحة وخطر جليل .

أصبح المطلب الخاص والخصائص المميزة لهذه المهمة هو السعى الى الحقيقة من خلال البحث والتحقيق . والرأى القديم الذى يعنى أن الحقيقة تمنحها الآلهة بالوحى لم ينكره أحد بالفعل ، الا أنه قد حل محله فى هدوء ودون صخب ، الايمان بأن الناس يستطيعون أن يكتشفوها أى الحقيقة بأنفسهم ، ولم يمنع هذا الايمان رجل العلم من الاعتراف بأن الحقيقة الملهمة ليست دائما مقنعة .

فالهات الشعر اللاتى أسند اليهن اخبار البشر بأنباء الآلهة والماضى ، لم يكن أهلا للثقة لما شاع عنهن من سوء السمعة ، وحتى بندار يعترف بأن الشعر يخلق الأوهام :

ان الهة الجمال التى توجد كل المتع العذاب لبنى البشر ،

(١) شاعر يونانى يعرف (بأبى الشعر التعليمى) .

تأتى بالشرف طائعا ، وتجعل الزيف يبدو وكأنه الصدق ، المرة بعد المرة ٠

وكان الوضع التقليدى يقضى بأن على البشر أن يرضوا بما لديهم من حقيقة ، وأن يأملوا فى أن الزمن سوف يكشف لهم عن الكثير ٠ لقد صحح العلماء والفلاسفة هذا الأمر بالاصرار على أن الحقيقة هى الواجب الأول ٠ ولا ينبغى أن ندخر وسعا لاكتشافها ٠ وينكر اكسينوفانيس (١) (Xenophanes) الفكرة القديمة عندما يدعى أن البشر فى الواقع يكتشف بنفسه أسرار الكائنات « لم تكشف الآلهة للبشر عن كل الكائنات منذ البداية ، لكن البشر يكتشف بالبحث أفضل الاكتشافات بمضى الزمن » ٠ وللحقيقة جاذبيتها وهى تطالب أتباعها باستيفاء خصائصها ، مثلما رأى ديمقريطس (Democritus) (٢) حيث قال « انه يفضل اكتشاف علل الأشياء عن امتلاك مملكة الفرس » ـ وأقر الناس بأن البحث عن الحقيقة قد يكون شكلا راقيا من أشكال السلوك ، بل انه أرقى أشكال السلوك جميعا ، أما هيراقليطس فيرفض ضمنا الآراء القديمة المتعلقة بفكرة ذروة الفضيلة اذ يقول « التفكير هو أعظم الفضائل جميعا وتتألف الحكمة من أمرين ـ الافصاح عما هو صدق ، والتصرف وفق مقتضيات الطبيعة » ٠ ووصل اليونانيون الى الذروة فى هذا الأمر عندما طرح سقراط فكرة ظاهرة التناقض ، تقول « أن الفضيلة هى الحكمة ، وقد أوحى اليه بفضل هذه الفكرة بنظريات بعيدة المدى والتأثير » ـ ان الجدية التى اتسم بها سعى الفلاسفة الى الحقيقة كانت فى الواقع حماسا دينيا جليل الحظر ، وعندما أقام أناكسغوراس (٣) (Anaxagoras) مذبحا لآلهة الحقيقة كشف عما كانت تعنيه بالنسبة اليه ٠ ولم تتعارض مثل هذه الروح مع الديانة المستقرة ، التى رحبت بالديانات الجديدة حتى ما اتصف منها بطبيعة مجردة ، ولم يستطع لسبب ما أن يتضجر شاكيا من رغبة الناس فى ادراك طبيعة الأشياء ، وشعورهم بالتضاؤل فى حضرة أسرار هذا الدين ٠

لقد شاركت الرياضيات والفلسفة والعلوم الطبيعية جميعها فى الاعتقاد بقيمة الملاحظة والتجربة ٠ وقد يختلفون اختلافا كبيرا من حيث درجة استفادتهم من الملاحظة والتجربة ، بيد أنه لم يشعر عالم من علماء

---

(١) فيلسوف وشاعر يونانى قال « بوحدة الوجود » ٠

(٢) فيلسوف يونانى ، قال « ان العالم يتألف من ذرات مختلفة شكلا وحجما ووزنا »٠

(٣) فيلسوف يونانى ٠ قال بأنه لا يوجد شىء من العدم ٠

هذه العلوم الثلاثة بأن فى استطاعة هذه العلوم الاستغناء بشكل كامل عن الملاحظة والتجربة ــ ولما كانت عيون اليونانيين الحادة قد دربت على الفنون المرئية ، واستمتعت بملاحظة تفاصيل هذه الفنون ، فقد أصبح من الطبيعى أن يكونوا من أصحاب الملاحظة اليقظة ، وأن ينظروا الى هذه الملاحظة على أنها نشاط انسانى لا يتطلب تبريرا أو دفاعا • وبدون هذه الملاحظة لن يطرح سؤال هام أو تجد لهذا السؤال اجابة ، ولما كانت الملاحظة أمرا طبيعيا بالنسبة لليونانيين فقد استوقدت ذكاءهم وأثارت تأملاتهم •

وفى القرن السادس لاحظ أناكسيمينيس أن السحاب يتكون من الهواء وأنه بدوره يصير ماء بفعل التكثيف • واستخلص من هذا أن الهواء هو المادة الأساسية ، وأن كل شىء فى النهاية يتألف من الهواء • وكانت هذه النظرية من البساطة بحيث لا يمكن أن تكون صحيحة ، لكنها كانت على الأقل محاولة على سؤال فرضته عليه ملاحظته للحقائق • كذلك الحال عندما لاحظ أناكسيمندر أن هيكل الأسماك شبيه بهيكل الكائنات البشرية ، راح يبسط قبل داروين نظرية تقول « ان الحياة قد بدأت فى البحر وأن الناس قد انحدروا من حيوانات من نوع آخر • وكانت هذه الفكرة جريئة ، ولم يكن بوسعه أن يتنبأ بتعليل مستقبلى لها ، لكنه على الأقل أدرك نوع المشكلة وطرح حله بتقدير صحيح لاكتشافه الخاص • واذا ما بدت لنا نظريات من هذا النوع قائمة على أساس غير كاف وليست أكثر من مجرد تخمينات ملهمة أو بارعة ، فان علينا أن نتذكر أننا نعرفها بشكل عرضى وليس لدينا معلومات تقريبا عن الشواهد التى قدمت تأييدا لها • الا أن هناك دلائل تشير الى أن العلماء اليونانيين الأوائل قد تجشموا المشاق فى سبيل جمع الحقائق التى كانت تبدو أن لها علاقة بأسئلتهم ، ومن ثم يعد البرهان أمرا أكثر من مجرد حركة من حركات البصيرة النافذة • وعندما حاول اكسينوفانيس أن يوضح علاقة الأرض بالبحر ، لاحظ وجود الأصداف فى المناطق البرية الداخلية وفى التلال ، كما لاحظ أثر الأسماك ونباتات البحر فى محاجر سيراكيوزا (Syracuse) ، ولاحظ هيكل الأنشوفة (١) فى باطن أحجار باروس (Paros) ، وآثارا سطحية لكائنات بحرية فى مالطا • ويكشف لنا هذا المسلك عن رجل عرف ما كان يبحث عنه وتجشم المشاق فى سبيل العثور عليه ، رجل اتصف بدقة الملاحظة ، نظامى مجمع ومفكر فى وقت واحد • وقد خلص من فوره الى نتيجة مؤداها أن الأرض والماء ليسا منفصلين انفصالا مطلقا ، وأنهما بشكل مايغزوان بعضهما بعضا •والنتيجة التى خلص اليها أقل امتاعا من الوسيلة

---

(١) الأنشوقة : سمك صغير يشبه الرنجة •

التى اتخذها اليها ، وتبين أن اكسينوفانيس باحث صادق فى افتراضه أن ملاحظته للحقائق الغير ملحوظة الى يومه ، قد تستخدم بهدف نظريات لها فحواها البعيد المدى .

وكذلك أدلى المحققون الأوائل بدلوهم بهدف التحكم فى الملاحظة والسيطرة عليها عن طريق التجربة . وقد تبدو جهودهم فى هذا المجال بدائية الى حد ما ، ولكنهم على الأقل وضعوا البداية وكشفوا عن المعالجة الصحيحة لموضوعهم .

وفى مجال الرياضيات حدث نفس الشىء ، عندما كانوا يعتمدون على طول متوسط ذبذبة الأصوات لايضاح درجة النغم الناشئة عن الوتر المشدود ، واستخدم أتباع فيثاغورس مشط الأوتار المتحرك لتنويع طول الوتر ، ولم يبرهنوا بذلك على وجهة نظرهم فحسب وانما وجدوا فى ذلك وسيلة لقياس الظواهر الطبيعية بشكل دقيق .

وفى مجال الفلسفة رغب أناكسغوراس فى أن يوضح ، أن دقة الحواس لا يمكن الثقة بها بعد مرحلة معينة ، وأحضر وعاءين ملأ أحدهما بسائل أبيض ، والآخر بسائل أسود ، ومزجهما قطرة قطرة ، الى أن أصبحت العين غير قادرة على التمييز بينهما . ولقد سادت نفس الروح فى كل من العلوم الطبيعية وعلم الأحياء ، وأثبت أمبيدوقليس (Ampedocles) طبيعة الهواء المادية بغمس أنبوب مغطى طرفه فى الماء ، مبينا أن الماء لا يستطيع الدخول فيه حتى يزال العائق وتطلق الهواء حرا . وفى مجال الادراك الحسى مارس الكميون فى أبحاثه تشريح الكائنات الحية وتحليلها وخلص من ذلك الى نتيجة مؤداها أن المخ هو العضو المركزى للادراك . ولو أخذنا بعين التقدير النقص الكامل للأجهزة والمعدات وعدم توافر مواد كثيرة هى الآن تحت أيدينا ، فسوف لا نكون بحاجة الى أن نشعر بالاندهاش عندما يتبين لنا أن تجاربهم لم تمارس على نطاق واسع مدروس .

وتتمثل أهمية هذه التجارب فى كونها كشف لمكنون العقول فى نشاطها القوى العارم وفى التحقق من حقيقة مشاكلها الى الحد الذى جعل هذه التجارب قادرة على أن تضيف الى الحقائق المرصودة رصيدا آخر باضافة حقائق جديدة من ابداعها .

وكان لدى المفكرين اليونانيين فكرتهم الخاصة عن المضامين الاجتماعية للمهام المنوطة بهم وكانوا مقتنعين أن الشكل الذى اتخذوه لنشاطهم هو

أفضل الأشكال بذاته الا أنهم أدركوا أن هذا الشكل جعل الناس أحسن خلقا وفكرا وأن البحث عن المعرفة قد فرض مسئوليات اجتماعية وأدى الى تقليص الفرق بين الانسان والانسان ، ويكشف القسم الأبقراطى الذى ما زال الأطباء يستخدمونه ، الى أى مدى من الجدية ينظر رواد الطب الى مهمتهم كما يكشف عن حسن ادراكهم لمخاطر وأعباء هذه المهمة ، وليس من قبيل الصدفة أن ترى كاتبا أبقراطيا يقول «حيثما يوجد حب البشرية، يوجد كذلك حب العلم » ذلك كما لو كانت معرفة الطبيعة وحب الانسانية أمورا ليس من المستطاع الفصل بينهما فصـــلا حاسما • أما كلمـــات يوربيديس عن السعادة التى تنبع من دراسة الطبيعة فلا تقل ابهارا عما ذكره الكاتب الأبقراطى •

كم هو سعيد ذاك الذى يقتنى معرفة •
معرفة تأتيه من البحث والتحقيق
انه لا يستثير شرا يصيب به اخوانه
ولا يسلم نفسه الى أعمال جائرة
لكنه يتصور نظاما متجددا لا يشيخ أبدا
نظام الطبيعة التى لا يدركها الموت
ومما تكونت ، وأين •• وكيف ؟؟
ان رجالا من هذا النوع لا تجد الدنيات
فى نفوسهم مستقرا ومقاما •

ونرى يوربيديس يلوذ بالهدوء الفلسفى والعلمى الذى وافاه به البحث فى الطبيعة ، وذلك عندما اهتزت الحقائق الثابته ، وانهار التوازن القديم فى صراعات عصره المقلقة • لقد وجد فى هذا الهدوء بما له من تجرد وسلام أملا جديدا لبنى البشر ، وشفاء للانفعالات البغيضة التى تغذيها الاضطرابات السياسية والاجتماعية •

ان كلا من علم الرياضيات والفلسفة والعلوم اليونانية قد جاوز محنة انهيار أثينا عام ٤٠٤ ق•م ، وجميع هذه العلوم قد أسهم بعد هذه الكارثة ببعض من أكثر اسهاماته روعة • وبالرغم من أن علم الرياضيات لم يفقد الصلة بينه وبين علم الفلك الا أنه بقى مع ذلك خالصا بحتا ، لا يخالطه شىء من علم الفلك • ويعد هذا المنحى فى الواقع مجدا يحظى به علم الرياضيات ، اذ أن اليونانيين قد وضعوا نظاما بوسعه تحديد اتجاه البرهان الرياضى ــ ولم يتم حتى اليوم ادخال تحسينات أفضل على

هذا النظام • ويبدأ هذا النظام ، **أولا :** بالتعريف ، ولا تزال التعريفات كما هي باقية فى هندسة أقليدس (١) (Euclid) نماذج للايجاز والوضوح • **ثانيا :** يقيم بعد ذلك تحليلا يتيح لنا بعد طرح افتراض ما أن نسأل عن نوعية النتائج التى نخلص اليها ، وبهذا تتضح المسألة الرياضية • **ثالثا :** يشكل هذا النظام صيغة الشرح الذى لا يزال سائدا فى علم الهندسة ، اذ أنه يحكمه منطق صارم • وعلى هذه الأسس حقق اليونانيون دورا رائعا فى مجال علم الرياضيات لم تستخدم الهندسة بفضله فى كل ما تربطه الآن بها فحسب لكنها كادت أن تؤدى عمليات حساب التفاضل والتكامل ، وأقامت أسس علم الأستاتيكا (٢) والهيدروستاتى (٣) • وشملت عبقرية أرشميدس (٢٨٧ ـ ٢١٣ ق٠م) مجالا من الانجازات لا يكاد يصدق ، وبعد موته بفترة طويلة تابع علماء الرياضة اليونانيون منهجه فى مجال كشف حساب المثلثات ، ونظرية والأعداد وبدايات علم الجبر •

وعندما كتب أفلاطون على باب أكاديميته كلمات « لا يسمح بالدخول لمن لا يعرف الهندسة » • لم يكن شاذا وانما كان يثنى على ايمان اليونانيين بأنه من خلال الهندسة نستطيع أن نعرف العالم ككل عقلانى قائم بذاته • ولما كان اليونانيون قد دربوا على الهندسة فقد استطاعوا أن يحققوا اكتشافات جوهرية فى مجال علم الفلك وصلت الى ذروتها فيما توقعه أرستارخوس (٣١٠ ـ ٢٣٠ ق٠م) (Aristarchus) منبأ به ، تنبؤا أكده ما جاء به كوبرنيكوس (٤) (Copernicus) ، عندما زعم فى محاوراته أن « الشمس والنجوم الثابتة تظل ساكنة دون حراك ، وأن الأرض تدور حول الشمس فى محيط دائرة ، والشمس واقعة فى وسط المدار » •

لقد حاولت الفلسفة ـ مثلما حاول علم الرياضيات ـ أن تتفهم العالم على أنه « كل متكامل » • وبالرغم من أن نتائجها ليست نهائية مثل نتائج الهندسة ، فانها قد فرضت على الأجيال اللاحقة فكرتها عن ماهيتها ، وما هى المشاكل التى ينبغى أن تتصل بها ، واليها ندين بمعرفة هذه

---

(١) اقليدس عالم رياضيات يونانى ، وضع مبادىء الهندسة المستوية •

(٢) الاستاتيكا : فرع من الميكانيكا يعنى بدراسة الأجسام الساكنة أو القوى المتوازنة •

(٣) هيدروستاتى : علم توازن الموائع وضغطها •

(٤) (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م) عالم فلك بولندى قال بأن الأرض وسائر الكواكب السيارة تدور حول الشمس وحول نفسها •

الفروق الأساسية ، مثل الفرق بين الفرد والمجموع ، بين · المعرفة والرأى وبين الكينونة والعدم ، بين الشكل والمادة وبين التعميمات والجزئيات · ويطرح هـذه الفروق حاول اليونانيون أن يحلوا التناقض بين التعددية اللانهائية وتنوع الظواهر الطبيعية ، والحاجة الى حقيقة ثابتة داخل هذه الظواهر أو خلفهـا ، وأدركوا أن الكلمـات بالنسبة لهذه المهمة الدقيقة الحساسة ــ ليست على الاطلاق بالأداة المثالية ــ وقد بذلوا قصاراهم لوضع مفردات ، ينبغى أن تكون واضحة متفقة مع السياق وأن يروا أن الناس قد فهموا من الكلمات وظائفها ، ومعناها على حد سواء · وبمثل هـذه الأداة داعبهم الأمل فى أن يبينوا ما هى خلاصة الكائنات وكيف تعمل · وبالرغم من أن تأملاتهم وتحملهم الى تفسيرات جريئة ، فقد ناقشوا كل خطوة بدقة رياضية واختبروا فروضا بالنماذج والأمثلة التى بوسع كل فرد أن يفهمها ، وفى أدائهم لمثل هذه المهمة كانوا مضطرين بشكل متشدد الى أن يجاوزوا العالم المرئى الى عالم المجردات ، الذى كان بالنسبة لبعض المفكرين أكثر واقعية من الحقيقة العامة الملموسة ·

وبالرغم من أنهم اتخذوا المنطق أساسا لنظامهم فلم يخشوا تطبيقه على علم الأخـلاق والسياسة والدين ، ولم يخافوا من تمثل العقيـدة واستدعائها ابتغاء عونهم ، وذلك عندما وصـلت المجـادلات الى منتهى حدودها · ولم يعد بمقدورها الاتيان بأى شىء آخر · ومع ذلك فلا تكمن قوة الفلسفة اليونانية فى مجالات ارتيادها ، بقدر ما تكمن فى فروضها الى الحد الذى لا تصبح هناك مشكلة لا يمكن حلها بفضل الفكر الجاد الواعى الحريص ، اذ تفترض أن الكلمات أدوات للفكر ، وأن هذا الفكر متعلق بأمور لا يعنيه كم هى بعيدة وغير محسوسة أو معقدة ·

ولم تشتمل العلوم الطبيعية فى اليونان على أى شىء من الممـكن مقارنته بمجالها الراهن ، بيد أنها وضعت أسسا لما يشغل تفكيرنا الآن فى اتجاهين رئيسيين : وأول هذين الاتجاهين هو نظرية الذرة التى وضعها كل من ليوسـيبوس (Leucippus) (٤٤٠ ق·م) وديمقريـطس (٤٦٠ ــ ٤٧٠ ق·م) ، وهى تتفق فى قليـل من النواحى مع العلـوم الطبيعية الذرية التى نعرفها الآن ، ومع ذلك فهى تعد مصدر هذه العلوم الموغل فى القدم · لقـد بدأت كمحاولة لحل مشـاكل طبيعة الأشـياء اللانهائية · اذ أن الاجابات المبكرة التى كانت تقول بأن كل شىء قد استمد من مادة واحدة ، مثل الماء والهواء والنار ــ لم تكن بالاجابات المرضية ، وكذلك كانت تعاليم أمبيدوقليس المتعلقة بالعناصر الأربعة الماء والأرض والهواء والنار ، اذ أنها هى الأخرى قد تركت الكثير دون تفسير · وتتمثل قوة أصحاب نظرية الذرة فى أنهم قد لاحظوا التنوع اللانهائى للطبيعة ،

كما لاحظوا انتظامها المتسق ، وطرحوا نظرية الذرات تلك التى تكون من الصغر بحيث يتعذر رؤيتها • وبالرغم من أن كل هذه الذرات قد تألفت من مادة واحدة الا أنها تتمتع بتنوع لا يحصى من الأشكال والأحجام وأن علاقات هذه الذرات بعضها بالبعض يتمخض عن تنوع للظواهر الطبيعية • وتتمثل قوة هذه النظرية فى أننا نجد فيها الكون المادى ، مادى بحق تحركه وتهيمن عليه القوانين الطبيعية أو « الضرورة » كما أطلق عليها ديمقريطس وليس لهذا من استثناء ، اذ تنتمى حتى الآلهة الى عالم الظواهر الطبيعية ، ومن الممكن تفسير نشاطها على أساس من نفس القواعد التى تفسر بها الظواهر الطبيعية ، وتتفق النظرية فى الواقع مع مبادئ معنية كامنة فى أعماق التفكير العلمى • فهى تفترض :

أولا : أن المعرفة تبدأ من الحواس ، وأنه بدون هذه الحواس لا يتيسر اقتناء المعرفة ، ومن ثم فليست هذه بالنظرية الفكرية الصرفة وانما تصر على أنه ينبغى على النظريات أن تؤكد صحتها بالحقائق المرصودة •

ثانيا : ترفض فكرة أية قوة خارجية تكون بديلا عن تلك القوانين الموروثة التى تتحرك وتنشط فى كل مكان بشكل مطلق ، ومن المستطاع اكتشافها بسبب نشاطها وحركتها •

ثالثا : تعامل العقل الانسانى على أنه ظاهرة طبيعية من الممكن كذلك فحصها ـ ومناقشتها وتفسيرها •

رابعا : فبالرغم من أن هذه النظرية تفترض وجود فراغ تتحرك فيه الذرات ، وهو تصور ليس من اليسير اعتناقه ، وحرى بأن ينشئ متاعب • فان هذه الفكرة لا تزيد حقيقة على فكرة الفضاء ، باعتباره ميدانا من الممكن للحركة أن توجد فيه ، وفيه تقع الأحداث ، ولقد أجابت نظرية الذرة عن أسئلة أقلقت اليونانيين لأمد طويل ، وأمدتهم بفروض فعالة كافية لمزيد من الاكتشافات ومزيد من النظريات الرحبة المتعلقة بطبيعة الحقيقة •

أما الانجاز الثانى العظيم للعلم اليونانى ، فقد تم عبورا من الطب الى الأحياء ، وفى مطلع القرن الخامس رأى الكميون من كروتون أنه ان أريد للطبيب أن يلم بأسرار جسم الانسان فعليه أن يدرس أجسام الحيوانات ، ويعرف كيف تعمل من الداخل ، ونستطيع أن نرى الى أى مدى من الاقدام والمغامرة ذهب علم الأحياء ، وذلك خلال قصة تحكى : انه عندما جئ الى بيركليس (١) (Pericles) بكبش وحيد القرن كنذير شؤم أمر

---

(١) سياسى اثينى (٤٩٥ ـ ٤٢٩ ق٠م) بلغت أثينا فى عهده اوج ازدهارها السياسى والثقافى •

أناكساجوراس بشق جمجمته الى نصفين ، وبين أن المخ لم يملأ مكانه الصحيح وانما تقلص الى نقطة عند مكان في التجويف بالجمجمة حيث تكون بداية القرن ٠

وانطلاقا من تجربة مثل هذه ــ نرى أرسطو في القرن التالى يتقدم فى دراساته المذهلة فى علم الأحياء ، وفى العدد الهائل لعمليات التشريح التى قام بها ــ وانطلاقا من الرغبة فى ابراء المرض باكتشاف علله ، تقدم العلماء اليونانيون فى دراسة الهيكل المادى للانسان ، ومن ثم هياكل الحيوانات والحشرات والأسماك ، فالاتجاه الذى بدأ كضوابط فنية مفيدة صرفة قد اتسع ليصبح علما حقيقيا ، ومضى فى مسيرته حيا الى حد ما ونشطا خلاقا حتى مطلع القرن الثانى بعد الميلاد ، فاذا ما كانت النظرية الذرية توضح الموهبة اليونانية فى الحوار والمجادلة ابتداء من الفكرة المجردة ونزولا الى الفكرة الكاملة عن الكون ، فان الطب يكشف عن عملية مضادة تصبح بفضلها المعرفة المتجمعة عن الجراحة وعن حجرة المريض ــ مجموعة كاملة من المعلومات الوثيقة عن نشاط ما هو مرئى وملموس ٠ فاذا ما كانت النظرية الذرية قد نشأت عن الرغبة فى اكتشاف المبادىء الكامنة خلف الظواهر الطبيعية ، فان الطب قد نشأ عن ادراك قوى للمشاهد الحية والتطلع المتحفز الى كل ما تنطوى عليه هذه المشاهد ٠

ان روح البحث التى حققت أوج كمالها فى هذه الانجازات العظيمة قد طبقت هى الأخرى على دراسة الانسان باعتباره كائنا اجتماعيا له احساسه الوافر بما يعنيه وضعه ككائن اجتماعى ، وقد لا يكون من الخطأ أن نقر بأنهذا الوضع هو فى المحل الأول نتيجة من نتائج الطب ٠ وعندما رأى اليونانيون أن الصحة تعتمد الى حد كبير على الظروف الطبيعية راحوا يبذلون محاولاتهم فى أبحاث أخرى تعد بدايات لعلم حضارة الانسان وعلم الاجتماع والجغرافيا والتاريخ ٠

وعرف اليونانيون أن بنية الانسان هى الى حد ما مستقرة ثابتة ، وحاولوا أن يفسروا التغيرات القومية بارجاعها الى المناخ ونظام الغذاء ، مثلما نجد مؤلفا أبقراطيا يفسر ما يتصف به سكان آسيا من وداعة عظيمة ورقة فائضة نتيجة للأحوال المناخية المعتدلة التى يعيشون فى ظلها ، كما أرجع اليونانيون ما يتصف به سكان أوربا من تحمل ومثابرة وروح مرحة وافرة النشاط الى صراعهم الصلب من أجل الوجود والبقاء ٠

ان مثل هذه المسائل كانت تعود الى التاريخ أو البحث وأن الكلمة التى كانت بصفة عامة مرتبطة بدراسة الانسان ، هى الأصل لكلمة التاريخ التى نستخدمها الآن ، ولقد اتبع المؤرخون اليونانيون منذ البداية مبادىء

جوهرية محددة • وأول هذه المبادىء يتمثل فى عدم الثقة بالأساطير ، وقد يعد فى الواقع هيكاتيوس (Hecataeus) من ميلتوس (٥٥٠ ـ ٤٨٩ ق٠م) مؤسس الدراسات التاريخية وذلك عندما أبان عن غرضه : « انى أدون هنا وصفا لما قد اعتبره صحيحا ، لا حرية فيه • اذ أن القصص اليونانى كثير ومتعدد وهو فى رأيي قصص يتسم بالسذاجة والاضحاك » •

وطبيعى ألا تتمتع الأساطير بالثقة وحصانة الأشعار المقدسة ، ومن ثم فقد أطلق الانسان لنفسه الحرية الكاملة فى نقدها ، بيد أن نقدها على هذا النحو كان فى الواقع اتجاها ثوريا • ولعل هيكاتيوس قد غالى فى تصوره ، اذ أن هناك فى بعض الأساطير اليونانية القديمة ، نواة للحقيقة كما نعرف الآن ، بيد أنه من الممكن أن نلتمس له تبريرا متمثلا على الأقل فى جانب من جوانب المعرفة القديمة فى عصره • وراق لليونانيين أن يقيموا بينهم وبين الماضى ـ أواصر من الصلات وتم لهم بفضل علم الأنساب الا أن مثل هذه الأنساب كانت كثيرا ما توجد لأسباب شخصية وسياسية • وقد أدى تنوعها وحده الى اثارة الشك والريبة • لقد رغب هيكاتيوس فى تصحيح الأساطير وجعلها قريبة للعقل والتصديق• وأفضى ذلك الى مبدأ ثان من مبادىء التاريخ اليونانى، ويرى هذا المبدأ أن الانسان نتاج بيئته الطبيعية ، وقد علق أهمية عظمى على الجغرافيا •

وكان هيكاتيوس على الأقل جغرافيا بقدر ما كان مؤرخا ، وبالرغم من أن المعلومات التى تيسرت له كانت محدودة وكثيرا ما كانت غير صحيحة ، الا أنه أفاد منها افادة كاملة وبذل قصارى جهده فى رسم صورة عن العالم المأهول بقدر ما استطاع • وقد رسم أناكسيمندر خريطة لهذا العالم أضاف عليها هيكاتيوس تحسينات لم يستمدها من مجرد معلومات تلقاها عن الآخرين ، وانما وافته بها أسفاره الخاصة • ولا ريب أن هذه الخريطة كانت ناقصة غير دقيقة،زاخرة بالأخطاء ، لكنها كانت بذاتها خطوة رائعة الى الأمام •. ثالثا : اختار هيكاتيوس مثل خلفائه النثر لا الشعر لتصوير أعماله • وقد يبدو هذا وكأنه قرار طبيعى جلى ، لكنه كان فى الواقع يحدد وجود ثغرة كبيرة فى التراث • فحتى ذلك الحين كان الشعر لا يزال الوسيلة الطبيعية لتذكر الماضى ، ولم يستخدمه هوميروس تعبيرا عن العصر البطولى فحسب ، وانما استخدمه شعراء متأخرون لسرد قصص هجرة سكان أيونيا وتصوير الحروب ضد ليديا (Lydia) وموضوعات أخرى حديثة الى حد ما ، وقد أكد هيكاتيوس باختياره النثر وسيلة للتعبير ـ انفصاله عن أفكار الماضى القديمة ، باعتبارها أمورا أوحى بها من قبل آلهات الشعر ، تنوعت واختلف كل شاعر فى تذوقه لها وأحل

محلها نموذجه العلمي الخاص لكل ما يمكن أن يوجده البحث والتحقيق الأمر الذي استوجب وجود التجرد والعمل الجاد ، والقدرة على تمحيص البرهان وفحصه ٠

وبالرغم من أن هيرودوت (Herodotus) لا يتفق مع هيكاتيوس في كل ما يقوله بل قد يبدو أحيانا جاحدا لفضله ، الا أنه مضى في عمله على نطاق كبير متسما بروح التحقيق العلمي الصادقة ، وصحيح أن هيرودوت قد تأثر تأثرا عميقا بكل من الملحمة والمأساة ، وطبق بعضا من طرائقها على سرده لقصصه ، لكن ذلك كان يعود الى ايمانه بالطريقة التي تجرى بها مقادير الأمور ٠ ولم يكن هناك سبب وجيه يحملنا على الاعتقاد بأنه كان على خطأ جسيم ٠ ولقد تعلم الكثير من أسفاره الشاسعة مثله في ذلك مثل هيكاتيوس ، وزودته ملاحظته للعادات والأساطير المصرية ، باستقلال رائع وشمول كبير في وجهة النظر ، وشغف هيرودوت بكل ما يشغل الناس على وجه التقريب ، وتعد كتاباته التاريخية كنزا ثريا بالمعلومات عن كل التفاصيل ، التي لها علاقة بالأسلوب الذي اتخذه الناس في حياتهم ، فاذا ما كان هذا الأمر قد جعل هيرودوت يرتاب الى حد ما في مطالب يونانية محددة ، فقد مكنه كذلك من أن يفهم شعبه ، فهما لا يقدر عليه الا انسان لديه معايير خارجية للمقارنة ـ يقيم بها أفراد هذا الشعب ٠ وكان يجد في « البرابرة » مواضع تثير الاهتمام ، ولم يكن ليقتنع بقبول الرأي السائد بأنهم أهل ضلال وفظائع ، لكنه دافع بقوله أنها حرارة الشمس التي تسود الوجوه وتصيب الجماجم بالجمود والتصلب ٠ بل انه بذل جهوده في اقامة قواعد بفضلها يمكن تصنيف التقسيمات والنماذج الطبيعية مثلما نراه في مناقشته يفرق بين شعب أرجيبيا (Argippaei) وبين جيرانهم من أهل أسكيزيا (Scythians) وذلك بشرح يشير فيه الى « انه بالرغم أنهم يرتدون ثياب اسكيزيا الا أنهم صلع الرؤوس فطس الأنوف ، ملتحون ويتكلمون لغة مميزة ، وعلى النقيض من أهل اسكيزيا يعيشون على أشجار الفاكهة » ٠ وأقام أسس ملاحظاته على نظام الطبيعة والعادة ٠ ويعنى بأولها أي الطبيعة : أن كل اقليم له نوعيته الخاصة من النمو الطبيعي ٠ وبثانيها : أن عادات السلوك تختلف طبقا لمقتضيات البيئة المحيطة ٠ وبهذا فسر هيرودوت الفروق التي لاحظها اليونانيون بازدراء ، تلك الفروق التي بانت بينهم وبين بعضهم البعض وبينهم وبين المصريين ، بل تصور انه لأمر طبيعي بالنسبة لبعض الهنود أن يأكلوا جثث آبائهم ٠ اذ أن العادة ملك الجميع كما ذكر بندار ، ومع ذلك كان هيرودوت يعرف أنه حتى العادات ليست ثابتة وأن تغير الظروف الطبيعية قد ينالها بالتغير ٠

وساعدت تجربة هيرودوت على ترسيخ أقدامه ، وأتاحت له انفتاحاً طبيعيا في التفكير . وبالرغم من أنه يرفض بعضا من هذه القصص اذ أنها تتنافي مع احساسه بما هو أرجح ، فكثيرا ما نجده حذرا في تقبله لقصص أخرى . ويتميز هيرودوت بما يقدمه من بعض القصص التي يرتاب بشأنها ، والمثال الوحيد على هذه القصص ما يقصه علينا هيرودوت من أمر الحملة البحرية الى أفريقيا التي قام بها الفينيقيون (Phoenicians) الذين أرسلهم فرعون مصر نخاو (Necho) . والتفاصيل التي يقدمها هيرودوت تؤكد صدق هذه القصة ونخص بالذكر من هذه التفاصيل ما يذكره عند نقطة معينة « كانت الشمس تشرق عن يمينهم » ، وعندما كان يشعر أنه قد عرف الطريقة التي يعالج بها موضوعه ــ لا يخشى بعد ذلك الانخراط في تأملات قد يعتقد أنه لم يكن من المسموح الخوض فيها في أي قرن من قرون العهود المسيحية قبل القرن التاسع عشر . وأروع ما لديه من صفات هو ادراكه لطول عصور التاريخ وعصور ما قبل التاريخ . ولم يلتزم بأي عقائد عن تاريخ الخلق ، وعندما رأى رواسب طمي النيل في منطقة الدلتا المصرية ، وقارن ذلك بحالات خمسة مشابه في بحر إيجه وانتهى من هذه المقارنة باقتراح يقول « اذا قدر للنيل أن يغير مجراه ويصب في البحر الأحمر ، فسوف يستغرق ذلك منه عشرة أو عشرين ألف عام ، ليملأه بالتربة الخصبة » . وكان يؤمن في الواقع بأنه من الممكن حدوث أي شيء بطول الأمد ، وان هذه القدرة والرغبة في الاحتفاء بالحقائق الجديدة ، وادراك أهمية هذه الحقائق لمن الأمور التي جعلت منه عالما بحق .

وفي الجيل التالي كتب ثيوسيديديس (Thucydides) (١) « ٤٦٠ ــ ٤٠٠ ق . م) تاريخه عن حرب بلوبونيزيا (Peloponnesia) وكان على تناقض مع هيرودوت في نواح كثيرة لكنه كان أيضا وريثه وخليفته . لقد نضج بفضله علم التاريخ الجديد عندما أصبح أكثر تخصصا . ويركز ثيوسيديديس على ما نسميه ــ بالتاريخ السياسي . فلو أن ذلك يعني أنه كان يعوزه التطلع والمعلومات الوفيرة التي كانت لهيرودوت فقد كان يكتب بأسلوب أكثر دقة وحساسية ويزيد من اهتمامه بتدعيم الحقائق المتعلقة بأصغر الجزئيات . وكان يفحص مشاهدات العيان للأحداث الحديثة ، وطبق على الأحقاب المبكرة من التاريخ معايير العقل الناقد الحاد . وعبر ثوسيديديس عن اتجاهه الأول بقوله :

« وقد اتخذت لي مبدأ ألا أدون أول قصة تقع في طريقي ، بل لا أدع

---

(١) ثوسيديديس : مؤرخ أثيني . يعتبر اعظم المؤرخين اليونان على الاطلاق .

انطباعاتی العامة تقود وتوجه خطای ، فاما أن أكون حاضرا بنفس وقت وقوع الأحداث التي وصفتها أو أكون قد سمعت عنها من شهود عيان ـ فحصت تقاريرهم بأكبر قدر ممكن من الدقة · وليس من الميسور اكتشاف الحقيقة اذ يقدم شهود العيان المختلفين أوصافا مختلفة لنفس الأحداث فمنهم من يتحدث من منطلق التميز لجانب أو لآخر أو مستمدا معلوماته من ذكريات غير وافية » ·

وعبر عن اتجاهه الثانى بقوله :

« وقد ندعى أننا قد استخدمنا أوضح الدلائل وانتهينا الى نتائج صحيحة بشكل مقبول آخذين فى الاعتبار أننا نعالج موضوع تاريخ قديم »·

وينظر ثوسيديديس الى التقييم الدقيق للبرهان واقامة الحقائق على أنها من أول واجباته ، وبعد قيامه بهذه المهمة يصبح مهيأ للتقدم فى أسلوب متجرد صارم لطرح النظريات ·

والى علم الطب يدين ثوسيديديس مثلما كان يدين هيرودوت وان كان بشكل مختلف · ويشرع ثوسيديديس فى كتابه تاريخ الحرب البولونيزية بروح تكاد أن تكون تحليلية ، تتناول أولا أثينا بالتحليل من حيث الصحة ثم تتناول بعد ذلك المثالب المختلفة التى أفسدت شخصيتها وأدت الى سقوطها · ويقوم ثوسيديديس بتحقيق هذا الاتجاه بوسائل غير مباشرة الى حد كبير ، وبالكشف عن الأفكار التى سيطرت على عقول كبار رجال الدولة والسياسيين فى ذلك العصر ، وكذلك يوقفنا على نوع النتائج التى أدت اليها هذه الأفكار حين تنفيذها ، الا أنه بالرغم من أسلوبه الغير مباشر فان منهجه هو منهج العلم ، على الأقل منهج العلم السياسى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة · ولا يدعى أن عمله سوف يمكن الناس من التنبؤ بالمستقبل بيد أنه يدرك أن دراسته سوف تعينهم على فهم الأحداث بطريقة أفضل ، ويقدم بين الفينة والفينة تحليلا مجردا ، مثل تحليله لحرب الطبقات الذى يدعى أنه بكل تأكيد ينطبق على غالبية الحالات التى ينشأ عنها ، وينحصر اهتمامه بشكل صارم فى أفعال الناس ولا يسمح بأن يكون للقوة الخارجية دورا ، سواء كانت هذه القوة آلهة او دورة من دورات الحظ أو مصيرا أو مؤثرات أخرى ·

وبالرغم من أنه لا يعنى فى كتاباته بالدين عناية كبيرة الا أنه كان أن يؤمن به وان كان بكل تأكيد يزدرى أشكاله الممعنة فى الخرافات · ويكشف عن حنكة علمية فيما يخلعه على الذكاء من أهمية عظمى ، ويرى

ثوسيديديس أن الذكاء هو الصفة الأولى التى يحتاج الى وجودها رجل الدولة ، ويحكم على مختلف الزعماء فى أثينا بدرجة الذكاء التى يتمتعون بها . كما يعد الأعمال البربرية التى يطالب بها كليون (Cleon) أو التى مارسها أهل أثينا فى ميلوس (Melos) أخطاء فى الحكم والتقدير ، وهى لهذا السبب من أكثر الأمور خطورة وتهورا . وكان لثوسيديديس فى الواقع اتجاهاته الخاصة والشخصية المفضلة ، وكان على وعى كامل بأن الدين والأخلاق من الأمور التى لا مندوحة عنها لتحقيق رفاهية الدولة وان رأى أنهما غير كافيين وحدهما . وليس من اليسير فى الواقع ألا نرتاب فى وجود سخرية خطيرة عندما يصدر حكمه على نسياز (Nicias) الذى أطاح بالأمل الوحيد للجيش الأثينى فى الفرار من سيراكيوزا بسبب تعطيل هذا الجيش كى يتحاشى حظر الخسوف والكسوف: « انه رجل دون الهلينيين (Hellenes) جميعا من أهل عصرى ، الذى لا يستحق أن ينتهى الى هذه النهاية التعيسة ، اذ أنه كرس حياته بكاملها لدراسة الفضيلة وتطبيقها » . ومع ذلك فان ايمانه العميق هو الذى ألهمه بوجهة النظر هذه . ان الأمانة الأخلاقية لدى ثوسيديديس على قدر من العظمة مساو لأمانته الفكرية ، وان حبه لأجمل ما فى أثينا يضفى عمقا خاصا على تطلعه الهادىء . وان تقديره للحقيقة يماثله تقديره لخصائص أخلاقية بعينها وبخاصة تلك التى تتخذ لها شكلا مدنيا أو اجتماعيا ، وأنه لنموذج أسمى لمقدرة اليونانيين على تحقيق مستويات رفيعة من السلوك دون أن يقتضى ذلك وجود رادع من الروادع الغيبية . ومثلما نجد لدى رواد علم الطب نجد عنده اعتقادا بأن للعالم المرئى اعتزازه بموقعه كما أن لهذا العالم احتياجاته الى مناهج الدراسة الملائمة ، بيد أن انتماءه لهذا العالم المرئى لاينقص بأية حال من ادراكه لأهمية ماقد درسه أو لاهمية الموضوعات الخطيرة التى يتصدى لتحليلها بنزاهة لا تحيد ولا ترتد .

وبالرغم من أن كلا من الفلسفة اليونانية والعلم اليونانى بدأ المسيرة حلفاء للدين ، فقد كانت هناك مرحلة لم يكن من السهل معها على هذا الحلف أن يصمد ويبقى . وبدأ يتضح أن التفسيرات العلمية للظواهر الطبيعية قد تدخل فى صراع مع التفسيرات الدينية ، واحتاج الأمر الى قدر من البراعة لتجنب نشوب أزمة . ولقد واجه الأطباء الأوائل هذا الموضوع بروح تتسم بالهدوء الوافر كما نجد مؤلفا أبقراطيا يناقش طبيعة مرض الصرع المعروف « بالمرض المقدس » .

« ان هذا المرض الذى يسمى بالمرض المقدس انما ينشأ عن نفس الأسباب التى ينشأ عنها غيره من الأمراض ، كما ينشأ عما يدخل الى

الجسم ويخرج منه من أشياء ، وعن البرد والشمس والتقلبات المتغيرة للعواصف ، ومثل هذه الأشياء لأمور مقدسة متصلة بالآلهة • حتى انه ليست هناك حاجة الى أن نصنف هذا المرض فى مجموعة خاصة أو نعتبره أكثر اتصالا بالآلهة عن غيره من الأمراض ، اذ تعد الأمراض جميعها أمورا الهية وأمورا بشرية • ولكل من هذه الأمراض طبيعته وقوته الخاصة وليس منها ما هو عضال أو مستعص على العلاج » •

وبالرغم من أننا من الناحية المنطقية قد نرتاب فى وجود سخرية طفيفة ، فليس هناك سبب يدعونا الى أن نتصور أن مثل هذه الكلمات لن تنتزع القبول والاستحسان • ولقد ساد بين الناس الاعتقاد بأن الآلهة متواجدة فى كل مكان وأن عملها ظاهر فى كل شىء ، ومن ثم فان المرض أيضا عمل من أعمال الانسان والآلهة جميعا • وتعد الحالة التى سجلها هيرودوت أكثر تعقيدا الى حد ما ، فقد رأى الآلهة دون انكار تمارس عملها نشطة فى عقول وعواطف البشر ، لكنه تمتع كذلك باهتمام متحمس للبحث العلمى وأجاز التفسيرات العلمية للطبيعة الجامدة • فاذا ما كان الدين والعلم على خلاف فقد كانت لديه القدرة أيضا على المراوغة ومعالجة الموضوع • فعندما يذكر أسطورة من ثيشاليا (Thessalian) تقول أن المسيل(١) الذى يعبره نهر بنيوس (Peneus) ليصب فى البحر كان من صنع بوسيدون (٢) (Posidon) نجده يقول : « وتعد قصتهم مقبولة ، وان كل من يعتقد أن بوسيدون يهز الأرض ، وأن الشقوق الناجمة عن الزلازل من عمل هذا الاله ــ سوف ينسب كل هذا الى الاله بوسيدون عندما يرى هذا المسيل الجبلى • اذ أن الأمر بدا لى وكأنه هو نتيجة ناجمة عن الزلازل »•

وبهذه المناورة الصرفة لا يسىء الى الدين أو العلم ، ومن الممكن قبول العلم والدين بتحفظات ضمنية معنية ، وليس بتصريح علنى بالعداوات والبغضاء •

وقد ازداد هذا الأمر صعوبة عندما حول كل من العلم والفلسفة اهتمامه الى الآلهة وأولى بتأويلاته المختلفة بشأنهم ، وكلما اتسمت النظرية بالاتقان ، زادت صعوبة احتوائها للآلهة • أما ديمقريطس ــ الذى أقصى الآلهة فى الواقع من ادارة الكون ، فقد اتخذ حلا وسطا يجعلهم نوعا

---

(١) المسيل : واد صغير ضيق شديد الانحدار •

(٢) بوسيدون : اله البحر عند الاغريق •

من الظواهر الطبيعية ، تستطيع بطريقة ما أن تجلب حسن الحظ أو سوء المآل • وقد ذهب بروديكوس (Prodicus) الى أبعد من ذلك وأشار الى أن ما فى الطبيعة من كائنات تمسك الحياة وتبقيها ، انما ينظر اليها باعتبارها آلهة تكرم وفقا لهذا الاعتبار • ويقوض هذا الاتجاه الايمان بالآلهة أيضا اذ أنه يهبط بهم الى منزلة لا تزيد على كونهم قوى من قوى الطبيعة ، وبذلك يحدد نشاطهم بشكل كبير • والرأى الثالث والذى يعد أكثر تدميرا كان لكريتياس (٤٦٠ — ٤٠٣ ق•م) (Critias) الذى جعل احدى شخصيات مسرحيته تقول « ان الآلهة ما هى الا ابتداع ابتدعه معلم عظيم رغب فى أن يخيف الناس حتى يحافظوا على القوانين وقد حقق مأربه هذا بقوله أن الرعد والبرق من عمل الآلهة » :

« وبمثل هذا الذعر المروع أحاطهم
وبمقولة متسقة أعطى الآلهة ،
مقاما تواءم معهم تواؤما جميلا
وبفضل التشريع أطاح باللاشرعية » •

وعندما يعتنق الناس مثل هذه الأفكار فليس بغريب أن نجد بروتاجوراس (١) (Protagoras) يلخص موقفه بقوله « وعندما يعرج الحديث بنا الى الآلهة ، أجد نفسى عاجزا عن استبيان وجودهم من عدمه ، بل لا أستطيع أن أتبين أى الأشكال ، وذلك لوجود أمور كثيرة تقف عائقا دون هذه المعرفة — أمور منها غموض هذه المشكلة وقصر حياة الانسان » وبالرغم من أن الفلسفة قد بدأت مسيرتها بروح دينية ورعة ، فان ثبات وصدق فروضها كثيرا ما دفع بها اما الى اللا أدرية أو الى مذهب الشك ، حتى بدأ العاديون من الناس يشعرون بأن الفلسفة خطر على المجتمع •

ومع ذلك فبالرغم من أن كثيرا من اليونانيين قد نظروا الى هذا التطور الجديد نظرة يشوبها الحذر ، الا أن الفضل فى عدم اتخاذهم اجراءات مشددة حيال هذا التطور يعود الى تسامحهم السياسى • ولم يبدأ فى الواقع الهجوم على المضامين الالحادية للعلوم الطبيعية حتى بدأت حرب بولونيزيا تقوض الثقة بالنفس ، وتعطى تشجيعا جديدا الى الخرافات ، حتى أننا قد نشك فى وجود دوافع سياسية خلف هذا الوضع •وعندما رغب أعداء بريكليس فى هجومه وضعوا ضمن تحركهم الانقضاض على أناكسجوراس الذى لم

---

(١) فيلسوف يونانى : يعتبر أول السوفسطائيين واشهرهم (٤٨٥ — ٤١٠ ق•م)•

يعلن أن القمر مكون من الأرض،وأن الشمس ليست كتلة من الصخر المتوهج أكبر من مساحة بولوبونزيا فحسب ، وانما اكتشف الأسباب الحقيقية لكسوف الشمس وخسوف القمر . وأعلن عراف مشكوك فيه يدعى ديوبثيس (Diopithes) بيانا يجيز اتهام « أولئك الذين يكفرون بالمقدسات أو يلقنون نظريات تدور حول ما يجرى فى السماء » . وقد حوكم أناكسجوراس وأدين ولكن لحسن الحظ تمكن من الهرب الى لمباكوس (Lempsacus) حيث عاش فى سلام وتكريم . ولم تكن هذه هى الحالة الوحيدة من حالات الاضطهاد . لقد حوكم بتهممتشابهة كل من دياجوراس (Diagoras) وبروتاجوراس ومن المحتمل يوريبيديس (Euripides) (١) كذلك ، لكن أفظع هذه المحاكمات وأسوأها ذكرا ما حدث بعد نهاية الحرب ، وذلك عندما حوكم سقراط عام ٣٩٩ ق.م وتفذ فيه حكم الاعدام. لقد صيغ الاتهام صياغة بارعة مدعيا أن سقراط لا يعترف بالآلهة التى تقرها الدولة ، وانما يقدم آلهة جديدة . ويكمن خلف هذا الموقف دافع سياسى اذ أن سقراط كان صديقا لكريتياس (Critias) أحد الثلاثين الذين حكموا أثينا بشراسة لا هوادة فيها بعد هزيمة عام ٤٠٤ ق.م . لكن الاتهام الفعلى كان يستميل الرأى العام فى ادعائه « أن هناك شخصا ما يدعى سقراط ، رجل حكيم ، درس ما يجرى فى السماء وبحث حقيقة ما ينطوى تحت الأرض » . ومن سوء الطالع أن هذا الادعاء كان ينطوى على عنصر من عناصر الحقيقة . وكان سقراط فى مطلع حياته شغوفا بالظواهر الطبيعية ، الأمر الذى جعل (٢) أرسطوفانيس (Aristophanes) يشهر به فى مسرحية السحاب عام ٤١٣ ق.م ، والتى نجد فيها « أتباع سقراط يلقنون علما مؤداه : أنه لا وجود لزيوس (Zeus) وأن حكمه قد آل الى دينوس (Dinos) أو فورتكس (Vortex) ، وأن المطر والرعد والبرق لم يرسلها اله السماء ، وانما تأتى نتيجة لتقلبات متنافرة فى السحب » . ومن المؤكد أن النصف الأول من اتهام سقراط كان سيجد من يؤيده فى محاكاة شعبية لآرائه . أما النصف الثانى فلم يكن أقل أهمية من الأول وكان يشير الى « السمة الالهية » التى ادعى سقراط أنها ذات تأثير هام على حياته ، والتى لم ترتبط باله بعينه . ان الجمع البارع بين اتهامين حظى

---

(١) كاتب مسرحى يونانى . يعتبر احد أعظم شعراء التراجيديا اليونان (٤٨٤ : ٤٠٦ ق.م) وضع نحو ٩٢ مسرحية .

(٢) مؤلف مسرحى يونانى . يعتبر أعظم شعراء الكوميديا فى الأدب الاغريقى القديم .

كل منهما بالتدعيم الى حد ما ، كان كافيا فى هذا الجو الغاضب لهذا العصر أن ينتهى بسقراط الى الحكم عليه بالموت · ولا ريب ، ان سقراط قد عقد الأمور بدفاعه ودرء الاتهام عنه ، ذلك الاتهام الذى لم يستطع سقراط أن يأخذه مأخذ الجد · وانه لمن غرائب السخرية أن يستشهد سقراط المتدين الصادق من أجل علم لم يقم له وزنا ·

ان الصراع بين العلم والدين كان يقابله صراع آخر ليس أقل منه خطورة ، صراع بين العلم والفلسفة · والجمع القديم بين العلم والفلسفة الذى حقق لهما الكثير فى الماضى ، قد انهار أمام مسألة جوهرية بشأن الطبيعة وامكانية المعرفة · فبينما أقام العلم نظامه على الحواس ، واكتفى بما تقدمه له هذه الحواس ، فان الفلسفة قد أدركت أنه ليس من المستطاع الثقة بالحواس ، وقدمت أسسا غير مؤكدة للمعرفة · ومن ناحية نجد مؤلفا فى الطب ينكر صحة الحوار المجرد فيقول :

لا تستطيع النتائج اللفظية بمفردها أن تأتى بثمرة ، ولا تفيد النتائج التى أقيمت على حقيقة مبنية ، اذ أن كلا من التوكيد والكلام خداع خائن ، ومن أجل ذلك ينبغى على الانسان أن يستمسك بالحقيقة فى اطلاق أحكامه أيضا · وأن يثابر على شغل نفسه بالحقائق ان أراد أن يكتسب تلك العادة المهيئة والمؤكدة التى نسميها « فن الطب » · ومن ناحية أخرى نجد أن الفلسفة كانت دائما تؤكد أن الحقيقة التى هى موضوع الفكر ، من المستطاع اكتشافها بالفعل وحده · ولقد اعتنق الناس أفكارا كثيرة تتعلق بطبيعة هذه الحقيقة ، لكن الفلسفة لا تكاد أن توجد اذا أنكر وجودها ، ومن الواضح أن هبات الحواس « الحقائق » ليست بكافية · ان هذه المسألة التى قدمت على هذا النحو تناولها جورجياس (Gorigias) (٤٨٣ ــ ٣٧٦ ق·م) الذى زعم أن موضوعات الحواس وموضوعات المعرفة ليست حقيقية على حد سواء ، اذ أن كلا منهما يتصل بما هو غير كائن كما يتصل كذلك بما هو كائن ومن المحال التمييز بينهما · ويخلص من استنتاجه أنه ليس هناك شىء موجود ، وحتى فى حالة وجود أى شىء فلا نستطيع معرفته ، بل وان استطعنا معرفته فلن نستطيع أن نوصله الى الآخرين · وفى هذا تناقض ظاهر ، وان فكرة العدم لعرضه الاعتراضات صريحة ، بيد أنها تطلبت اجابة على ما تثيره من أسئلة اذ أنها كانت ترى أنه اذا ما دفعت وسائل الفلسفة الى آخر حدودها فسوف تجعل من الفلسفة نفسها أمرا محال الوقوع · ولقد حاول بروتاجوراس أن يقدم علاجا لهذه المتناقضات عندما جاء بتعاليم مؤداها « أن الانسان معيار كل

الكائنات وأن الأشياء هي ما يظهر لنا ، ومن المنطقى أن تؤدى مثل هذه النظرية الى نظرية الأنانة (١) والى سلسلة لا تنتهى من عوالم متفـردة خاصة ، قد انفصل سكانها عن بعضهم البعض بشكل يتعذر معه الاتصال والحديث ٠

وبحلول نهاية القرن الخامس ، كانت العلاقات المرفقة بين الفلسفة والعلم قد شارفت على الدخول فى أزمة ، وقد بدا كما لو كان من غير المستطاع اعادة هذه العلاقات مرة أخرى ٠

وفى القـرن الرابـع خطـر لأفلاطون (٢)(Plato) أن يقوم بمحاولة بطولية بهدف ابراء هذه الجروح ٠ فالبنية المهيبة لفلسفته التى بنيت عرحلة بعد مرحلة عبر حياة طويلة ، قد استهدفت التدليل على امكانية المعرفة ، كما استهدفت اتاحة المجال لمشاهدات الحواس ٠ ورأى أنه مثلما تستخلص نتائج معينة من المقدمات فى علم الرياضيات كذلك فى الفلسفة قد يتسع الحوار الناشىء عن فروض معينة مزودا بالحجة والاقناع ، وفرق أفلاطون ، كما فعل آخرون من قبله ، بين الكينونة والصيرورة ٠ لكنه على النقيض من رجال العلم افترض أن الكينونة هى الحقيقة المؤكدة ، وأنها الهدف الصحيح للمعرفة ٠ بينما نجد الصيرورة التى تعتمد على الكينونة ليست الا مجرد ظاهرة من الظواهر وهدف للرأى المتشكك ٠ ويرى أفلاطون أن الحقيقة تتألف من صور مثالية هى كليات منطقية ـ من الممكن ادراكها ـ وجزئيات مثالية قادرة على الالهام بما يكاد أن يكون عبادة صوفية ٠ ولكى يقر أفلاطون هذه الصور ، لجأ الى الدين لجوءا قد يكون غير مباشر لكنه مؤكد ، ثم زعم أننا نعرف هذه الصور من خلال تذكرنا لوجود سابق على وجودنا ٠ وقد لا يعنى هذا فى الواقع أكثر من أن معرفتنا بهذه الصور معرفة فطرية ، لكنها ليست بأية حال مستمدة من الحواس ٠

وبالرغم من أن هذا النظام المهيب قد قضى على الشكوك المتعلقة بامكانية المعرفة فقد وجه ضربة قاسية للعلم ٠ اذ أنه يعنى أن الملاحظة والتجربة قد أفسحت المجال لأولوية الاستدلال النظرى ٠ ولقد كان أفلاطون نفسه أسيرا للفكرة التى تقول أن الكون عقلانى ، الى الحد الذى جعله

---

(١) الأنانة : نظرية تقول بانه لا وجود لشىء غير « الأنا » ٠

(٢) (٤٢٨ ـ ٣٤٧ ق٠م) فيلسوف يونانى ، تلميذ سقراط ، أشهر كتبه : الجمهورية »

بتصور أنه من الممكن أن يملي شكل هذا الكون من مفهومه للطريقة التي كان ينبغي على الخالق نفسه أن يتخذها في صنع هذا الكون • وفي بحثه عن الحقيقة المؤكدة فانه أن يسلم بأننا لا نستطيع في موضوعات كثيرة أن نأمل في أكثر من الرأي المعقول ، وقد يكون هذا أكثر قيمة من أي اثبات عقائدي •

ومع ذلك فان الرياضيات والفلسفة والعلوم في اليونان قدجاوزت محنة حرب بلوبونيزيا ، وقاومت الاصلاح المضـاد على يد أفلاطـون ، واستمرت هذه العلوم تنمو وتزدهر لقرابة أربعة أو خمسة قرون • ويعود الفضل في هذا الى الحزم الذي اتصفت به أسس هذه العلوم حين وضعها ، والى الجاذبية التي ما زالت تنطوي عليها موضوعاتها بالنسبة للناس • ومع ذلك فقد كان هناك صراع مرير بين المناهج التجريبية القديمة والمناهج النظرية التي أجازها أفلاطون ، وفي هذا الصراع بوجه عام ــ حظى مذهب المنهج النظري ــ بالشرف الرفيع ــ وبالرغم من أن مطالب التجربة قد حظيت بتأييد علم الأحياء وحليفها القوى الطب حتى عصر جالينوس (١) (Galen) (١٢٩ ــ ١٩٩ ق•م) على الأقل ، فقد انتهى التفكير المجرد في مجالات أخرى من مجالات البحث الى الاعتقاد بأنه أرفع مقاما من العلم التجريبي •

بالرغم من أن أرشميدس (٢) (Archimedes) قد أقام وسائل للدفاع عن سيراكيوزا (Syracuse) وحقق اكتشافات مدهشة في علم الرياضيات التطبيقي ، فلم يتصور أن شيئا من هذا كان جزءا من عمله ، ورفض أن يدونه في كتاباته •

ان الرياضيات اليونانية التي بدأت بميولها الى الاتجاه العملي قد ازدادت تجريدا أثناء مسيرتها لبلوغ كمال براعتها وجمالها •

ولقد أبقت الفلسفة في الواقع على صلتها بعالم الفعل ، وجعلت من نظرية أبيقور (٣) (Epicurus) للذرة أساسا للسلوك ، لكنها لم تقدم الى التحقيق العلمي الا قليلا من التشجيع ، وفي النهاية أفسحت

---

(١) طبيب يوناني : يعد أحد أكبر الأطباء في العصور القديمة •

(٢) (٢٨٧ ــ ٢١٢ ق•م) رياضي فيزيائي يوناني • اكتشف مبدأ الثقل النوعي •

(٣) أبيقور (٣٤١ ــ ٢٧٠ ق•م) فيلسوف يوناني • قال بأن المتعة هي الخير الأسمى •

المادية مجالا لعالم التجريدات العلوية · وأخيرا استسلم الطب وفضل التأمل النظرى على فحص الجسم البشرى · ويقع هذا فى الواقع خارج مجالنا بيد أنه يمدنا بتعليق على تاريخ الرياضيات والفلسفة والعلوم فى العصر الكلاسيكى القديم · وكانت قوة هذه العلوم تكمن فى اهتمامها بالعالم المرئى الذى سعت هذه العلوم الى أن تجد فيه مبادىء دائمة ، ولا نستطيع أن ننحو باللائحة على هذه العلوم اذا ما طرحت أسئلة من الأهمية والصعوبة بحيث نجد فى النهاية خلفاء هذه العلوم يولون هذه المبـــادىء اهتماما أكبر من اهتمـــامهم بالظواهر الطبيعيـة التى دعوا الى تفسيرها ·

الفصل العاشر

الفصل العاشر

الخاتمة

وفي القرن السابع والقرن السادس ق٠م كانت الحضارة اليونانية تدين بالكثير لاستقلال وتنوع نظام دولة المدينة ٠ لقد رغبت كل ولاية تندرج تحت هذا النظام في أن تقدم اسهامها الواضح المميز فيما كان يسميه بندار Pindar أمور هيلاس (١) الممتعة ٠ فاذا ما كان هناك اطار جوهري للانجازات فقد قدم هذا الاطار وسيلةمتنوعة أكثر ثراء لاستيعاب الخصائص المحلية ٠ ان هذا التوازن الثقافي كان يقابله ويعززه في واقع الأمر توازن في السلطة السياسية التي لم يكن لولايته بمفردها في ظله أن تهيمن على باقي الولايات أو أن تتدخل بشكل خطير في أسلوب حياة جيرانها ، وفي القرن الخامس تبدل الحال بشكل درامي ، وبعد هزيمة الفرس انقسمت الولايات اليونانية الى قسمين رئيسيين أحدهما تقوده اسبرطة والآخر تقوده أثينا ٠ فبينما كانت اسبرطة تمثل الحياة الارستقراطية على الأرض بنفورها من كل المستحدثات السياسية والمغامرات الذهنية كانت أثينا ترمز الى النموذج الديمقراطي الجديد القائم على التجارة والصناعة مرحبة بالجديد باعتباره وسيلة لممارسة حيويتها الوافرة الفياضة ٠

ان الخوف والتوجس والغيرة كانت عوامل تشيع الحذر بين الجانبين وتؤدي بين الآونة والأخرى الى اندلاع الحرب بينهما ، وفي ظل هذا الموقف القلق انحسرت اسبرطة في تقاليدها القديمة مقدمة الجهد والتفاني الى الدولة قبل أي شيء آخر ، وقد فقدت بذلك كثيرا من بهائها القديم

---

(١) بلاد الاغريق ٠

وسحرها السابق · أما أثينا التى استحثتها طموحات كثيرة وثقة فى قدرتها على تحقيق هذه الطموحات فقد شجعت التوسعات الجديدة فى مجال الفنون والعلوم واستوعبت الروافد العديدة المختلفة للحضارة اليونانية ·

وليس من المستطاع فى أواسط القرن الخامس أن نقارن أثينا بأية ولاية أخرى لما كان لانجازاتها من مجالات متعددة وقوة وأصالة · وفى هذا العصر كانت أثينا فى الواقع تمثل أوج القوى العديدة التى جعلت من اليونانيين شعبا فريدا بين الشعوب الأخرى وأضفت طابعا خاصا على أفكارهم وعاداتهم · ولعلنا نستطيع أن ندرك ما كان يعنيه هذا الوضع بالنسبة للآثينيين من خلال أغنية كتبها يوربيدس فى سنة ٤٣١ ق·م قبل نشوب حرب بلوبونيزيا والأغنية تقول : —

« منذ القدم وأبناء أريختيوس **Erechtheus** يعرفون الغبطة والسعادة أولئك أطفال الآلهة المباركة ·

ولدوا على أرض مقدسة لا نهب فيها ولا سلب ·

يتغذون على حكمة المجد ·

يتبخترون أبدا فى حسن ورشاقة عبر أكثر السموات اشراقا ·

حيث يخبر البشر التسع المقدسات آلهات الشعر من بيرى (١) ذوات الشعر الذهبى الغزير المتناغم ·

يقولون ان أفروديت تملأ جرارها من ماء سفيسوس **Cephisus** الذى ينساب ساحرا ·

وتتنفس عبر الأرض نسيما رقيقا عذبا من هواء الريح وتتوج رأسها دائما باكليل عبق من الزهور ·

وترسل أحباءها يقبلون عرشا عند جانب الحكمة ·

ويسلكون واياها مسلك التفوق والامتياز » ·

---

(١) بيرى : مقاطعة بيريا الساحلية التى تشمل جبل الأولب فى مقدونية القديمة ·

لقد اعتقدت أثينا أن الآلهة قد أفاضوا عليها بكرم لا مثيل له بمنحهم اياها أكثر الهبات عظمة وتمجيدا ، وأنها كانت تجسد كل ما هو جدير بالاقتناء فى حضارة اليونان · لقد كانت فى الواقع جنة الجنـــات كما يسميها ثيوسيديدس (١) Thucydides . فى نعيه المنقـــوش على قبر يوربيديس ·

ان هذا الاحساس بالطاقات الفريـــدة أصبح فى يسر احساســات برسالة ملقاة على عاتقهـــا ، ويتفق كثير من الآثينيين مع بركليس فى قوله : ـ

« ان مدينتنا مدينة التعليم والتهذيب لليونان كلها » ·

وان بعضا من هذا التعليم فى الواقع كان يصل الى اليونان بوسائل سلمية ، وبفضل نموذج ملهم وعون سخى · ومع ذلك فلم يســتجب الجميع لهذا التحضر الرفيع استجابة تتسم بالتهيؤ الراغب ، واذا لم يتقبل الناس الحضارة الآثينية طواعية كان الآثينيون يفرضونها أحيانا بوسائل جبرية وحشية ·

لقد جلبت الامبراطورية الآثينيـــة منـــافع كثيرة لأفرادهـــا ، لكن سياستها التى كانت محصلة الثقة بالنفس والايمان بالمثال الديمقراطى لم تستطع الا أن تغرس سوء الظن والخوف والكراهية بين أولئك الذين يمقتون هذه المثل ·

وقد أدى فى النهاية توسع وانتشار السـلطان والثراء الآثينيين الى حرب بلوبونيزيا الطويلة بين أثينا واســبرطة والتى حظى فيها كل من الجانبين بتأييد مجموعة هائلة من الحلفاء ·

وعندما شرع ثيوسيديدس فى الكتابة عن تاريخ هذه الحرب كان يعتقد أنها خليقة بالتدوين أكثر من أى حرب أخرى حدثت فى ماضى اليونان وكان على حق اذا كانت فى الواقع التغيير المصيرى لليونان القديمة ·

ولم تهزم أثينا فى نهاية الحرب فحسب ، وانما أنهك الجانبـــان انهاكا الى الحد الذى اختفى معه من العالم شىء قيم لا سبيل الى استعاضته أو الى الاحلال محله بشىء آخر · لقد كانت الهزيمة الحاسمة بالنســبة للآثينيين كارثة لم يتصـــور أبدا احتمال وقوعها · وفى الفترة ما بين ٤٥٩ ، ٤٥٤ ق·م أخفقت حملة الآثينيين على مصر اخفاقا مروعا لكن ذلك

---

(١) ثيوسيديدس : مؤرخ أثينى يعتبر أعظم المؤرخين اليونان على الاطلاق ·

لم يمنعهم من استمرارهم فى سياسة عدوانية نشطة فى الجزيرة اليونانية ، الا أن انهيار أثينا سنة ٤٠٤ ق٠م كان أمرا مختلفا ٠

ان البراعة وحسن الحظ اللذين قادا أثينا وصانا مسيرتها قد خذلاها آنذاك ، ولم تعد لها وقاية تحميها من أعدائها ٠ وعندما دمر الجيش الآثينى سنة ٤١٣ ق٠م فى سيراكيوزا كتب يوربيديس تأبينا لمن سقطوا فى هذه الموقعة : « ان هؤلاء الرجال فازوا بانتصارات ثمانية على جنود سيراكيوزا عندما حظى الجانبان بتأييد مماثل من الآلهة » والآن لم يعد تأييد الآلهة فى الواقع واحدا للجانبين ٠

وكان ادراك ذلك سببا فى جلب خوف آثم من الأعمال الوحشية التى ارتكبت فى الماضى ٠ وعندما فقدت أثينا أسطولها فى صيف عام ٤٠٥ ق٠م فى موقعة ايجوسبوتامى Aegospotami لم يعد هناك أمل فى أية مقاومة ٠ ووردت أخبار الهزيمة بواسطة السفينة بارلوس ، ويحكى كسينوفون أنه بينما كانوا يتناقلون أخبار الهزيمة كانت أصوات النواح تعلو الأسوار من بريوس الى أثينا ولم ينم أحد تلك الليلة ٠ لم يبكوا على موتاهم ، وانما كانوا يبكون على أنفسهم متصورين أنهم سوف يعانون من العذاب مثلما أنزلوا على أفراد شعب ميلوس الذين كانوا مستعمرين من اسبرطة عندما حاصروهم وشتتوهم الى شتات تفرقت فى شعوب هستيا Histiaea وسيكيون Scione وتورون Torone وايجه Aegina وشعوب أخرى كثيرة من شعوب اليونان ٠

لقد حدث ما لم يكن فى الحسبان ، وشعر اليونانيون أن الآلهة قد هجرتهم مثلما كرههم أولئك الذين يجهرون بطلب الثأر والانتقام وهم قادرون على انزاله بأعدائهم ٠

ولأول وهلة يبدو انهيار أثينا عام ٤٠٤ ق٠م وكأنما يقابله تطور جديد نشط لا يتضح فيه اخلال للقوة والجهد ، وصحيح أن الشعر الذى كان روح العظمة الآثينية قد انحدر اما الى حسية مادية فظة أو الى جمال هياب متردد ، لكن فن النحت قد وجد فى سكوباس Scopas وبراكسيتيليس Praxiteles أساتذة متمكنين أضفوا نضارة جديدة على معالجة الجسد الانسانى ونقلوا انطباعا عن اللحم الحى لم يتيسر لمن سبقهم ٠ وكاد فن الخطابة أن يصبح من الفنون الجميلة اذ أنتج روائع ظلوا لقرون يدرسونها لما لها من لغة وتركيب وايقاعات ٠ ومضى علم الرياضيات مستمرا فى تقدمه الجليل عندما اكتشف يودوكسوس

Eudoxus (٤٠٨ — ٣٦٥ ق٠م) النظرية العامة للنسبة والتناسب واكتشف تلميذه ميناخموس Menachmus الأشكال المخروطية ·
لكن الانتظار العظيم الذى تميز به هذا العصر تمثل فى تطور الفلسفة · لقد استوعب كل من أفلاطون وأرسطو كل ما تم تحقيقه فى مجـــال الفلسفة والعلم وأخضعاه لنقد فاحص وطبقوا أنظمتهما على مجال شامل· وتناول أفلاطون الفلسفة تناولا ناضجا محكما لم يسبق له مثيل ، وحتى يومنا هذا ليس بوسعنا الا أن نبهر بالقوة التى لا تفوقها قوة تلك التى كان افلاطون يصوغ بها السؤال تلو السؤال عن الأهمية الجوهرية للأشياء ويعرض مناقشاته في لغة تتسم بوضـــوح معجز ، لغة حية متســـقة رصينة ·

ومن بين الاجابات العديدة التى أجيب بها عن أسئلة تتعلق بطبيعة الحقيقة والمعرفة بقيت اجابة أفلاطون أطول أمدا واكتسبت موافقة أشمل وأكبر من كل الاجابات ·

وحاول أرســـطو اتخاذ موقف مختلف · وفى محاولته الشاملة لتنظيم المعرفة كاملة كما كانت فى أيامه واثرائها باكتشافاته الرائعـــة لم يضف اسهامات قيمة فى علم المنطق وما وراء الطبيعة فحسب ، وانما حول الدراسات الطبية للقرن السابق الى علم الأحياء الصحيح وكتب فى علم الأخلاق واحدا من الكتب القليلـة التى نتغـافل عنهـا مخـاطرين بمصلحتنا ·

وبفضل هذا الانجاز المزدوج احتل القرن الرابع منزلة رفيعة الشأو فى تاريخ الفكر الانسانى · لكن هذه الانتصارات الجديدة لم تستطع أن تعوض تعويضا كاملا عما فقده اليونانيون سواء فى أثينا أم أى مكان آخر فى الجزيرة اليونانية ·

ومن الميسور أن نلمح خلف هذه الواجهة المؤثرة تناقصا فى الحيوية والثقة وميلا الى طرح أسئلة عن كثير مما سلم به واتفق عليه سلفـــا كما نلمح اعراضا عن محاولة النهوض بمهام لا تقدم نتائج مباشرة · ان الأعباء التى كابدتهـــا الروح التى كانت مجد القرن الخامس ق٠م أتاحت المجال للاحساس بالعار كما أفسحت الفرصة لرفض آثم لكثير مما سعى اليه اليونانيون وأنزلوه منزلة كريمة ·

وبالرغم من بقاء المأساة والملهاة على طول الزمان فلم تحتفظ احداهما بشبه لحقيقتها الماضية · ان المأساة التى وجـــدت مجدها فى كونهـــا

فنا وطنيا تتحدث عما يختلج فى نفوس الناس جميعا قد أصبحت تقريبا تسلية تعنى بتهذيب الأساليب المتصنعة الدقيقة من أجل غاية جمالية محدودة ، وحتى أرسطوفانيس الذى كان قد أنفق حتى عام ٤٠٥ ق٠م كل خيالاته وتوقداته القديمة فى مسرحية الضفادع قد حاول فى مسرحية « اكلزيازوساى » سنة ٣٩١ ق٠م أن يعوض عن نقص الالهام ببذاءات فاترة مصطنعة ليس بينها وبين دعاباته الجريئة القديمة صلة ٠

وبصورة أكثر جدية اتفق الفلاسفة الذين اهتموا بدروس التاريخ اهتماما عميقا على أن عصر بركليس كان عصرا يتسم بالفشل الذريع ٠

وعندما يرغب أفلاطون فى أن يضع اللوم على من كانوا سببا فى اضمحلال أثينا فلا يذكر الدهماويين (١) المفسدين الذين خلفوا بركليس وانما يذكر ثيمثتوكليس وسيمون بل وبركليس نفسه وتتبدى شكواه فى قوله : ـ

« لقد ملأوا المدينة بالموانىء وأحواض السفن والأسوار والضرائب بدلا من أن يملأوها استقامة واعتدالا » ٠ ان ذلك لرفض شامل للماضى ورفض للعالم الذى ولد فيه أفلاطون ولعبت فيه عائلته دورا مميزا ٠ لقد رأى فى شرخ شبابه سقوط أثينا وظلت ذكرى هذا السقوط المريرة ترافقه طوال أيام حياته ٠

ولم يستطع أفلاطون أن يهدأ نفسا ويطمئن قلبا الا بعد أن أدان أولئك الذين بالغوا فى محاولتهم الاتيان بالكثير وأخفقوا فى نهاية المطاف وبعد أن أعد أنظمة للحكم لا تتكرر سياساتها ولا أداؤها ٠

وليس أرسطو بأكثر سخاء من أفلاطون ٠ وكان ازدهار الديمقراطية بالنسبة لأرسطو فى عهدى افيلتيس Ephialtes وبركليس يعنى انتحالا للسلطة الطاغية المنبثقة من جماهير الشعب وزعمائه الدهماويين التافهين ٠

ولقد أنكر كل من أفلاطون وأرسطو العظمة الأثينية فى عهد بركليس وكلاهما عارض الافتراضات الجوهرية القائلة بأن مواطنى أثينا من الممكن أن يوكل اليهم اتخاذ أكثر القرارات أهمية اذ أنهم كانوا يتمتعون بالحرية وتحمل المسئولية ٠

---

(١) الدهماوى : مهيج أو خطيب شعبى يستغل الاستياء الاجتماعى لاكتساب النفوذ السياسى ٠

لقد ازدادت عيوب ومسالب الحضارة اليونانية وخصوصا بعد موت الاسكندر الأكبر سنة ٣٢٣ ق٠م ٠ أما العصر الهيليني الذى تلا هـذه الفترة فقد اكتسب فى الواقع نجاحه الباهر بفضل توصيل العـادات اليونانية الى شعوب البربر (١) ولم تعوزه مقدرة الخلق والانتاج فى مجال الفن والعلم ٠

بيد أن هذا العصر عانى الى درجة أكبر ابتداء من القرن الرابع من فقدان الثقة وغياب وضع ثابت يستطيع أن يوليه ثقته ٠ لقد انحدر الدين القديم الى سلوك رسمى من الطقوس أو الى عقلانيـة نزعت عن الآلهة غموضها وكادت أن تجردها من قدسيتها ٠ واجتاحت العالم خرافات جديدة وفى غمار هـذه الخرافات فقد اليونانيون احساسهم بصلة الانسان الخاصة بالآلهة ٠ لقد تطرفت الملكيات الهيلينية فخصت نفسها بالربوبية وبالرغم من وجود جسارة رائعة فى اصرار انطيوخوس ابيفانس Antiochos Epiphans « الظهـور الالهى » على مسـاواة الاله يهوه باله الأولمب زيوس ومساواة نفسه بكليهما والاصرار على ادخال عبـارة « كراهية الخراب » فى فناء معبد القدس وبالرغم من وجود روعة بطولية صادقة فى الساعات الأخيرة من موت كليوباترة عندما لفت نفسها فى ثوبها الملكى ووضعت على صدرها الثعبان رسول اله الشمس رع — أبيهـا بعد موتها — لعلهـا تلحق به ومع ذلك لا تستطيع حتى هذه الأمثلة الشاملة أن تخفى حقيقة مؤداها أن الملوك والملكات باعتبارهم آلهة كانت انكارا للمفهوم اليونانى الكامل للانسان ٠

وفى الطرف المقابل نجد اتجاها الى توفير الجهد بارجاع كل شىء الى الآلهة من خلال علم التنجيم بشـكل ملحوظ ٠ ان الفكرة القـائلة بأن الانسان من المهد الى اللحد تحدد مصيره مجموعة النجوم التى ولد تحتها والتى تأتى من الشرق انما هى فكرة مناقضـة بشكل جوهرى لعقيدة اليونانيين وايمانهم بالكائن البشرى الحر ، لكن اليونانيين رحبـوا بهذه الفكرة حينما اقتنعوا أن هناك اخفاقا شاعرين بأنه اذا ما كان كل شىء قد تقرر سلفا فليس هناك معنى للدخول فى معارك ضد النجوم ٠ وكان من الميسور دراسة النجوم وتوقيع ما سـوف يحدث فى المستقبل حينئذ يتهيأ الانسان لما سيقع ويستطيع قبوله ٠ لقد قضى كل من عبادة الملوك والنجوم على الدين القديم وأدتا الى أفول عبادة الآلهة ٠

---

(١) تطلق كلمة Barberian التى معناها فى الأصل البرابرة على الشعوب الغير يونانية ٠

ان الانحدار الطويل للعالم الهيليني يوضح بالمقارنة تفوق العصر اليوناني الذى سبق هذا العالم · لقد مضى اليونانيون فى تطوير حضارتهم فى الفترة ما بين القرن الثامن الى نهاية القرن الخامس على وجه التقريب وقد حققوا ذلك بسرعة لا تبارى وتنوع كبير فى الانجازات وجاءت النتائج غاية فى التأثير الى الحد الذى يجعلنا عرضة لاغفال بعض الدلالات التى تفيد بأن البناء لم يكن دائما قد أقيم على أسس قوية · ان سرعة التقدم ذاتها هى التى جعلت من الصعب استيعاب بعض المتغيرات وادماجها فى استخدام مستقر وعادات ثابتة · وفى مجال الدين لم تقض هيمنة آلهة الأولمب على العبادات والعقائد التى كانت تنتمى الى معتقدات أبعد قدما وأكثر التصاقا بالأرض والمادة · وفى مجال السياسة تخلفت فجوات بسبب الانتقال من الملكية الى الارستقراطية فجوات أتاحت الفرصة للمغامرات الطموحة فى الاستيلاء على الحكم ان لم يكن الاستيلاء على ألقاب الملوك · كما أن الانتقال من الارستقرطية الى الديمقراطية قد ترك فى الولايات الأكثر ديمقراطية مجموعات اجتماعية لا تلتزم بشيء حتى تستعيد الامتيازات الضائعة · ان امتداد الحدود بفعل الغزو والاستعمار قد خلف عادة بين الضحايا مقتا مستعليا استحال الى عنف عند أول فرصة متاحة · وعلاوة على ذلك فان الحضارة التى داعبت أحلام اليونانيين بما لها من حب للفراغ والدعة وطلب للثروة تعزز بها وجودها تطلبت موارد أكثر ثراء مما كان فى وسع بلادهم القاحلة أن تفى به ·

لقد أعاق الفقر اليونانيين ومنعهم من أداء كثير من المهام وعاش غالبية سكان اليونان أقرب ما يكون الى المجاعة الى الحد الذى جعل أبسط تدخل فى مجال اقتصادهم قد يؤدى الى الخراب الشامل · ووقعت أثينا أخيرا فى قبضة اسبرطة بسبب الاعتماد على تموينها من القمح الوارد من البحر الأسود وعندما منع عنها هذا المدد بسبب دمار الأسطول الآثينى لم يعد أمامها من اختيار غير الاستسلام والخضوع ، وكان يعنى هذا أيضا أن الحرب لم تعد تسلية موسمية اذ امتدت لسنين عديدة مثلما حدث فى حرب بلوبونيزيا وتركت الجانبين منهوكى القوى معدمين لا سبيل الى انعاشهما ولم تعد الجزيرة اليونانية لتنعم بالأمن فى موقعها من البحر الأبيض المتوسط ولم يكن أبدا من الممكن مقارنة سكانها بسكان الممالك الضخمة فى آسيا ، ومن جميل حظها أن هذه الممالك كانت فى القرنين الثامن والسابع ق·م منهمكة فى مهاجمة بعضها البعض حيث لم تفكر فى غزو الجزيرة اليونانية وعندما بدأت الفرصة تتهيأ تحت قيادة كل من داريوس الأول Darius وكسركسيس Xerxes فقد استنفد ذلك كل جهود اليونان الموحدة لتقف على قدميها ومنذ ذلك الحين ظل تهديد

الفرس حقيقة من الحكمة ألا تنسى · وكانت الحضارة اليونانية فى الواقع تتأرجح فى خطر شديد · فلو قدر لها أن تبقى وتزدهر فقد تعين عليها أن تحتفظ بكل من توازنها وتحصينها ضد الغزو الخارجى ·

لقد بنى اليونانيون أسلوب حياتهم على هذا الأساس الذى لم يتمتع بالاستمرار الكامل على الاطلاق ونستطيع أن نلمح فى خصائصه الرئيسية نظاما مشابها من التوازنات يزداد ثراء فى نتائجه الحية أثناء بقائه لكن هدمه فى غاية اليسر · وعندما ينهار هذا الأساس يجرف معه حين سقوطه الكثير من الأشياء ·

ان التنوع فى الوحدة الذى أضفى شكلا على السياسة اليونانية قد شجع فكرة الفردية واستحث الجهود المحلية لكن هذه الوحدة قد انهارت عندما كانت تفوز سلطة أو أخرى بالسيادة على جيرانها وتقيد مبادراتها ·

ان تقديس الشرف الفردى الذى أفادت منه الدولة كثيرا والذى ألهم التفانى البطولى والتضحية بالذات من الممكن أن يتحول ضد الدولة وينزل بها ضررا بالغا اذا ما تعرض كبرياء هذا الشرف لمرارة التجريح · ان الآلهة التى تحتل منصبا مزدوجا باعتبارها مصادر للقوة والسلطان وأنصارا للأخلاقيات التى تستدعى لتأييد واحدة ضد الأخرى قد فقدت بفعلها هذا كثيرا من سلطانها وجلالها ·

ان فكرة الخير سواء كانت فى الانسان الخير أم الحياة الخيرة باشتمالها الموفق على كل ما للأشياء من جمال يتعشقه الناس ويجلونه قد تتقلص هذه الفكرة فى عصور الانحطاط وتتضاءل حتى تصبح مجرد جزء من الفكرة ، تتضاءل الى مستوى فكرة الفضيلة كما رآها ديوجونيس Diogenes (٤٠٠ ــ ٣٢٥ ق·م) تلك التى لا يعنيها من الأمور الا الخير وترفض التراث والدين والالتزامات الاجتماعية والقومية وكذلك الثراء والشرف كل ذلك فى سبيل العودة الى الطبيعة البدائية ،

والفنون الجميلة التى يعمل فيها العقل والعاطفة مجتمعين من أجل غاية واحدة قد تضطر هذه الفنون الى تحديد مجال العقل أو العاطفة وتنتهى بذلك اما الى الجمود أو الى فوضى شاملة · ان العلم الطبيعى الذى لم يكن معارضا للدين بشكل أصيل أو جوهرى والذى كشف أحيانا عن موقف قريب من الروح الدينية قد يتحول ضد الدين عندما يغلو الدين فى مطالبه ويتخذ موقفا مضادا معاديا يرفض الاعتراف بوجود أى شىء خلف المشاهد المرئية ·

وحتى الفلســـفة التى ازدهرت عندما افترضت أن عالم الكينونة وعالم الصيرورة يوحدان فى نوع من العلاقة بين بعضهما البعض ، حتى هذه الفلسفة قد وصلت الى غاية جامدة خالية من الروح عندما أصرت على أن هذا العالم أو ذاك يستطيع أن يهيمن على العقيدة · ومما يعد فضلا خالدا لليونانيين ولمصدر نفوذهم الرئيسى وسمعتهم الطيبة أنهم قد ظلوا لقرابة ثلاثة قرون يحتفظون بهذه الموازين المتأرجحة ويبنون عليها البناء الشاهق لانجازاتهم · لقد اشتمل كل تغيير على مخاطرة لكنه طالما احتفظ اليونانيون بثقتهم فى أنفسهم فقد استطاعوا اجتياز هذه المخاطرات وعززت الحضارة مواقعها الجديدة بجمال واطمئنان ·

وهناك يكمن فى مركز نظام الموازين المشـــار اليه شىء ما متداخل بشكل وثيق ومتضمن فى معظم تفريعـــات هذا النظام ، شىء يربط بين اجزائه ويضفى عليه معناه · ذلك هو مفهوم طبيعة الانسان ومنزلته فى مجموع الأشياء · لم يكن اليونانيون فى أى موضوع أكثر شجاعة وأكثر عقلانية من تقديرهم لانسانية الانسان وحدوده وامكانياته وقيمته · لقد اختلفوا اختلافا جوهريا عن معاصريهم فى آسيا الذين تصوروا أن لا أهمية للجماهير العريضة من الناس بالمقارنة الى الملوك المقدسين الذين ما وجدت هذه الجماهير الا لخدمتهم وكذلك اختلف اليونانيون عن معاصريهم فى مصر الذين كانوا يؤمنون بأن الحياة فى هذا العالم ما هى الا رحلة فانية تمهيدا لخلود الحياة فى القبر · أقر اليونانيون بأن الناس خليقون بالتقدير لذاتهم وكانوا مقتنعين بأن عليهم أن يفوزوا بهـــذا التقـدير فى الحياة الوحيدة التى لدينا معرفة عنها · لكنهم رأوا فى نفس الوقت أن أهمية السلوك الانسانى تعتمد على الطاقات التى تكمن خارج مجال هذا السلوك وأن الانسان ليس وحده فى هذا الكون وليس من المستطاع عزله عن القوى العليا أو القوى السفلى ، فاذا ما كان الانسان يشبه الآلهة من ناحية ويماثل البهائم من ناحية أخرى فان الأمر موكول اليه فى أن يلاحظ هذا الوضع وأن يعمل على تحويله لصالحه · وبالرغم من أن له طبيعة ليست من طبيعة الآلهة وليست من طبيعة البهائم الا أن هذه الطبيعة لا تستطيع أن تزدهر ازدهارا كاملا على ما يكون من مواردها الخاصة ولا بد لها أن تنظر الى ما وراءها لترى ما ينبغى عليها أن تسعى اليه وما ينبغى أن تتحاشاه · ان هذا الوعى بالأبعـــاد الواقعة خارج المجال البشرى كان محفورا بعمق فى كيان اليونانيين ·

وبالرغم من أنه لم يكن لديهم أسطورة واحدة عن خلق الانسان فان غالبية الأساطير أجمعت على أن الانسان قد خلق من طين الأرض وان ذلك

من عمل الآلهة . ويرمز ذلك الأمر الى موقع الانســان الوسط بين الآلهة والبهائم وان كانت قدرته على الارتفاع الى مستوى أعلى قد رمزت اليها أسطورة بروميثيوس الذى يعلم البشر فنون الحياة ويستنقذهم من حالة الفوضى والجهل البدائية التى عاشوا فى ظلها أشبه بأضغاث أحلام .

وكان اليونانيون على وعى بالطبيعة المتضعة للأصول التى انحدر منها الانسان لكنهم رأوا فى هذه الأصول نداء يستحثهم لاثارة طاقات الانسان الكائنة . لقد أحسوا بحاجتهم الى شيء خارجى يحفزهم الى بذل الجهــد ويجعلهم أهلا للحياة التى وهبت لهم .

ان هذه الرغبة فى استجلاء بعد آخر ، وفى الوصول الى شيء ما خلف المجــال المعروف للانســان قد أنكرها بروتاجــوراس Protagoras فى تعاليمه التى تقول « ان الانسان مقياس كل الأشياء » وفى الجـدال الذى يقول ان الانسان لا يعرف من الأمور غير ذاته وانه يشكل كل شيء حســب أفكاره وأحاسيسه ، نجد بروتاجوراس وقــد ألغى الاحســاس بالغيبيــات ، هــذا الاحساس الذى أعطى الفــكر اليــونانى دافعا جارفا واحساسا بالاتجاه .

وقبل أن يفوض بروتاجوراس الثقة القديمة كان الناس بشكل عام يوافقون على ان الانسان فى الواقع جزء من نظام أوسع مدى واكثر شمولا وأنه بعيد للغاية عن أن يكون مركز الكون ومحاطا بالمجهول المطلق .

لقد وجد اليونانيون فى هذه العقيدة راحة والهاما ، وجدوا فيهــا الراحة اذ أحسوا أنهم ليسوا من الضائعين وليسوا وحدهم فى ظلام بهيم ووجدوا فيها الالهام اذ أنهم عندما حاولوا أن يدركوا هذا المجهول المغيب أطلقوا من أنفسهم قوى أكيدة لدى الآلهة ومهما يكن الدور الذى تلعبه الآلهة فى مجال التجربة الدينية للفرد فقــد لعبت دورا كبيرا فى الفــكر السائد وذلك بما أوحى به من أن هناك قوى خارج نطاق الانسان أعظم منه بحق وليست كاملة الوضوح وان كانت بالنسبة اليه جليلة بصورة كافية الى الحد الذى يجعله يرغب فى التشبه بالآلهة فى بعض مناحى حياته وأن يستفيد من جل عونهم وارشادهم وأن ينتبه الى اهتمامهم بأفعاله وأن يقترب منهم بتلك الأساليب التى تتيحها له ما أوتى مـن ملكاته المحدودة .

ونستطيع أن نرى هذا الايمان فى أجلى صوره فى الشعر والنحت فمثلما يبين كل من اسخيلوس وسوفوكليس من خلال أحداث المسرحية

أن أفعال الناس لها مغزاها الخاص لاتصالها بعالم سماوى ، كذلك تبين تماثيل النحت فى معبدى أولمب وبارثينون كيف يصل كل من القوة والغبطة الى أعلى مراقيها عندما يكونا من الهام الآلهة ، ويعنى هذا الاتجاه بالنسبة للانسان العادى أنه بالرغم من كون الانسان مجرد انسان لا غير الا أنه يستطيع بفضل معرفته بالآلهة وتأييدهم له أن ينجح فى كل أمور الحياة التى لم يكن يغير هذه المعرفة والتأييد ليتمتع بالمقدرة والشجاعة على مواجهة هذه الأمور . ومن خلال هذا البعد الآخر يضعف ويتضاءل الاحساس بالعائق هذا الاحساس الذى يتعقب الانسانية بل يتفتت بفضل الكشف عن أساليب عديدة تستهدف اتساع مجال العقل أو الشخصية .

وبالرغم من أن اليونانيين كانوا يدركون أنهم لا يستطيعون أن يرتقوا سلما الى السماء ذات اللون النحاسى الا أنهم كانوا على وعى بوجودها وتباينها بل وبالتحدى الذى كانت تقدمه هذه السماء .

واستحث الآلهة الانسان على منافستهم مادام فى مقدوره ذلك وجعلوا منه انسانا مدركا واعيا لامكانياته التى تكمن خلف شخصيته العادية ونشاطه العام المألوف . وحين استجلاء اليونانيين للأسرار المحيطة بهم تكشفت لهم دواع جديدة تدعوهم الى الفكر والعمل ، وقد أوحت معظم فروع الفكر والتأمل الجديدة بوجود امكانيات خارج نطاق محيطهم الخاص .

لقد قدم العلم الى بعض الناس امتدادا للرؤية التى وجدها آخرون لدى الدين ، ولم تكن أقل سخاء وخصبا فى نتائجها الثرية .

ان البحث فى طبيعة الأشياء قد انتهى الى فكرة تفيض سخاء عن الطاقات البشرية وعن مقدرة البشر فى تهيئة الطبيعة بحيث تلائم غاياتهم الخاصة . ان فكرة الطبيعة ذاتها فى الواقع لفكرة غامضة عصيبة على الفهم وان كانت دائما حاضرة قوية فقد استطاعت أن تبتعث نوعا من الدين خاصا بها والهاما صاحب قدوم هذا الدين .

ولقد جاوزت دراسة الجسم الانسانى فى الطب ابراء المرضى وانتهت الى أفكار دراسة الانسان باعتباره مخلوقا يعيش فى بيئة طبيعية ، ولا يستطيع السيطرة عليها لكنه يستطيع على الأقل أن يستغلها فى تحسين أحواله .

وفى مجال الرياضيات نجد الاعتقاد فى الأعداد يتضمن نظاما علويا .

لا يقدم متعة خاصة لمن يدرسونه فحسب ، لكنه يحملهم على الشعور بأنهم وقفوا على شيء راسخ دائم خلف المظاهر المتغيرة للأشياء ومن المستطاع ترجمة دروس الهندسة الى أعمال بين أيادى الناس مثل فن المعمار والأخر المستحدثة فى فن النحت والرسم • ومن يفعل ذلك من الناس يجاوز الحواس العادية الى مستوى مختلف من التجربة اكثر تجريدا ونفاذا •

وكذلك حدث نفس الشيء في الفلسفة فعندما قدم أناجزاجوراس Anaxagoras نظريته عن العقل باعتباره قضية رئيسية قادرة قد فتح الطريق لتأملات أشمل وأعم « ان للعقل سلطانا فوق كل الأشياء ، كبيرها وصغيرها كل ما ينبض منها بالحياة ، وللعقل سلطان فوق كل التغيير الثورى الى الحد الذى جعل هذا التغيير يبدأ دورته من البداية لكن الثورة الجديدة الآن تنتشر عبر مساحة أكبر وسوف تمضى فى انتشارها عبر مساحات أشمل » • فاذا ما كانت هناك قوة منتشرة من هذا النوع كامنة خلف الظواهر الطبيعية فالنتيجة الطبيعية لذلك تعنى أن هذه القوة تعمل أيضا داخل نفوس البشر وتدفعهم الى انجازات جديدة •

ولم يشغل اليونانيون كثيرا أين يجدون هذه القوة خارج نطاق أنفسهم طالما أنهم عثروا عليها وأنهم فى أعظم أيامهم قد اعتمدوا عليها فى بسط أهدافهم واتساع مجال قدراتهم •

وقد نتصور أن هذا البعد الخارجى لم ينس فى القرن الرابع على الاطلاق • وتعد الصور الأفلاطونية المعادل الذى يقدمه أفلاطون لهذا البعد • والهة بالرغم من كونه بعيدا مطلقا الا أنه اله مقدس دون انكار •

ان مفهوم أرسطو لحياة التأمل لمفهوم أكثر تأثيرا وأثرا اذ انه يعزو هذا المفهوم الى الآلهة ويقول عن الانسان « ينبغى علينا أن نجعل من أنفسنا أناسا خالدين طالما كان فى مقدورنا ذلك » • وكان لدى علماء الرياضيات فكرة من الشكل لها جمال ودقة الافكار التى ساد الاعتقاد بها فى القرن الخامس وربما كان ينتظر من المواطن اليونانى فى هذا العهد أن يشعر أنه يوجد خلف محيط مجال الانسان الخاص كائنات أخرى تنتمى الى نظام أكثر شمولا وليس بعيدا عن متناول ادراكه بشكل مطلق بيد أن ذلك لم يكن بالأمر الواقع تماما • لقد كانت الانجازات الفكرية الفعالة لهذا العصر تسير بوجه عام فى جو مجرد نقى من أجواء الفكر الخالص •

وبالرغم من أن علماء الرياضيات لم يفقدوا شغفهم بعلم الفلك وقاموا بجولات باهرة فى علم الميكانيكا الا انهم كانوا يميلون الى معالجة أبحاثهم باعتبارها جزءا من نظام مستقل له علاقة طفيفة بالحياة العامة أو بضرورات العمل • وقد عزل أرسطو الاله عن الحياة العادية للبشر حين جعله يضفى الأبدية على الفكر الخالص المحض وحتى لو جعل منه نموذجا يحاول البعض أن يحتذيه فقد كان ذلك مقصورا على قلة مختارة ولم يجلب السلوى لآخرين كثيرين ربما أفادوا من نموذج يتخذ شكلا أكثر ما يكون قربا الى متطلباتهم •

وحتى بالرغم من أن أفلاطون يجعل العالم المرئى يعتمد على صور نموذجية فانه لا يبين اى الطرق التى يتخذها هذا العالم ليتم له الاعتماد على هذه الصور وما يعنيه هذا العالم بالنسبة لأفلاطون أقل كثيرا مما تعنيه الصور من أهمية •

وساعد المفكرون العظماء بوسائل مختلفة على حل لغز الكون الذى استمتع اليونانيون فيه ببهاء النظام الأدنى للأشياء بفضل وجود نظام أرقى ، وشعروا أن هناك دائما أملا فى السمو بالطاقات المحدودة التقليدية والمضى بها فى اتجاه ليس من الممكن التنبؤ به سلفا • وعندما كان ينعزل هذا النظام الأرقى ويتقوقع فى ذاته أو يدخر لقلة مختارة من المثقفين كان يفقد كثيرا من تأثيره الملهم القديم •

وكان يؤكد هذا النظام على أنه ينبغى للانسان العادى أن يعتمد على تجربته الخاصة ولا يتعداها بالنظر الى غيرها • لقد حصرت الاتجاهات الفكرية الجديدة مجموعة الأنشطة الانسانية بكاملها فى عالم مركزه الانسان بدلا من تدعيمها ونشرها فى مجالات أكبر ودمرت بذلك الوعى بالبعد الأسمى الذى أضفى روعة خاصة على رؤية اليونانيين لهذا الوجود •

ان الفروض التى زودت الفكر والعقل بالدافع والباعث قد تواءمت تواؤما طيبا مع الفكرة اليونانية عن الشخصية وعن الطريقة التى تتخذها هذه الشخصية فى مسلكها • لقد افترض اليونانيون أنه لأمر طبيعى أن يتعاون كل من الذكاء والعواطف فى أداء ما يلقى اليها من أعمال • لم يسىء اليونانيون الظن بالعواطف فى مجال التعاون مع الذكاء وبالرغم من أنهم يدركون أن هذه العواطف قد تفضى بالانسان الى كارثة الا أنه من الممكن أن يقال نفس الشىء عن العقل ونحن نرى أن قدرا كبيرا من الرؤية المأساوية لدى اليونانيين فى الواقع ترتكز على سوء التقدير

المهلك وسوء الفهم لطبيعة البشر . فلو أتاح الانسان لذكائه أن يتبع عواطفه ولا يسمح فى ذات الوقت لهذه العواطف أن تضلله وتغريه بالفعل المتسرع فسوف يكون قد تصرف كما ينبغى أن يتصرف الانسان السوى المتميز بالصحة والعافية . ومثلما يدان الانسان الذى يتصرف وفق عواطفه وحدها بسبب عدم اعتداله وافراطه فى الملذات كذلك يعد الانسان الذى يتصرف وفق تقديرات حسابية بحتة انسانا جامدا وحرى ان يصيب غيره بالأذى وأن يعرض أهدافه الخاصة للاخفاق والاحباط . وتكمن أصدق الحكمة فى الشخصية المتوازنة توازنا صحيحا لا يسمح لأحد جوانبها أن ينتصر على حساب الجانب الآخر .

ونستطيع أن نرى ما يعنيه هذا الاتجاه من خلال المنزلة التى منحت لايروس التى تعنى فى المحل الأول الحب المندفع بيد أن معناه يتجاوز مجرد الرغبة الجسدية ليشمل كثيرا من أشكال الحب الفكرى والروحى - وهى بالنسبة لبرمينيدس مولود الضرورة والقوة التى تتيح للناس أن يعيشوا وأن يزدادوا ازدهارا وهى بالنسبة لديمقراطيس الرغبة فى امتلاك الكائنات الجميلة ، وهى بالنسبة ليوريبيديس الروح الملهمة بالفنون وهى بالنسبة لبركليس الحقيقة التى تجعل المواطنين يشعرون بالتفانى من أجل مدينتهم ، وهى بالنسبة لسقراط السعى الى الغايات النبيلة التى يشتمل عليها الفكر والعقل . وتتفق هذه الأشكال المختلفة للحب فى جعله الطاقة التى تدفع الانسان الى أن يلقى بكامل كيانه فيما يضطلع به من أعمال ، مما يعزز جهوده الجبارة ويحثه الى بذل جهود فريدة من نوعها تدفع ذكاءه الى العمل والانتاج بشكل كامل ونشيط وتمنحه وحدة الكائن تلك الوحدة التى تحقق انسجاما لطبيعة بكاملها ، تلك الطبيعة التى تعد مصدر جهوده الخلاقة . والحب لا يقضى على شكوكه وتردده فحسب لكنه بفضل تركيز كل ملكات الانسان على هدف واحد يشحذ رؤياه للحب ويحفزها ويثرى قدراته على الفهم . فلو أن الطاقة الكاملة لطبيعة الانسان تنشط كقوة مستقلة واحدة ، فسوف يكون لدينا انسان كامل ، ولم يكن هناك يونانى فى أيام اليونان العظيمة لينكر أن هذا هو الطريق الطبيعى والصحيح الذى يتعين على الانسان أن يسلكه .

ويبدو هذا الأمر غاية فى البساطة وهو فى الواقع كذلك ، اذا لم يكن الفلاسفة فى القرن الرابع وما بعده قد حاولوا تمزيق النفس الانسانية أو على الأقل اخضاع أجزاء نشطة منها الى مبدأ أساسى مجهول أكثر مما حاولوا احتواءها فى حالة من الانسجام الشامل .

وعندما صنف أفلاطون كل العواطف باستثناء الكبرياء الخالص على أنها شهوات وذكر أن من الطبيعى أن تكون عدوة للعقل وينبغى أن تخضع له ، فقد سلب بذلك العقل من مصدر قوته الرئيسى وهيأه لأنواع من الجمود والتصلب أصبحت بعد ذلك من الخصائص المميزة للحياة الفلسفية المنعزلة ٠

وعندما زعم المذهب الرواقى الذى أسسه زينون أنه لا أهمية لشىء فى الحياة غير الفضيلة واننا نجد الفضيلة فى اتباع أهداف الكون ، فقد تجاهل زينون العواطف واستبعدها حتى عاطفة الشفقة متعللا بأنها تقلق الهدوء العقلانى الذى ينبغى أن يكون غاية الحياة ٠

وقد يكون للمذهب الرواقى نتاجه من شهداء الواجب لكنه لم يفرز كائنا بشريا كاملا ٠ ونجد اتجاها مماثلا عندما نعلم أن أبيقور قد قال ان كل ما يعنينا فى الحياة هو البحث عن السعادة واننا نجد هذه السعادة فى البساطة والمحبة والنأى عن الشئون العامة ، ولعله فى الواقع يشجع القداسة الهادئة التى توفرها الحياة الخاصة ، لكنه استبعد تلك العواطف التى تجد تحقيق ذاتها فى المحاولات الاجتماعية الخلاقة ٠

واذا ما رغبنا فى أن نعرف ما كان يعنيه هذا النظام الجديد من أنظمة علم النفس والأخلاق فلن يتعين علينا أن نقارن النظام الأبيقورى والرواقى أو الأفلاطونى النموذجى بأبطال هوميروس الجامحين والمتزنين فى نفس الوقت فحسب ، وانما يتعين علينا أن نقارن هذه الأنظمة بأية شخصية نموذجية من شخصيات القرن الخامس ٠

والذى نعتقده هو رد الفعل الغريزى الكامل تجاه الأحداث ، وانعدام العوائق الناشئة عن النظرية التى تحدد ما ينبغى أن يكون عليه الانسان، والنشاط الحى لكل ملكات الانسان مجتمعة ، نشاط يحرك هذه الملكات عبر ميدان فسيح من ميادين النشاط ٠ وطالما أنهم آمنوا بوحدة الكائن ووقوه محاولات تشويه النفس وافسادها ، فقد واجه اليونانيون مشاكلهم بطاقات كاملة وكان لديهم كل البواعث التى تنبع من الاستخدام الطليق للطاقات المخزونة ٠ ذلك هو الذى أضفى الكمال والعمق على فنهم الذى نشط فيه الذكاء والعواطف فى توحد كامل لا انفصال فيه ولا انفكاك وهو الذى مكنهم أيضا فى محاولات عديدة من الحياة النشطة من أن يفرضوا على أكثر معتقداتهم حيوية وحرارة نظاما عقلانيا جعل هذه المعتقدات مقنعة وواقعية فى وقت واحد ٠

ان الايمان بقيمة الانسان الخاصة هو الذى جعل الحضارة

اليونانية ممكنة على وجه الاطلاق . فلم ير اليونانيون الانسان على أنه كائن ساقط فاسد . وبالرغم من أنه كان لديهم أساطير من العصر الذهبى فى الماضى البعيد قد تكون ذات أصل شرقى تلاشت عبر عمليات غامضة من عمليات الاضمحلال ، فلم يتصوروا أن أقوام العصور المتأخرة لابد أن يتحملوا اثم اختفاء هذه الأســـاطير . فاذا ما اعتقد اليونانيون فى الخطيئة وعسير أن نصف شعورهم بشأن الاساءات ضد الآلهة بشىء غير ذلك فلم يتصوروا أن الطبيعة الانسانية قد أفسدها منذ البداية هـــذا الاعتقاد ولم يعلقوا أى آمال على احتمالات الخلاص والغفران .

ورأى اليونانيون أن الانسان فى الواقع مخلوق فريد لم يسبق له مثيل خليق بالهيبة والاندهاش فى مجال ابتكاراته ومشروعاته ويتــولى عنهم سوفوكليس التعبير عن هذا الموقف عندما يجعل الجوقة تنشد :

« هناك عجائب كثيرة وغريبة ، الا أنه ليس هنـــاك من شىء أكثر عجبا وروعة من الانسان » .

وحقيقة أن اليونانيين قد اعتقدوا ذات يوم أن بعض الرجال الموهوبين هبات متميزة أبناء آلهة بحق ورثوا عنهم صفاتهم الالهية وأن آخرين هم على الأقل أنداد للآلهـــة . وحتى فى القرن الخامس زعمت بعض الأسر الارستقراطية مثل أسرة أيكوس Aeacus أنهم ينحـــدرون عن ذرية الأبطال ومن ثم من زيوس Zeus وينظر بندار Pindar الى انتصاراتهم فى العاب الرياضة الأولمبية على أنها علامة على دمائهم المقدسة لكن هـــذا الموقف من بندار كان يمثل فكرة ارستقراطية خاصة تكاد ألا يكون لهـــا صلة بالآراء المعادية بشأن كرامة الانسان وامكانياته . ان ما كان يعنيهم هو الايمان بأن الانسان جدير بالتقدير لما ينطوى عليه من صفة فريدة . وما لديه من مطالب لا سبيل الى تلبيتها ، مطالب تنشـــد اســـتجلاء مصـــيره .

وقد لقيت هذه الفكرة تطبيقا عريضا فى المفهوم اللاهوتى الذى يعنى أنه مادام للانسان طبيعة معينة فان هذه الطبيعة تجد تحقيق ذاتها فى غايات معينة .

وبعبارة أخرى مثلما يكون كل شىء فى خدمة غرض أو آخر كذلك يكون الانسان فى خدمة غرض من أغراض نظام الأشياء ويحقــق بذلك طبيعة كاملة .

ويعنى هذا أنه يطور طاقاته أو قدراته الفطرية طالما أن بوســـعه القدرة على هذا التطوير . وقد كانت الطريقة التى يســـتطيع اتخاذها

لتحقيق هذا الهدف موضوعا مشروعا مطروحا للمناقشة وقد وجد له اجابات متباينة ابتداء من هومر Homer الى أرسطو Aristotle بيد أنه كان يفترض فى جميع هذ الآراء أن للانسان دون نزاع هذه الغاية وأنها غاية تتسم بالنبل وروعة الجمال • ويصبح الانسان بعد وصوله الى هذه الغاية انسانا خيرا بأوسع ما للكلمة اليونانية من معنى •

وفى القرن الخامس أصبح لهذه الفكرة معنى اجتماعى ، ووجد الانسان تحقيق أقصى طاقاته فى التطوير الكامل للفرد داخل الاطار الاجتماعى •

ومرة أخرى نجد سوفوكليس يصيب هدفه الصحيح عندما يقول ان الانسان قد وجه قدراته الخاصة الى غرض خير وقد طور بذلك طبيعة الانسانية ذات النوعية الخاصة •

لقد علم الانسان نفسه الكلمة
وحظى كذلك بفكر له سرعة الريح
وهو الروح التى تهيمن على مقادير المدن

ان هذا الاحساس بقيمة الانسان وطاقاته يسود فى كثير من الفكر • والى هذا الاحساس يعود ايمان اليونانيين بالحرية اذ أنه لايستطيع تحقيق ذواتهم تحقيقا كاملا الا الأحرار •

ولم يجانب اليونانيين المنطق الصحيح فى ارتيابهم اذ ما كان بوسع العبد أن يكون لديه طاقة بما لهذه الكلمة من معنى حقيقى طالما أنه ليس حرا فى أن يكون على الصورة التى يتمنى أن يكون عليها •

ولم تكن فكرة اطلاق الطاقات فى أفضل أيام اليونانيين بالفكرة المحدودة على الاطلاق لقد شملت معظم الأشياء التى ينشدها الناس ويعجبون بها • ولقد استتبع ذلك أن يكون الانسان بحق حريا بالتشجيع وأن المجتمع ما وجد الا لمساعدته للوصول الى منتهى حدود قدراته وليست الآلهة بحاجة الى مثل هذا العون ، وأن البهائم دون هذا المستوى، وأن الانسان حيوان اجتماعى يرتفع من خلال علاقاته مع الآخرين فوق أحوال الحيوانات وأنه يدنو بطريقة ما الى مستوى الآلهة • وما دام الانسان يجاهد ويناضل فله أن يطالب بحقه الخاص فى الاحترام والتقدير وينبغى أن تتاح له الفرصة لاستكمال واستيفاء طاقاته

الطبيعية · وبالرغم من أن هذه الأفكار لم تصبح غاية فى الجلاء والوضوح ، فقد أقام عليها أرسطو نظام الأخلاق ، الا أنها كامنة فى الفكر اليونانى منذ العصور الأولى وتشكل الأساس لأهم افتراضاته ونتائجه ·

وتعتمد جدارة الانسان الخاصة على وضعه المبهم أمام الآلهة · اذ يستمد الانسان الى حد ما كثيرا من طاقاته من روح الآلهة · كما نجد ذلك فى الكلمات التى ينسبها أفلاطون الى بروتاجوراس وحيث أن الانسان تمتع بنصيب من القداسة الالهية فانه لذلك المخلوق الوحيد الذى يؤمن بالآلهة لما بينه وبينهم من نسب ·

لم يستطع اليونانيون الا أن يتصوروا أن السجايا التى تكشف عنها الانسان فى نضاله الصاعد قد اتجهت الى شىء ما كامن خلف طبيعته المحدودة وفسروا هذا بصلته وارتباطه بالآلهة وبما للآلهة من استعداد لالهامه وعونه ·

لقد كان اليونانيون يعتقدون أن السجايا التى نفترض أنها صفات انسانية ما هى الا صفات الهية بشكل محدود · واذا ما تمثلت هذه الصفات فى انسان بمقدار يفوق العادة فان هذا الانسان الذى يتصف بها كان يدعى (المقدس) (Theios) وكانت هذه الكلمة فى الأصل تعنى الالهى بمعنى انه صنو للآلهة · ولم تكن هذه التسمية من باب الغرور والخيلاء أو ارضاء النفس وانما كانت محاولة حقيقية لتقدير أروع ما فى الطبيعة الانسانية وذلك بارجاعها الى أصل أسمى وأفضل ·

لقد غالى اليونانيون فى الثقة فى أنفسهم وذهبوا بها الى حد بعيد · بيد أنهم توقفوا عند هذه النقطة اذ أنهم أدركوا أنه ليس بمقدور الانسان ان يكون فى نهاية الأمر صنوا للآلهة بشكل كامل اذ أنه محتوم عليه أن يقضى نحبه فى النهاية ·

ويحدد سوفوكليس التناقض الظاهر فى الانسان بعد أن يعدد انتصاراته على الطبيعة وقدرته على مواجهة الضرورات الملحة ·

« ودون حيلة وبراعة لن يجد له غدا ، لن يفوز الانسان بالفرار من الموت وحده · ذلك بالرغم من أنه قد خطط خططا كثيرة للهروب من الأمراض المهلكة » · وما دام الأمر كذلك فمن الواضح أن مجد الانسان الخاص والمتميز يختلف عن مجد الآلهة ، وأن الانسان من خلال تشابهه

مع الآلهة مدفوع الى الوفاء بالتزاماته ، هذا الوفاء الذى ليس بمقدوره حسب طبيعة الأشياء أن يكون مماثلا لوفاء الآلهة بالتزاماتها · وبالرغم من ان الآلهة بين الفينة والفينة تتيح له أن يشارك في نعمها ، الا أن عليه في النهاية ان يصارع الحياة وحده · لذلك فبالرغم من اعتقاد اليونانيين بوجود عناصر الالوهية فى الانسان فقد خلعوا عليه صفة الاقتدار التى تعنى أن عليه أن يبذل أقصى طاقاته المستمدة من طبيعته الانسانية وبهذا الاعتقاد لم ينتقصوا بأية حال من مجده الخاص ، وانما شعروا أن الانسان في أحسن أدائه جدير بشرف يكاد يكون صنوا لشرف الآلهة لكنه مستقل عنه بذاته مختلف عنه في حقيقته مدخر للانسان وحده فليس الانسان بسائمة ولا باله ولهذا فهو غريب ورائع ·

، أما الآلهة فهى خالدة الى الأبد تتتابع أنشطتها الدائبة فى زمنها المحدد لكن الانسان سرعان ما يأتى بغتة الى النهاية ، وربما كانت قلة من اليونانيين تؤمن بأنه من الممكن للانسان بعد الموت أن يشارك فى نعيم الآلهة باعتباره ندا لهم · وربما كان كثير منهم يعتقد أنه اذا ما كانت هناك حياة بعد الموت على الاطلاق فليس من المحتمل أن تكون امتدادا أو تعديلا أكمل لحياتنا فى هذا العالم · لقد وجدوا أن اكتمال جهود البشر يتحقق فى مجالات أخرى غير مجرد الآمال فى الثواب المنتظر ، أو حتى النشاط المتجدد · وكانوا يعنون بهذا أنه بينما تكون الآلهة خالدة خلودا حقيقيا فان الانسان الذى أتى من الأفعال ما هو خليق حقيقة بالاتيان يعبر الى خارج حدود الزمان حيث ترسخ طاقاته وتتخذ سمة الدوام · لم يفسر اليونانيون هذا المعنى تفسيرا جليا ولم يقلقهم الالمام بمضامينه وفحواه لكنه يكمن خلف تماثيلهم وفى الكلمات المنقوشة على أضرحتهم وصور جنائزهم وشواهد قبورهم كما يتضح أكثر ما يتضح فى أغانيهم التى تعيد الى الذاكرة ما كان للانسان من انتصار رائع وتحفظ تاريخه فى ذاكرة الأجيال اللاحقة وتصونها من غوائل الزمن ·

ان الانسان الذى يذكر على هذا النحو لانسان حقيقى ونفس أصيلة قد وجد بفضل جهوده مجاله كاملا وجاوز الاطار المتغير لتطوره بالغا بذلك حقيقته المطلقة ، ان التمجيد الذى كان يسجل فى تذكار مرثى أو فى أنشودة تنشد قد قدم تاجا لائقا بمسيرة حياة الانسان ، لكن ذلك لم يكن له قيمة تذكر اذا لم يكسب الانسان هذا التقدير عن جدارة واستحقاق · أما الذى كان يعنيهم ويشغل بالهم هو أن يحقق

الانسان اقصى طاقاته البشرية وأن يصل الى نوع من الكمال تتكشف فيه ذاته بشكل صحيح ٠

هذا هو امتيازه الخاص والفريد والذى هو فى الواقع جدير بالاقتناء ، اذ أنه يعتمد فى تحقيقه على الاستخدام الكامل لملكات الانسان تلك التى من المستطاع دون عناء أن تترك خاملة خامدة ولا يحفزها للفعل والعمل الا ايمان قوى فعال أو باعث مشبوب بالعاطفة نحو هدف بعيد المرام كثيرا ما يكون صعب المنال ٠

ومنذ فجر التاريخ اليونانى يعرف أخيليس Achiles أنه مقضى عليه أن يموت فى شرخ شبابه بيد أنه يذعن لقضائه المحتوم على النقيض من جلجاميش Gilgamesh البطل البابلى الذى ظل حتى الرمق الأخير يناضل هربا من الموت ٠ وبالرغم من أنه يسرى فى عروقه دم الآلهة وبالرغم من أنه يبز كل الآخرين من الرجال بما له من طاقات هائلة الا أنه لم يراوده الطموح فى أن يكون الها ٠ ويذعن راضيا بوضعه البشرى ٠ هذا الوضع الذى يعرض تحدياته ويقدم ما له من مجد وعظمة ويجسد أخيليس وجهة النظر البطولية لليونانيين وذلك باستخدامه لمزاياه الرائعة فى سبيل تحقيق كمال رجولته ٠ وبالرغم من أنه على وعى كامل بما حبته به الأقدار من هبات الا أنه يذعن فى استسلام مستعل للمصير الذى يتربص به ٠

انظرى أى رجل من الرجال أكون متين البنيان رائع الطلعة حين تراه
ربانى أب عظيم والأم التى حملتنى الهة
ومع ذلك ينتصب فوق رأسى موت وقوة غالبة من قوى القدر -
سوف يهبط على فجر وتأتينى ظهيرة ويغشانى مساء
عندما يستلب حياتى فى حومة الوغى انسان مجهول الهوية
قد أطلق على من وتر قوسه حربة أو سهما ٠

وفى الغروب المتألق للتاريخ اليونانى رأى الاسكندر نفسه وكأنه أخيليس آخر وقد مضى بفتوحاته الى أراض لم يكن فى مقدور أخيليس ربيب التاريخ أن يسمع عنها ٠ وفى مسيرته الكاسحة من نصر الى نصر لم يظهر الاسكندر حيرة واضطرابا عندما ساد الاعتقاد بأنه ابن زيوس آمون حسب نبوءة مصرية ٠ وعندما استعذب بعد ذلك السلطة المطلقة التى لم يسبق لها مثيل طلب من المدن اليونانية أن تكرمه الها ٠

لقد مات مثل أخيليس شابا وقد أتى ما لم يكن في مقدور أى انسان آخر أن يأتى به مخلفا وراءه صيتا ذائعا ظل لقرون يستولى على خيال أوروبا وآسيا ومع ذلك فقد تنكر الاسكندر لتراثه اليونانى بمطالبته بأن يكون الها مع كل التحفظات الخاصة . وتحكى أسطورة مندثرة لا تزيد على كونها مجرد أسطورة أن الاسكندر أثناء مرضه الأخير فى بابل عندما أدرك أنه مشرف على الموت راح فى منتصف الليل يزحف على أربع خارج خيمته ليلقى بنفسه فى يم الفرات ، آملا فى فقدان جسمانه وأن الناس بذلك سيعتقدون أنه فى الحقيقة من الخالدين . وخابت محاولته وأخفقت اذ ردته زوجه ليقضى نحبه فى فراشه وقد عرف الجميع أنه ليس الا انسانا .

والقصة أسطورة تقدم موعظة . ان الروعة الفريدة لليونانيين تتمثل فى أنهم برغم كل ادراكهم لوجود الصفات الالهية فى الانسان ودنوه من الآلهة فقد أدركوا أنه لم يكن الها وليس بمقدوره أن يكون الها . وقد كان يرضيهم ويداعب كبرياءهم أن يستجلى الانسان أروع صفاته وأن يكون مهيأ لأن يحيا ويموت من أجل ايجاد هذه الصفات .

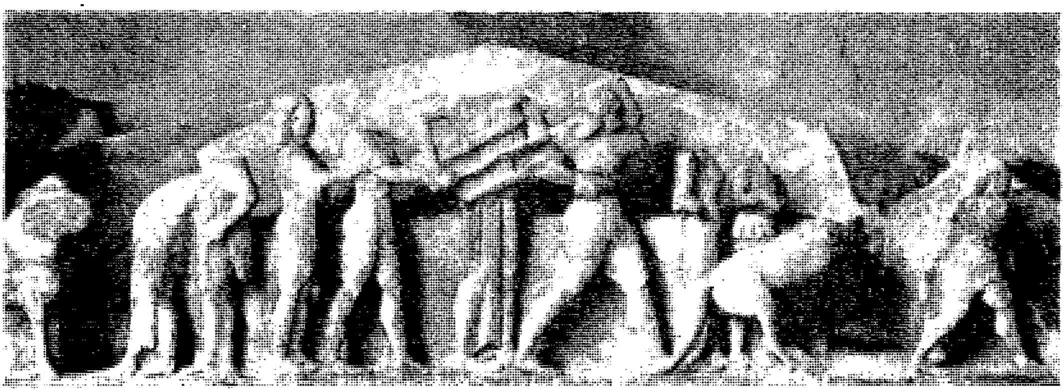
ملحق

اللوحات التى وردت الاشارة اليها فى الفصول السابقة

مرتبة حسب أرقام ورودها



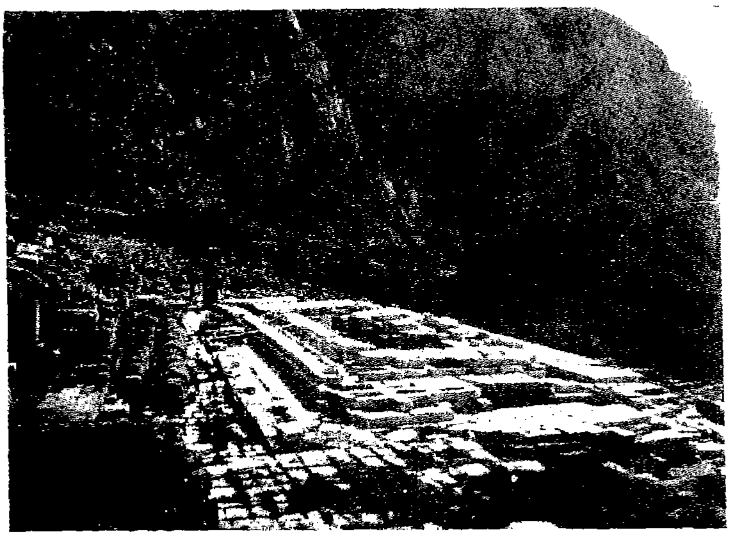
١ ـ المعبد المسمى بازيليكا فى باستوم (بوزيدونيا) فى لوكينا جنوب ايطاليا فى القرن السادس ق٠م ٠



٢ ـ قوصرة خزانة سيفنيا فى دلفى تبين صراع أبولو وهرقل طلبا للمرجل ثلاثى القوائم فى أواسط القرن السادس ق٠م بمعبد دلفى ٠



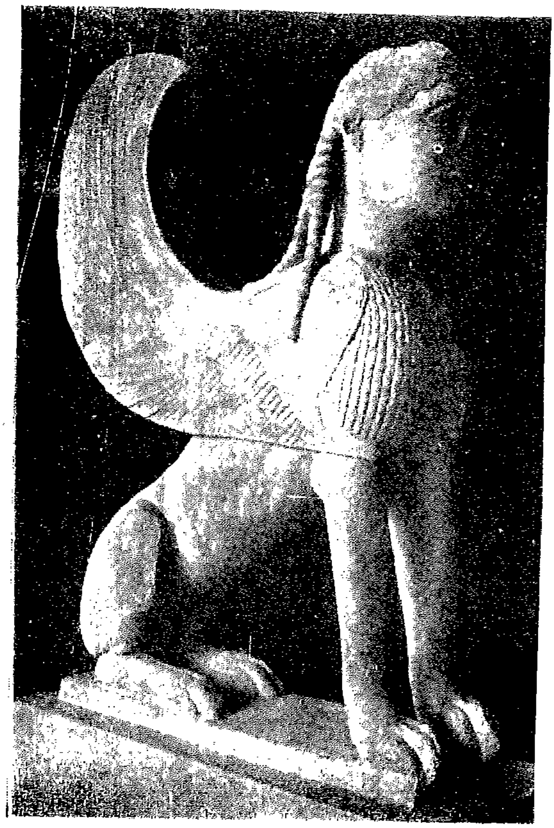
٣ ـ قلعة أثينا كما ترى من جهة الغرب ٠



٤ ـ صورة دلفى وفى مقدمتها معبد أبوللو ـ وقد أعيد بناؤه ما بين عام ٣٧٠ ،
٣٣٠ ق٠م فوق موقع المعبد السابق الذى بنى بعد عام ٥٤٨ ق٠م واستكمل فى عام
٥٠٥ ق٠م على يد أسرة الكميونيد من أثينا ٠



٥ ـ تمثال من الرخام المستجلب من ميلوز
فى الربع الثانى من القرن السادس ق٠م ٠
أضخم من الحجم الطبيعى بالمتحف القومى بأثينا ٠



٦ ـ ابو الهول من الرخام فى أعلى احد الأعمدة ـ وهو عمل من ناكسيا ـ فى حوالى
٥٧٥ ـ ٥٦٠ ق٠م بمتحف دلفى ٠



٧ ـ رجل من الرخام يحمل العجل مسكوفورس المهداة الى مهرجان اكروبوليس ـ فى منتصف القرن السادس ق.م بالحجم الطبيعى فى متحف اكروبوليس . باثينا .



٨ ـ صورة لهيكل نسائي من الرخام « اكروبوليس ٦٧٩ » مع آثار باقية من تلوين الشعر والملبس ـ الربع الثالث من القرن السادس ق٠م ـ بالحجم الطبيعي بمتحف اكروبولس بأثينا ٠



٩ ـ رأس من الرخام لصبى اشقر فى حوالى ٤٨٠ ق٠م بمتحف اكروبوليس باثينا ٠



١٠ صورة لبؤة من الحجر الجيرى فى حوالى ٥٧٠ ـ ٥٤٠ ق٠م بالحجم الطبيعى بالقصر الملكى ، بكورفو ٠



١١ ـ صورة ذات ملامح مفصلة لوجه لبؤة



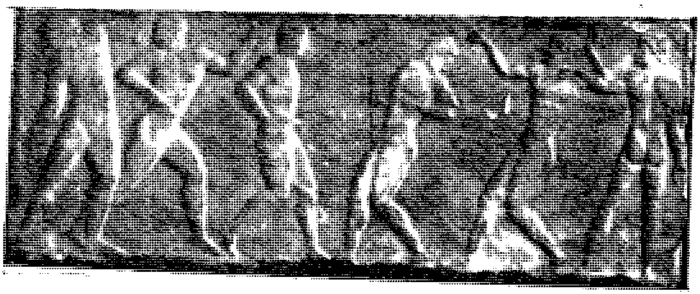
١٢ — تمثال من البرونز لزيوس أو (بوسيدون) خارجا من البحر عاريا ـ ولا نرى فى الجانب الأيمن ولا صاعقة ـ فى حوالى ٤٧٠ ـ ٤٦٠ ق٠م ـ أكبر من الحجم الطبيعى بالمتحف القومى بأثينا ٠



١٣ ـ صورة لسائق برونزى لركبة ، جزء من مجموعة المركبات المتجهة الى البيت الملكى بسيراكوز لأسرة دفيومنيز فى حوالى ٤٧٠ ق٠م بالحجم الطبيعى بمتحف دلفى ٠



١٤ ـ رسوم بارزة من الرخام على قاعدة تمثال لشباب معهم كلب وهرة فى حوالى ٥١٠ ـ ٥٠٠ ق.م بالمتحف القومى بأثينا .



١٥ ـ صورة لشباب يلعب بالكرة على جانب آخر من قاعدة التمثال نفسه .



١٦ ـ صورة لرسوم بارزة من الرخام لشباب يلعب الهوكى فى حوالى ٥١٠ ـ ٥٠٠ ق.م بالمتحف القومى بأثينا .



١٧ ـ صورة لآلهات خارجة من البحر أو مرغمة على النزول اليه من فوق الظهر الرخامى لعرش لودوفيزى فى صقلية أو جنوب ايطـاليا فى حوالى ٤٧٠ ق٠م بالمتحف القـومى بروما ٠



١٨ ـ رسم بارز من الرخام المخطط باللون الأزرق لأسد يهاجم ثورا فى حوالى ٤٦٠ ـ ٤٥٠ ق٠م بمتحف اللوفر بباريس ٠



١٩ ـ رسم بارز من الرخام أورفيوس ويوريديس وهرميس وهو نسخة متأخرة لعمل في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد بالمتحف القومي بنابلي .



٢٠ ـ صورة الميتوب الحجرى لبرسيوس ـ وهو يقطع رأس مديوسا من المعبد الكائن بسيليتوس فى حوالى ٥٥٠ ـ ٥٤٠ ق٠م بمتحف بالرمو ٠



٢١ ـ صورة الميتوب الجيرى لإرتل والسيركوبات من المعبد الكائن بسيلينوس فى حوالى ٥٥٠ ـ ٥٤٠ ق٠م بمتحف بالرمو ٠



٢٢ ــ صورة لميتوب رخامي من معبد زيوس في أولمبيا • نرى هرقل يرفع السماء بينما تساعده الآلهة أثينا ويقدم اليه أطلس التفاحات الذهبيات • في حوالي ٤٦٠ ق•م بمتحف أولمبيا •



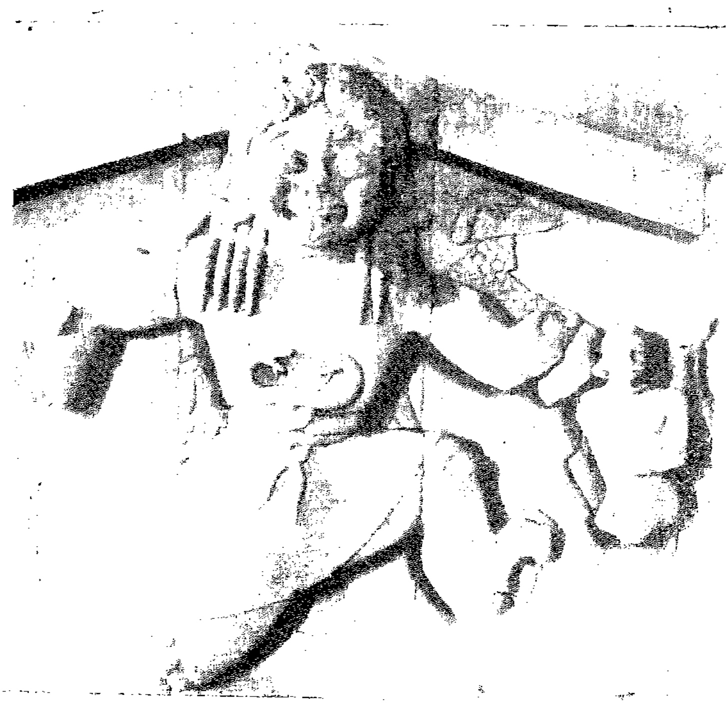
٢٣ ـ صورة لميتوب من الرخام لهرقل وهو يقهر الثور الكريتى مأخوذ من معبد زيوس بأولمبيا ـ فى حوالى ٤٦٠ ق٠م وموجودة بمتحف اللوفر بباريس ٠



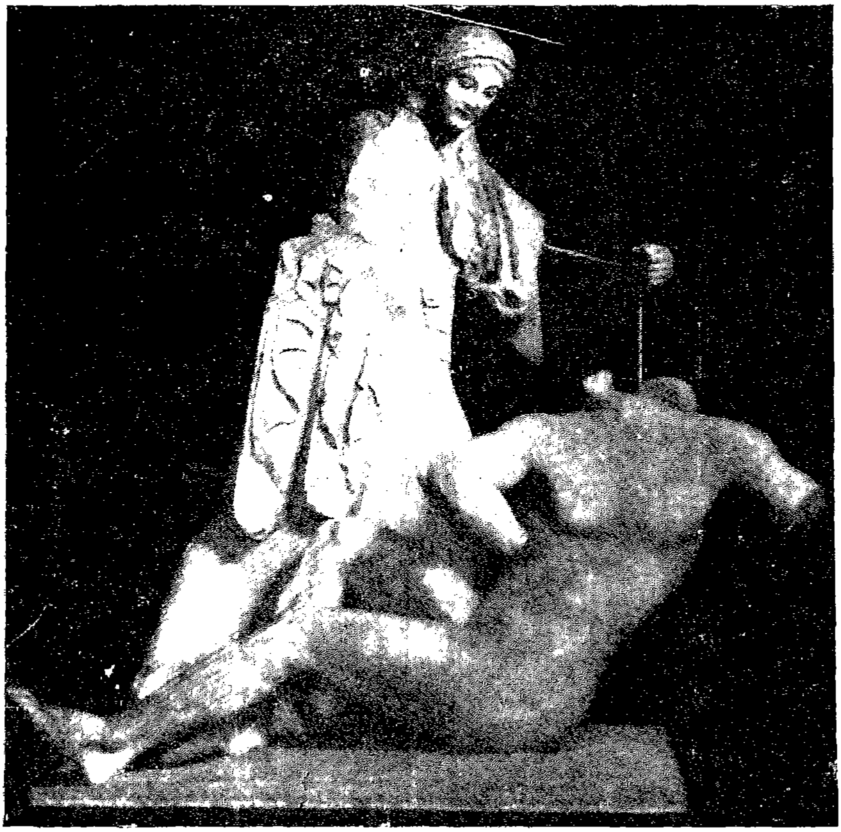
٢٤ ـ رسم بارز من البرونز على مرجـــل بليروفون فوق الجـــواد الأعظم المجنح بيجاسوس ـ فى الربع الثالث من القرن السادس · ضمن مجموعة جيمس لوب بمتحف ميونيخ للآثار ·



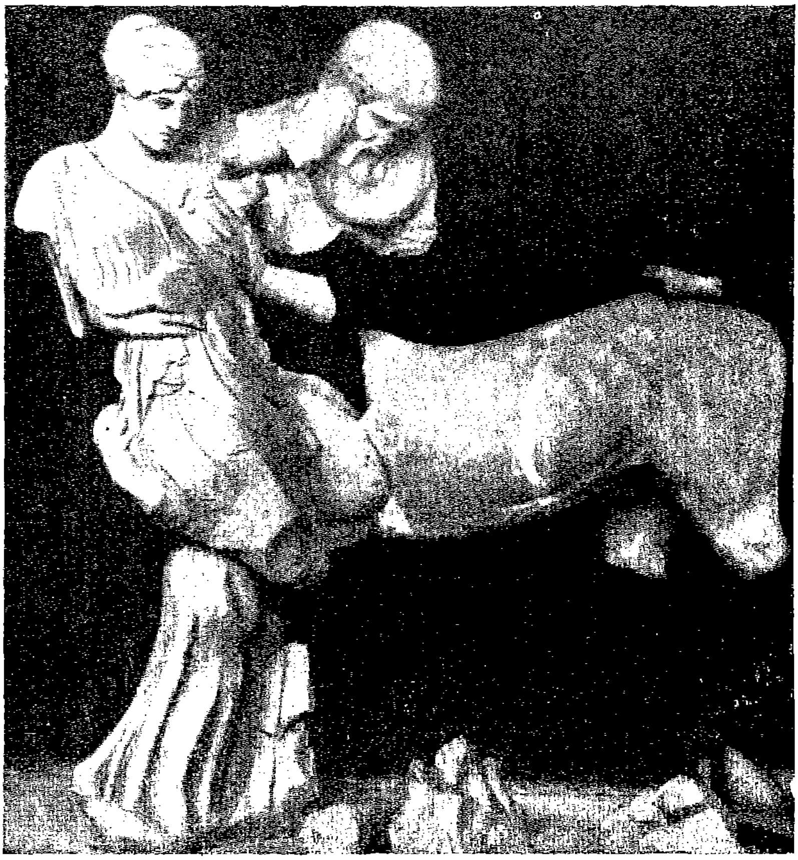
٢٥ ـ صورة لميتوب من الحجر الجيرى لأرتميس وهى تقتل أكتيون من معبده بسيلنوس ـ فى حوالى الربع الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد بمتحف بالرمو ·



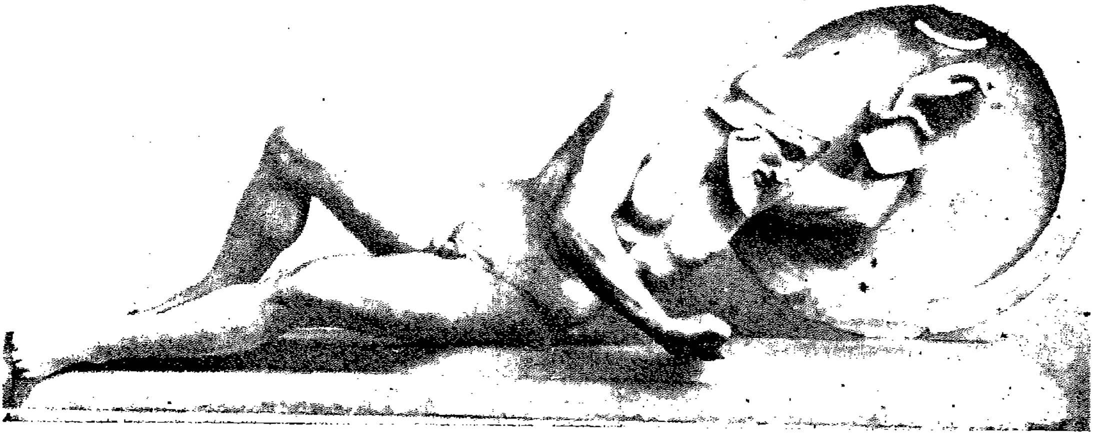
٢٦ ـ صورة لعملاق من الرخام من قوصرة معبد أرتميس فى كورفو (كورسيرا) ٠
أكبر من الحجم الطبيعى ـ فى أوائل القرن السادس قبل الميلاد ٠



٢٧ ـ صورة من الرخام للالهة أثينا ـ وهى تقتل عملاقا من قوصرة هيكاتومبيدون فى أثينا ـ فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد • أكبر من الحجم الطبيعى بمتحف اكروبولس بأثينا •



٢٨ ـ صورة لامراة تصارع قنطورا من القوصرة الغربية لمعبد زيوس فى أولمبيا ـ فى حوالى ٤٦٠ ق٠م ـ اكبر من الحجم الطبيعى بمتحف أولمبيا ٠



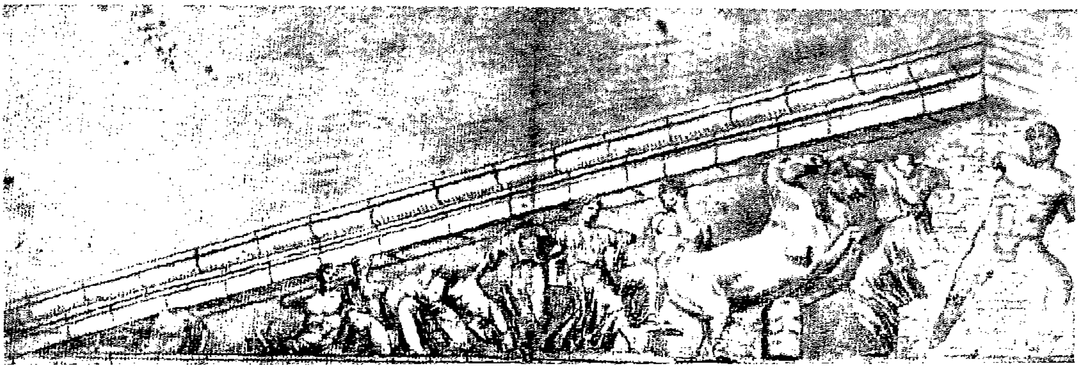
٢٩ ـ صورة من الرخام لمحارب مضطجع ـ مستردة من القوصرة الشرقية لمعبد أثينا الواقع على بحر ايجيتا ـ في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد بالحجم الطبيعي ـ بمتحف ميونيخ ٠



٣٠ ـ صورة لهيكل لابيت منبطحا على الارض من القوصرة الغربية لمعبد زيوس بأولمبيا ـ في حوالى ٤٦٠ ق٠م ـ أكبر من الحجم الطبيعي بمتحف أولمبيا ٠



٣١ ـ صورة للاله ابولو من الرخام وهى تمثال فى وسط القوصرة الغربيه بمعبد زيوس فى أولمبيا ـ فى حوالى ٤٦٠ ق٠م أكبر من الحجم الطبيعى بمتحف أولمبيا

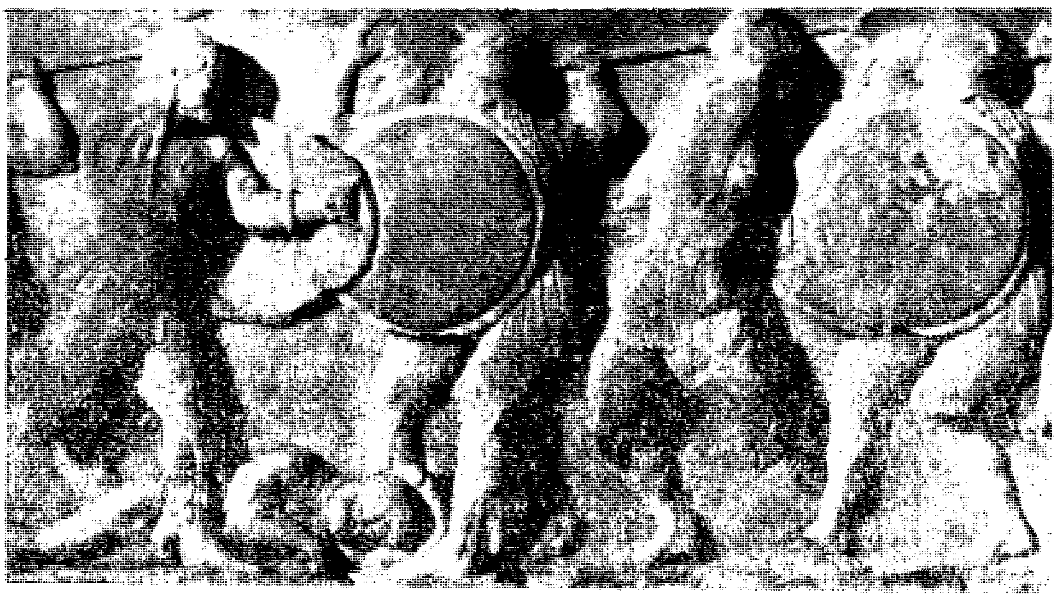




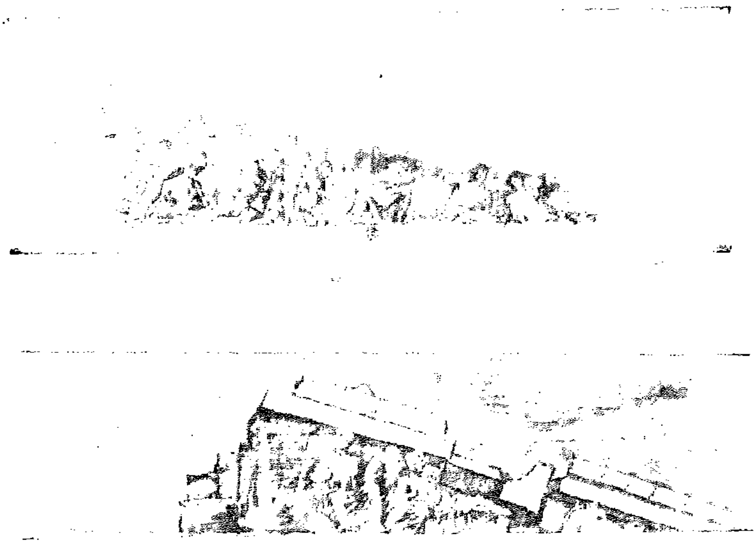
٣٢ ، ٣٣ صورة لرسومات أربعة لمعبد بارثينون قام برسمها الرسام الفلمنكى كارى في ١٦٧٤ بعد الميلاد قبل انفجار عام ١٦٨٧ . الرسمان العلويان للقوصرة الغربية ـ ويكشفان عن صراع أثينا وصراع بوسيدون .

والرسمان السفليان للقوصرة الشرقية ويبينان مولد أثينا .



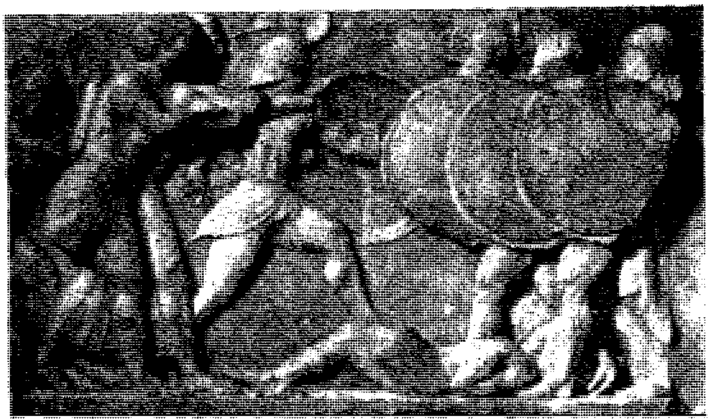


٣٤ ، ٣٥ ـ صورة طنف من الرخام لمعركة الآلهة والعمالقة من خزانة (سفنتا)
بدلفي ـ في منتصف القرن السادس قبل الميلاد ـ أصغر من الحجم الطبيعي بمتحف دلفى ٠





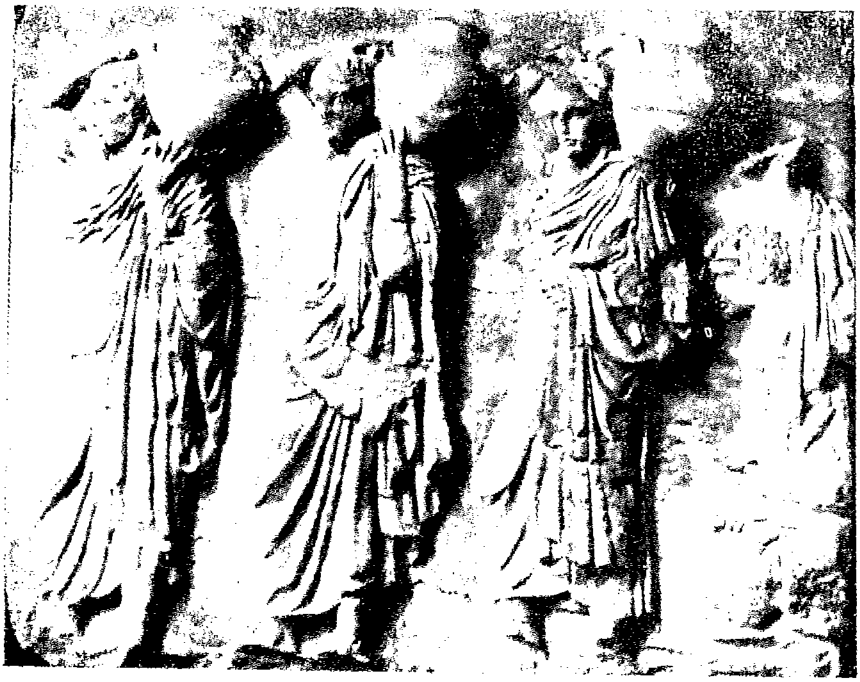
٣٦ ـ صورة لالهه جالسة على طنف من الرخوم من معبد بارثينون في اثينا ـ في حوالي ٤٤٧ ـ ٤٣٢ ق٠م بمتحف اكروبولس باثينا ٠







٣٧ ـ صورة لشباب على ظهور الخيل على طنف من الرخام من معبد بارثينون ـ فى حوالى ٤٤٧ ـ ٤٣٢ ق٠م بمتحف اكروبولس بأثينا ٠



٣٨ ـ صورة لمجموعة من السقاة من نفس المعبد بمتحف اكروبولس بأثينا ٠



٣٩ ـ صورة شـــاهد من الرخام لآريسيتون رسمها ارسطوقليس فى حوالى ٥١٠ ق٠م بالمتحف القـــومى بأثينا ٠



٤٠ ـ صورة شاهد من الرخـام لشاب بصحبته فتاة صغيرة ـ فى حوالى ٥٥٠ ـ ٥٣٠ ق٠م بمتحف متروبوليتان بنيويورك ٠



٤١ ـ صورة شاهد من الرخام لمحارب في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد بالمتحف القومي بأثينا .



٤٢ ـ صورة شاهد من الرخام لشيخ يقـدم أزيزا الى كلب • رسمها الكسينور من أرخومينوس ـ في أوائل القرن الخامس قبل الميـلاد بالمتحف القومى بأثينا •



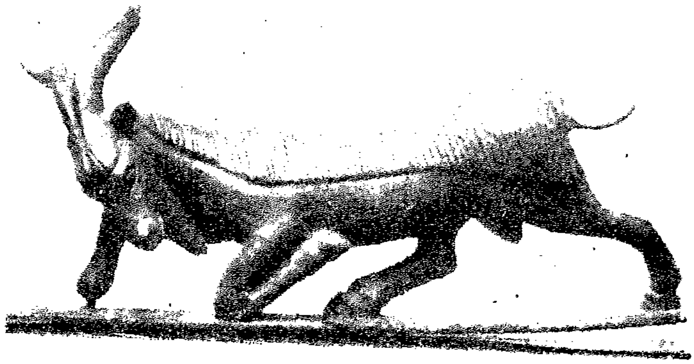
٤٣ ـ صورة شاهد من الرخام لفتاة تمسك بحمـامات ـ فى حوالى ٤٦٠ ـ ٤٥٠ ق٠م بمتحف متروبوليتان للفن بنيويورك •



٤٤ - صورة شاهد من الرخام لهيجسو - في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد - بالمتحف القومي بأثينا .



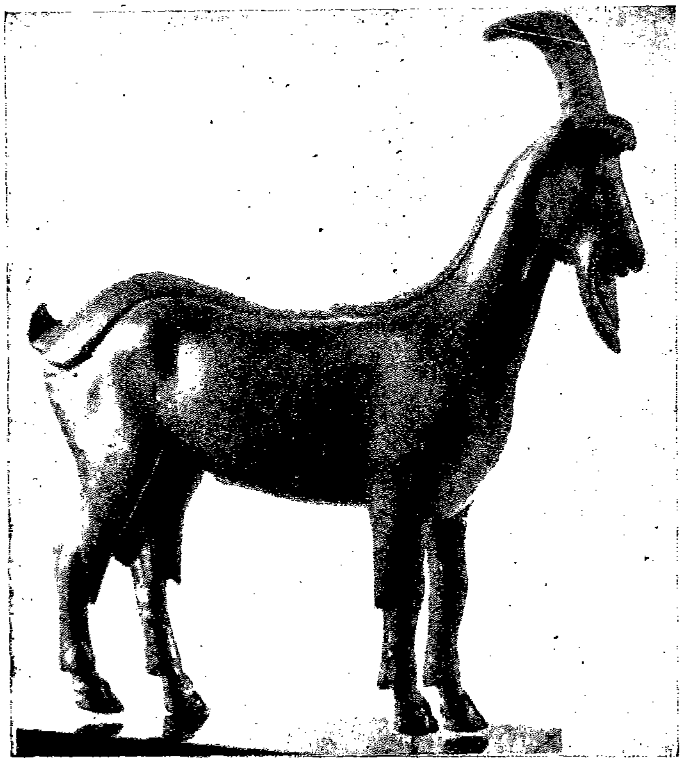
٤٥ ـ صورة تمثال صغير من البرونز لجواد ـ في حوالى ٤٨٠ ـ ٤٧٠ ق٠م بمتحف متروبوليتان بنيويورك ٠



٤٦ ـ صورة تمثال صغير من البرونز لماعز مرتكزة على أربع من معبد دودونا ـ فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد بمتحف الفنون ببرلين •



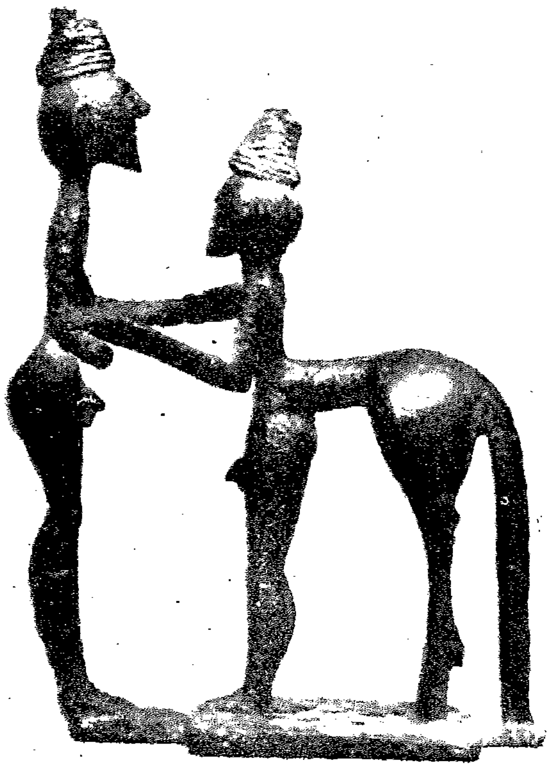
٤٧ ـ صورة تمثال صغير لماعز مستريحا على الأرض ـ فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد بالمتحف البريطانى بلندن •



٤٨ ـ صورة تمثال صغير من البرونز لماعز واقفا ـ فى حوالى ٤٦٠ ـ ٤٥٠ ق٠م ـ بمتحف الفنون الجميلة ببوسطن ٠



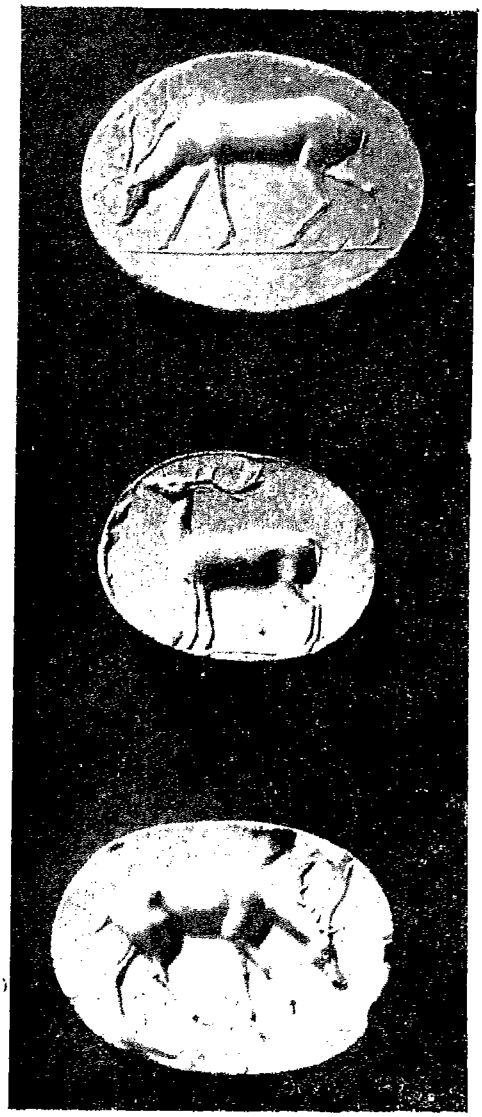
٤٩ ــ تمثال صغير من البرونز لوعل من سيباريس ــ فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد بمتحف اللوفر بباريس ٠



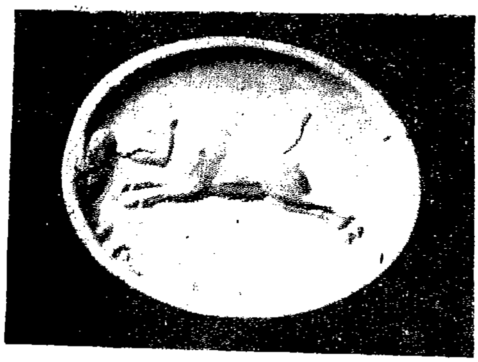
٥٠ ـ صورة تمثال صغير من البرونز لرجل وقنطور ـ فى حوالى القرن الثامن قبل الميلاد بمتحف متروبوليتان بنيويورك .



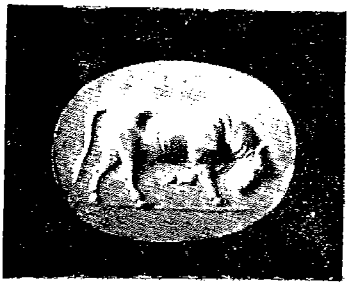
٥١ ـ صورة طائر البلشون وهو يطير ـ منحوتة على حجر العقيق الأبيض نحتها دكساميتوس من خيوس ـ مكبرة ـ فى النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد بمتحف التراث بلينينجراد .



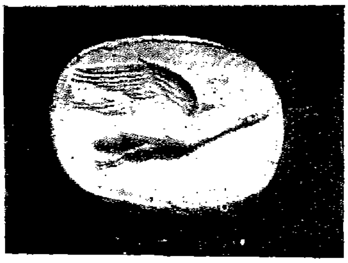
٥٢ ـ صورة وعل يرعى ويمشى ـ منحوتة على عقيق احمر برتقالى ـ فى اواخر القرن الخامس قبل الميلاد ـــ ٥٠ر٢٢ م٠م طولا وهى ضعفا الحجم الفعلى على وجه التقريب بمتحف الفنون الجميلة ببوسطن ٠



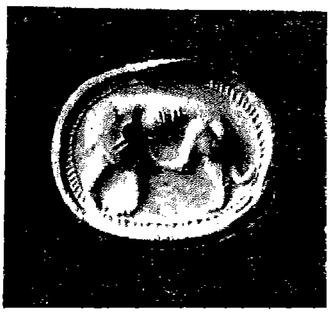
٥٣ ـ صورة خنزير يجرى منحوتة على حجر العقيق الأبيض ٠ وفى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ـ ٢٧ م٠م طولا وهى ضعفا الحجم الفعلى على وجـه التقـريب بمتحف متروبوليتـان بنيويورك ٠



٥٤ ـ صورة ثور غاطس منحوتة على حجر العقيق الأبيض ـ فى حوالى ٤٠٠ ق٠م ـ ٢٣ م٠م تزيد مرة ونصـــف على الحجم الطبيعى بمتحف الفنون الجميلة ببوسطن ٠



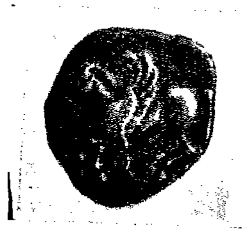
٥٥ ـ صورة اوزة تطير منحوتة على حجر من العقيق فى النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد ـ ضعفا الحجم الفعلى على وجـــه التقريب بالمتحف البريطانى بلندن ٠



٥٦ ـ صورة كلب يحك جلده ـ منحـوتة على حجر من العقيق الأحمر فى حوالى ٤٧٥ ـ ٤٥٠ ق٠م ـ ١٢ م٠م طولا ـ ضعفا الحجم الفعلى على وجه التقريب ـ بمتحف الفنـــون الجميلة ببوسطن ٠



٥٧ ـ صورة دلفين منحوتة على حجر العقيق الأبيض ـ فى النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد ـ ٣٥ م٠م طولا ـ مكبرة قليلا ـ بمتحف الفنون الجميلة ببوسطن ٠



٥٨ ـ صـــورة الجواد المجنح على عملة من عملات كورنث ـ فى حوالى القرن الســـادس قبل الميلاد بالحجم الفعلى بالمتحف البريطـانى بلندن ٠



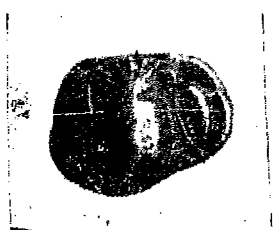
٥٩ ـ صورة اخطبوط على عملة من عمـلات أرتيريا ـ فى حوالى ٥١١ ـ ٤٩٠ ق٠م ـ بالحجم الفعلى بالمتحف البريطانى بلندن ٠



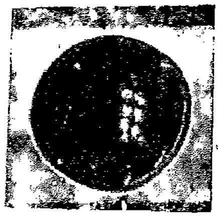
٦٠ ـ صورة برج السرطان على عملة من عملات اكراجاس فى الربع الثانى من القرن الخامس قبل الميـــلاد بالحجم الفعلى بالمتحف البريطانى بلندن ٠



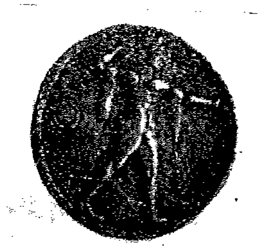
٦١ ـ صورة رأس حورية محاطة بالأسماك على عملة من عملات سيراكوز فيما بعد ٤٨٠ ق٠م بالحجم الفعـلى بالمتحف البريطـــانى بلندن ٠



٦٢ ـ صورة لسيدج على عملة من عملات كوريسيا ـ فى نهاية القرن السادس قبـــل الميلاد ـ بالحجم الطبيعى بالمتحف البريطانى بلندن ٠



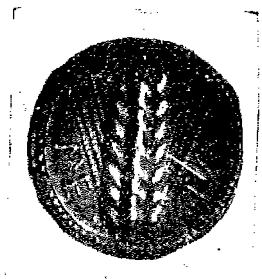
٦٣ ـ صورة سلحفاة مائية على عملة من عملات ايجنيا ـ فى حوالى ٤٠٤ ـ ٣٧٥ ق٠م ـ بالحجم الطبيعى ـ بالمتحف البريطـــانى بلندن ٠



٦٤ ـ صورة الاله بوسيدون ممسكا ارمح ذي ثلاث شعب على عملة من عملات بوسيدونيا ـ بالحجم الفعلى ـ فى القرن السادس قبـل الميلاد ـ بالمتحف البريطاني بلندن ٠



٦٥ ـ صورة ثور على عملة من عمـــلات سيباريس ـ فى القرن السادس قبل الميـــلاد بالحجم الفعلى ـ بالمتحف البريطانى بلندن ٠



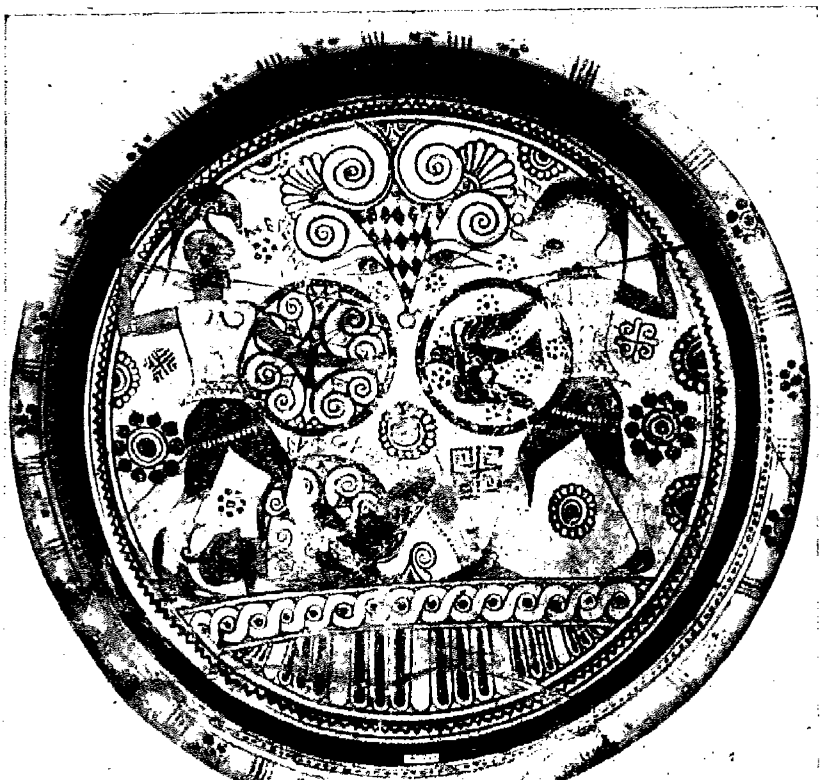
٦٦ ـ صورة لسنبلة من القمح على عمـلة من عملات ميتابونتوم ـ فى حوالى ٥٠٠ ق٠م بالحجم الفعلى ـ بالمتحف البريطانى بلندن ٠



٦٧ ـ صورة كأس كبير من البرونز ـ قد يكون من أصل بلوبونيزى فى القرن السادس قبل الميلاد بمتحف شاتيلون بفرنسا .



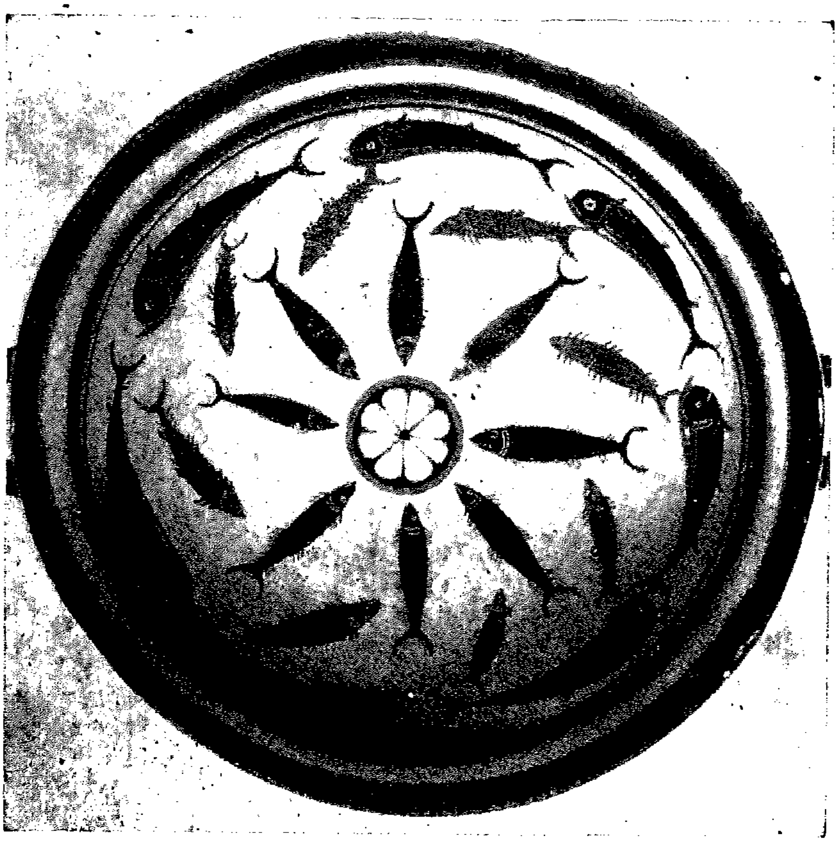
٦٨ ـ صورة لمشهد جنائزى على قارورة هندسية كبيرة فى القرن التاسع والقرن الثامن قبل الميلاد بأثينا .



٦٩ ـ صورة محاربين يتصارعان على جثة على لوح من المعدن الوردى ـ فى القرن السابع قبل الميلاد بالمتحف البريطانى بلندن .



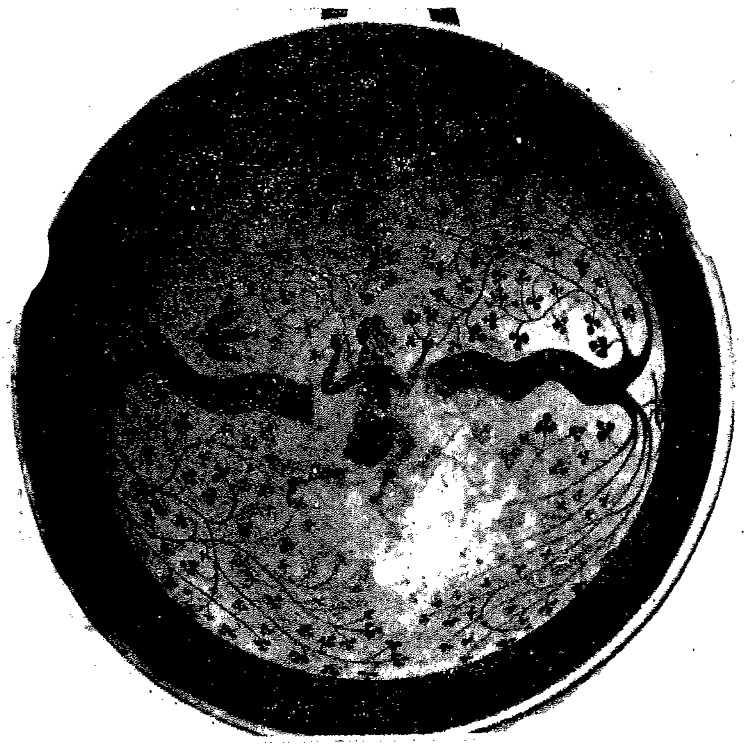
٧٠ ـ صورة جنود تحمل جثمان على لوح لاكونين ـ فى الربع الثالث من القرن السادس قبل الميلاد ـ بمتحف الآثار ببرلين .



٧١ – صورة لمجموعة من الأسماك فى سلطانية لاكونية – فى أواخر القرن السابع
قبل الميلاد – بالمتحف القومى بتيرانتو .



٧٢ ـ صورة بريام وهرمس وهما يقودان هيرا وأثينا وافروديت الى باريس مرسومة على قارورة سوداء ـ فى النصف الثانى من القرن السادس قبل الميلاد ـ بمتحف الآثار بميونخ ٠



٧٣ ـ صورة طائر يأوى الى عشه فى شجرة ـ مرسوما على سلطانية أيونية أثينية ـ فى أوائل القرن السادس قبل الميلاد بمتحف اللوفر بباريس ٠



٧٤ ـ صورة ديونيسوس فى سفينة ـ مرسوما على كأس بريشة اكسكياس فى الربع الثالث من القرن السادس قبل الميلاد بمتحف الآثار بميونخ .



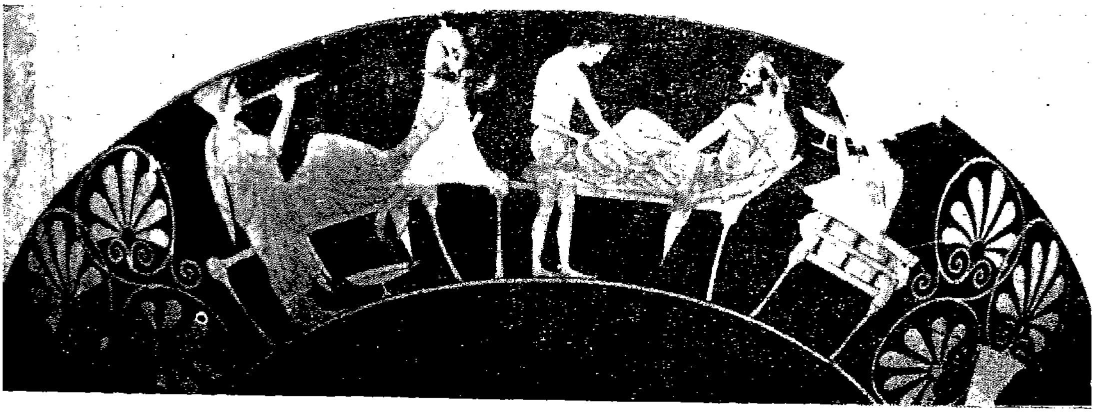
٧٥ ـ صورة مجموعة من الشباب تنصت الى عازف قيثار على قارورة بريشة رسام من اندوسيدس ـ فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد بمتحف اللوفر بباريس .



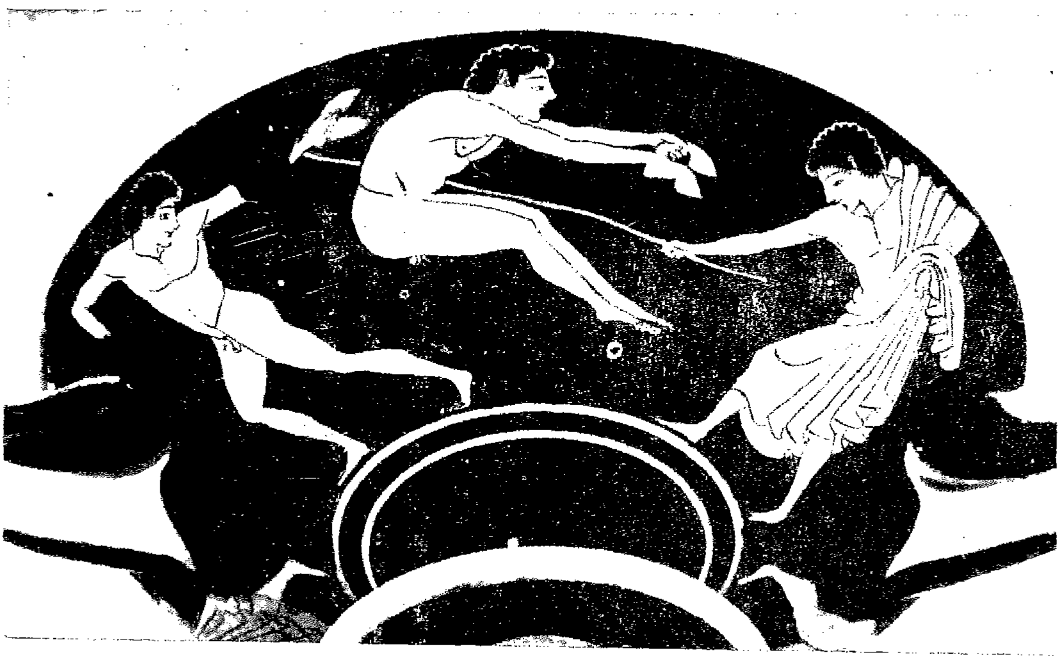
٧٦ ـ صورة رجل يشد جيادا ـ مرسومة على كأس بريشة أبيكتيتوس فى نهـــاية القرن السادس قبل الميلاد بمتحف الآثار ببرلين ٠



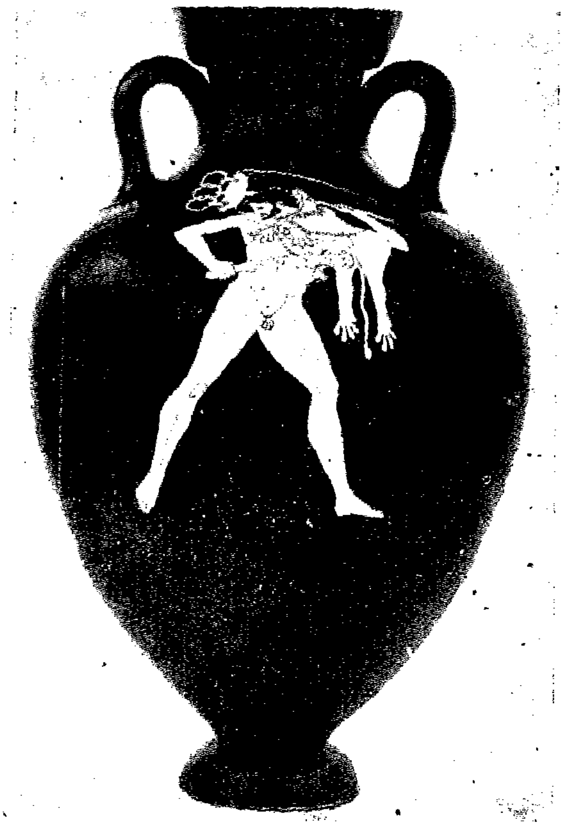
٧٧ ـ صورة شاب على صهوة جواد مرسومة على زهرية سوداء اثينية فى اواخر القرن السادس قبل الميلاد بالمتحف البريطانى بلندن ٠



٧٨ ـ صورة لندماء فى حفل شراب ـ مرسومة على كأس بريشة ابيكتتوس ـ فى نهاية القرن السادس قبل الميلاد بالمتحف البريطانى بلندن .



٧٩ ـ صورة شباب يثبون مرسومة على كأس بيد رسام من بناتيوس ـ فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد بمتحف الفنون الجميلة ببوسطن .



٨٠ ـ صورة هرقل يحمل «رجل دلفى مرسوما على قارورة بريشة رسام من برلين ـ فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد بمتحف الجامعة بورزبورج .



٨١ ـ صورة شاب وفتاة على سلطانية ـ بيد رسام من بريجوس فى حوالى ٥٠٠ ق٠م بمتحف الجامعة بورزبورج ٠



٨٢ - صورة الالهة داون تحمل جثمان ممنون مرسومة على شكل كأس بريشة ديوريس - فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد بمتحف اللوفر بباريس .



٨٣ ـ صورة أرتميس تقتل أكتيون مصورة على باطية بريشة رسام
يونانى ـ فى حوالى ٤٧٠ ق٠م بمتحف الفنون الجميلة ببوسطن ٠



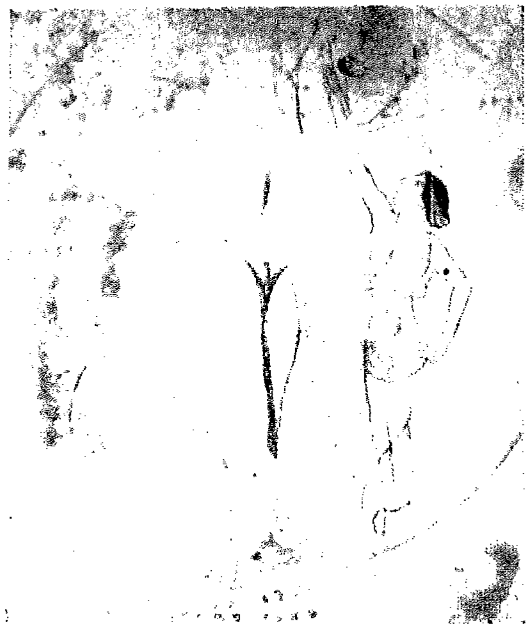
٨٤ ـ صورة هرقل وبوسيريس على باطية بريشية رسام يونانى ـ
فى حوالى ٤٧٠ ق٠م بالمتحف القومى بأثينا ٠



٨٥ ـ صورة افروديت تمتطى بجعة على كأس ـ بريشة بيستكستوس فى حوالى ٤٦٠ ق.م بالمتحف البريطانى بلندن .



٩٦ ـ صورة أخيليس يقتل رجلا من بنثيليا ـ على كأس بريشة رسام بنثيلى ـ بمتحف الآثار بميونيخ .



٨٧ ـ صورة فتاة تقطف تفاحات على كأس يونانى أبيض بريشة رسام من سوتادس ـ فى حوالى ٤٦٠ ق٠م ـ بالمتحف البريطانى بلندن ٠



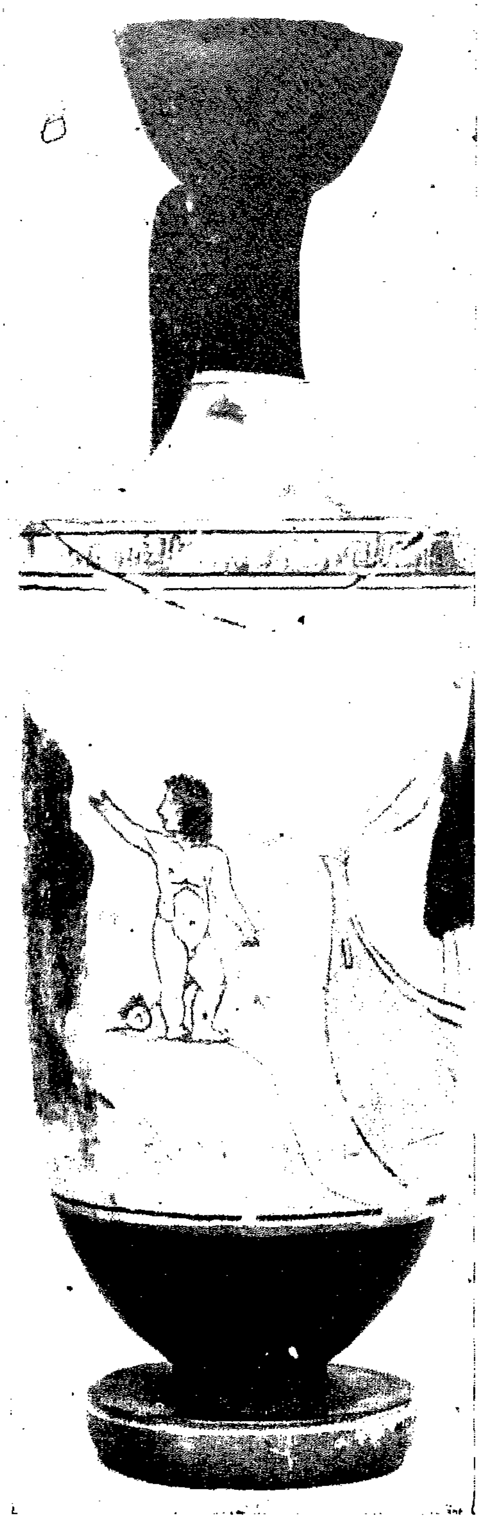
٨٨ ـ صورة محارب وامراة جالسة ـ مرسومة على شاهد من أرتيريا ـ
في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد بالمتحف القومي بأثينا .



٨٩ ـ صورة فتاة تعزف على قيثـــارة ـ مرسومة على شاهد يونانى ـ فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد ـ المجموعة الخاصة بمتحف ميونخ ٠



٩١ ـ صورة محارب جالس عند مقبرة وفى رفقته رجل وامرأة مرسومة على نصب يونانى ـ فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد بالمتحف القومى بأثينا .



٩٠ ـ صوره صبى يمسـك بعربة لعبة مرسومة على نصب يونانى ـ فى أواخر القرن الخامس قبل الميـلاد ـ بمتحف متروبوليتان بنيويورك ٠



٩٢ ـ صورة بتفاصيل الملامح .

الفهرس